القلوب وآفاتها

تأليف

صلاح الدين علي عبد الموجود

دار ابن الجوزي

القلوب وآفاتها

حقوق الطبع محفوظة لدار ابن الجوزي

الطبعة الثانية

١٤٣١هـ

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٣١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ - الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - **الرياض** - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ **الإحساء** - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - **جدة** - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - **بيروت** - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - **القاهرة** - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

البريد الإلكتروني: **aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com**

القلوب وآفاتها

تأليف

صلاح الدين علي عبد الموجود

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخيرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ.

وَبَعْدُ:

فَإِنَّ المتأملَ لحالِ المسْلِمِينَ اليومَ يَرى عَظِيمَ الاختلافِ بَيْنَ وَاقِعِهم وَواقعِ الأمَّةِ فِي صَدارتِها، فَإِنَّ الأُمَّةَ كانتْ مُنَعَّمَةً بلذَّةِ القُرْبِ مِنْ اللهِ تَعالَى وَالشَّوْقِ إلى لِقَائِه، وَلذَّةِ العَمَلِ لَهُ، مَعَ الإعراضِ عَنْ كُلِّ عَرَضٍ مِنْ الدُّنيا يكونُ سَبَبًا في تعطُّلِ سيرِها إِلَيْهِ، بينما نَرى الآن أَنَّ مَنْ عَمِلَ للهِ يومًا تَعَطَّلَ أيامًا، وَمَنْ جَدَّ ساعةً تَباطَأَ ساعاتٍ، وَأَصْبَحَ الغَالِبُ على أبناءِ الأمَّةِ استعجالَ الثَّمَرَةِ قَبْلَ نضوجِها؛ سواء في نفسِه أَوْ لغيرِه، وَذلك بِسببِ جهلِ الكثيرِ عَنْ

مَنْهج النَّبيِّ ﷺ وَالْإعْراضِ عَنْ سُننِ اللهِ ﷻ في استقامةِ العبدِ وَسيره إِلَيْهِ، فَإِنَّ اللهَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ جميعًا لتوحيده ـ فَهو أَوَّلُ دَعْوةِ الرُّسُلِ ـ وَاجتمعتْ دعوتُهم في تحديدِ مسارِ العبادِ إلى ربِّ العبادِ، قَالَ تَعالَى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣].

فَمَنْ أرادَ أَنْ يسيرَ إِلَى اللهِ تَعالَى من غيرِ طَريقِ رُسلِه هَلَكَ، وَقدْ خَتَمَ الله ﷻ الرِّسَالاتِ برسالةِ نبينا محمدٍ ﷺ، وَأَمَرَ الأُمَمَ جميعًا باتباعِه، فقَالَ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وَقَالَ تَعالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور: ٥٤].

ولما كانَ القَلْبُ هُو المخاطَبَ، وَهو المطَالبَ وَهُو السَّعيدَ وَهُو الشَّقِيَّ، فلا سَعادةَ للعبدِ وَلا لذَّةَ وَلا قُرْبَ من ربه وَلا مناجاةَ إلا بِصَلاحِ قلبه، فهو نجاته في الدُّنيا وَالآخرة، قَالَ تَعالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

وهو شقاؤُه في الدُّنيا وَالآخرةِ، قَالَ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

لذلك كانَ العِلمُ بالقَلْبِ وَأَحْوالِه وَما يعتريه من تقلُّبٍ وَتغيُّرٍ في أرجائِه من أهمِّ المطالبِ؛ التي يجبُ على المسلمِ أَنْ يُراعِيها وَيتفقَّدها مِنْ نَفْسِه، فلا خيرَ في الدُّنيَا وَالآخرةِ للعبدِ إلا بصلاحِ قلبِه.

وقد ذكرتُ هنا القلبَ وَما يتعلقُ بهِ مِنْ آفاتٍ، وَذكرتُ طرفًا مِنْها،

وَبينتُ العلاجَ مِنْ كتابِ اللهِ ـ تَبارَكَ وَتَعَالَى ـ وَسنةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَذكرتُ أقوالَ أَهْلِ العِلم ممن لهم اهتمامٌ وَعنايةٌ بالقلوبِ وَآفاتِها، وَلولا قِلَّةُ الدَّاخِلينَ في هذا البابِ ما دخلتُه؛ وَذلك لِعلمي بحالِ قلبِي وَضعفِ عَزْمِي، وَلا أقولُ هذا دفعًا للرِّياءِ وَغيرِه، وَلكنَّها حَقيقةُ أَمْرِي، فتطفلتُ عَلَى مَوائدِ مَنْ قَبْلِي فرأيتَ شتاتًا مما يتعلقُ بالقلبِ، فجمعتُه وَهذبتُه راجيًا من اللهِ ﷻ صلاحَ قلبِي وَقلوبِ المسلمينَ، اللهم آمين.

اعتذار: وَألتَمِسُ مِنك أَخِي عُذْرًا، فقد نقلت عَنْ بعض العلماء الذين تكلموا في القلوب وَإن تلبَّسُوا ببعضِ المخالفاتِ، أَوْ وَصل بهم الشَّطَطُ في بعضِ المعتقداتِ، وَلكني نقلتُ من أقوالِهم مَا وَافقَ الكتابَ وَالسُّنةَ؛ وَكَانَ عَلَيْهِ عُلَمَاؤُنا مِنْ أَهْلِ السُّنَةِ، وَربما أَجِدُ كلامًا قَدْ يَقَعُ فيه لبسٌ، أَوْ بعضُ غُموضٍ، أَوْ ربما يُفهمُ فهمًا منحرفًا؛ فأسوقه بوجهةٍ سلفيةٍ، وَأصُبَّه في قوالبَ سُنِّيةٍ، لِمَا أَرَى فِيهِ مِنْ الفوائدِ المرضيةِ.

كما أنبهُكَ أَنِّي قَدْ أَكْثَرْتُ مِنْ النقلِ عَنْ شيخَيِّ الإسلامِ ابن تيميةَ وَابن القيم ـ رحمهما الله تعالى ـ، فَقَدْ تَكَلَّمَا عَنْ القُلُوبِ وَأَدْوَائِها وَآفاتِها وَعلاجِها في أَغلبِ كتبِهما بما يُبهرُ العقولَ وَيستهوي القلوبَ؛ وَلكن ربما تحارُ فيه بعضُ الأفهامِ، فجمعتُ جملًا من المتفرقاتِ؛ التي قد يظنُها البعضُ مقطوعةَ الأوصالِ، فربطتها وَسهلت بينها سبل الاتصال، حتى تعمَّ الفائدةُ وَيحدثَ من وَراءِ ذلك القصدُ، فَإنْ وجدتَ أخي خللًا أو نقصًا فالتمسْ لي العذرَ؛ فَقَدْ قَالَ المُزَنيُّ ﵀: «لَوْ عُورضَ كتابٌ سَبْعينَ مرةً لَوُجِدَ فيه خَطَأ، أَبَى اللهُ أن يكون صَحِيحًا غَيْرُ كِتابِهِ». مِنْ مُقَدِّمَةِ «مُوضِّحُ أَوْهَامِ الجَمْعِ والتَّفْرِيقِ» للخطيب ـ وَاللهُ تَعَالَى المستعان.

✍ كتبه
صلاح الدين علي عبد الموجود
Salahmera@salahmera.com

مقدمة

الحمدُ للهِ الذي ظَهرَ لأوليائِه بنعوتِ جلالِه، وَأنارَ قُلوبَهم بمشاهدةِ صفاتِ كمالِه، وَتعرَّف إِلَيْهم بِمَا أَسْدَاهُ إِلَيْهِم مِنْ إِنْعَامِهِ وَإفضالِه؛ فَعَلِمُوا أَنَّهُ الواحدُ الأحدُ، الفردُ الصَّمدُ، الذي لا شريكَ له في ذاتِه وَلا في صِفاتِه وَلا في أفعالِه؛ بل هو كما وَصفَ به نَفْسَهُ وَفوقَ ما يصفُه بِهِ أحدٌ مِنْ خلقِه في إكثارِه وَإقلالِه، لا يحصي أحدٌ ثناءً عليه؛ بل هو كما أَثْنَى عَلَى نفسِه على لسانِ من أكرمَهم بإرسالِه.

فهو الأولُ الذي ليس قبلَه شيءٌ، وَالآخرُ الذي ليس بعدَه شيءٌ، وَالباطنُ الذي ليس دونَه شيءٌ، الحيُّ القيومُ، الواحدُ الأحدُ، الفردُ الصَّمدُ، المنفردُ بالبقاءِ وَكلُّ مخلوق منتهٍ إلى زوالٍ، السَّميعُ الذي يَسْمَعُ ضَجيجَ الأَصْوَاتِ باختلافِ اللُّغاتِ على تفننِ الحاجاتِ، فلا يشغلُهُ سمعٌ عَنْ سمعٍ، وَلا تغلطُه المسائلُ، وَلا يتبرمُ بإلحاحِ الملحينَ في سُؤالِه، البصيرُ الذي يرى دبيبَ النَّملةِ السَّوداءِ على الصَّخرةِ الصَّماءِ في الليلةِ الظَّلماءِ حيثُ كانتْ من سهلِهِ أَوْ جبالِهِ، وَألطفُ مِنْ ذَلِكَ رؤيتُه لتقلُّبِ قلبِ عبدِهِ وَمشاهدتهِ لاختلافِ أحوالِهِ، فَإِنْ أقبلَ إليه تلقَّاه، وَإنما إِقْبَالُ العبدِ عَلَيْهِ مِنْ إقبالِه، وَإِنْ أعرضَ عَنْهُ لَمْ يكلْه إلى عدوِّهِ، وَلَمْ يدعْه في إهمالِه، بل يكونُ أرحمَ به مِنْ الوالدةِ بولدِها الرفيقةِ به في حملِه وَرَضَاعِهِ وَفِصَالِهِ، فَإِنْ تابَ فهو أفرحُ بتوبتِه من الفاقدِ لراحلتِه التي عليها طعامُه وَشرابُه؛ في الأرضِ الدَّوية المهلكة إذا وَجدها وَقد تهيأ لموتِه وَانقطاعِ أوصالِه، وَإِنْ أَصرَّ على الإعراضِ وَلم يتعرضْ لأسبابِ الرحمةِ بل وَأصرَّ على العصيانِ في إدبارِه وَإقبالِه، وَصالح عدوَّ الله وَقاطع سيده، فَقَدْ استحقَ الهلاكَ، وَلا يهلكُ على الله إلا الشّقيُّ الهالكُ؛ لعظيمِ رحمتِه وَسعةِ إفضالِه.

وأَشْهَدُ أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ إلهًا وَاحدًا أحدًا فردًا صمدًا جلَّ عَنْ الأشباهِ وَالأمثالِ، وَتقدَّسَ عَنْ الأضدادِ وَالأندادِ وَالشّركاءِ وَالأشكالِ، لا مانع لما أعطى، وَلا معطيَ لما منعَ، وَلا رادَّ لحكمِه، وَلا معقِّبَ لأمرِه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾ [الرعد: ١١].

وأشهدُ أن محمدًا عبدُه وَرسُولُه القائمُ له بحقِّه، وَأمينُه على وَحيِه، وَخيرتُه من خلقِه، أرسلَه رحمةً للعالمينَ، وإمامًا للمتقينَ، وَحسْرةً على الكافرينَ، وَحُجةً على العبادِ أجمعينَ، بعثَهُ على حين فترةٍ من الرُّسلِ، فهدَى به إلى أقومِ الطُّرقِ وَأوضحِ السُّبلِ، وَافترضَ على العبادِ طاعَتَه وَمحبتَه وَتعظيمَه وَتوقيرَه وَالقيامَ بحقوقِه، وَسدَّ إلى جنتِه جميعَ الطُّرقِ فلم يفتحْ لأحدٍ إلا من طريقِه، فشرحَ له صدْرَه، وَوضعَ عَنْهُ وِزْرَهُ، وَرَفَعَ لَهُ ذِكْرَهُ، وَجَعَلَ الذُّل وَالصَّغار عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ، بَلَّغَ الرِّسالةَ، وَأدَّى الأمانةَ، وَنصحَ الأمةَ، وَجاهدَ في اللهِ حقَّ الجهادِ، وَأقامَ الدِّينَ، وَتركَ أمَّتَه على البيضاءِ الواضحةِ البينةِ للسالكينَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فشرفُ الإنسانِ وَفضيلَتُه التي فاقَ بها جملةً من أصْنافِ الخلقِ؛ استعدادُه لمعرفةِ اللهِ ﷻ التي هي في الدُّنيا جَمالُه وَكَمالُه وَفخْرُه؛ وَفي الآخرةِ عُدَّته وَذُخرُه، وَإِنَّما استعدَّ للمعرفةِ والعِلْمِ بقلبِهِ لا بجارحةٍ من جوارحِهِ، فالقلبُ هو العالِمُ باللهِ، وَهو المتقربُ إلى اللهِ، وَهو العاملُ للهِ، وَهو السَّاعِي إلى اللهِ، وَهو بنورِ اللهِ يستضيءُ، وَإنما الجوارحُ أتباعٌ وَخدمٌ وَآلاتٌ؛ يستخدمُها القلبُ وَيستعملُها استعمالَ المالكِ للعبدِ، وَاستخدامَ الرّاعي للرَّعِيّةِ، وَالصَّانعِ للآلةِ، فالقلبُ هو المقبولُ عِنْدَ اللهِ إِذَا سَلِمَ مِنْ غَيْرِ اللهِ، وَهو المحجوبُ عَنْ اللهِ إِذَا صَارَ مستغرقًا بغيرِ اللهِ، وَهو المطالبُ، وَهو المخاطبُ، وَهو المعاتبُ، وَهو الذي يسعدُ بالقُربِ من اللهِ، فيفلحُ إذا زَكَّاهُ، وَهو الذي يخيبُ وَيشقَى إذا دنَّسَه وَدسَّاه، وَهو المطيعُ بالحقيقةِ لله تَعالَى، وَإِنَّما الذي ينتشرُ على الجوارحِ من

العِبَاداتِ أنوارُه، وَهو العَاصِي المتمرِّدُ على اللهِ تعالى، وَإِنَّمَا السَّارِي إلى الأعضاءِ من الفواحشِ آثارُه، وَبإظلامِه وَاستنارتِه تظهرُ محاسنُ الظَّاهِرِ وَمساوِيه؛ إِذْ كُلُّ إِنَاءٍ ينضحُ بِمَا فِيْهِ، وَهو الذي إذا عرفَه الإنسانُ فقد عَرَفَ نفسَه، وَإِذَا عَرَفَ نفسَه فَقَدْ عَرَفَ رَبَّه، وَهو الذي إذا جَهِلَه الإنسانُ فَقَدْ جَهِلَ نَفْسَه، وَإِذَا جَهِلَ نَفْسَه فقد جَهِلَ رَبَّه، وَمن جَهِلَ قلبَه فهو بغيرِه أجهلُ، إذ أكثرُ الخلقِ جاهلونَ بقلوبِهم وَأنفسِهم؛ وَقد حِيلَ بينهم وَبين أنفسِهم، فَإِنَّ الله يحولُ بينَ المرءِ وَقلبِه، وَحيلولتُه بِأَنْ يمنعَه عَنْ مشاهدتِه وَمراقَبتِه، وَمعرفةِ صِفاته، وَكيفيةِ تقلبِه بين إصبعين من أَصابع الرحمن، وَأنه كيف يهوي مرةً إلى أسفلِ السَّافلينَ، وَينخفضُ إلى أُفقِ الشياطينِ، وَكيف يرتفعُ أُخرى إلى أعلى عليينَ، وَيرتقي إلى عالمِ الملائكةِ المقربينَ، وَمن لم يعرفْ قلبَه ليراقبَه وَيراعِيَه وَيترصدَ لما يلوحُ مِنْ خزائنِ الملكوتِ عليهِ وَفِيه فهو ممن قَالَ اللهُ تَعَالَى فيه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٩].

فمعرفةُ القلبِ وَحقيقةُ أوصافِه أصلُ الدِّينِ، وَأساسُ طريقِ السّالكينَ.

ومعرفةُ القلبِ وَأعمالُه جانبٌ عظيمٌ مِنْ جوانبِ الإيمانِ، غَفَلَ عنها كثيرٌ من النّاسِ، وَلا أَعْنِي بالغافلينَ أَهْلَ الزَّيغِ وَالضَّلالِ، وَلَكِنْ أعني الكثيرَ مِنْ أهلِ السُّنةِ وَالجماعةِ ممَّنْ سارَ على هدي السَّلفِ ﷺ، فَإِنَّ الغالبَ لا يُعطِي القَلْبَ حقَّه من تزكيةٍ وَمتابعةٍ وَعبادةٍ وَغيرِه(١).

فآفاتُ القلوبِ أصعبُ من آفاتِ الأبدانِ، لأنَّ غايةَ مَرضِ البدنِ أَنْ يُفْضِيَ بصاحبِهِ إلى الموتِ، وَأَمَّا مرضُ القلبِ فيفضِي بصَاحبِه إلى الشَّقاءِ الأبدِي، وَلا شِفاءَ لهذا المرضِ إلا بالعِلْمِ عن الله ﷻ، وَلهذا سمى الله تَعالَى كتابه شفاء لأمراضِ الصَّدور، قَالَ تَعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

---

(١) وقد ذكرت جملًا من عبادة القلوب في كتابي: «العبادة وَاجْتهاد السَّلف فيها»، فراجعها إن شئت من ص(٨١).

الحَدِيثُ عَنِ الْقَلْبِ

قَدْ يتعجّبُ البعضُ من إفرادِ كتابٍ عن القلوب؛ وقد جُمِعتْ أوصافُهُ وأحوالهُ في ثنايا الكُتبِ وبطونِ التفاسير!!.

والجوابُ عَنْ ذَلِكَ؛ أَنَّ تِلْكَ الأزمانَ صلحتْ أحوالُهم واستقامتْ قلوبُهم، وَكَانَ القلبُ موضعَ أنظارِهم، ومُلْتَقى أرواحِهم، فكانتْ كُلُّ جارحةٍ فيْهِمْ تترْجِمُ عَمَّا في قلوبِهم، فلمَّا استدارَ الزَّمانُ، وضعف الإيمانُ، وقلَّ الاهتمامُ عِنْدَ أَكْثَرِ النّاسِ بالقلوبِ، والانشغالُ بعملِ الجوارحِ؛ وأَصْبَحَ عِنْدَ الغالبِ هو المطلوبَ، فكانَ لابدَّ مِنْ إفصاحٍ وَبَيَانٍ، عَنْ حالِ القُلوبِ وتقلبِها بَيْنَ الكفرِ والإيمانِ؛ وبين الطَّاعةِ والعصيانِ، وَلا عَجَبَ أَنْ تَكُونَ عَلَى الطَّرِيقِ وَبِقَلْبِكَ مِنْ العِلَلِ وَالآفَاتِ مَا الله بهِ عَلِيم، فَانْتَبه لِذَلِك فَإِنَّهُ سِرُّ فَلاحِكَ وَنَجَاتِك في الدُّنْيا والآخِرَةِ.

وَلِذَلِك كَانَ للحديثِ عَنْ القلوبِ أَسْبَابٌ مِنْهَا:

أولًا: أَنَّ الله ﷻ أَمَرَ بتطهيرِ القلبِ، وَتنقيتِه، وَتزكيتِه، بَلْ جَعَلَ الله ﷻ مِنْ غاياتِ الرسالةِ المحمديةِ تزكيةَ النّاسِ، وَقدَّمَها على تعليمِهم الكتابَ وَالحكمة لأهميتِها، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

قَالَ ابنُ القيم رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدثر: ٤]: «جُمْهُورُ المفسرينَ مِنْ السلفِ وَمَنْ بعدَهم عَلَى أَنَّ المرادَ بالثيابِ هُنَا: القلبُ»(١).

---

(١) «رسالة أمراض القلوب» ص(٥٢).

ويقولُ ﷺ عَنِ اليهودِ وَالمنافقينَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾ [المائدة: ٤١].

ثانيًا: أثرُ هَذَا القلبِ في حياةِ الإنسانِ؛ فهو الموجهُ وَالمخطِّطُ، وَالأعضاءُ وَالجوارِحُ هِي المُنَفِّذ.

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»(١).

ثالثًا: غَفْلَةُ كثيرٍ من النّاسِ عَنْ قلوبِهم حتى دبَّتْ الغفلةُ عِنْدَ الخواصِّ، حتى أَنَّكَ ترى الكثيرَ مِن طلبةِ العلمِ وَالملتزمينَ يتوسعُ في الهديِ الظاهرِ؛ وَربما يبحثُ وَيَتَحَرَّى بعضَ الأعمالِ الدقيقةِ، وَيتفقهُ فيها فقهًا جيدًا كالقراءات العشر وإتقانها، وضبطها، ومعرفة القراءات الشاذّةِ وغيرِها؛ وَهَذَا لأهلِ التخصصِ هامٌّ وضروريّ، وَكَذَلِكَ البعضُ يجيدُ البحثَ في السننِ، وَقَدْ يَكُونُ على درجةٍ عاليةٍ مِنْ الإتقانِ: مِنْهَا مَثَلًا هَلْ تحريكُ الإصبعِ سنةٌ؟ وَهَلْ الروايةُ شاذةٌ أَمْ زيادةُ ثقةٍ؟. . . إلخ، ولا شك أن البحثَ فيها نافعٌ وَمُهِمٌ، وَلَكِنْ حِين يغفلُ عَنْ البحثِ فِي أَعْـمَالِ القلبِ وَأحوالِهِ، وَأدوائِهِ وَعِلَلِهِ، وَهذا أهمُّ وَأجلُّ؛ بَلْ وَبِهِ البدايةُ؛ تكُونُ العَقَبَاتُ التي يَصْعُبُ تَدَارُكَهَا مَعَ خُطُورَةِ المرضِ وعِظَمِ الآفة.

والذي ينظرُ لدعوةِ النبي ﷺ يَرَى أَنَّها بدأَتْ بالتزكيةِ والتربيةِ قَبْلَ نزولِ الشرائعِ والأحكامِ، وَقَدْ رَمَى النبي ﷺ بِهَذَا الجيلِ الذي رَبَّاهُ وَزَكَّاهُ بَيْنَ بطونِ

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٥٢)، مُسْلِمٌ (١٥٩٩).

الأنصارِ بعدَ الهجرةِ؛ فأنشأَ بهم خيرَ جيلٍ عرفتْهُ البشريةُ.

رابعًا: إنَّ كثيرًا مِنْ المشكلاتِ بَيْنَ النَّاس، وَبالأخصِّ بَيْنَ بَعْضِ طلبةِ العِلمِ وكثيرٍ مِنْ الملتزمينَ، سببُها أمراضٌ تَعْتَرِي القلوبَ، وَلا تُبنى عَلَى حقائقَ شرعيةٍ، فهذه المشكلاتُ تترجمُ أحوالَ قلوبِ أصحابِها، وَمَا فِيهَا مِنْ أمراضٍ مثل: الحسدِ، وَالغِل، وَالكِبر، وَالاحتقار، وَسوء الظن، ودعوى الصَّواب... إلخ، وَسبيلُ حلِّها الأمثلُ هو علاجُ هذه القلوبِ، وَإلا فالمرضُ سيظهرُ بَيْنَ حِينٍ وَآخرَ كُلَّمَا ظهرتْ دواعِيه.

خامسًا: إنَّ سلامةَ القلبِ وَخلوصَه مِنْ كلِّ مَا يعيقُه عَنْ اللهِ سببٌ لسعادةِ الدُّنْيَا وَالآخرةِ، فسلامةُ القلبِ من الشِّركِ والرّياءِ والبدعِ والغلِّ وَالحسدِ وَالبغضاءِ وَسائرِ الأدواءِ؛ سببٌ للسّعادةِ وَالطمأنينةِ في الدُّنْيَا وَالآخرةِ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

وَانْظُرْ إِلَى حَالِ أَبِي بكرٍ ﷺ وَغيرِه ممنْ رُزِقَ قلبًا سليمًا، خاليًا من الضغائنِ وَالعِلَلِ، كَيْفَ اسْتَطَاعَ أَنْ يسبقَ غيرَه إِلَى اللهِ تعالى، وَما استطاعَ أَنْ ينافسَه أحدٌ؛ رَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى منافسةِ أحدٍ.

فَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَمَرَنَا رَسُول اللهِ ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟»، قُلْتُ: مِثْلَهُ، قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكل مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُول اللهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟»، قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمْ اللهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا»(١).

وأهميةُ معرفةِ السَّيْرِ إِلَى اللهِ ﷻ، وَإصلاحِ القلبِ وَالمقاصدِ وَالأعمالِ؛

(١) حسن: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١٦٧٨)، وَالترمذي (٣٦٧٥)، وَالدارمي (١٦٦٠)، والحاكم «المستدرك» (١/ ٥٧٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مُسْلِم ولم يخرجاه، والبيهقي «السنن الكبرى» (٤/ ١٨٠).

وَتعليمِ النّاسِ ذلك، وَتنبيهِهم على مفسداتِ القلوبِ وَآفاتِها مِنْ أَعْظَمِ الأعمالِ التي يرجوها المسلمُ. فكما أنَّنا نشهدُ مَنْ يتخصّصُ فِي أنواعِ العلومِ كالحديثِ وَالفقهِ وَالتفسيرِ وَالنّحوِ وَالفرائضِ وَغيرِها، فيتقن هذه العلوم، وَيبلِّغها النّاسَ، فَنَحْنُ بحاجة إِلَى مَنْ يتقنُ الحديثَ عَنْ مقاماتِ القلبِ وَأحوالِه، وَأعمالِه، وَعللِه وَأدوائِه، فيعلمها النَّاس وَيصححُّ مقاصدهم وَنيَّاتِهم، وَلَيْسَ هَذَا دُونَ غيرِه مِنْ العلومِ الشرعيةِ، وَمما يدعو إلى الحزنِ وَالأَسَى أَنَّ أكثرَ الذينَ يتصدَّرونَ لمخاطبةِ القلوبِ في القديمِ وَالحديثِ غالبَهم عَلَى عَقَائِدَ منحرفةٍ وَبدعٍ مشتهرةٍ، يَجْرِفُونَ إليها القلوبَ وَيطبعون عليها النفوسَ.

فَهَذَا عمرو بن عبيد[1] الذي كان يُضربُ به المثلُ في الزُّهدِ وَالورعِ وَالعبادةِ وَحسنِ الوعظِ وَترقيقِ القلوبِ؛ كان رأسًا من رؤوسِ المبتدعةِ، فكان قدريًا[2] وَمِن دعاةِ المعتزلةِ[3]، حتى غرَّرَ بزهدِه وَشدَّةِ عبادتِه أَكْثَرَ عامةِ المسلمينَ في زمانِه، حتى كادَ سفيانُ الثوري ـ أميرُ المؤمنينَ في الحديثِ ـ نفسُه أَنْ يهلكَ على يديهِ في أَوَّلِ الطلبِ لولا عنايةُ اللهِ ﷻ لَهُ، وَصرفُه عَنْهُ على يَدِ شيخِه أيوبَ السختياني.

فعن عبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ قَالَ: «قَالَ لي أيوبُ: قلْ للثورِي: لا تصحبْ عمرو بن عبيد. قَالَ: فقلتُ ذلك لهُ، فقالَ: إني أجدُ عندهُ أشياءَ لا أجدهَا

---

(١) انظر: «الميزان» للذهبي (٣/ ٢٧٣).

(٢) القدرية الذين ينفون القدر فأخذوا من الآيات والأحاديث ما يدل على إثبات القدرة المطلقة للعبد، فأثبتوا الفعل للإنسان ونفوا تقدير الله تعالى له، وأخذوا ما يثبت على أن الفعل من الإنسان وجعلوا الإنسَان هو الذي يخلق فعل نفسه، والصواب أن الله خالق كل شيء، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦].

(٣) وهم في الحقيقة امتداد لفكر الخوارج، لكنهم لا يقولون: إن مرتكب الكبيرة يخرج من الملة، وإنما قالوا: يخرج من الإسلام ولا يدخل الكفر، فهو في منزلة بين المنزلتين، فهم لا يخرجونه من الإسلام لأن الآيات والأحاديث التي في المؤمنين لا تنطبق عليه، ولا يدخلونه في الكفر لأن الآيات والأحاديث التي في الكافرين لا تنطبق عليه، فجعلوه في منزلة بين المنزلتين، ونفوا الصفات عن الله ﷻ.

عندَ غيرِهِ. فقلتُ ذلكَ لأيوب، فقالَ لي أيوبُ: مِنْ تلك الأشياءِ أخافُ عليه»[1].

ولذلك كان لزامًا أن نتكلمَ عن القلبِ وأحوالِه وعللِه وأمراضِه والوقايةِ منها، إذ الحديثُ عن القلبِ حديثٌ محببٌ للنفوسِ، فَبِمُجرَّدِ ذكرِ القلبِ ترى العينَ تنظرُ والأذنَ تسمعُ، بَلْ تَرَى كُلَّ جَارِحَةٍ فِيكَ تَشْتَاقُ للسَّماع.

فَهيّا بنا لِنَقْتَربَ مِنْ القلبِ فنتعرَّف على أحوالِهِ وَطِبَاعِهِ وَهَيْئَاتِهِ ومهماتِهِ، وقد اختَصَرْتُ لَكَ الكَلَامَ وَجَمَعْتُ لك الشَّتات ـ والله تَعَالَى مِنْ وراءِ القصدِ وهو نِعْمَ المُعِين.

(١) أبو نعيم «الحلية» (٧/ ٣٣).

تَعْرِيفُ الْقَلْبِ

فَإِنَّ أعظَمَ ما يبدأُ العبدُ به معرفةً وَعلمًا من ذاتِه وَنفسِه هو قلبُه، وَقد اختلفت أقوالُ النّاسِ في تعريفِ القلبِ.

قَالَ ابن سيده: «القَلْبُ هو الفُؤاد، مُذَكَّر، صرَّح بذلك اللّحياني، وَالجمع: أَقْلُبٌ وَقُلوبٌ، وَقد يعبر بالقَلْب عَنْ العَقْل».

قَالَ الفراءُ: «في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، أي عَقْلٌ».

قَالَ الأَزهري: «ورأَيتُ بعضَ العربِ يُسَمِّي لحمةَ القَلْبِ كُلّها، ـ شَحْمَها وَحِجابَها ـ: قَلْبًا وَفُؤَادًا، قَالَ: وَلم أرهم يَفْرِقُونَ بينهما؛ قَالَ: وَلا أُنْكِر أن يكون القَلْبُ هي العَلَقَةَ السوداءَ في جوفِه»(١).

وفي الحديثِ؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً وَأَلْيَنُ قُلُوبًا، الْإِيمَانُ يَمَانٌ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ»(٢).

فوَصَفَ القلوبَ باللِّين، وَالأَفْئِدَة بالرِّقة. وَكأَنَّ القَلْبَ أَخَصُّ من الفؤَادِ في الاستعمالِ.

وقيل: «القُلُوبُ وَالأَفْئِدَةُ قريبانِ من السَّواءِ، وَكَرَّر ذِكْرَهما، لاختلافِ اللفظين تأْكيدًا».

قَالَ الإمامُ النوويُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ: «وقولُه ﷺ: «أَرَقُّ أَفْئِدَةً وَأَلْيَنُ

---

(١) «لسان العرب» مادة: «قلب».

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٤٣٨٨)، مُسْلِمٌ (٥٢).

قُلُوبًا»؛ المشهورُ أنَّ الفؤادَ هو القلبُ، فعلى هذا يكونُ كرَّرَ لفظَ القلوبِ بلفظينِ، وَهو أولى من تكريرِهِ بلفظٍ وَاحدٍ.

وَقيل: الفؤادُ غيرُ القلبِ، وَهو عينُ القلبِ.

وَقيل: باطنُ القلبِ.

وَقيل: غِشاءُ القلبِ.

وَأمَّا وَصْفُها باللِّينِ وَالرِّقةِ وَالضَّعفِ؛ فمعناهُ أنها ذاتُ خشيةٍ وَاستكانةٍ، سريعةُ الاستجابةِ وَالتأثرِ بقوارعِ التذكيرِ، سالمةٌ من الغلظِ وَالشّدةِ وَالقسوةِ التى وصفَ بها قلوبَ الآخرينَ»[1].

وعلى كلٍّ من هذه الأقوالِ فالقلبُ يشملُ ذلك كله.

---

(١) «شرح النووي على مُسْلِمٍ» (٢/ ٣٤).

عِلَاقَةُ القَلْبِ بِغَيْرِهِ

بيْنَ القَلْبِ وَالعقْلِ عِلاقَةٌ وَطِيدَةٌ، إذْ هما عِنْدَ البعضِ شَيْئانِ لِمُسَمًّى واحدٍ، أي يُطْلَقُ القَلْبُ عَلَى العَقْلِ والقَلْبِ، أو عِنْدَ آخرين مُسَمَّيانِ لِشَيءٍ واحدٍ، أي يطلقُ العقلُ والقَلْبُ على القَلْبِ.

وقد وَقَعَ لبسٌ في المادةِ العاقلةِ هل هي القلبُ أم العقلُ؟ وَأين موضِعُها؟ وَقد سمَّى البعضُ العقلَ قلبًا وَالقلبَ عقلًا، فما الفرقُ بينهما؟ وَما العلاقةُ بين القلبِ وَالعقلِ؟.

قَالَ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

قَالَ ابنُ جريرٍ: «والقلوبُ لا تكونُ إلا في الصدورِ توكيدًا للكلامِ».

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

قَالَ ابنُ جريرٍ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ يعني: لمن كان له عقلٌ من هذه الأمةِ، فينتهي عَنْ الفعلِ الذي كانوا يفعلونَه من كفرِهم بربِّهم، خوفًا من أن يحلَّ بهم مثل الذي حلَّ بهم من العذابِ[1].

فعلى هذا يكونُ الأصلُ المحركُ لكل ذرَّاتِ البدنِ؛ هُوَ القلب، وَكل عضوٍ آخرِ هو مؤتمرٌ بأمرِه، منتهٍ بنهيِهِ، لا يتحركُ إلا بإرادتِه، فيكونُ القلبُ محلًّا للعقلِ وفيه مستقرُّه وَمستودعُه، وَالقائمُ بتوصيلِ الأشياءِ هو المخُّ الذي موضعُه الرأسُ وَيوصلُها إلى القلبِ.

---

(١) «تفسير ابن جرير» (٩/ ١٧٠)، (١١/ ٤٣٢).

قَالَ ابن القيم: «القوةُ العاقلةُ محلُّها القلبُ، وَنِسْبَتُها إلى القلبِ كنسبةِ القوّةِ الباصرةِ إلى العينِ، وَالقوةِ السامعةِ إلى الأذنِ، وَلهذا تسمَّى تلك القوةُ قلبًا كما تسمَّى القوةُ الباصرةُ بصرًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

ولَمْ يُرِدْ شكلَ القلبِ فَإِنَّهُ لكل أحدٍ، وَإنما أرادَ القوةَ وَالغريزةَ المودعةَ فيه[1].

الْعِلَاقَةُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ:

وقد اختلفَ النّاسُ في شأنِ العلاقةِ بين القلبِ وَالعقلِ على مذاهبَ وَصورٍ:

قَالَ ابن القيم ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ: «قَالَ قومٌ: إنَّ محلَّ الصُّورِ التي تعرضُ على الإنسانِ؛ النفسُ.

وَقال قومٌ: محلّها القلبُ.

وَقال قومٌ: محلُّها العقلُ.

وَلكلّ فريقٍ منهم حُجَجٌ وَأدلةٌ، وَكلٌّ منهم أدركَ شيئًا وَغابَ عنه شيءٌ، إذ الإدراكُ المذكورُ مفتقرٌ إلى مجموعِ ذلك لا يتمُّ إلا به».

والتّحقيقُ أن منشأَ ذلك وَمبدأَه من القلبِ، وَنهايتَه وَمستقَره في الرّأسِ، وَهي المسألةُ التي اختلفَ فيها الفقهاءُ؛ هل العقلُ في القلبِ، أَوْ في الدِّماغِ؟

على قولين: حُكِي روايتان عَنْ الإمامِ أحمدَ، وَالتحقيقُ أن أصلَه وَمادتَه من القلبِ وَينتهي إلى الدِّماغِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

فجعلَ العقلَ في القلبِ كمَا جعلَ السَّمعَ بالأذنِ وَالبصرَ بالعينِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٥٨).

قَالَ غيرُ وَاحدٍ من السلفِ: «لمن كان له عقلٌ».

واحتجَّ آخرونَ بأنَّ العقلَ في الدِّماغِ وقالُوا: «بأن الرجلَ يُضرب في رأسِهِ فيزولَ عقلُه، وَلولا أن العقلَ في الرأسِ لما زالَ، فَإِنَّ السَّمعَ وَالبصرَ لا يزولانِ بضربِ اليدِ، أَوْ الرجلِ وَلا غيرِهما من الأعضاءِ لعدمِ تعلقِهما بهما».

وأجابَ أربابُ القلبِ عَنْ هذا: «بأنَّه لا يمتنع زوالُه بفسادِ الدِّماغِ وَإن كان في القلبِ لما بين القلبِ وَالرأسِ من الارتباطِ، وَهذا كما لا يمتنعُ نباتُ شعرِ اللحيةِ بقطعِ الأنثيينِ[1]، وَفسادُ القوةِ بفسادِ العضوِ قد يكونُ لأنه محلُّها وَارتباطهُ بها، والله تَعَالَى أعلم.

وعلى كلِّ تقديرٍ! فالقلبُ من أعظمِ آياتِ اللهِ وَأدلتِه وَقدرتِه وَحكمتِه، فانظرْ كيفَ ترتسمُ صورةُ السَّمواتِ وَالأرضِ؛ وَالبحارِ وَالشمسِ وَالقمرِ وَالأقاليم وَالممالكِ وَالأممِ في هذا المحلِّ الصغير!! وَالإنسانُ يحفظُ كتبًا كثيرةً جدًّا وَعلومًا شتى متعددةً؛ وَصنائعَ مختلفةً، فترتسمُ كُلّها في هذا الجزءِ الصَّغيرِ من غيرِ أن يختلطَ بعضُ هذهِ الصورِ ببعض، بل إنَّ كلَّ صورةٍ منهنَّ بنفسِها محصَّلةٌ في هذا المحلِّ، وَأنت لو ذهبتَ تنقشُ صورًا وَأشكالًا كثيرةً في محلٍّ صغيرٍ لاختلطَ بعضُها ببعضٍ وَطمسَ بعضُها بعضًا، وَهذا الجزءُ الصغيرُ تنقشُ فيه الصورُ الكثيرةُ المختلفةُ وَالمتضادةُ وَلا يبطلُ منها صورةٌ صورة.

ومن أعجبِ الأشياءِ أنَّ هذه القوةَ العاقلةَ تقبلُ ما تؤدِّيهِ إليها الحواسُّ فتجتمعُ فيها، ثم تعيدُ كلُّ حاسةٍ منها فائدةَ الحاسةِ الأخرَى.

مثاله: أنك ترَى الشخصَ فتعلمُ أَنَّهُ فلانٌ، وَتسمعُ صوتَه فتعلمُ أَنَّهُ هو، وَتلمسُ الشيءَ فتعرفُه، وَتشمُّه فتعرفُ أَنَّهُ هو، ثم تستدلُ بما تسمعُه من صوتِه على أَنَّهُ هو الذي رأيتَه فيغنيكَ سماعُ صوتِه عَنْ رؤيتِه، وَيقومُ لك مقامَ مشاهدتِه، وَلهذا جوَّزَ أكثرُ الفقهاءِ شهادةَ الأعمَى وَبيْعَه وَشراءَه، وَأجمعُوا على جوازِ وَطئِه امرأتِه وَهو لم يرهَا قطْ اعتمادًا منه على الصَّوتِ، بل لو

(١) الأنثَيان: الخُصْيتان.

كانتْ خرساءَ أيْضًا وَهو أطرشٌ جازَ له الوطءُ[1].

عِلَاقَةُ الْقَلْبِ مَعَ بَاقِي الْجَوَارِحِ:

وكما أن العلاقةَ بين القلبِ وَالعقلِ علاقةٌ وَطيدةٌ، فكذلك بينه وبين سائرِ الأعضاءِ من حيث العملِ وَالوظيفةِ.

قَالَ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ومن عجائبِ خلقِه؛ أَنَّهُ جعلَ في الرأسِ ثلاثَ خزائنَ نافذةٍ بعضها إلى بعضٍ: خزانةٌ في مقدمِه، وَخزانةٌ في وَسَطِه، وَخزانةٌ في آخرِهِ، وَأودعَ تلك الخزائنَ من أسرارِه ما أودعَها من الذكرِ وَالفكرِ وَالتعقلِ، وَمن عجائبِ خلقِه ما فيه من الأمورِ الباطنةِ التي لا تشاهدُ: كالقلبِ وَالكبدِ وَالطّحالِ وَالرّئةِ وَالأمعاءِ وَالمثانةِ؛ وَسائرِ ما في بطنِه من الآلاتِ العجيبةِ وَالقوى المتعددةِ المختلفةِ المنافعِ، فأما القلبُ فهو الملكُ المستعملُ لجميعِ آلاتِ البدنِ وَالمستخدمُ لها، فهو محفوفٌ بها محشودٌ مخدومٌ مستقرٌّ في الوسطِ، وَهو أشرفُ أعضاءِ البدنِ وَبه قوامُ الحياةِ، وَهو منبعُ الرُّوحِ الحيوانِي وَالحرارةِ الغريزيةِ، وَهو معدنُ العقلِ وَالعلمِ، وَالحلمِ وَالشجاعةِ وَالكرمِ، وَالصبرِ وَالاحتمالِ، وَالحبِّ وَالإرادةِ وَالرِّضا وَالغضبِ، وَسائرِ صفاتِ الكمالِ، فجميعُ الأعضاءِ الظاهرةِ وَالباطنةِ وَقواهَا إنما هي جند منْ أجنادِ القلبِ، فَإِنَّ العينَ طليعتُه وَرائدُه الذي يكشفُ له المرئياتَ، فَإِنْ رأتْ شيئًا أَدَّته إليه، وَلشدةِ الارتباطِ الذي بينها وَبينه إذا استقرَّ فيه شيءٌ ظهرَ فيها، فهي مرآتُه المترجمةُ للناظرِ ما فيه، كما أن اللسانَ ترجمانُه المؤدِّي للسمعِ ما فيه، وَلهذا كثيرًا ما يقرن سُبْحَانَهُ في كتابِه بين هذه الثلاث كقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨].

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (٢٥٤).

وكذلك يقرن بين القلب وَالبصر كقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وَقوله في حقِّ رسوله محمد ﷺ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١].

ثم قَالَ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧].

وكذلك الأُذنُ هي رسولُه المؤدِّي إليه، وَكذلك اللسانُ ترجمانُه، وَبالجملةِ فسائرُ الأعضاءِ خدمُه وَجنودُه.

عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»(١).

وَقال أبو هريرة ﷺ: «الْقَلْبُ مَلِكٌ وَالأَعْضَاءُ جُنُودُهُ، فَإِنَّ طَابَ الملِكُ طَابَتْ جُنُودُهُ، وَإِذَا خَبُثَ الملِكُ خَبُثَتْ جُنُودُهُ»(٢).

وَجُعِلَتْ الرئةُ له كالمروحةِ تروحُ عليه دائمًا؛ لأنه أشدُّ الأعضاءِ حرارةً بل هو منبعُ الحرارةِ، وَأما الدّماغُ وَهو المخُّ فَإِنَّهُ جُعلَ باردًا، وَاخْتُلِفَ في حكمةِ ذلك:

فقالتْ طائفةٌ: إنما كان الدِّماغُ باردًا لتبريدِ الحرارةِ التي في القلب ليردَّها عَنْ الإفراطِ إلى الاعتدالِ.

وردَّتْ طائفةٌ هذا وَقالتْ: لو كان كذلك لم يكن الدِّماغ بعيدًا عَنْ القلبِ بل كان ينبغي أن يحيطَ به كالرِّئةِ، أَوْ يكون قريبًا منه في الصّدرِ ليكسرَ حرارتَهُ.

قَالَت الفرقةُ الأولى: بُعْدُ الدِّماغِ من القلبِ لا يمنعُ ما ذكرناه من الحكمةِ؛ لأنه لو قَرُبَ منه لغلبتْه حرارةُ القلب بقوتِها، فَجَعَلَ البعدَ بينهما بحيثُ لا يتفاسدانِ؛ وَتعتدل كيفيةُ كل وَاحد منهما بكيفيةِ الآخر، وَهذا بخلافِ

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٥٢)، مُسْلِمٌ (١٥٩٩).

(٢) عبد الرزاق «المصنف» (١١/ ٢٢١)، البيهقي «شعب الإيمان» (١/ ١٢٢).

الرئةِ؛ فإنها آلةٌ للترويحِ على القلبِ؛ ولم تُجْعَلْ لتعديلِ حرارتِه.

وتوسطتْ فرقةٌ أخرى وَقالتْ: بلْ المخُّ حارٌ لكنه فاترُ الحرارةِ، وَفيه تبريدٌ بالخاصيةِ، فَإِنَّهُ مبدأٌ للذِّهنِ، وَلهذا كان الذِّهنُ يحتاجُ إلى موضعٍ ساكنٍ قارٍّ، صافٍ عَنْ الأقذارِ وَالكدرِ، خالٍ من الجلبةِ وَالزجلِ، وَلذلك يكونُ جودةُ الفكرِ وَالتذكرِ وَاستخراجِ الصَّوابِ عند سكونِ البدنِ، وَفتورِ حركاتِه، وَقلةِ شواغلِه وَمزعجاتِه، وَلذلك لم يصلحْ لها القلبُ، وَكان الدماغُ معتدلًا في ذلك صالحًا لَهُ، وَلذلك تجودُ هذه الأفعالُ في الليل، وَفي المواضعِ الخاليةِ، وَتفسدُ عند التِهابِ نارِ الغضبِ وَالشَّهوةِ، وَعند الهمِّ الشديدِ، وَمع التعبِ وَالحركاتِ القويةِ البدنيةِ وَالنَّفسانيةِ.

وهذا بحثٌ متصلٌ بقاعدةٍ أخرى؛ وَهي أن الحواسَّ وَالعقلَ هل مبدؤُها القلبُ أو الدّماغُ؟!

فقالتْ طائفةٌ: مبدؤُها كُلّها القلبُ، وَهي مرتبطةٌ به، وَبينه وَبينَ الحواسِّ منافذُ وَطرقٌ. قالوا: وَكلُّ وَاحدٍ من هذه الأعضاءِ؛ التي هي آلاتُ الحواسِّ له اتصالٌ بالقلبِ بأعصابٍ وَغيرِ ذلك، وَهذه الأعصابُ تخرجُ من القلبِ إلى أن تأتِي إلى كل وَاحدٍ من هذه الأجسامِ؛ التي فيها هذه الحواسُّ. قالوا: فالعينُ إذا أبصرتْ شيئًا؛ أدته بالآلةِ التي فيها إلى القلب؛ لأن هذه الآلةَ متصلةٌ منها إلى القلبِ، وَالسمعُ إذا أحسَّ صوتًا أدَّاه إلى القلبِ، وَكذلك كلُّ حاسةٍ ثم أوردُوا على أنفسِهم سؤالًا؛ فقالوا: إن قيل: كيف يجوزُ أن يكون عضوًا وَاحدًا على ضروبٍ من الامتزاجِ يمدُّه عدةُ حواسٍّ مختلفةٍ؛ وَأجسامُ هذه الحواسِّ مختلفةٌ، وَقوةُ كل حاسَّةٍ مخالفةٌ لقوةِ الحاسةِ الأخرى؟ وَأجابوا عَنْ ذلك: بأن جميعَ العروقِ التي في البدنِ كُلّها متصلةٌ بالقلبِ إما بنفسِها وَإما بواسطةٍ، فما من عرقٍ وَلا عضوٍ إلا وَله اتصالٌ بالقلبِ اتصالًا قريبًا أَوْ بعيدًا.

قالوا: وَينبعثُ منه في تلك العروقِ وَالمجاري إلى كل عضوٍ ما يناسبُه وَيشاكلُه، فينبعثُ منه إلى العينينِ ما يكونُ منه حسُّ البصرِ، وَإلى الأذنينِ ما يدركُ به المسموعاتِ، وَإلى اللَّحمِ ما يكونُ منه حسُّ اللمسِ، وَإلى الأنفِ ما

يكون به حِسُّ الشَّم، وَإلى اللسانِ ما يكون به حسُّ الذَّوقِ، وَإلى كل ذي قوةٍ ما يمدُّ قوتَه وَيحفظُها، فهو المعدُّ لهذه الأعضاءِ وَالحواسِّ وَالقوى، وَلهذا كان الرأيُ الصَّحِيحُ أَنَّهُ أَوَّلُ الأعضاءِ تكوينًا. قالوا: وَلا ريب أن مبدأَ القوةِ العاقلةِ منه، وَإن كان قد خالفَ في ذلك آخرون. وَقالوا: بل العقلُ في الرأسِ، فالصوابُ أن مبدأه وَمنشأه من القلبِ، وَفروعَه وَثمرتَه في الرَّأسِ، وَالقرآنُ قد دَلَّ على هذا؛ بقولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

ولم يردْ بالقلبِ هنا مضغةَ اللحمِ المشتركةِ بينَ الحيواناتِ، بلْ المرادُ ما فيهِ من العقلِ وَاللبِّ، وَنازعهمْ في ذلكَ طائفةٌ أخرَى، وَقالوا: مبدأُ هذه الحواسِّ إنما هو الدِّماغُ، وَأنكروا أن يكونَ بين القلبِ وَالعينِ وَالأذنِ وَالأنفِ أعصابٌ، أَوْ عروقٌ، وَقالوا: هذا كذبٌ على الخلقةِ.

وَالصَّوابُ التوسطُ بين الفريقينِ، وَهو أنَّ القلبَ تنبعثُ منه قوةٌ إلى هذهِ الحواسِّ، وَهي قوةٌ معنويةٌ لا تحتاجُ في وصولِها إليه إلى مجارٍ مخصوصةٍ وَأعصابٍ تكونُ حاملةً لها، فَإِنَّ وَصولَ القُوَى إلى هذه الحواسِّ وَالأعضاءِ لا يتوقفُ إلا على قَبولِها وَاستعدادِها وَإمدادِ القلبِ، لا على مجارٍ وَأعصابٍ، وَبهذا يزولُ الالتباسُ في هذا المقامِ الذي طالَ فيه الكلامُ؛ وَكَثُرَ فيه النزاعُ وَالخصامُ ـ وَالله أعلم وَبه التوفيقُ للصوابِ(١).

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٩٣).

أَوْصَافُ الْقَلْبِ

فَإِنَّ من الأمورِ المهمةِ التي يجبُ على العبدِ أن يعرِفَها؛ أوصافَ قلبِه وَنوعَه الذي جُبِلَ عليه، فَإِنْ رآه قد جمعَ الصِّفاتِ الحسنةَ فليحمدِ اللهَ، وَليزدْ في تزكيتِه، وَإن رآه جمعَ بعضَ الأوصافِ القبيحةِ، وَجبَ عليه المسارعةُ في إصلاحِه وَتربيتِه.

فصفاتُ القلبِ على حسبِ ما فيه من إيمانٍ أو كفرٍ، أو تقوَى أو فجورٍ، فالقلبُ العامرُ بالإيمانِ يُسمَّى مؤمنٌ، وبالتقوَى يُسمَّى تقيٌّ.

فالإيمانُ هو: إيمانُ القلبِ، والتقوَى ـ أيضًا ـ هي: تقوَى القلبِ، كما قال الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢].

وفي الحديثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا[١]، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»[٢].

فمحلُّ التقوَى هو القلبُ، والتقوى تشملُ كُلَّ أعمالِ الخيرِ والبرِ والصلاحِ، ولا سيما إذا أُفردتْ.

فالقلبُ خُلِق ليُحبَّ الحقَّ ويريدَه ويطلبَه؛ فلما عُرِضت له إرادةُ الشّرِّ؛

---

(١) «وَلَا تَنَاجَشُوا»: هو في البيع أن يزيد الرجل في ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها ولكن ليسمعه غيرُه فيزيد على زيادته. «غريب الحديث» لابن سلام (٢/ ١٠).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٦٤).

طَلَبَ دفعَ ذلك وردَّه، فإن ضَعُفت العزيمةُ ولم يقدرْ على الدفعِ؛ فإنَّ القلبَ يَفسدُ، كما يَفْسَدُ الزَّرعُ بما ينبتُ فيه من الدغلِ[1]، ولهذا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝﴾ [النور: ٣٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

وَمِنْ هَذِهِ ٱلْأَوْصَافِ الْطَّيِّبَةِ ٱلَّتِي يَتَصِفُ بِهَا الْقَلْبُ:

ـ المحبةُ.	ـ الخوفُ.	ـ الخشيةُ.
ـ الخشوعُ.	ـ الرجاءُ.	ـ الصدقُ.
ـ التوبةُ.	ـ الإنابةُ.	ـ الإخباتُ[2].
ـ التسليمُ.	ـ التوكلُ.	ـ الرضا.
ـ والرغبةُ.	ـ والرهبةُ.	ـ والإجلالُ.
ـ والتعظيمُ.	ـ والاستكانةُ	.. إلخ.

وَمِنْ ٱلْأَوْصَافِ الرَّدِيئَةِ:

ـ الخبثُ.	ـ المكرُ.	ـ الحيلةُ.
ـ الشحُّ.	ـ الشبقُ[3].	ـ الغضبُ.
ـ الظلمُ.	ـ الحسدُ.	ـ الحقدُ... إلخ.

---

(١) الدَّغَل ـ بالتحريك ـ: الفساد مثل الدَّخَل، والدَّغَل دَخَلٌ في الأمر مُفْسِدٌ، ومنه قول الحسن: اتَّخذوا كتاب الله دَغَلًا، أي: أدغلوا في التفسير، وأدْغَلَ في الأمر أدخل فيه ما يُفْسِده ويخالفه، ورجل مُدْغِل مُخابٌّ مُفْسد. «لسان العرب» باب: «دغل».

(٢) الإِخْباتُ: الخُشوع والتَّواضُع. «لسان العرب» (٢/ ٢٧).

(٣) الشَّبَقُ: شدة الغُلْمة وطلبُ النكاح. «لسان العرب» باب: «شبق».

وغيرها من صفاتِ وأعمالِ القلوبِ.

اِصْطِحَابُ الْقَلْبِ جُمْلَةً مِنْ الْأَوْصَافِ:

قَالَ الغزّاليُّ رَحِمَهُ اللهُ: «اعلمْ أن الإنسانَ قدْ اصطحبَ في خلقتِه أربعةَ أنواعٍ منْ الأوصافِ وَهي: الصفاتُ السبُعيةُ، وَالبهيميةُ، وَالشَّيطانيةُ، وَالرَّبَّانيةُ:

فهو من حيث سُلِّطَ عليهِ الغضبُ يتعاطَى أفعال السِّباعِ من العداوةِ وَالبغضاءِ وَالتَّهجمِ على النّاسِ بالضربِ وَالشَّتم.

ومن حيثُ سُلِّطت عليه الشَّهوةُ يتعاطى أفعال البهائمِ من الشرهِ وَالحرصِ وَالشبقِ وَغيرِه.

ومن حيث إِنَّهُ في نفسِه أمرٌ ربانيٌّ كما قَالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، فَإِنَّهُ يدَّعي لنفسِه الربوبيةَ، وَيحبُّ الاستيلاءَ وَالاستعلاءَ وَالتخصصَ وَالاستبدادَ بالأمورِ كُلّها، وَالتفردِ بالرياسةِ وَالانسلالِ عَنْ ربقةِ العبوديةِ وَالتواضعِ، وَيشتهي الاطلاعَ على العلومِ كُلّها، بل يدَّعي لنفسِه العلمَ وَالمعرفةَ وَالإحاطةَ بحقائقِ الأمورِ، وَيفرحُ إذا نُسبَ إلى العلمِ، وَيحزنُ إذا نُسبَ إلى الجهلِ، وَالإحاطةُ بجميعِ الحقائقِ، وَالاستيلاءُ بالقهرِ على جميعِ الخلائقِ من أوصافِ الربوبيةِ، وَفي الإنسانِ حرصٌ على ذلك.

ومن حيث يختص من البهائمِ بالتمييزِ مع مشاركتِه لها في الغضبِ وَالشَّهوةِ حصلت فيه شيطانيةٌ، فصارَ شريرًا يستعملُ التمييزَ في استنباطِ وَجوهِ الشرِّ، وَيتوصلُ إلى الأغراضِ بالمكرِ وَالحيلةِ وَالخداعِ، وَيُظهر الشرَّ في معرضِ الخيرِ، وهذه أخلاقُ الشَّياطينِ، وَكلُّ إنسانٍ فيه شَوْبٌ من هذه الأصولِ الأربعةِ: الربانيةِ، وَالشَّيطانيةِ، وَالسَّبعيةِ، وَالبهيميةِ، وَكلُّ ذلك مجموعٌ في القلبِ، فكأن المجموعَ في إهابِ الإنسانِ؛ خنزيرٌ وَكلبٌ وَشيطانٌ وَحكيمٌ:

فالخنزيرُ هو الشَّهوة؛ فَإِنَّهُ لم يكنْ مذمومًا للونه وَشكله وَصورته، بل لجشعه وَكلبه وَحرصه، وَالكلب هو الغضب، فَإِنَّ السَّبعَ الضَّاريَ وَالكلبَ العقورَ ليس كلبًا وَسبعًا باعتبارِ الصورةِ وَاللونِ وَالشكل، بل روحُ معنى

السبعيةِ: الضراوةُ وَالعدوانُ وَالعقرُ، وَفي باطنِ الإنسانِ ضراوةُ السَّبعِ وَغضبُه، وَحرصُ الخنزيرِ وَشبقُه، فالخنزيرُ يدعو بالشَّرهِ إلى الفحشاءِ وَالمنكرِ، وَالسبعُ بالغضبِ إلى الظلمِ وَالإيذاءِ، وَالشَّيطانُ لا يزال يهيجُ شهوةَ الخنزيرِ وَغيظَ السبعِ وَيغري أحدَهما بالآخرِ، وَيحسّنُ لهما ما هما مجبولانِ عليه.

وَالحكيمُ الذي هو مثالُ العقلِ مأمورٌ بأن يدفعَ كيدَ الشَّيطانِ وَمكرَهُ، بأنْ يكشفَ عَنْ تلبيسِه ببصيرتِه النافذةِ وَنورِه المشرقِ الواضحِ، وَأنْ يكسرَ شرهَ هذا الخنزيرِ بتسليطِ الكلبِ عليهِ، إذْ بالغضبِ يكسر سَورَةَ الشَّهوةِ، وَيدفَعَ ضراوةَ الكلبِ بتسليطِ الخنزيرِ عليه، وَيجعلَ الكلبَ مقهورًا تحتَ سياستِه، فَإِنَّ فَعَلَ ذلك وَقَدَرَ عليهِ اعتدلَ الأمرُ وَظهرَ العدلُ في مملكةِ البدنِ، وَجرَى الكلُّ على الصِّراطِ المستقيمِ، وَإنْ عجزَ عَنْ قهرِهَا؛ وَقَهرُوه وَاستخدموه فلا يزالُ في استنباطِ الحيلِ وَتدقيقِ الفكرِ ليشبعَ الخنزيرُ وَيرضي الكلبُ، فيكون دائمًا في عبادةِ كلبٍ وَخِنزيرٍ، وَهذا حالُ أكثرِ النّاسِ مهما كان يُدَّعى؛ فأكثرُ همتِهم البطنُ وَالفرجُ وَمنافسةُ الأعداءِ، وَالعجبُ منه أَنَّهُ ينكرُ على عبدةِ الأصنامِ عبادتَهم للحجارةِ، وَلو كُشِفَ الغطاءُ عنه وَكوشِفَ بحقيقةِ حالِهِ، وَمثل له حقيقةُ حالِه كما يمثلُ للمكاشفينِ إمَّا في النومِ أَوْ في اليقظةِ؛ لرأى نفسَه ماثلًا بين يدي خنزيرٍ ساجدًا له مرةً وَراكعًا أخرى وَمنتظرًا لإشارتِه وَأمرِه، فمهما هاجَ الخنزيرُ لطلبِ شيءٍ من شهواتِه انبعثَ على الفورِ في خدمتِه وَإحضار شهوتِه، أَوْ رأى نفسَه ماثلًا بين يدي كلبٍ عقورٍ؛ عابدًا له مطيعًا سامعًا لما يقتضيه وَيلتمسُه مدققًا بالفكرِ في حيلِ الوصولِ إلى طاعتِه، وَهو بذلك ساعٍ في مسرةِ شيطانِه، فَإِنَّهُ الذي يهيجُ الخنزيرَ وَيثيرُ الكلبَ وَيبعثهما على استخدامِه، فهو من هذا الوجهِ يعبدُ الشَّيطانَ بعبادتهما.

فليراقب كلُّ عبدٍ حركاتِه وَسكناتِه وَسكوتَهُ وَنطقَهُ وَقيامَهُ وَقعودَهُ، وَلينظرْ بعينِ البصيرةِ فلا يرى ـ إنْ أنصفَ ـ نفسَه إلا ساعيًا طولَ النهارِ في عبادةِ هؤلاءِ، وَهذا غايةُ الظلمِ إذ جعلَ المالكَ مملوكًا، وَالرَّبَّ مَرْبوبًا، وَالسيدَ عبدًا، وَالقاهِرَ مَقهورًا، إذ العقلُ هو المستحقُّ للسيادةِ وَالقهرِ وَالاستيلاءِ، وَقد

سخَّره لخدمةِ هؤلاءِ الثلاثةِ، فلا جَرَمَ ينتشرُ إلى قلبِه من طاعةِ هؤلاء الثلاثةِ صفاتٌ تتراكمُ عليه حتى يصيرَ طابعًا وَرَيْنًا مهلكًا للقلب وَمميتًا له.

أمَّا طاعةُ خنزيرِ الشَّهوةِ فتصدر منها صفة الوقاحةِ وَالخبثِ وَالتبذيرِ وَالتقتيرِ، وَالرِّياءِ وَالهتكةِ وَالمجانةِ، وَالعبثِ وَالحرصِ وَالجشعِ، وَالملقِ وَالحسدِ وَالحقدِ وَالشماتةِ وَغيرها.

وأما طاعةُ كلبِ الغضبِ فتنتشرُ منها إلى القلبِ صفةُ التَّهورِ وَالبذالةِ وَالبذخِ، وَالصَّلفِ وَالاستشاطةِ وَالتكبرِ، وَالعُجبِ وَالاستهزاءِ وَالاستخفافِ وَتحقير الخلق، وَإرادة الشر وَشهوة الظلم وَغيرها.

وأما طاعةُ الشَّيطانِ بطاعةِ الشَّهوةِ وَالغضبِ، فيحصلُ منها صفةُ المكرِ وَالخداعِ وَالحيلةِ وَالدَّهاءِ وَالجراءةِ وَالتَّلبيسِ وَالتَّضريبِ وَالغِشِّ وَالخبِ وَالخنا وَأمثالِها.

قَهْرُ الْقَلْبِ للصِّفَاتِ السَّيئَةِ:

ثم قال رحمه الله تعالى وَلو عُكِسَ الأمرُ وَقهرَ الجميعَ تحتَ سياسةِ الصِّفةِ الربانيةِ لاستقرَ في القلبِ منْ الصفاتِ الربانيةِ؛ العلمُ وَالحكمةُ وَاليقينُ وَالإحاطةُ بحقائقِ الأشياءِ وَمعرفةُ الأمورِ عَلَى ما هيَ عليْهِ، وَالاستيلاءُ على الكل بقوةِ العلمِ وَالبصيرةِ، وَاستحقاقُ التَّقدمِ على الخلقِ لكمالِ العلمِ وَجلالِهِ، وَلاستغنى عَنْ عبادةِ الشَّهوةِ وَالغضبِ، وَلانتشرَ إليه من ضبطِ خنزيرِ الشَّهوةِ؛ وَرده إلى حدِّ الاعتدالِ صفاتٌ شريفةٌ مِثْلُ: العفة وَالقناعة وَالهدى وَالزهد وَالورع وَالتقوى وَالانبساط وَحسن الهيئة وَالحياء وَالظرف وَالمساعدة وَأمثالها، وَيحصلُ فيه من ضبطِ قوةِ الغضبِ وَقهرِها وَردِها إلى حدِّ الواجبِ صفةُ الشجاعةِ وَالكرمِ وَالنجدةِ؛ وَضبطُ النفسِ وَالصبرُ وَالحلمُ وَالاحتمالُ وَالعفوُ وَالثباتُ وَالنبلُ وَالشهامةُ وَالوقارُ وَغيرها.

فالقلبُ في حكمِ مرآةٍ قد اكتنفته هذه الأمورُ المؤثرةُ فيهِ، وَهذه الآثارُ على التواصلِ وَاصلة إلى القلبِ.

أَمَّا الآثارُ المحمودةُ للقلبِ: فإنَّها تزيدُ مرآة القلبِ جلاءً وَإشراقًا وَنورًا وَضياءً حتى يتلألأُ فيه جليةُ الحقِ، وَينكشفُ فيه حقيقةُ الأمرِ المطلوبِ في الدِّينِ، وهذا القلبُ هو الذي يستقرُ فيه الذكرُ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

وَأَمَّا الآثارُ المذمومةُ: فإنها مثلُ دخانٍ مظلم يتصاعدُ إلى مرآةِ القلبِ، وَلا يزالُ يتراكمُ عليه مَرّةً بعد أخرى إلى أَنْ يسودَّ وَيُظْلِمَ، وَيصيرَ بالكليةِ محجوبًا عَنْ اللهِ تَعالَى، وَهو الطَّبعُ وَالرَّينُ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

وَقَالَ ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠٠].

فَرَبَطَ عَدَمَ السّماعِ بالطبعِ بالذنوبِ كَمَا رَبَطَ السماعَ بالتقوى، فقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ [المائدة: ١٠٨]، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ومهما تراكمتْ الذنوبُ طُبعَ على القلوبِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يعمى القلبُ عَنْ إدراكِ الحقِّ وَصلاحِ الدينِ، وَيستهينُ بأمرِ الآخرةِ وَيستعظمُ أمرَ الدُّنْيا، وَيصيرُ مقصورَ الهمِّ عليها، فإذا قَرَعَ سمعَهُ أَمْرُ الآخرةِ وَما فيها من الأخطارِ دَخَلَ مِنْ أُذُنٍ وَخَرَجَ مِنْ أُذُنٍ، وَلَمْ يستقرَّ في القلبِ، وَلَمْ يحركْهُ إِلى التوبةِ وَالتداركِ، أولئك ﴿يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣]، وَهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوبِ كما نطقَ به القرآنُ وَالسنةُ.

قَالَ ميمونُ بن مِهْران: «إِذَا أَذْنَبَ العَبْدُ ذَنْبًا نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُو نَزَعَ وَتَابَ صَقَلَ[1]، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيها حَتَّى يَعْلُو قَلْبَهُ، فَهُو الرَّانُ»[2].

فطاعةُ اللهِ سُبْحَانَهُ بمخالفةِ الشهواتِ مصقلةٌ للقلبِ، وَمعاصِيهِ مسوِّداتٌ

---

(١) الصَّقْلُ: الجِلاءِ، صَقَلَ الشيءَ: أي جَلاهُ. «لسان العرب» (١١/ ٣٨٠).

(٢) «تاريخ دمشق» (٦/ ٢٩٧).

له، فمنْ أقبلَ على المعاصِي اسودَّ قلبُه، وَمن أَتْبَعَ السيئةَ الحسنةَ؛ وَمحَا أثرهَا لم يظلمْ قلبُهُ وَلكن ينقصُ نورُهُ، كالمرآةِ التي يتنفسُ فيها ثم تمسحُ، وَيتنفسُ ثم تمسحُ، فإنها لا تخلُو عَنْ كدورةٍ.

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فأخبرَ أنَّ جلاء القلبِ وَإبصارَه يحصلُ بالذكرِ، وَأنَّه لا يتمكنُ منهُ إلا الذين اتَّقُوا[١].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٢).

مَكَانَةُ الْقَلْبِ

فإنَّ أَوَّلَ واجِبٍ وأهمَّ واجبٍ يجبُ علينا جميعًا؛ أن نُراجعَ موقِفَ قلوبنا مع ربِّنا تباركَ وَتعالَى، وَحالَ هذه القلوبِ من التَّزكيةِ وَالطَّهارةِ وَالتصفيةِ وَالنقاوةِ، وَأن نتعرفَ على أعمالِ القلوبِ، وَنعلَمَ مقدارَ ما لدينا منها، وَماذا ينقُصنا، وَكيف فهْمُنَا لها، وَمعرفتُنَا وَعِلمُنا بها، أهي كما يرضى اللهُ ﷻ وَكما كان عليه السَّلفُ ﷺ، أم أن هناك شيئًا من الخللِ فيها فيتدارك، فإذا صلحتْ هذه القلوبُ استقامَ العبدُ على طاعةِ ربِّه وتبعَ أهلَّ النَّعيم إلى جناتِ النعيم؛ قَـالَ تَـعَـالَـى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩].

إنَّ هذا الدِّينَ إنما نزلَ في حقيقتِه لتزكيةِ القلوبِ وَإصلاحِها، وبُعِثَ نبيها محمدٌ ﷺ بالتزكية كما دعا له أبوه إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسلامُ.

عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي عَبْدُ اللهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ ﷺ لَمُنْجدِلٌ فِي طِينَتِهِ[١]، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ، دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى بِي، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ»[٢].

ودعوةُ أبينا إبراهيمَ: هي ما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: ١٢٩]، فإبراهيمُ ﷺ دعا اللهَ أن يبعثَ في هذه الأمةِ هذا الرسولَ ﷺ بهذه الأهدافِ وَالأغراضِ، وَقد استجابَ اللهُ ﷻ دعوةَ إبراهيمَ ﷺ كما في

---

(١) أي: مُلقًى على الجدَالة وهي الأرض. «النهاية في غريب الأثر» (١/ ٧٠٧).

(٢) حسن: رَوَاهُ أَحْمَدُ (٤/ ١٢٧).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

فالأصلُ هو: تزكيةُ هذه القلوبِ التي هي موضِعُ نظرِ اللهِ من العبدِ، كما في الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»(١).

اِرْتِبَاطُ عَمَلِ ٱلْقَلْبِ بِعَمَلِ ٱلْجَوَارِحِ:

فمهمَا ظهرَ على الجوارحِ منْ عملٍ قدْ انفصلَ عن القلبِ فهو وبالٌ على صاحبِه، ولذلك نرى أن المنافقينَ يُظْهِرونَ الطَّاعاتِ بلْ قدْ يبلغُ ببعضهم إلى التشدقِ والتقعرِ في الدينِ، ومحاولةِ إظهارِ بعضِ دقائقِ الالتزامِ بالدينِ؛ ورغم ذلك فهم في الدركِ الأسفلِ من النارِ، بل كل عملٍ لا يدركُه قلبُ العبدِ يأتي يوم القيامةِ هباءً منثورًا.

عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ ﷻ هَبَاءً مَنْثُورًا». قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ. قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا»(٢).

فهذه القلوبُ هي محلُّ الابتلاءِ وَالتمحيصِ، وَمحلُّ الأقوالِ والأعمالِ، فَإِنَّ لهذه القلوبِ شأنًا عظيمًا عند اللهِ تبارك وَتعالى، كيف لا وَالقلبُ هو الذي إذا كان حيًّا فَإِنَّ الجسدَ يحيا معه، وَإِذَا ماتَ ماتَ الجسدُ.

فأعمالُ القلوبِ هي التي يَظهرُ أثرُها على الجوارحِ، إذ القلبُ هو الأصلُ وَالجوارحُ تابعٌ له.

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٦٤).

(٢) صحيح: رَوَاهُ ابن ماجه (٤٢٤٥)، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

والعجيبُ أنك لا ترى أحدًا من المسلمينَ يسيرُ في طريقٍ فيُغمضُ عينيه عَنْ الطريقِ الذي يسير فيه، فَإِنَّ رؤية القلبِ أعظمُ من رؤيةِ البصرِ، بل الأعجبُ أَنَّهُ لا يجهلُ أَنَّهُ لا بد من عملِ الجوارحِ كالصَّلاةِ وَالصيامِ وَالزكاةِ وَما أَشْبَهَ ذلكَ، وَالأوضحُ عندَ المسلمينَ عامةً الإقرارُ باللسانِ، لكنْ ما يتعلقُ بالقلبِ ـ وهوَ الأهمُّ ـ قد يخفَى عَلَى كثيرٍ مِنَ المسلمينَ.

ولهذا نجدُ أَنَّ اللهَ ﷻ يخاطبُنا بذلك وَيُبينُ لنا أهميةَ القلبِ، فمثلًا: لما جاءت الأعرابُ، وَقالوا ـ كما حَكَى اللهُ عَنْهُم ـ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤]، فالأعْرابُ أسلمُوا! أي أَنَّهُ حَصَلَ منهم الانقيادُ الظَّاهرُ، أمَّا أصلُ الإقرارِ وَالتصْديقِ الذي يكونُ بالقلبِ فوقعَ فيه خللٌ، وَلذلك لم يدخلْ الإيمانُ في قلوبِهم.

فالقلبُ لم يصلْ بعدُ إلى أنْ يكونَ قدْ آمَنَ حقًا، وَهذِهِ درجةٌ لا يجوزُ لأحدٍ أن يدَّعيها، فهي منةٌ مِنْ اللهِ وَفضلٌ، فالإيمانُ في الحقيقةِ هو إيمانُ القلبِ، وَلهذا قَالَ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، وَذلِكَ في مخاطبةِ المؤمنينَ، فهكذا يكونُ تزيينُه في القلبِ، وَدخولُه فيه، أَمَّا المؤمنونَ السَّابقونَ فقد زَيَّنَهُ في قلوبِهم، وَأما الأعرابُ فهو لَمَّا يدخلْ قلوبَهم بَعْدُ، مَعَ أَنَّ الجميعَ مع رَسُولِ اللهِ ﷺ، مِثْلَمَا نكونُ نحنُ في الصَّلاةِ في المسجدِ، فكلُّنا في مسجدٍ وَاحدٍ، لكنْ بينَ هذا وَذاك من التفاوتِ مثلَ ما بينَ السماءِ وَالأرضِ، بقدرِ الإيمانِ وَبقدرِ أعمالِ القلوبِ منْ الإخلاصِ، وَالخشوعِ، وَالإنابةِ، وَالإخباتِ، وَغيرِ ذَلِكَ منْ أعمالِ القلبِ.

أما أعمالُ الجوارحِ؛ فإنها لا تكفِي من دون أعمالِ القلبِ، كما حصل في عهدِ الرسولِ ﷺ، الرجلُ الذي كان يبلو بلاءً شديدًا ضد المشركينَ وقال عنه النبي ﷺ: «إِنَّهُ في النار».

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ الْتَقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الْآخَرُونَ إِلَى

عَسْكَرِهِمْ وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ لَا يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً وَلَا فَاذَّةً إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقَالَ: مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟»، قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاس ذَلِكَ فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»[1].

ربما يكونُ ذلك مع وَجودِ من هو من أهلِ الإيمانِ وَالتقوى وَمن أهلِ الجنةِ في الجيشِ، وَلم يبلِ ذلك البلاء، وَلم يقتلْ مشركًا وَاحدًا، وَلم يَصُلْ صَوَلانَه، وَلم يَجُلْ في المعركةِ جَوَلانَه، وَكذلك في الإنفاقِ وَالصدقةِ وَالإحسانِ وَسائرِ أعمالِ الخيرِ التي إنما نريدُ أن نعبدَ وَنتقربَ إِلَى اللهِ تبارك وَتعَالَى بها.

فالقلبُ محلُّ القَبولِ لكلامِ الربِّ ﷻ، إذًا الإيمانُ هو: إيمانُ القلبِ، وَالتقوى ـ أيْضًا ـ هي: تقوى القلبِ، فالقلبُ هو محلُّ قَبولِ أمرِ اللهِ ﷻ وَنهيِهِ، فحياةُ هذا القلب بعبوديتِه للهِ، وَاستقامةِ الجوارحِ باستمرارِ القلبِ على هذه العبادةِ، وَلذلك كانت عبادةُ القلبِ أهمَّ أنواعِ العباداتِ، وَأساسًا لما وَراءَها من العباداتِ.

والقلبُ له جنودٌ وَأعوانٌ يوصِّلون إليه مادةَ حياتِه، وَأيضًا مادةَ موتِه

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيّ (٢٨٩٨)، مُسْلِمٌ (١١٢).

ـ أعاذنا الله من موت القلوب ـ، وَلذلك فَإِنَّ استقامةَ القلبِ وَالجوارحِ علامةٌ على فلاحِ العبدِ وَنجاتِه، وَوقوعُ الخللِ بين القلبِ وَالجوارحِ علامة على تلفِ العبدِ وَفسادِه، وَلذلك لا غنى للقلبِ عَنْ الجوارحِ، وَلا غنى للجوارحِ عَن القلبِ.

والقلبُ صالحٌ لقبولِ الخيرِ وَالشرِّ، وَإنما يكونُ ذلك بغلبةِ الباعثِ وَالداعي، فالهوى وَالغضبُ وَالشَّهوةُ؛ ورودُها على القلبِ من أعظمِ أعوانِ الشَّيطانِ على بقائِهِ، وَمن تغلبَ على هواهُ وَشهوتِه وَغضبِه فقد قَهَرَ شيطانَه، وَضَيَّقَ عليه السبلَ وَطرده من قلبِهِ، وَحلَّ محلَّهُ من يأْمُره بالخيرِ وَيحُثُّه عليه.

فهو المقبولُ عند اللهِ إذا سَلِمَ من غيرِ اللهِ، وَهو المحجوبُ عَنْ الله إذا صار منشغِلًا بغيرِ اللهِ.

قَالَ أبو سليمانَ الدّارانِي ـ وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ أَقْرَبِ ما يتقربُ به العبدُ إِلَى اللهِ عَجَلَّ؟ ـ فَبَكَى، وَقَالَ: «مِثْلِي يُسْأَلُ عَنْ هَذَا!، أَفْضَلُ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ العَبْدُ إِلَى الله: أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى قَلْبِكَ، وَأَنْتَ لَا تُرِيدُ مِنْ الدُّنْيا وَالآخِرةِ غَيْرَهُ»(١).

---

(١) أبو نعيم في «الحلية» (٩/٢٥٧).

القَلْبُ وَالعَمَلُ

هُنَاكَ عِلَاقَةٌ وَطِيدَةٌ بينَ القَلْبِ والعَمَلِ، فَالقلبُ هو مستودَعُ الإيمانِ وَمنه ينطلقُ شُعاعُهُ لكل ذرّاتِ البدنِ، وَبقدرِ نورِه وَإضاءته بقدرِ ظهورِ الضوءِ على الجوارحِ.

تَعْرِيفُ اَلْإِيمَانِ عِنْدَ أَهْلِ الْسُّنَّةِ:

فَالإيمانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، وَهو بالنسبةِ إلى أهلِ السُّنةِ وَالجماعةِ قضيةُ إجماعٍ، فلم يقعِ الخلافُ بين أصحابِ النَّبيِّ ﷺ، أَوْ التابعينَ، أَوْ مَنْ بعدَهم من أهلِ السنةِ وَالجماعةِ في حقيقةِ الإيمانِ مطلقًا؛ وَهذه ميزةٌ عظيمةٌ تتفردُ بها هذه العقيدةُ، وَهذا من فضلِ اللهِ تبارك وَتعالى، لأنَّها هي عقيدةُ الفرقةِ الناجيةِ؛ وَلأنَّها هي العقيدةُ المقبولةُ عندَ اللهِ تبارك وَتعالى، فأجمعتْ عليها الأمةُ وَللهِ الحمدُ، وَمَنْ خرَجَ عَنْ هذا الإجماعِ كالمرجئةِ(١) فقدْ حكَمَ على نَفْسِهِ بالشذوذِ والعجزِ، وَحُكِمَ عليه بالابتداعِ بمخالفتِه لهذا الإجماعِ.

قِيلَ لِوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ: «أَلَيْسَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: بَلَى وَلَكِنْ لَيْسَ مِفْتَاحٌ إِلَّا لَهُ أَسْنَانٌ، فَإِنْ جِئْتَ بِمِفْتَاحٍ لَهُ أَسْنَانٌ فُتِحَ لَكَ وَإِلَّا لَمْ يُفْتَحْ لَكَ»(٢).

وَعَنْ أبي عبدِ اللهِ المِصِّيْصِيِّ، قال: «كُنَّا عِنْدَ سُفْيَانَ بنِ عُيَيْنَةَ فسأله رجل عَنْ الإيمانِ، فَقَالَ: قَوْلٌ وَعَمَلٌ. قَالَ: يزيدُ وينقصُ؟ قالَ: يزيدُ ما شاءَ اللهُ

---

(١) والمُرْجِئةُ: صِنْفٌ من المُسْلِمين يقولون: الإيمانُ قَوْلٌ بلا عَمَل. كأنهم قدّمُوا القَوْلَ وأرْجَؤُوا العمل، أي: أَخّروه، لأنهم يرون أنهم لو لم يُصلُّوا ولم يَصُومُوا لنَجَّاهم إيمانهم.

(٢) رَواهُ البُخَارِيّ «تعليقًا» عند الحديث رقم [١٢٣٧].

وينقصُ، حتَّى لا يَبْقَى مِنْهُ ـ يعنِي مثل هذه ـ وأشارَ سفيانُ بيدِهِ. قالَ الرجلُ: كيفَ نصنعُ بقومٍ عِنْدنا يزعمونَ أنَّ الإيمانَ قولٌ بلا عملٍ؟ فقالَ سفيانُ: كان القولُ قولَهُمْ قبلَ أن تنزلَ أحكامُ الإيمانِ وحدودُه، إنَّ اللهَ ﷻ بعثَ محمدًا ﷺ إِلَى النّاسِ كافةً أنْ يقُولوُا: لَا إِلَه إِلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، فَإِذَا قالُوهَا حَقَنُوا بِهَا دماءَهُم وَأَمْوَالَهم إِلَا بحقِّها، وحسابُهم عَلَى اللهِ، فَلَمَّا عَلِمَ صِدْقَ ذَلِكَ من قلوبِهم أمرهُ أنْ يأمرَهم بالصَّلاةِ، فأمرهمُ ففعلُوا، واللهِ لوْ لَمْ يفعلُوا ما نَفَعَهُمْ الإقرارُ الأولُ، فلمّا علمَ اللهُ صدقَ ذلكَ منْ قلوبِهم أمرهُ أنْ يأمرَهم بالهجرةِ إلى المدينةِ، فأمرَهم، ففعلُوا، واللهِ لوْ لَمْ يفعلُوا مَا نَفَعَهُمْ الإقرارُ الأولُ وَلا صلاتُهم، فلمَّا عَلِمَ اللهُ صدقَ ذلكَ منْ قلوبِهم أَمَرَهُ أنْ يأمرَهم بالرجوعِ إِلَى مكةِ، فيقتُلوا آباءَهم، وأبناءَهم، حَتَّى يقولوا كقولِهم، ويصلُّوا بصلاتِهم، ويهاجروا هجرَتهم، فأمرَهُمْ فَفَعَلُوا، حَتَّى أَتَى أحدُهم برأسِ أبيهِ فقال: يا رسول الله هذا رأسُ الشيخِ الكافرِ، واللهِ لوْ لَمْ يفعلُوا مَا نَفَعَهُمْ الإقرارُ الأولُ، وَلا صلاتُهم، ولا مهاجرُهم، فلمَّا عَلِمَ اللهُ تَعَالَى صِدْقَ ذَلِكَ مِنْ قلوبِهم أَمَرَهُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بالطَّوافِ بالبيتِ تعبدًا، وأَنْ يحلقوا رؤوسَهم تذللًا، ففعلُوا، واللهِ لوْ لَمْ يفعلُوا مَا نفعهم الإقرارُ الأولُ، ولا صلاتُهم، ولا مهاجرُهم، ولا قتلُهم آباءَهم، فلمَّا علمَ اللهُ صدقَ ذلكَ منْ قُلُوبِهم أَمَرَهُ أنْ يأخذَ منْ أموالِهم صدقةً تطهرُهم، فأمرَهُمْ، فَفَعَلُوا، حَتَّى آتوا قليلَها وكثيرَها، واللهِ لوْ لَمْ يفعلُوا ما نَفَعَهُمْ الإقرارُ الأولُ، وَلا صلاتُهم، ولا مهاجرُهم، ولا قتلُهم آباءَهم، ولا طوافُهم، فلمَّا عَلِمَ اللهُ تعالَى الصِّدقَ مِنْ قُلُوبِهم فِيمَا تَتَابَعَ عليْهِمْ منْ شَرَائِع الإيمانِ وحدودِه، قال اللهُ تعالَى لَهُمْ: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فَمَنْ تَرَكَ خُلةً منْ خلالِ الإيمانِ جحودًا بِهَا، كَانَ عِنْدَنَا كافرًا، وَمَنْ تَرَكَهَا كسلًا ومجونًا أَدَّبْنَاهُ وكَانَ ناقصًا، هَكَذَا السُّنةُ أَبْلِغْها عَنِي مَنْ سَألَكَ منْ النَّاس»[(١)].

(١) «الإبانة» لابن بطة (٢/ ٣٢٩).

فالقضيةُ عندَ أهلِ السنةِ أَنَّ الأقوالَ والأعمالَ جميعًا تدخلُ في مُسَمَّى الإيمانِ.

قالَ البُخارِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: بَابُ: قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ» وَهُوَ قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤].

وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وَالْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ مِنْ الْإِيمَانِ.

وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَدِيِّ بْنِ عَدِيٍّ: «إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ وَحُدُودًا وَسُنَنًا، فَمَنْ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلْ الْإِيمَانَ، فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا لَكُمْ حَتَّى تَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنْ أَمُتْ فَمَا أَنَا عَلَى صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ».

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: «اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً».

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «الْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ».

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: «لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ التَّقْوَى حَتَّى يَدَعَ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ».

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [الشورى: ١٣]، أَوْصَيْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ وَإِيَّاهُ دِينًا وَاحِدًا.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، سَبِيلًا وَسُنَّةً.

﴿دُعَآؤُكُمْ﴾: إِيمَانُكُمْ، لِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]، وَمَعْنَى الدُّعَاءِ فِي اللُّغَةِ الْإِيمَانُ»(١).

والذي يتأملُ في أحاديثِ النبيِّ ﷺ يرى أنَّهُ ﷺ يَرْبِطُ الإيمانَ بالعملِ.

فَعَنْ أَبِي جَمْرَةَ قَالَ: «كُنْتُ أَقْعُدُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ يُجْلِسُنِي عَلَى سَرِيرِهِ فَقَالَ: أَقِمْ عِنْدِي حَتَّى أَجْعَلَ لَكَ سَهْمًا مِنْ مَالِي. فَأَقَمْتُ مَعَهُ شَهْرَيْنِ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ الْقَوْمُ أَوْ مَنْ الْوَفْدُ؟»، قَالُوا: رَبِيعَةُ، قَالَ: «مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ أَوْ بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا وَنَدْخُلْ بِهِ الْجَنَّةَ. وَسَأَلُوهُ عَنْ الْأَشْرِبَةِ، فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، أَمَرَهُمْ: بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟»، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنْ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ الْحَنْتَمِ وَالدُّبَّاءِ وَالنَّقِيرِ وَالْمُزَفَّتِ، وَرُبَّمَا قَالَ: الْمُقَيَّرِ(٢)، وَقَالَ: «احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ تعليقًا عند الحديث رقم [٨].

(٢) **الحَنْتَم**: جِرَار مدْهُونة خُضْرٌ كانت تُحْمَل الخمْر فيها إلى المدينة، ثم اتُّسِع فيها فقيل لِلْخَزَف كلّه حنتم، واحدَتها حَنْتَمة. وإنما نُهي عن الانْتِباذ فيها لأنَّها تُسْرِع الشِّدّةُ فيها لأجْل دَهْنها. «النهاية في غريب الأثر» (١/ ١٠٥٩).

وقال أبو عبيد: في حديث النبي ﷺ في الأوعية التي نهى عنها النبي ﷺ من الدُبّاء والحَنْتَم والنَّقِير والمُزَفَّت... قال: أما الدباء فإنا معاشر ثقيف كنا بالطائف نأخذ الدباء نخرط فيها عناقيد العنب ثم ندفنها حتى تهدر ثم تموّت. **وأما النقير** فإن أهل اليمامة كانوا ينقرون أصل النخلة ثم يشدخون فيه الرطب والبسر ثم يدعونه حتى يهدر ثم يموّت. **وأما الحنتم** فجرار خضر كانت تحمل إلينا فيها الخمر. وأما المزفت فهذه الأوعية التي فيها الزفت. «غريب الحديث» لابن سلام (٢/ ١٨١). الْمُقَيَّرِ: ما طلي بالقار من الأوعية.

بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ»[1].

فَقَدْ جَعَلَ النبيُّ ﷺ الإيمانَ: أَمْرٌ، وَنَهْيٌ، قولٌ، وفعلٌ.

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[2].

وعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ»[3].

قَالَ الإمامُ البُخَارِيّ ـ رحمه الله تعالى ـ: «أَدْرَكْتُ العُلَمَاءَ عَلَى ذَلِكَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ـ أي طبقة بعد طبقة ـ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ وَالحِجَازِ وَالعِرَاقِ وَبغْدَادَ وَوَاسِطَ، كُلُّهم يقُولُونَ: الإيمَانُ قَولٌ وَعَمَلٌ»[4].

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٥٣). (٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١).
(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٢٣).
(٤) اللالكائي «اعتقاد أهل السنة» (١٣١٧).

قال الحافظ ابنُ حجرٍ: «وَأَطْنَبَ اِبْنُ أَبِي حَاتِم وَاللَّالِكَائِيّ فِي نَقْلِ ذَلِكَ بِالْأَسَانِيدِ عَنْ جَمْعٍ كَثِيرٍ مِنْ الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ وَكُلّ مَنْ يَدُورُ عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ. وَحَكَاهُ فُضَيْل بْن عِيَاض وَوَكِيع عَنْ أَهْل السُّنَّة وَالْجَمَاعَة وَهاتان الكلمتان على إيجازهما تحملان معانٍ عظيمة جدًا.

وَالْكَلَام هُنَا فِي مَقَامَيْنِ:

أَحَدهمَا: كَوْنه قَوْلًا وَعَمَلًا.

وَالثَّانِي: كَوْنه يَزِيد وَيَنْقُص.

فَأَمَّا الْقَوْل فَالْمُرَاد بِهِ النُّطْق بِالشَّهَادَتَيْنِ.

وَأَمَّا الْعَمَل فَالْمُرَاد بِهِ مَا هُوَ أَعَمّ مِنْ عَمَلِ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِح، لِيَدْخُلَ الِاعْتِقَادُ وَالْعِبَادَاتُ.

وَمُرَادُ مَنْ أَدْخَلَ ذَلِكَ فِي تَعْرِيفِ الْإِيمَانِ وَمَنْ نَفَاهُ إِنَّمَا هُوَ بِالنَّظَرِ إِلَى مَا عِنْد الله تَعَالَى، فَالسَّلَفِ قَالُوا: هُوَ اعْتِقَادٌ بِالْقَلْبِ، وَنُطْقٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ. وَأَرَادُوا بِذَلِكَ أَنَّ الْأَعْمَال شَرْطٌ فِي كَمَالِهِ، وَمِنْ هُنَا نَشَأَ ثَمَّ الْقَوْلُ بِالزِّيَادَةِ وَالنَّقْص»[1]

والعملُ يطلقُ على: قولِ القلب، وَقولِ اللسانِ، وَعملِ القلبِ، وَعملِ الجوارحِ.

قَوْلُ الْقَلْبِ:

فَأَمَّا قَوْلُ القَلْبِ: فهو الإقرارُ وَالاعتقادُ الجازمُ بما جاءَ في حديثِ جبريلَ ﷺ، وَهو: قَالَ جبريلُ: «فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[2]؛ أي: انقيادُ القلبِ وَإذعانُه وَتصديقُه الجازمُ بالإيمانِ المجملِ وَهو: الإيمان باللهِ وَملائكتِه وَكتبِه وَرسلِه وَاليومِ الآخرِ وَبالقدرِ خيرِه وَشرِه، (الذي هو: الإيمانُ بالغيبِ).

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٤٦).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١).

وَهي الصِّفَةُ الأولى التي ذَكَرَهَا اللهُ ﷻ مِنْ صِفاتِ المؤمنينَ فِي أولِ سُورَة مدنيةٍ، وَهي سُورَة البقرةِ.

قوْلُ اللْسَانِ:

وَأَمَّا قوْلُ اللسَانِ: فهوَ إظهارُ هذا الإيمانِ وَقولِه وَتلفظِه بشَهادةِ أنْ لَا إِلَه إِلَا اللهُ، أَوْ مَا يقُومُ مقامَها في حالِ البدءِ، كأنْ يقولُ الرجلُ: آمنتُ، أَوْ أَسْلمتُ، أَوْ دخلتُ في دينِ الإسلامِ، أَوْ شهدتُ بأنَّ اللهَ حقٌّ، إلى آخرِ ذَلِكَ، ثمَّ يلتزمُ بسائرِ العباداتِ وَالشرائعِ، وَمنها وَهو أولُها وَأعظمُها: «شهادةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنْ محمدًا رسولُ اللهِ»، فَهَذَا هُوَ قولِ اللسانِ.

فتعبيرُ اللسانِ عندما يقولُ: «أشهدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأن محمَّدًا رسولُ اللهِ»، هو تعبيرٌ عَنْ الإيمانِ القلبِي، الذي هو الإقرارُ بحقيقةِ ألوهيةِ اللهِ ﷻ، وَالإيمانُ به وَبملائكتِه وَكتبِه وَرسلِه وَاليومِ الآخرِ وَبالقدرِ.

عَمَلُ الْقَلْبِ:

فَأَمَّا عَمَلُ الْقَلْبِ: فأمورٌ كثيرةٌ ذكرَها اللهُ تباركَ وَتَعالَى في القرآنِ الكريمِ، وَفي حديثِ النَّبيِّ ﷺ، **فَمِنْ عَمَلِ الْقَلْبِ**:

- محبةُ اللهِ وَرسولِه.
- وَمحبةُ هذا الدينِ.
- والاستسلامُ وَالرِّضَا باللهِ ربًا وَبالإسلامِ دينًا وَبمحمدٍ ﷺ رسولًا.
- والصدقُ بالقلبِ وَاللسانِ وَالأركانِ، فَإِنَّ المنافقينَ يقولون: نشهدُ إنك لرسولُ اللهِ، وَلكن لمَّا شهدَ اللهُ أنهم كاذبونَ في ذلك، لم ينفعْهم هذا الإيمانُ وَلا هذه الشهادةُ.

وكذلك:

- الإنابةُ.
- وَالإِخْباتُ.
- وَالخوفُ.
- وَالرجاءُ.
- وَالتوكلُ.
- وَالصَّبرُ.

كلُّ هذه الأعمالِ القلبيةِ واجبةٌ شرعًا كوجوبِ الفرائضِ[1].

فعملُ القلبِ ـ إذًا ـ يشمل كلَّ ما جاء في الكتابِ وَالسُّنةِ من الواجباتِ الإيمانيةِ القلبيةِ، التي لا بد وَلا محالةَ أن يظهرَ أثرُها على الجوارحِ إن لم يكن حقيقتُها.

عَمَلُ الْجَوَارِحِ:

وأما عَمَلُ الْجَوَارِحِ: فهي جميعُ التعبداتِ التي فرضهَا اللهُ ﷻ على الجوارحِ، كإقامةِ الصَّلاةِ، وَإيتاءِ الزكاةِ، وَالحجِّ، وَالجهادِ، وَالأمرِ بالمعروفِ وَالنهيِ عَنْ المنكرِ، وَأمثالِ ذلك.

فالقلبُ هو المهيمنُ على جميعِ الأعمالِ خفيِّها وجليِّها، فتأملْ آيةَ الدَّيْن وما وقعَ فيها من دقائقِ التشريعِ، وخفي المعانِي وضبطِ التعاملِ مع العبادِ، ولما كان القلبُ هو المحركَ فإذا وقعتْ خيانةٌ عند هذه الحقوقِ؛ بيَّن ﷻ إثمَ القلبِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة: ٢٨٣].

فالإيمانُ جملةٌ: عملُ القلبِ والجوارحِ؛ ولا ينفكُّ أحدُها عن الآخرِ إلَّا أنْ يكونَ عملُ القلبِ أعظمَ وأخطرَ.

قَالَ الإمام اللالكائي: سياقُ ما رُوي عَنْ النَّبيِّ ﷺ في أنَّ الإيمانَ تلفظٌ باللسانِ وَاعتقادٌ بالقلبِ وَعملٌ بالجوارحِ.

- قالوا: الدّلالةُ على أنَّه تلفظٌ باللسانِ:

١ ـ قوله ﷻ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

(١) انظر كتابي: «العبادة وَاجتهاد السلف» ص(٨١).

٢ ـ وما رُوِي عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاس حَتَّى يَقُولُوا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فَإِذَا قَالُوا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ»(١).

● وَالدلالةُ على أَنَّهُ اعتقادٌ بالقلبِ:

١ ـ قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

٢ ـ وقوله: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

٣ ـ وقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

٤ ـ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: «صَعِدَ رَسُول اللهِ ﷺ الْمِنْبَرَ فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ»(٢).

● وَالدلالةُ على أَنَّهُ عملٌ:

١ ـ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥].

٢ ـ وَقَالَ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

٣ ـ وَقَالَ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٢٤)، ورواه مسلم (٢١) واللفظ له.

(٢) حسن: رَوَاهُ الترمذي (٢٠٣٢)، وقال: هذا حديث حسن غريب، قال الشيخ الألباني: حسن صحيح.

فدَّل على أن مجموعَ هذه الأفعالِ إذا أتَى بهَا فهو مؤمنٌ، وبه **قَالَ مِن** الصحابةِ ممن تقدمَ ذكرهم في أَنَّ الصَّلاة مِنْ الإِيمان عُمَرُ، وَعليٌّ، **وَمعاذٌ،** وَعبدُ اللهِ بن مسعودٍ، وَابنُ عباسٍ، وَأبو الدرداءِ، وَجابرُ بن عبد الله ـ **رضي الله** تعالى عنهم[1].

(١) اللالكائي «اعتقاد اهل السنة» (٤/ ٨٣٠).

وَقَفَاتُ الْقَلْبِ مَعَ الْعَمَلِ

وللقلبِ مع العملِ وَقفَاتٌ، فأيّ عملٍ لا يقرُّه القلبُ وَلا يعتمِدُه، فهو على الجوارحِ عاريةٌ، ليس للعبدِ منه إلا التَّعبُ وَالنَّصبُ، فقد حصرَ النَّبيُّ ﷺ قبولَ العملِ على فعلِ القلبِ، كما قَالَ ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكل امْرِئٍ مَا نَوَى»[1].

ولذلك نرى أنَّ توجُّهَ القلبِ بالعملِ إلى اللهِ ﷻ مع تنقيتِه من كل شريكٍ؛ أصلُ كل عبادةٍ، وهذه العبادةُ تصاحبُ أي عملٍ من مبدئِه إلى منتهاهُ، وَذلك بتصحيحِ الأعمالِ على الدوامِ، وَجعلها خالصةً للهِ ﷻ، وَذلك في كل عملٍ دَقَّ أمْ عَظُم.

وَالْإِخْلَاصُ فِيهِ ثَلَاثَةُ أُمورٍ:

أحدُها: صدقُ القلبِ فِي طلبِ الثَّوابِ.

وَالثَّاني: إرادةُ إخراجِ العملِ مِنْ كلِّ شُبهةٍ.

وَالثَّالثُ: لا يُحِبُّ حمدَ المخلوقينَ وَلا ذمَّهم.

قَالَ سَهْلُ بن عبد الله: «لا يَعْرِفُ الرِّياءَ إلا مُخْلِصٌ، وَلا يَعْرِفُ النِّفاقَ إلا مُؤْمِنٌ، وَلا يَعْرِفُ الجهلَ إلا عالم، وَلا يَعْرِفُ المعصِيةَ إلا مُطِيع»[2].

ولقد بلغَ الإخلاصُ بالسَّلَفِ رحمهمْ اللهُ حتى كان يُرى أثرُ ذلك عليهم رحمهم الله، حتى إنَّ أحدَهُمْ كان يحاولُ إخفاءَ العملِ عَنْ أقربِ النَّاسِ إليه.

فعن عبدةَ بنِ سُليمانَ المروزي قَالَ: «كنَّا فِي سَرِيَّةٍ مَعَ عَبْدِ اللهِ بن

---

(١) متفق عليه، البُخَارِيّ (١)، مُسْلِمٌ (١٩٠٧).

(٢) رَوَاهُ البيهقي «شعب الإيمان» (٥/ ٣٤٩).

الْمُبَارَكِ فِي بلادِ الرومِ، فصادفنا العدوَ فلمّا التقى الصَّفَّانِ خرجَ رجلٌ من العدوِ فدعَا إلى البرازِ، فخرجَ إليه رجلٌ فقتلَهُ، ثم آخر فَقَتَلَهُ، ثُمَّ دَعَا إلى البرازِ، فخرجَ إليه رجلٌ فَطَارَدَهُ سَاعةً فَطَعَنَهُ فقتلهُ، فازدحمَ إليه النَّاسُ؛ فكنتُ فيمنْ ازدحمَ إليه؛ فإذا هو يلثمُ وَجهَهُ بكمِّهِ، فأخذتُ بطرفِ كُمِّه فمددتُهُ؛ فإذا هو عبدُ الله بن المبارك، فقال: وَأنت يا أبا عمروٍ ممن يشنعُ علينا»[1].

وعَنْ محمدِ بن وَاسعٍ قَالَ: «لقدْ أدْرَكْتُ رجالًا كانَ الرَّجلُ يكونُ رأسُهُ مع رأسِ امرأتِه على وِسَادةٍ وَاحدةٍ قدْ بَلَّ مَا تحتَ خدِّه من دُموعِهِ؛ لا تشعرُ به امرأتُه، وَلقدْ أدركتُ رجالًا يقومُ أحدُهم في الصَّفِّ؛ فتسيلُ دموعُهُ على خدِّهِ وَلا يشعرُ به الذي إلى جانبِهِ»[2].

وعَنْ حماد بن زيدٍ قَالَ: «غَلَبَ أيوبَ البكاءُ يومًا فَقَالَ: الشَّيخُ إذا كَبُرَ مَجَّ[3] وغلبَه فُوهُ، فَوَضَعَ يدَه على فِيهِ؛ وَقال: الزُّكْمَةُ ربما عَرَضَتْ»[4].

وعن سلام بن أبي حمزة قَالَ: «كان أيوبُ السَّخْتِياني يقومُ الليلَ كلَّه؛ فَيُخْفِي ذلك، فإذا كان عند الصبحِ رفَعَ صوتَه؛ كأنه قامَ تلك السَّاعةَ»[5].

وَعَنْ امرأةِ حسانَ بن أبي سنانٍ قَالَت: «كان يجيءُ فيدخلُ مَعِي في فِراشِي ثم يُخَادِعُني كما تُخَادِعُ المرأةُ صَبِيَّها، فإذا علمَ أني نمتُ سَلَّ نفسَه فخرجَ ثم يَقُومُ فيصلِّي، قَالَت: فَقُلْتُ له: يا أبا عبدَ اللهِ كَمْ تعذِّبُ نفسَك؟! أرفقْ بنفسِك! فقال: اسكُتِي! وَيحكِ! فيوشك أن أرقدَ رقدةً لا أقومُ منها زمانًا»[6].

وَعَنْ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ مَهْدِيٍّ، أَنَّ أَبَاهُ قَامَ لَيْلَةً، وَكَانَ يُحْيِي اللَّيْلَ كُلَّهُ. قَالَ: فَلَمَّا طَلَعَ الفَجْرُ، رَمَى بِنَفْسِهِ عَلَى الفِرَاشِ حَتَّى طَلَعَتِ

---

(١) «تاريخ بغداد» (١٠/ ١٦٧).
(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٤٧).
(٣) مَجَّ: أي لا يستطيع حبس ريقه من كثرته.
(٤) «حلية الأولياء» (٣/ ٦).
(٥) «حلية الأولياء» (٣/ ٨).
(٦) «حلية الأولياء» (٣/ ١١٧).

الشَّمْسُ، وَلَمْ يُصَلِّ الصُّبْحَ، فَجَعَلَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَرْضِ شَيْئًا شَهْرَيْنِ، فَقَرَّحَ فَخِذَاهُ جَمِيْعًا»[1].

وقال مالك بن دينار: «الخوفُ عَلَى العَمَلِ أن لا يُتقبَّل أشدُّ من العَمَلِ»[2].

وقال الفضيلُ: «خيرُ العملِ: أخْفَاه، وَأمنعَه من الشَّيطانِ، وَأبعدَه من الرِّياءِ»[3].

وقال أبو حازم: «إني لأعظُ وَما أرَى موضِعًا، وَما أريدُ إلا نفسِي».
وَقال: «اكتمْ حَسَنَاتِك أشدَّ مما تكْتُم سيئاتِك»[4].

وَهذا أبو عِمران الجوْني يقول: «إنَّهُ ليس بين الجنَّةِ وَالنَّارِ طُرقٌ وَلا فيافِي؛ وَلا مَنْزِلٌ هنالِكَ لأحدٍ، مَنْ أَخْطَأَتْهُ الجنّة صارَ إلى النّارِ»[5].

ولذلك نرى أن الإخلاصَ عزيزٌ، وَلما حاولَ المخلصونَ إخفاءَ العمل أحيا اللهُ ذكرَهم، وَشَهَرَ أمرَهم، وَصاروا أئمةَ هدى يُقتدَى بهم، وَلما حاولَ المراؤونَ إظهارَ العمل أخمدَ اللهُ ذكرَهم، وَهتكَ أستارَهم، وَما نالوا من حظٍّ إلا الفضيحةَ بين العبادِ.

قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيّ: «أخسرُ الخاسرينَ من أبدى للناسِ صَالحَ أعمالِه؛ وَبارَزَ بالقبيحِ مَنْ هو أقربُ إليه مِنْ حبلِ الوريدِ»[6].

ويقولُ سعيد بن المسيّب: «يدُ اللهِ فوق عبادِه، فمن رفع نفسَه وَضعَه اللهُ، وَمن وَضعَها رفعَه اللهُ، النّاسُ تحت كنفِه يعملونَ أعمالهَم؛ فإذا أراد اللهُ فضيحةَ عبدٍ أخرجَه من تحت كنفه فبدتْ للناسِ عَوْرَتُهُ»[7].

عَنْ بلال بن سعد يقول: «عِبَاد الرحمنِ: إن العبدَ ليعملُ الفريضةَ

(١) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ١٩٦). (٢) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٨٣).
(٣) رَوَاهُ البيهقي «شعب الإيمان» (٥/ ٣٥١).
(٤) رَوَاهُ البيهقي «شعب الإيمان» (٥/ ٣٥١). (٥) «حلية الأولياء» (٢/ ٣١٠).
(٦) رَوَاهُ البيهقي «شعب الإيمان» (٥/ ٣٦٨). (٧) «حلية الأولياء» (٢/ ١٦٢).

الواحدةَ من فرائضِ اللهِ ﷻ وَقد أضاعَ ما سِواها، فما زال يُمَنِّيه الشَّيطانُ فيها وَيزينُ له حتى ما يرى شيئًا دون الجنةِ، فقبلَ أن تعملُوا فانظروا ماذا تريدونَ بها؟ فَإن كانت خالصةً لله فأمضُوها، وَإن كانت لغير اللهِ فلا تَشُقُّوا على أنفسِكم فلا شيءَ لكم، فَإنَّ الله ﷻ لا يقبلُ من العملِ إلا ما كان خالصًا؛ فَإِنَّهُ قَالَ سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]»(١).

وقَالَ سَهْلُ بنُ عَبْدِ اللهِ التُّسْتَرِيّ: «منْ أَحبَّ أن يَطَّلعَ الخلقُ على ما بينه وبين اللهِ فهو غافلٌ»(٢).

ولذلك اجتهدَ الأُولُ في إصلاحِ العملِ، بمطالعةِ عيبِ النفسِ وَما يدخلُ عليه من آفاتٍ.

عَنْ عبدِ الرّحمنِ بنِ عمرَ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ: عبدُ الرّحمنِ بنُ مهدِي: «كنتُ أجلسُ يومَ الجمعةِ في مسجدِ الجامعِ، فيجلسُ إليَّ النّاسُ فإذَا كانُوا كثيرًا فرحتُ؛ وَإذَا قلّوا حزنتُ؛ فسألتُ بشرَ بنَ منصورٍ فقالَ: هذا مجلسُ سُوءٍ لا تعدْ إليهِ، قَالَ: فما عُدْتُ إليهِ».

وقَالَ: «سمعتُ عبدَ الرحمنِ يومًا وَقامَ من المجلسِ يومًا وَتبعهُ النّاسُ، فقالَ: يا قومُ لا تطؤُوا عَقِبيَّ، وَلا تمشُوا خَلْفِي؛ وَوقفَ»(٣).

وكانَ لهم في مجاهدةِ النَّفسِ وَتنقيةِ العملِ، وَإفراغِ النّفسِ للهِ تعالَى؛ ما يدعُو إلى العَجبِ العجابِ، فهذَا محمدُ بنُ المنكدرِ يقولُ: «كَابدتُ نفسِي أربعينَ سنةً حتى استقامتْ»(٤).

وَقَالَ سَهْلُ بنُ عَبدِ اللهِ: «اجتهدَ أهلُ العلمِ وَالمعرفةِ في تركِ الإثمِ في سِرِّهِمْ وَعلانيتهِمْ، فأدخلَ اللهُ عَلَيهِمْ الضّراءَ وَالنفعَ وَالنَّصبَ، فأسلمُوا الأمْرَ

(١) رَوَاهُ البيهقي «شعب الإيمان» (٥/ ٣٤٤).
(٢) «حلية الأولياء» (١٠/ ٢١١). (٣) «حلية الأولياء» (٩/ ١٢).
(٤) «حلية الأولياء» (٣/ ١٤٦).

إِلَى اللهِ تَعَالَى فاستغنُوا باللهِ عمنْ سواهُ»[١].

وقَالَ يحيىَ بنُ أَبِي كَثيرٍ: «تعلَّمُوا النية فإنَّهَا أبلغُ من العملِ»[٢].

قَالَ الزبيدُ اليامِي: «إنِّي أُحِبُّ أن تكونَ لِي نيةٌ في كلِّ شيءٍ حتى في الطَّعامِ وَالشَّرابِ».

وعن دَاودَ الطَّائِي قَالَ: «رَأيتُ الخيرَ كلَّهُ إنَّمَا يجمعُهُ حسنُ النِّيةِ، وَكفاكَ به خَيرًا وَإن لَمْ تنصبْ، أي حتى وَإن لَمْ تتعبْ فَإنَّ ما حصلتَهُ من اجتماعِ نفسِكَ للهِ، وَإخراجِ حُظوظِ النَّفسِ من قلبِكَ، هذا أمرٌ عظيمٌ»[٣].

قَالَ الفضيلُ بنُ عياضْ: «تَرْكُ العملِ لأجلِ النّاسِ رياءٌ، وَالعملُ من أجلِ النّاسِ شِركٌ، وَالإخلاصُ أن يعافيكَ اللهُ منهُما»[٤].

وقَالَ أيْضًا: «ما يُؤَمِّنُك أن تكونَ بارَزْتَ اللهَ بعمل مقتك عليهِ، فَأَغْلَقَ دُونَك أبوابَ المغفرةِ وَأنتَ تضحكُ؛ كيفَ تَرَى أنْ يكونَ حالُكَ»[٥].

---

(١) رَوَاهُ البيهقي «شعب الإيمان» (٥/ ٣٤٩).

(٢) «حلية الأولياء» (٣/ ٧٠).

(٣) «جامع العلوم وَالحكم» (١٣).

(٤) رَوَاهُ البيهقي «شعب الإيمان» (٥/ ٣٤٧).

(٥) «حلية الأولياء» (٨/ ١٠٠).

أَحْوَالُ الْقُلُوْبِ

وللقلبِ حالاتٌ يجبُ على العبدِ معرفتُها والوقوفُ عِنْدَها؛ حَتَى يعرفَ حالةَ قلبِهِ فيتسنَّى لهُ متابعتُه ورعايتُه وحفظُه، إذْ حِفْظُ القلوبِ أهمُّ وأعظمُ من حفظِ الأبدانِ.

ولمَّا كانَ القلبُ يوصفُ بالحياةِ وَضِدِّها؛ انقسمَ بحسبِ ذلكَ إلى هذه الأحوالِ الثلاثةِ التَّي عَلَيْهَا الأبدانُ: صحيحٌ، وَمريضٌ، وَميّتٌ.

فالقلبُ الصَّحِيح: هوَ القلبُ السَّليمُ الذَّي لا ينجُو يومَ القيامةِ إلَا مَنْ أَتى الله به كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

وَالسَّليمُ هو السَّالِمُ، فسليمُ القلبِ الذَّي قدْ صارتِ السَّلامةُ صِفةً ثابتةً لهُ، كالعليمِ وَالقديرِ، وَأيضا فَإِنَّهُ ضدُّ المريضِ وَالسَّقيمِ وَالعليلِ.

قَالَ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وأقربُ البيانِ في تعريفِه: أَنَّهُ الذَّي قد سلِمَ منْ كلِّ شهوةٍ تخالفُ أَمْرَ اللهِ وَنهيَهُ، وَمِنْ كُلِّ شُبهةٍ تعارضُ خبرَهُ، فسلمَ مِنْ عبوديةِ ما سواهُ، وَسلِمَ مِنْ تحكيمِ غيرِ رسولِه ﷺ، فَسَلِمَ في محبةِ اللهِ مع تحكيمِه لرسولِه في خوفِه وَرجائِه، وَالتوكّل عليه وَالإنابةِ إليه وَالذلّ له، وَإيثارِ مرضاتِه في كل حالٍ، وَالتباعدِ من سخطِه بكل طريقٍ، وَهذه هي حقيقةُ العبوديةِ التي لا تصلحُ إلا للهِ وَحده.

فالقلبُ السَّليمُ: هو الذي سَلِمَ مِنْ أن يكونَ لغيرِ اللهِ فيه شركٌ بوجهٍ ما، بل قد خلصتْ عبوديتُه لله تعالى: إرادةً وَمحبةً وَتوكلًا وَإنابةً وَإخباتًا وَخشيةً وَرجاءً، وَخلّص عمله لله، فَإن أحبَّ أحبَّ في الله، وَإنْ أبغضَ أبغضَ في اللهِ، وَإن أعطَى أعطَى للهِ، وَإن منعَ منعَ للهِ، وَلا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقيادِ

وَالتحكيمِ لكل مَنْ عدا رسولِه ﷺ، فيعقدُ قلبُه معه عقدًا محكمًا على الائتمامِ وَالاقتداءِ به وَحْدَه دون كل أحدٍ؛ في الأقوالِ وَالأعمالِ من أقوالِ القلبِ وَهي العقائدُ، وَأقوالِ اللسانِ وَهي الخبرُ عما في القلبِ، وَأعمالِ القلبِ وَهي الإرادةُ وَالمحبةُ وَالكراهةُ وَتوابعُها وَأعمالُ الجوارحِ، فيكون الحاكمُ عليه في ذلك كلّه دقّه وَجلّه هو ما جاء به الرسولُ ﷺ، فلا يتقدمُ بين يديهِ بعقيدةٍ وَلا قولٍ وَلا عملٍ، كما قالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، أي لا تقولوا حتى يقولَ، وَلا تفعلوا حتى يأمرَ.

قَالَ بعضُ السَّلف: «ما مِنْ فِعلةٍ وَإنْ صَغُرَتْ إلا يُنشرُ لها ديوانانِ: لِمَ؟، وَكيف؟... أي لِمَ فعلتَ؟ وَكيف فعلتَ؟.

فالأول: سؤالٌ عَنْ علةِ الفعلِ وَباعثِه وَداعِيه: هل هو حظٌّ عاجلٌ من حظوظِ العاملِ وَغرضٌ من أغراضِ الدنيا في محبةِ المدحِ من النّاسِ، أَوْ خوفُ ذمِّهم، أَوْ استجلابُ محبوبٍ عاجلٍ، أَوْ دفعُ مكروهٍ عاجلٍ، أمْ الباعثُ على الفعلِ القيامُ بحقِّ العبوديةِ وَطلبُ التودُّدِ وَالتقرُّبِ إلى الربِّ ﷻ وَابتغاءَ الوسيلةِ إليه، وَمحلُّ هذا السؤالِ: أَنَّهُ هل كان عليك أن تفعل هذا الفعلَ لمولاك أم فعلتَهُ لحظكَ وَهواكَ؟.

والثاني: سؤالٌ عَنْ متابعةِ الرسولِ عليه الصَّلاةُ وَالسّلامُ في ذلك التعبدِ، أي هل كان ذلك العملُ مما شرعتُه لك على لسانِ رسولِي أمْ كان عملًا لم أشرعْهُ وَلم أرضه؟.

فالأولُ: سؤالٌ عَنْ الإخلاصِ.

وَالثاني: عَنْ المتابعةِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لا يقبلُ عملًا إلا بهما.

فطريقُ التخلّصِ من السؤالِ الأولِ: بتجريدِ الإخلاصِ.

وَطريقُ التخلصِ من السُّؤالِ الثانِي: بتحقيقِ المتابعةِ، وَسلامةِ القلبِ من إرادةٍ تعارضُ الإخلاصَ وَهوًى يعارضُ الاتباعَ، فهذه حقيقةُ سلامةِ القلبِ الذي ضُمِنتْ له النجاةُ وَالسعادةُ.

وَالْقَلْبُ الثَّانِي: ضدُّ هذا وَهو القلبُ الميتُ الذي لا حياةَ به، فهو لا يعرفُ ربَّه، وَلا يعبدُه بأمرِه وَما يحبُّه وَيرضاه، بل هو وَاقفٌ مع شهواتِه وَلذَّاتِه، وَلو كان فيها سخطُ ربِّه وَغضبُه، فهو لا يبالِي إذا فازَ بشهوتِه وَحظِّه، رضي ربُّه أمْ سخطَ، فهو متعبدٌ لغيرِ اللهِ: حبًا وَخوفًا وَرجاءً وَرضًا وَسخطًا وَتعظيمًا وَذلًا، إنْ أحبَّ أحبَّ لهواهُ، وَإن أبغضَ أبغضَ لهوَاهُ، وَإن أعطَى أعطَى لهواهُ، وَإن منعَ منعَ لهواه، فهواه آثر عنده وَأحبُّ إليه من رضا مولاه، فالهوى إمامُه، وَالشَّهوةُ قائدُه، وَالجهلُ سائقُه، وَالغفلةُ مركبُه، فهو بالفكرِ في تحصيلِ أغراضِه الدنيويةِ مغمورٌ، وَبسكرةِ الهوَى وَحُبِّ العاجِلةِ مخمورٌ، ينادى إِلَى اللهِ وَإلى الدارِ الآخرةِ من مكانٍ بعيدٍ، فلا يستجيبُ للناصحِ، وَيتبعُ كلَّ شيطانٍ مريدٍ، الدنيا تُسخطه وَتُرضيهُ، وَالهوَى يصمُّه عما سوى الباطلِ وَيعمِيهُ، فهو في الدنيا كما قيل في ليلى:

«عَدُوٌّ لِمَنْ عَادَتْ وَسِلْمٌ لِأَهْلِها ... وَمَنْ قَرَّبت لَيْلى أَحَبُّ وَأَقْرَبا»

فمخالطةُ صَاحِب هذا القلبِ سقمٌ، وَمعاشرتُه سمٌّ، وَمجالستُه هلاكٌ.

وَالْقَلْبُ الثَّالِثُ: قَلْبٌ له حياةٌ وَبه علةٌ، فله مادتانِ تمدُّه هذه مرَّة وَهذه أخرى، وَهو لما غلب عليه منهما؛ ففيه من محبةِ اللهِ تَعَالَى وَالإيمانِ به وَالإخلاصِ له وَالتوكل عليه ما هو مادةُ حياتِه، وَفيه من محبةِ الشهواتِ وَإيثارِها وَالحرصِ على تحصيلِها وَالحسدِ وَالكبرِ وَالعجبِ وَحبِّ العلوِ وَالفسادِ في الأرضِ بالرياسةِ ما هو مادةُ هلاكِه وَعطبِه، وَهو ممتحنٌ بين داعيينِ: داعٍ يَدْعُوه إِلَى اللهِ وَرسولِه وَالدارِ الآخرةِ، وَداعٍ يدعُوه إلى العاجلةِ، وَهو إنما يجيبُ أقربهما منه بابًا، وَأدناهما إليه جوارًا.

فالقلبُ الأولُ: حيٌّ مخبتٌ لينٌ وَاعٍ.

وَالثاني: يابسٌ ميتٌ.

وَالثالثُ: مريضٌ، فإمَّا إلى السَّلامةِ أدنى، وَإما إلى العَطَبِ أدنى.

وَقَد جَمَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ بين هذه القُلوبِ الثلاثةِ في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن

قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٤].

فجعل الله ﷻ القُلوبَ في هذه الآياتِ ثلاثةً: قلبينَ مفتونينَ وَقلبًا ناجيًا.

فالمفتونانَ: القَلبُ الذي فيه مرضٌ، وَالقلبُ القاسِي.

وَالنَّاجِي: القلبُ المؤمنُ المخبتُ إلى ربِّه وَهو المطمئنُ إليه الخاضعُ له المستسلمُ المنقاد(١).

---

(١) «إغاثة اللَّهفَان» (٧).

صَلاحُ القَلْبِ وَحَيَاتُهُ

ففلاحُ العبدِ متعلقٌ بصلاحِ قلبِه؛ إذ لا نجاةَ البتة يومَ القيامةِ إلَّا بصلاحِ القلبِ، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

فلا بد من تزكيةِ هذا القلبِ وَسلامتِه حتى يَنْجو العبد.

فَعَنْ النُّعْمَانِ بْنَ بَشِيرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[1].

فالْقَلْبُ الصَّحِيحُ: هو الذي همُّه كلُّه في اللهِ، وَحبُّه كلُّه له، وَقصدُهُ له، وَبدنُهُ له، وَأعمالُه له، وَنومُه له، وَيقظتُه له، وَحديثُه له، وَالحديثُ عنه أشهَى إليه من كل حديثٍ، وَأفكارُه تحومُ على مراضِيه وَمحابِهِ، الخلوةُ به آثرُ عنده من الخلطةِ إلا حيث تكونُ الخلطةُ أحبُّ إليه وَأرضَى له، قرةُ عينه به، وَطمأنينتُه وَسكونُه إليه، فهو كلما وَجد من نفسه التفاتًا إلى غيرِه تلا عليها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٨]، فهو يردد عليها الخطابَ بذلك ليسمَعَه من ربِّه يومَ لقائِه، فينصبغُ القلبُ بين يدي إلهِهِ وَمعبودِهِ الحقّ بصبغةِ العبوديةِ، فتصيرُ العبوديةُ صفةً له وَذوقًا لا تكلفًا، فيأتي بها تودُّدًا وَتحببًا وَتقربًا كما يأتي المحبُّ المقيمُ في محبةِ محبوبِه بخدمتِه وَقضاءِ أشغالِه، فكلما عرضَ له أمرٌ من ربِّه، أَوْ نهيٌ أحسَّ من قلبِه ناطقًا ينطقُ «لبيك وَسعديك إني سامعٌ مطيعٌ ممتثلٌ، وَلك عليَّ المنةُ في ذلك، وَالحمدُ فيه عائدٌ إليكَ».

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيّ (٥٢)، مُسْلِمٌ (١٥٩٩).

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: وأصلُ صلاحِ القلبِ هو حياتُهُ وَاستنارتُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

لذلكَ ذكرَ اللهُ حياةَ القلوبِ وَنُورَهَا وَمَوتَها وَظلمتَها في غيرِ موضعٍ، كَقَوْلِه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٧٠].

وَقولِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].

وَقَالَ تَعالَى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم: ١٩].

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ: أَنَّهُ يُخْرِجُ المؤمنَ منْ الكافرِ، وَالكافرَ منْ المؤمنِ.

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»(١).

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا»(٢).

وقد قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ٣٩].

وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ آيَةَ النُّورِ وَآيَةَ الظُّلْمَةِ فَقَالَ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ﴾ [النور: ٣٥]، فَهذَا مَثَلُ نُورِ الإيمانِ فِي قلوبِ المؤمنينَ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩].

ثُمَّ قَالَ عَجَّلَ: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧٧٩).

(٢) رَوَاهُ البخاري (٤٣٢)، مُسْلِمٌ (٧٧٧).

فَوۡقِهِۦ سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

فالأول: مثلُ الاعتقاداتِ الفاسدةِ، وَالأعمالِ التابعةِ لَهَا يحسبُهَا صاحبُهَا شيئًا ينفعهُ، فإذَا جاءَهَا لَمْ يَجْدِها شيئًا ينفعهُ، فوفّاه اللهُ حسابَهُ على تلكَ الأعمالِ.

والثاني: مثلٌ للجهلِ البسيطِ وَعدمِ الإيمانِ وَالعلمِ فَإِنَّ صَاحِبَهَا في ظُلُماتٍ بعضُهَا فوقَ بعضٍ لا يُبْصِرُ شيئًا؛ فَإِنَّ البصرَ إنَما هو بنورِ الإيمانِ وَالعلمِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ [يوسف: ٢٤].

وهوَ برهانُ الإيمانِ الذي حصلَ في قلبِه، فصرفَ اللهُ به ما كانَ همَّ به، وَكتبَ لهُ حسنةً كاملةً وَلم يكتُبْ عليهِ خطيئةً؛ إذْ فعلَ خيرًا وَلم يفعلْ سيئةً.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ: والقلبُ الحيُّ المنورُ؛ فَإِنَّهُ لما فيه من النورِ يسمعُ وَيبصرُ ويعقلُ، وَالقلبُ الميتُ فَإِنَّهُ لا يسمعُ وَلا يبصرُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس: ٤٢ ـ ٤٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ

ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٢٥] الآيات.

فأخبرَ أنهم لا يفقهونَ بقلوبِهم وَلا يسمعونَ بآذانِهم، وَلا يؤمنونَ بما رأوه من النارِ كما أخبر عَنْهُم حيث قَالُوا: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

فذكروا الموانعَ على القلوبِ وَالسَّمعِ وَالأبصارِ، وَأبدانُهم حيةٌ تسمعُ الأصواتَ وَترى الأشخاصَ، لكن حياة البدنِ بدون حياةِ القلبِ من جنسِ حياةِ البهائِمْ لها سمعٌ وَبصرٌ، وَهي تأكلُ وَتشربُ وَتنكحُ، وَلهذا قَالَ تَعالَى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١].

فشبَّههُمْ بالغنمِ الذي ينعقُ بها الرَّاعي، وَهي لا تسمعُ إلا نداءً. كما قَالَ في الآيـةِ الأخـرى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤].

وَقَـالَ تَـعَـالَـى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فطائفةٌ من المفسرينَ تقولُ في هذه الآياتِ وَما أشبهَها كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥۚ﴾ [يونس: ١٢].

فأخبرَ أَنَّهُ من كانت فيه خصلةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من النِّفاقِ. وَقد ثبتَ في الحديثِ الصَّحيحِ أن النَّبيَّ ﷺ قَالَ لأبي ذر ﵁: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»(١). وأبو ذر ﵁ مِنْ أصدقِ النّاسِ إيمانًا.

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٣٠)، مُسْلِمٌ (١٦٦١).

وفي الحديثِ الصَّحِيحِ: عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ؛ الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»(١).

وفي الحديثِ الصَّحِيحِ: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟!»(٢).

وفي الحديثِ الصَّحِيحِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ». فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «وَمَنْ النَّاس إِلَّا أُولَئِكَ؟!»(٣).

وعَنْ حُذَيفة قَالَ: «القُلوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ مُصَفَّحٌ: فَذَاكَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ. وَقلْبٌ أَغْلَفُ: فَذَاكَ قَلْبُ الكَافِرِ. وَقَلْبٌ أَجْرَدُ: كَأَنَّ فِيه سِرَاجًا يُزْهِر فذَاكَ قَلْبُ المؤمِنِ. وَقَلْبٌ فِيه نِفَاقٌ وَإِيمانٌ: فَمَثَلُه مَثَلُ قُرْحَةٍ يَمُدُّها قَيْحٌ وَدَمٌ، وَمَثَلُهُ مَثَلُ شَجَرَةٍ يَسْقِيهَا مَاءٌ خَبِيثٌ وَماءٌ طَيبٌ فَأَيُّ مَاءٍ غَلَبَ عَلَيْها غَلَب»(٤)(٥).

الاسْتِعَانَةُ بِاللهِ عَلَى صَلَاحِ الْقَلْبِ:

إدراكُ الغايةِ مِنْ صَلَاحِ القلبِ أمرٌ متعذرٌ إن لم يستعنْ العبدُ بربِّه على ذلك، وقد كان النبيُّ ﷺ يدعُو ربَّه بثباتِ قلبِهِ على الهدى، فَعَنْ أَنسٍ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»(٦).

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٩٣٤).

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٣٤٥٦)، مُسْلِمٌ (٢٦٦٩). (٣) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٧٣١٩).

(٤) ابن أبي شيبة «المصنف» (٧٤٨١).

(٥) «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ١٠٠).

(٦) حسن: رَوَاهُ الترمذي (٢١٤٠)، ابن ماجة (٣٨٣٤)، أَحْمَدُ (٣/ ١١٢)، الحاكم =

وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لَا؛ وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُم الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ»(١).

فلذلك يجبُ على العبدِ أن يعظِّمَ اللجوَ إلى اللهِ والاستعانةَ به في الأمورِ كُلِّها، وقد كان النبيُّ ﷺ يعلِّمُ أصحابَه ذلك.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: «كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كلمَاتٍ، احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»(٢).

الاِسْتِعَانَةُ بِهَدْيِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ:

فَطَلَبُ الغَوْثِ مِنْ اللهِ وتداركُ الرّحمةِ هدي الأنبياءِ:

فهذا نوحٌ ﵇ كما قَالَ تعَالَى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٧٧﴾ [الأنبياء: ٧٦ ـ ٧٧].

وهذا أيوب ﵇ كما قَالَ تعَالَى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ

= «المستدرك» (١/ ٧٠٧)، البُخَارِيّ «الأدب المفرد» (٦٨٣)، أبو يعلى «المسند» (٣٦٨٧).

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٥٦٧٣).

(٢) صحيح: رَوَاهُ الترمذي (٢٥١٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورَوَاهُ أَحْمَدُ (١/ ٢٩٣)، الحاكم «المستدرك» (٣/ ٦٢٣).

﴿أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

وهذا يونس عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨].

وهذا زكريا عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠].

وفي حقِّ أصحابِ محمدٍ ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٩].

والذي يتأملُ حالَ الصحابةِ رضي الله عنهم حينما نزلَ أمرٌ شَقَّ عليهم، استغاثوا باللهِ عز وجل فَخَفَّفَ عنهم ورفع الأمر.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. قَالَ: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا»، قَالَ: فَأَلْقَى اللهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ: «قَدْ فَعَلْتُ»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ: «قَدْ فَعَلْتُ»، ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ: «قَدْ فَعَلْتُ»(١).

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٢٦).

كُلَّمَا عَظُمَتْ الاستعانة قَرُبَ السَّدَاد

وهذا يدل على أن العبدَ كلما احتمَى بربِّه وخالقِهِ كلَّما كان أقربَ للسَّدادِ، فقد يعرفُ العبدُ ما أمره اللهُ به ولكن قد يجهلُ تطبيقَه ويعسرُ عليه فهْمُ المرادِ، فَإِذا اسْتِعَانَ باللهِ تُفتحُ له الأبوابُ وتُذلَّلُ له الصِّعابُ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ: «وَالإنسانُ وَإِنْ كان أقرَّ بأن محمدًا رَسُولُ اللهِ، وَأن القرآنَ حقٌّ على سبيلِ الإجمالِ؛ فأكثر ما يحتاجُ إليه من العلمِ بما ينفعُه وَيضرُّه وَما أمرَ به وَما نهَى عنه في تفاصيلِ الأمورِ وَجزئياتِها لم يعرفْه، وَما عَرَفَه فكثيرٌ منه لم يعملْ بعلمِه به، وَلو قدرَ أَنَّهُ بلغَه كل أمرٍ وَنهيٍ في القرآنِ وَالسُّنةِ، فالقرآنُ وَالسُّنةُ إنما تذكرُ فيهما الأمورُ العامةُ الكليةُ لا يمكنُ غيرُ ذلك؛ لا تذكرُ ما يخصُّ به كل عبدٍ، وَلهذا أُمِرَ الإنسانُ في مثلِ ذلك بسؤالِ الهدى إلى الصِّراطِ المستقيم ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]. وَالهدى إلى الصِّراطِ المستقيمِ يتناولُ هذا كلَّه؛ يتناولُ التعريفَ بما جاء به الرَّسولُ مفصلًا، وَيتناولُ التعريفَ بما يدخلُ في أوامرِه الكليات، وَيتناولُ إلهامَ العملِ بعلمِهِ، فَإِنَّ مجردَ العلمِ بالحقِ لا يحصلُ به الاهتداءُ إنْ لم يعملْ بعلمِه، وَلهذا قَالَ لنبيهِ بعد صلح الحديبيةِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح: ١ ـ ٢].

وقال في حَقِّ موسى وَهارون: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ۝١١٧ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١١٨﴾ [الصافات: ١١٧ ـ ١١٨].

والمسلمونَ قد تنازعُوا فيما شاء الله من الأمورِ الخبريةِ، وَالعلميةِ الاعتقاديةِ وَالعمليةِ، مع أنهم كلهم متفقون على أن محمّدًا حقٌّ، وَالقرآنَ حقٌّ، فلو حصل لكلٍّ منهم الهدى إلى الصِّراطِ المستقيمِ فيما اختلفوا فيه؛ لم يختلفوا، ثم الذين علمُوا ما أمرَ اللهُ به أكثرُهم يعصونَه وَلا يحتذونَ حذْوَه، فلو هدوا إلى الصِّراطِ المستقيمِ في تلك الأعمالِ لفعلُوا ما أُمِرُوا به وَتركُوا ما نُهوا عنه، وَالذين هداهم الله من هذه الأمةِ حتى صاروا من أولياءِ اللهِ المتقينَ

كان من أعظمِ أسبابِ ذلك دعاؤُهم الله بهذا الدعاءِ في كل صلاةٍ مع علمهم بحاجتِهم وَفاقتِهم إِلَى اللهِ تعالى دائما في أن يهديَهم الصِّراطَ المستقيمَ، فبدوامِ هذا الدعاءِ وَالافتقارِ صاروا من أولياءِ اللهِ المتقينَ.

قَالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَرِيّ: «ليس بين العبدِ وَبين ربِّه طَرِيقٌ أقرب إليه من الافتقار»[1].

وَمَا حَصَلَ فِيهِ الْهُدَى فِي الْمَاضِي فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى حُصُولِ الْهُدَى فِيهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَهَذَا حَقِيقَةُ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: «ثَبِّتْنَا وَاهْدِنَا لُزُومَ الصِّرَاطِ».

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: «زِدْنَا هُدًى». يَتَنَاوَلُ مَا تَقَدَّمَ؛ لَكِنْ هَذَا كُلُّهُ هُدًى مِنْهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛ فَإِنَّ الْعَمَلَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِالْعِلْمِ لَمْ يَحْصُلْ بَعْدُ وَلَا يَكُونُ مُهْتَدِيًا حَتَّى يَعْمَلَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِالْعِلْمِ، وَقَدْ لَا يَحْصُلُ الْعِلْمُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بَلْ يَزُولُ عَنْ الْقَلْبِ، وَإِنْ حَصَلَ فَقَدْ لَا يَحْصُلُ الْعَمَلُ، فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مُضْطَرُّونَ إِلَى هَذَا الدُّعَاءِ؛ وَلِهَذَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ صَلَاةٍ فَلَيْسُوا إِلَى شَيْءٍ مِنْ الدُّعَاءِ أَحْوَجَ مِنْهُمْ إِلَيْهِ، وَإِذَا حَصَلَ الْهُدَى إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ حَصَلَ النَّصْرُ وَالرِّزْقُ وَسَائِرُ مَا تَطْلُبُ النُّفُوسُ مِنْ السَّعَادَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ»[2].

عَلامَةُ صِحَّةِ الْقَلْبِ:

ومن عَلامَةِ صِحَّةِ الْقَلْبِ وَنجاتِه:

- أَنَّهُ لا يزالُ يضربُ على صاحبِه حتى يتوبَ إِلَى اللهِ تعالى وَينيبَ.
- أَنَّهُ لا يفترُ عَنْ ذكرِ ربِّه وَلا يفترُ عَنْ عبادَتِه.
- أَنَّهُ إذا فاتته طاعةٌ وَجدَ لفواتِها أَلَمًا أشدّ من فواتِ مالِه.
- أَنَّهُ يجدُ لذةً في العبادةِ أشدَّ من لذةِ الطَّعامِ وَالشَّرابِ.
- أَنَّهُ إذا دخلَ في الصَّلاةِ ذهبَ همُّه وَغمُّه في الدنيا.

---

(١) «صفة الصفوة» (١/ ٤١٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٠٧).

- أَنَّهُ أشحُّ بوقْتِه أن يضيعَ من الشَّحيحِ بمالِه.
- أَنَّهُ بتصحيحِ العملِ أعظمُ اهتمامًا من العملِ نفسِه.

عَلَامَةُ مَرَضِ الْقَلْبِ

ومن عَلَامَةِ مَرَضِ الْقَلْبِ:

- أَنَّهُ لَا تؤلِمُه جراحاتُ القبائحِ.
- أَنَّهُ يَجِدُ لذةً في المعصيةِ وَراحةً بعدَها.
- أَنْ يقدِّمَ الأدنَى على الأعْلَى فيهتمَّ بتوافِهِ الأُمُورِ على حسابِ دينِه.
- أَنَّهُ يكرهُ الحقَّ وَيضيقُ به صدرُه.
- الوحشةُ من الصالحينَ وَالأنسُ بالعصاةِ.
- قَبولُه للشبهةِ وَتأثُّرهُ بها.
- الخوفُ من غيرِ اللهِ.
- أَنْ لَا يعْرِفَ مَعْروفًا وَلَا ينكرَ منكرًا وَلَا يتأثرَ بموعظةٍ.
- لَا يحبُّ الطَّاعاتِ وَالأعمالَ الصالحةَ.
- يحبُّ المعاصِي.
- لَا يحبُّ ذِكْرَ اللهِ.
- لَا يحبُّ الأماكنَ الطيبةَ وَيضيقُ بها وَيأنسُ بالأماكِنِ القَبِيحَةِ.
- لَا يحبُّ أهلَ الخيرِ وَالعلمِ وَالفضلِ وَالدَّعوةِ وَيحبُّ أهلَ السُّوءِ.

مَنَافِذُ الإِصَابَةِ بِأَمْرَاضِ الْقُلُوبِ:

١ ـ **النَّظَرُ**: وَالنظرُ هو الذي يصوِّرُ الأشياءَ للقلبِ فَيُرِيْهِ الحقَّ وَالباطلَ وَالعبرَ وَالعظاتِ.

٢ ـ **السَّمعُ**: وَالسَّمعُ هو المنفذُ المؤثرُ على القلبِ، به يسمعُ الهدَى وَيسمعُ الضلالَ.

٣ ـ **التَّفكرُ**: هو نوعُ فسادٍ يَحْصُلُ للقلبِ يَفْسُدُ به تصورُهُ وَإرادَتُهُ وَيتعطلُ سيرُهُ إِلَى اللهِ ﷻ، أَوْ يمنعُه بالكليةِ.

أَمْرَاضُ القُلُوبِ

وللقلبِ أمراضٌ كثيرةٌ منها على سبيل الإيجاز:

- الرياءُ.
- وَالكبرُ.
- وَالعُجبُ.
- وَالحسدُ.
- وَالفخرُ.
- وَالخيلاءُ.
- وَحبُّ الرياسةِ.
- وَالعلوُّ في الأرضِ.

وَهذه تجمعُهَا الأصولُ: «الشُّبهاتُ وَالشَّهواتُ»، فلا يخرجُ مرضُه عَنْ شَهوةٍ، أَوْ شُبهةٍ، أَوْ مركبٍ منهما.

فمرضُ القلبِ مُقْعِدٌ عَنْ الله وَالدَّارِ الآخرةِ، وَلذلك كان من الواجبِ على عبادِ اللهِ أن يُحْيُوا قلوبَهم وَيداوِمُوا على حياتِها، فبالطاعةِ تحيا القلوبُ وَبالمعصيةِ تموتُ القلوبُ، وَكلما صَحَّ القلبُ من مرضِهِ ترحَّلَ إلى الآخرةِ وَقربَ منها حتى يصيرَ من أهلِهَا، وَكلما مرضَ القلبُ وَاعتلَّ آثرَ الدنيا وَاستوطنَهَا حتى يصيرَ من أهلها.

فذكرُ اللهِ قوتُه وَغِذَاؤُه، وَمحبتُه. وَالشَّوقُ إليه حياتُه وَنعيمُه وَلذتُه وَسرورُه، وَالالتفاتُ إلى غيرِه وَالتعلقُ بسواهُ داؤُه، وَالرجوعُ إليه دواؤُه، فإذا حصلَ له القربُ من ربِّه سكنَ إليه وَاطمأنَّ به، وَزالَ ذلك الاضطرابُ وَالقلقُ، وَانسدت تلك الفاقةُ، فَإِنَّ في القلبِ فاقةٌ لا يسدُّها شيءٌ سوى اللهِ تَعَالَى أبدًا، وَفيه شعثٌ لا يلمُّه غيرُ الإقبالِ عليه، وَفيه مرضٌ لا يشفِيه غيرُ الإخلاصِ له وَعبادتِه وَحدَه، فهو دائمًا يضربُ على صاحبِه حتى يسكنَ وَيطمئنَ إلى إلههِ وَمَعْبُودِه، فحينئذ يباشرُ رُوحَ الحياةِ، وَيذوقُ طعمهَا، وَيصيرُ له حياةٌ أخرى غيرَ حياةِ الغافلينَ المعرضينَ عَنْ هذا الأمرِ الذي له خُلِقَ الخلقُ، وَلأجلِه خُلقت

الجنَّةُ وَالنَّارُ، وَله أُرسلتْ الرُّسلُ، وَنزلتْ الكتبُ، وَلو لم يكنْ جزاءٌ إلا نفسَ وجودِهِ لكفى به جزاءً وَكَفَى بفوتِهِ حسرةً وَعقوبةً.

مُرَاعَاةُ الْقلبِ حَالَ مَرَضِهِ:

فَإِنَّ منْ أعظمِ الأشياءِ التي يجبُ على العبدِ مراعاتُها وَالاهتمامُ بِهَا القلبَ حالَ مرضِهِ، فَإِنَّ المريضَ يؤذيهِ ما لا يؤذِي الصَّحِيحَ، فيضرُّه يسيرُ الحرِّ وَالبردِ وَالعملِ وَنحو ذلكَ من الأمورِ التَّي لا يقوى عليهَا لضعفِهِ بالمرضِ. وَالمرضُ في الجملةِ يضعفُ المريضَ بجعلِ قوتِهِ ضعيفةً لا تطيقُ ما يطيقُه القويُّ، وَالصِّحةُ تحفظُ بأخذِ الأسبابِ التَّي تقوي فيه المناعةَ وتمنعُ من حلولِ المرضِ، فإذا حصلَ للمريضِ أسبابُ المرضِ زادَ مرضه وَزادَ ضعفُ قوتِهِ حتَّى ربُمَّا يهلكُ، وَإن حصلَ له ما يقوِّي القوةَ وَيزيلُ المرضَ كانَ بالعكسِ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابن تيميةَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَ«مرضُ القلبِ» ألمٌ يحصلُ في القلبِ، كالغيظِ من عدوٍّ استولى عليكَ، فَإِنَّ ذلكَ يؤلمُ القلبَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، فشفاؤهُم بزوالِ ما حصلَ في قلوبِهم من الألمِ، وَيقالُ: فلانٌ شُفِيَ غيظُهُ.

وفي القودِ استشفاءُ أولياءِ المقتولِ ونحوُ ذلكَ، فهذا شفاءٌ من الغَمِّ وَالغيظِ وَالحزنِ، وَكلُّ هذه آلامٌ تحصلُ في النفسِ، وَكذلك «الشَّكُّ وَالجهلُ» يُؤلِمُ القلب.

وَالشَّاكُّ في الشيءِ؛ المرتابُ فيهِ يتألمُ قلبُهُ حتَّى يحصلَ لهُ العلمُ وَاليقينُ، وَيقالُ للعالمِ الذَّي أجابَ بما يبينُ الحق: قد شفانِي بالجوابِ.

وَالمرضُ دونَ الموتِ، فالقلبُ يموت بالجهلِ المطلق، وَيمرضُ بنوعٍ من الجهلِ فله موتٌ وَمرضٌ، وَحياةٌ وَشِفاءٌ، وَحياتُهُ وَموتُه وَمرضُه وَشفاؤُهُ، أعظمُ من حياةِ البدنِ وَموتِهِ وَمرضِه وَشفائِه، فلهذا مرضُ القلبِ إذا وَرد عليه شبهةٌ،

أَوْ شهوةٌ قوّتْ مرضَهُ، وَإنْ حصلت لهُ حكمةٌ وَموعظةٌ كانت من أسباب صلاحِه وَشفائِه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣]؛ لأن ذلكَ أورثَ شُبهةً عندهمْ، وَالقاسيةُ قلوبُهم لِيَبَسِها، فأولئكَ قلوبُهم ضعيفةٌ بالمرضِ، فصارَ ما ألقى الشَّيطان فتنةً لهمْ، وَهؤلاء كانتْ قلوبُهم قاسيةً عَنْ الإيمانِ فصارَ فتنةً لَهُمْ.

وَقال تَعَالَى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٠].

كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [المدثر: ٣١]، لَمْ تمتْ قلوبُهم كموتِ الكفارِ وَالمنافقين، وَليست صحيحةً صالحةً كصالحِ قلوبِ المؤمنين بلْ فيها مرضُ شُبْهَةٍ وَشهوةٍ.

وَكذلكَ قولُه تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وَهو مرضُ الشَّهوةِ، فَإِنَّ القلبَ الصَّحِيحَ لو تعرضتْ له المرأةُ لم يلتفتْ إليهَا، بخلافِ القلبِ المريض بِالشَّهوةِ؛ فَإِنَّهُ لضعفِهِ يميلُ إلى ما يُعرضُ لهُ منْ ذلكَ بحسبِ قوةِ المرضِ وَضعفِه، فإذا خضعن بالقول طَمِعَ الذي في قلبه مرض»(١).

إنَّ القلبَ كُلَّما كانَ أبعدَ من اللهِ كانتْ الآفاتُ إليه أسرع، وَكُلَّما كانَ أقربَ منْ اللهِ بعدتْ عنهُ الآفاتُ، وَالبعدُ من اللهِ مراتبُ بعضُها أشدُّ منْ بعضٍ، فالغفلةُ تُبعِدُ العبدَ عَنْ اللهِ، وَبُعدُ المعصيةِ أعظمُ من بعدِ الغفلةِ، وَبعدُ البدعةِ أعظمُ من بُعد المعصيةِ، وَبُعد النِّفاقِ وَالشِّرك أعظمُ من ذلكَ كلهِ.

قَالَ الغزّالي رحمَهُ الله تَعَالَى: «اعلمْ أن كلَّ عضوٍ من أعضاءِ البدنِ خُلِقَ لفعلٍ خاصٍ به، وَإنما مرضُهُ أن يتعذرَ عليه فعله الذي خلقَ له حتى لا يصدرَ

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٩٤).

منه أصلًا، أَوْ يصدرَ منه مع نوعٍ من الاضطرابِ، فمرضُ اليدِ أن يتعذرَ عليها البطشُ، وَمرضُ العينِ أن يتعذرَ عليها الإبصارُ، وَكذلك مرضُ القلبِ أن يتعذرَ عليه فَعلُه الخاصُّ به الذي خلقَ لأجلِهِ؛ وَهو العلمُ وَالحكمةُ وَالمعرفةُ وَحبُّ اللهِ تَعَالَى وَعبادتُه، وَالتلذُّذُ بذكرِه، وَإيثارُه ذلك على كل شهوةٍ سواهُ، وَالاستعانةُ بجميعِ الشهواتِ وَالأعضاءِ عليه.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

تَتَبع الْحَالَاتِ الَّتِي يَنْشَطُ بِهَا الْقَلْبُ:

ففي كل عضوٍ فائدةٌ، وَفَائِدةُ القلبِ الحكمةُ وَالمعرفةُ، وَخاصيةُ النفسِ التي للآدمي ما يتميزُ بها عَنْ البهائمِ، فَإِنَّهُ لم يتميزْ عنها بالقوةِ على الأكل وَالوقاعِ وَالإبصارِ، أَوْ غيرها بل بمعرفةِ الأشياءِ على ما هي عليه، وَأصلُ الأشياءِ وَموجدُها وَمخترعُها هو اللهُ ﷻ الذي جعلها أشياءَ، فلو عرفَ كَلَّ شيءٍ؛ وَلم يعرفْ اللهَ ﷻ فكأنه لم يعرفْ شيئًا.

«وعلامةُ المعرفةِ المحبةُ، فمن عرفَ اللهَ تَعَالَى أحبّه، وَعلامةُ المحبةِ أن لا يُؤثرَ عليه الدنيا وَلا غيرها من المحبوباتِ، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٤﴾ [التوبة: ٢٤].

فمن عنده شيءٌ أحبّ إليه من اللهِ فقلبُه مريضٌ، كما أنَّ كلَّ معدةٍ صارَ الطينُ أحبَّ إليها من الخبزِ وَالماءِ، أَوْ سقطتْ شهوتُها عَنْ الخبزِ وَالماءِ فهي مريضةٌ، فهذه علاماتُ المرضِ، وَبهذا يُعرفُ أن القلوبَ كُلّها مريضةٌ إلا ما شاء اللهُ، إلا أن من الأمراضِ ما لا يعرفُها صاحبُها، وَمرضُ القلبِ مما لا يعرفُه صاحبُه فلذلك يغفلُ عنه، وَإن عرفه صَعُبَ عليه الصبرُ على مرارةِ دوائِه، فَإِنَّ دواءَه مخالفةُ الشهواتِ؛ وَهو نزعُ الروحِ، فَإِنْ وَجدَ من نفسِهِ قوةَ الصبرِ عليه لم يجدْ طبيبًا حاذقًا يعالِجُه، فَإِنَّ الأطباءَ هم العلماءُ؛ وَقد استولى عليهم

المرضُ، فالطبيبُ المريضُ قلما يلتفتُ إلى علاجِهِ، فلهذا صارَ الداءُ عضالًا، وَالمرضُ مزمنًا، وَاندرسَ هذا العلمُ، وَأُنكرَ بالكلية طبُّ القلوبِ، وَأنكِرَ مرضُها، وَأقبلَ الخلقُ على حبِّ الدنيا، وَعلى أعمالٍ ظاهرُها عباداتٌ وَباطنُها عاداتٌ وَمِراءاتٌ، فهذه علاماتُ أصولِ الأمراضِ.

وَأمَّا علاماتُ عَودِها إلى الصّحةِ بعد المعالجةِ، فهو أن ينظرَ في العلةِ التي يعالجُها، فَإِنْ كان يعالجُ داءَ البخلِ فهو المهلكُ المبعدُ عَنْ اللهِ ﷻ، وَإنما علاجُه ببذلِ المالِ وَإنفاقِه، وَلكنه قد يبذلُ المالَ إلى حدٍّ يصيرُ به مبذرًا؛ فيكون التبذيرُ أيْضًا داءً، فكان كمن يعالجُ البرودةَ بالحرارةِ حتى تغلبَ الحرارةُ فهو أيْضًا داءٌ، بل المطلوبُ الاعتدالُ بين الحرارةِ وَالبرودةِ، وَكذلك المطلوبُ الاعتدالُ بين التبذيرِ وَالتقتيرِ، حتى يكون على الوسطِ وَفي غايةٍ من البعدِ عَنْ الطرفينَ، إن أردتْ أن تعرفَ الوسطَ فانظرْ إلى الفعلِ الذي يوجبُه الخُلُقُ المحذورُ، فَإن كان أسهلَ عليك وَألذَّ من الذي يضادُّه فالغالبُ عليك ذلك الخُلُقُ الموجبُ له، مثل أن يكونَ إمساكُ المالِ وَجمعُه ألذَّ عندك وَأيسرَ عليك من بذْلِه لمستحقِهِ، فاعلمْ أن الغالبَ عليكَ خلقُ البخلِ فزدْ في المواظبةِ على البذلِ، فَإن صارَ البذلُ على غيرِ المستحقِّ ألذَّ عندك وَأخفَّ عليك من الإمساكِ بالحقِ، فقد غلب عليك التبذيرُ فارجعْ إلى المواظبةِ على الإمساكِ، فلا تزالُ تراقبُ نفسك وَتستدلُ على خلقِكَ بتيسيرِ الأفعالِ وَتعسيرِها حتى تنقطعَ علاقةُ قلبِكَ عَنْ الالتفاتِ إلى المالِ، فلا تميلُ إلى بذلِه وَلا إلى إمساكِه بل يصيرُ عندك كالماءِ فلا تطلبْ فيه إلا إمساكَه لحاجةِ محتاجٍ، أَوْ بذلَه لحاجةِ محتاجٍ، وَلا يترجحُ عندك البذلُ على الإمساكِ، فكلُّ قلبٍ صارَ كذلك فقدْ أتى اللهَ سليمًا عَنْ هذا المقامِ بخاصة، وَيجبُ أن يكونَ سليمًا عَنْ سائرِ الأخلاقِ حتى لا يكونَ له علاقةٌ بشيءٍ مما يتعلقُ بالدنيا، حتى ترتحلَ النفسُ عَنْ الدنيا منقطعةَ العلائقِ منها غيرَ ملتفتةٍ إليها وَلا متشوقةٍ إلى أسبابِها، فعند ذلك ترجعُ إلى ربِّها رجوعَ النفسِ المطمئنةِ راضيةً مرضيةً داخلةً في زمرةِ عبادِ اللهِ المقربينَ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا.

وَلما كان الوسطُ الحقيقيُّ بين الطرفينِ في غايةِ الغموضِ؛ بل هو أدقُّ من الشعرِ وَأحدُّ من السَّيف، فلا جرمَ أن من اسْتَوَى على هذا الصِّراطِ المستقيمِ في الدنيا جازَ على مثلِ هذا الصِّراطِ في الآخرةِ، وَقلَّما ينفكُّ العبدُ عَنْ ميلٍ عَنْ الصِّراطِ المستقيمِ ـ أعني الوسطَ ـ حتى لا يميلَ إلى أحدِ الجانبينِ فيكونَ قلبُه معلقًا بالجانبِ الذي مالَ إليه، وَلذلك لا ينفكُّ عَنْ عذابٍ ما وَاجتيازٍ على النارِ؛ وَإن كان مثلَ البرقِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: ٧١]، أي: الذين كان قربهم إلى الصِّراطِ المستقيمِ أكثرَ من بُعدهم عنه، وَلأجلِ عُسْرِ الاستقامةِ وَجَبَ على كلِّ عبدٍ أن يدعو اللهَ تَعَالَى في كل يومٍ سبعَ عشرةَ مرةٍ في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦]، إذ وَجَبَ قراءةُ الفاتحةِ في كل ركعةٍ.

فقد رُوِي أن بعضهم رأى رَسُول اللهِ ﷺ في المنامِ فقال: قد قلت يا رَسُول اللهِ: شيبتني هودٌ فَلِمَ قلت ذلك؟ فقال ﷺ: لقوله تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢](١).

فالاستقامةُ على سواءِ السبيلِ في غايةِ الغموضِ، وَلكن ينبغي أن يجتهدَ الإنسانُ في القربِ من الاستقامةِ إن لم يقدرْ على حقيقتِها، فكلُّ من أرادَ النجاةَ فلا نجاةَ له إلا بالعملِ الصالحِ، وَلا تصدرُ الأعمالُ الصالحةُ إلا عَنْ الأخلاقِ الحسنةِ، فليتفقدْ كلُّ عبدٍ صفاتِه وَأخلاقَه وَليعددْها وَليشتغل بعلاجِ وَاحدٍ وَاحدٍ فيها على الترتيب»(٢).

---

(١) حسن: «شعب الإيمان» (٢/ ٤٧٢) وأصل الحديث رواه الترمذي (٣٢٩٧) وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ وصححه الألباني.

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٦٢).

جُنُودُ الْقَلْبِ

فكما أسلفْنَا أن القلبَ هو الملكُ، وَما من ملكٍ إلا وَله جنودٌ يأتمرونَ بأمرِهِ وَيصدرونَ عَنْ رأْيِهِ، فأمرُه لديهم مطاعٌ فَإِن أمرَ أجابُوا، وَإِن نهى انتهَوْا، وَنظرًا لأن الملكَ محجوبٌ وَلا يراه إلا أصحابُ البصائرِ فَإِنَّ الذي يُرَى من الأقوالِ وَالأفعالِ جنودُهُ.

قال الغَزّالي: قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، فلله سُبْحَانَهُ في القلوبِ وَالأرواحِ وَغيرها من العوالمِ جنودٌ مجندةٌ لا يعرفُ حقيقتَها وَتفصيلَ عددِهَا إلا هو، وَنحن الآن نشيرُ إلى بعضِ جنودِ القلبِ فهو الذي يتعلقُ بغرضِنَا، وَله جندانِ: جندٌ يُرى بالأبصارِ، وَجندٌ لا يُرى إلا بالبصائرِ، وَهو في حكمِ الملكِ؛ وَالجنودُ في حكمِ الخدمِ وَالأعوانِ، فهذا معنى الجندِ، فأما جندُه المشاهدُ بالعينِ فهو اليدُ وَالرِّجلُ وَالعينُ وَالأذنُ وَاللسانُ وَسائرُ الأعضاءِ الظاهرةِ وَالباطنةِ، فَإِنَّ جميعَها خادمةٌ للقلبِ وَمسخرةٌ له، فهو المتصرفُ فيها وَالمردّدُ لها، وَقد خُلقتْ مجبولةً على طاعتِه لا تستطيعُ له خلافًا وَلا عليه تمردًا، فإذا أمر العينَ بالانفتاحِ انفتحتَ، وَإِذَا أمر الرِّجلَ بالحركةِ تحركتْ، وَإِذَا أمرَ اللسانَ بالكلامِ وَجزمَ الحكمَ به تكلمَ، وَكذا سائرُ الأعضاءِ، وَتسخيرُ الأعضاءِ وَالحواسِّ للقلبِ يشبه من وَجهٍ تسخيرَ الملائكةِ لله تَعَالَى ـ ولله المثل الأعلى ـ فإنَّهم مجبولون على الطَّاعةِ لا يستطيعونَ له خلافًا، بل ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وَإنما يفترقانِ في شيءٍ، وَهو أن الملائكةَ عليهم السلام عالمةٌ بطاعتِها وَامتثالِهَا، وَالأجفَانُ تطيعُ القلبَ في الانفتاحِ وَالانطباقِ؛ على سبيلِ التسخيرِ وَلا خبرَ لها من نفسِها، وَمن طاعتِها للقلبِ، وَإِنَّما افتقرَ القلبُ إلى هذه الجنودِ من حيث

افتقارِهِ إلى المركبِ وَالزّادِ لسفرهِ الذي لأجلِهِ خُلقَ؛ وَهو السفرُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَقطعُ المنازلِ إلى لقائه، فلأجلِهِ خُلقتِ القلوبُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وَإِنَّما مركبُه البدن وَزاده العلمُ، وَإنما الأسبابُ التي توصلُهُ إلى الزادِ وَتُمكنه من التزودِ منه هو العملُ الصالحُ، وَليس يمكنُ العبد أن يصلَ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ ما لم يسكنْ البدنُ وَلم يجاوز الدُّنيا، فَإِنَّ المنزلَ الأدنى لابد من قطعِهِ للوصولِ إلى المنزلِ الأقصى، فالدنيا مزرعةُ الآخرةِ، وَهي منزلٌ من منازلِ الهدى، وَإنما سميت دنيا لأنها أدنى المنزلتينَ، فاضطرَ إلى أن يتزودَ من هذا العالم، فالبدنُ مركبه الذي يصلُ به إلى هذا العالم، فافتقرَ إلى تعهدِ البدنِ وَحفظِهِ، وَإنما يُحفظُ البدنُ بأن يجلبَ إليه ما يوافقه من الغذاءِ وَغيرِه، وَأن يدفعَ عنه ما ينافيه من أسبابِ الهلاكِ، فافتقر لأجلِ جلبِ الغذاءِ إلى جندينِ:

- باطنٍ: وَهو الشَّهوة.
- وَظاهرٍ: وَهو اليدُ وَالأعضاءُ الجالبةُ للغذاءِ.

فخُلقَ في القلبِ من الشَّهوات ما احتاج إليه، وَخُلقتْ الأعضاءُ التي هي آلاتُ الشهواتِ، فافتقرَ لأجلِ دفعِ المهلكاتِ إلى جندينِ:

- باطنٍ: وَهو الغضبُ الذي به يدفعُ المهلكاتِ وَينتقمُ من الأعداءِ.
- وَظاهرٍ: وَهو اليدُ وَالرجلُ الذين بهما يعملُ بمقتضَى الغضبِ، وَكل ذلك بأمورٍ خارجةٍ، فالجوارحُ من البدنِ كالأسلحةِ وَغيرِها.

ثم المحتاجُ إلى الغذاءِ ما لم يعرفْ الغذاءَ لم تنفعه شهوةُ الغذاءِ وَإلفُهْ، فافتقرَ للمعرفةِ إلى جندينِ:

- باطنٍ: وَهو إدراكُ السَّمعِ وَالبصرِ وَالشَّمِّ وَاللمسِ وَالذوقِ.
- وَظاهرٍ: وَهو العينُ وَالأذنُ وَالأنفُ وَغيرُها، وَتفصيلُ وَجهِ الحاجةِ إليها وَوجهِ الحكمةِ فيها يطول.

فَجُمْلَةُ جُنُودِ القَلْبِ تحصُرُهَا ثَلاثَةُ أَصْنَافٍ:

الأول: صنفٌ باعثٌ وَمستحثٌّ، إمَّا إلى جلبِ النافعِ الموافقِ كالشَّهوةِ،

وَإما إلى دفعِ الضارِّ المنافي كالغضبِ، وَقد يعبرُ عَنْ هذا الباعثِ بالإرادَةِ.

والثاني: هو المحرِّكُ للأعضاءِ إلى تحصيلِ هذه المقاصدِ، وَيعبرُ عَنْ هذا الثاني بالقدرةِ، وَهي جنودٌ مبثوثةٌ في سائرِ الأعضاءِ لا سيما العضلاتُ منها وَالأوتارُ.

والثالث: هو المدركُ المتعرفُ على الأشياءِ كالجواسيسِ، وَهي قوةُ البصرِ وَالسمعِ وَالشمِّ وَالذوقِ وَاللمسِ، وَهي مبثوثةٌ في أعضاءٍ معينة، وَيعبرُ عَنْ هذا بالعلمِ وَالإدراكِ.

وَمع كل وَاحدٍ من هذه الجنودِ الباطنةِ جنودٌ ظاهرةٌ وَهي الأعضاءُ المركبةُ من الشَّحمِ وَاللحمِ وَالعصبِ وَالدَّمِ وَالعظمِ التي أُعدَّتْ آلاتٍ لهذه الجنودِ، فَإِنَّ قوةَ البطشِ إنما هي بالأصابعِ، وَقوةَ البصرِ إنما هي بالعينِ، وَكذا سائرُ القوَى، وَلسنا نتكلمُ في الجنودِ الظاهرةِ أعني: الأعضاءَ فإنها من عالمِ الملكِ وَالشهادةِ أي ما يدركُ بالحواسِّ، وَإنما نتكلمُ الآن فيما أيدت به من جنودٍ لم تروها، وَهذا الصِّنفُ الثالثُ وَهو المدركُ من هذه الجملةِ ينقسمُ إلى:

١ ـ ما قد أُسْكِنَ المنازلَ الظاهرةَ، وَهي الحواسُّ الخمسُ؛ أعني: السَّمعَ وَالبصرَ وَالشَّمَّ وَالذوقَ وَاللمسَ.

٢ ـ وَإلى ما أُسْكِنَ منازلَ باطنةً وَهي تجاويفُ الدماغِ، وَهي أيْضًا خمسةٌ، فَإِنَّ الإنسانَ بعد رؤيةِ الشيءِ يغمضُ عينَه فيدركُ صورتَه في نفسِه وَهو الخيالُ، ثم تبقى تلك الصورةُ معه بسببِ شيءٍ يحفظُهُ وَهو الجندُ الحافظُ، ثم يتفكّرُ فيما حفظَه فيركبُ بعضَ ذلك إلى البعضِ، ثم يتذكرُ ما قد نسيَهُ وَيعودُ إليه، ثم يجمعُ جملةَ معانِي المحسوساتِ في خيالِهِ بالحسِّ المشتركِ بين المحسوساتِ، ففي الباطنِ حسٌّ مشتركٌ وَتخيلٌ وَتفكرٌ وَتذكرٌ وَحفظٌ، وَلولا أن خلقَ اللهُ قوةَ الحفظِ وَالفكرِ وَالذكرِ وَالتخيلِ؛ لكان الدماغُ يخلُو عنه كما تخلُو اليدُ وَالرجلُ عنه، فتلك القوَى أيْضًا جنودٌ باطنةٌ وَأماكنُها أيْضًا باطنةٌ»[1].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٦).

اَلْقَلْبُ وَالمَعْرَكَةُ

فإذَا دارتْ المعركةُ فمبدؤُها هو القلبُ، فهو الذي يقودُها وَالجندُ له تبعٌ، فكلما قوي القلبُ قويتْ جنودُهُ، وَكلما استقامتْ جنودُهُ وَقويتْ كان النّصرُ حليفَهُ، وَكلما شطتْ جنودُهُ وَنأتْ وَضعفتْ كلّما كان هلاكُه أقربَ.

قَالَ الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «وَمِنْ عقوباتِ الذنوبِ وَالمعاصِي؛ أنها مددٌ من الإنسانِ يمدُّ به عدوَّه عليه، وَجيشٌ يقويه به على حربه، وَذلك أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ ابتلى هذا الإنسانَ بعدوٍّ لا يفارِقُه طرفةَ عينٍ، وَلا ينامُ عنه وَلا يغفلُ عنه، يراهُ هو وَقبيله من حيث لا يراهُ، يبذلُ جهدَهُ في معاداتِه في كل حالٍ، وَلا يدعُ أمرًا يكيدُه به يقدرُ على إيصالِه إليه إلا أوصلَه إليه، وَيستعينُ عليه ببني جنسِهِ من شياطينِ الجنِّ، وَغيرِهم من شياطينِ الإنسِ، فقد نصبَ له الحبائلَ، وَبغَى له الغوائلَ، وَمدَّ حولَه الأشراكَ، وَنصبَ له الفخاخَ وَالشِّباكَ، وَقال لأعوانِه: دونكم عدوكم وَعدو أبيكم لا يفوتكم، وَلا يكون حظُّه الجنةَ وَحظكم النار، وَنصيبُه الرحمةُ وَنصيبكم اللعنةُ، وَقد علمتم أن ما جرى عليَّ وَعليكم من الخزيِ وَاللعنِ وَالإبعادِ من رحمةِ اللهِ بسببِهِ وَمن أجلِهِ، فابذلوا جهدَكم أن يكونوا شركاءَنا في هذه البليةِ، إذ فاتتنَا شركةُ صالِحيهم في الجنةِ، وَقد أعلمنا اللهُ سُبْحَانَهُ بذلك كله من عدوِّنا، وَأمرَنا أن نأخذَ له أُهْبَته، وَنعدَّ له عدَّته.

ولما علم سُبْحَانَهُ أن آدمَ وَبنيه قد بُلوا بهذا العدوِّ؛ وَأنه قد سُلط عليهم أمدَّهم بعساكِرَ وَجندٍ يلقونه بها، وَأمدَّ عدوَّهم أيضًا بجندٍ وَعساكرَ يلقاهُمْ بها، وَأقامَ سوقَ الجهادِ في هذه الدّارِ في مدةِ العمرِ، التي هي بالإضافةِ إلى الآخرةِ كنفسٍ وَاحدٍ من أنفاسِهَا، وَ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ

﴿ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ [التوبة: ١١١]، وَأخبرَ أن ذلكَ وَعدٌ مؤكدٌ عليه في أشرفِ كتبِه، وَهي التوراةُ وَالإنجيلُ وَالقرآنُ، وَأخبرَ أَنَّهُ لا أوفَى بعهدِه منه سبحانه، ثم أمرهم أن يستبشِرُوا بهذه الصفقةِ التي من أرادَ أن يعرفَ قدرَهَا فلينظرْ إلى المشترِي من هو؟ وَإلى الثمنِ المبذولِ في هذه السلعةِ، وَإلى من جرى على يديه هذا العقدُ، فأيُّ فوزٍ أعظمُ من هذا؟ وَأيُّ تجارة أربحُ منه؟.

ثم أكَّدَ سُبۡحَانَهُ معهم هذا الأمرَ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٣].

وَلم يُسَلِّط هذا العدوَّ على عَبدِه المؤمِنِ الذي هو أحبُّ أنواع المخلوقاتِ إليه، إلا لأنَّ الجهادَ أحبُّ شيءٍ إليه، وَأهلُه أرفعُ الخلْقِ عِنْدَهُ درجات، وَأقربُهُم إليه وَسِيلة، فعقد سُبۡحَانَهُ لواءَ هذه الحرب لخلاصة مخلوقاته، وَهو القلب الذي هو محلُّ معرفته، وَمحبته، وَعُبودِيته، وَالإخلاص له، وَالتَّوكُّل عليه، وَالإنابة إليه، فولَّاه أمر هذه الحرب، وَأيده بجندٍ من الملائكة لا يفارقونه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١]، يعقبُ بعضُهم بعضًا، كلَّما ذهب بدل جاء بدل آخر، يثبتونه، وَيأمُرُونه بالخير، وَيحضُّونه عليه، وَيعدونه بكرامةِ الله وَيصبرونه، وَيقولون: إنما هو صبر ساعةٍ، وَقد استرحت راحة الأبد.

ثم أمدَّه سُبۡحَانَهُ بجندٍ آخر من وَحيه وَكلامه. فأرسل إليه رسُوله ﷺ، وَأنْزَلَ إليه كتابه، فازداد قوةً إلى قوته، وَمددًا إلى مدده، وَعدةً إلى عدته، وَأيده مع ذلك بالعقلِ وَزيرًا له وَمدبرًا. وَبالمعرفة مشيرةً عليه ناصحةً له، وَبالإيمان مثبتًا له وَمؤيدًا وَناصرًا، وَباليقين كاشفًا له عَنْ حقيقة الأمر، حتى كأنه يُعاين ما وَعد الله تَعالَى به أولياءه وَحزبه على جهاد أعدائه، فالعقل يدبر

أمر جيشه، وَالمعرفة تصنعُ له أمورَ الحرب وَأسبابَها وَمواضعها اللائقةَ بها، وَالإيمان يثبته وَيقويه وَيصبره، وَاليقين يقدم به وَيحمل به الحملات الصادقة.

ثم أمد سُبْحَانَهُ القائم بهذه الحرب بالقوى الظاهرة وَالباطنة، فجعل العينَ طليعتَه، وَالأذن صاحبَ خبره، وَاللسان ترجمانَه، وَاليدين وَالرجلين أعوانَه، وَأقام ملائكتَه وَحملةَ عرشه يستغفرون له، وَيسألون له أن يقيَه السَّيئاتِ وَيدخلَه الجناتِ، وَتولى سُبْحَانَهُ الدفع وَالدفاع عنه بنفسه، وَقال: هؤلاء حزبي وَحزب الله هم المفلحون، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وَهؤلاء جندي، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣].

وعلّم سُبْحَانَهُ عبادَه كيفيةَ هذه الحربِ وَالجهادِ. فجمعها لهم في أربع كلمات فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وَلا يتمُّ أمر هذا الجهادِ إلا بهذه الأمورِ الأربعةِ، فلا يتم له الصبرُ إلا بمصابرةِ العدو، وَهي مقاومتُه وَمنازلتُه، فإذا صابر عدُوَّه احتاج إلى أمرٍ آخرَ وَهو المرابطةُ، وَهي لزومُ ثغرِ القلبِ وَحِراسَتِه لئلا يدخل معه العدوُّ، وَلزوم ثغر العين وَالأذن وَاللسان وَالبطن وَاليد وَالرجل، فهذه الثغور منها يدخل العدو فيجوسُ خلال الديارِ؛ وَيفسد ما قدر عليه، فالمرابطة لزوم هذه الثغور، وَلا يُخَلِّي مكانها فيصادف العدو الثغر خاليًا فيدخل منه.

فهؤلاء أصحابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ خيرُ الخلق بعد النبيين وَالمرسلين، وَأعظَمُهُم حمايةً وَحِراسةً من الشَّيطانِ، وَقد أخلوا المكان الذي أُمروا بلزومه يوم أُحد، فدخل منه العدو، فكان ما كان.

وجماعُ هذه الثلاثةِ وَعمودُها الذي تقوم عليه هو تقوى الله تعالى، فلا ينفعُ الصبرُ وَلا المصابرة وَالمرابطة إلا بالتقوى، وَلا تقوم التقوى إلا على ساقِ الصبر»(١).

---

(١) «الجواب الكافي» (١٣٨).

اِلْتِقَاءُ الْجَيْشَيْنِ

وَتَبْدَأُ المعركةُ بَيْنَ القلبِ وبين آفاتِهِ، فكلَّمَا حاولتْ آفةٌ من الآفاتِ صَدَّهَا جُنْدَيٌّ مِنْ جُنُودِ القلْبِ، ونتيجةُ المعركةِ تُحْسَمُ حسب قوةِ القَلْبِ وضعفِهِ لا قوة الجيشِ وعددِه، وكما قيل: «مَلِكٌ قَوِيٌّ وَجَيْشٌ ضَعِيفٌ خَيْرٌ مِنْ مَلِكٍ ضَعِيفٍ وَجَيْشٍ قَوِي».

قال ابن القيم: «فانظر الآن فيك إلى التقاء الجيشين، وَاصطدام العسكرين، وَكيف تُدال مرة وَيُدال عليك مرة أخرى!! أقبلَ مَلكُ الكفَرة وَعساكره، فوجد القلبَ في حصنه جالسًا على كرسي مملكتِه، أمرُه نافذٌ في أعوانه، وَجندُه قد حَفُّوا به، يقاتلون عنه وَيدافعون عَنْ حَوزته، فلم يمكنه الهجوم عليه إلا بمخامرة[1] بعض أمرائه وَجنده عليه، فسأل عَنْ أخص الجند به وَأقربهم منه منزلة، فقيل له: هي النفس، فقال لأعوانه: ادخلوا عليها من مرادها، وَانظروا مواقعَ محبتِها وَما هو محبوبُها، فعِدوها به، وَمنُّوها إياه، وَانقشوا صورة المحبوبِ فيها في يقظتها وَمنامها، فإذا اطمأنت إليه وَسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشَّهوةِ وَخطاطيفَها، ثم جروها بها إليكم، فإذا خامرت على القلب وَصارت معكم عليه، ملكتم ثغورَ العين وَالأذن وَاللسان وَالفم وَاليد وَالرجل، فرابطوا على هذه الثغور كلَّ المرابطةِ، فمتى دخلتم منها إلى القلب فهو قتيل أو أسير أو جريح مُثْخَنٌ بالجراحات، ولا تُخلّوا هذه الثغور، ولا تُمكنوا سريةً تدخلُ فيها إلى القلبِ فتخرجكم منها، وَإن غُلبتم فاجتهدوا في إضعاف السريةِ وَوَهَنِها حتى لا تصل إلى القلب وَإن وَصلت إليه وَصلت ضعيفة لا تغني عنه شيئًا».

---

(١) المخامرة: الغش والمخادعة ممن تظنه معك.

اَلْمَعْرَكَةُ عِنْدَ ثَغْرِ اَلْعَينِ:

وتبدأ المعركة مع الجوارح جارحةً جارحةً، والقلب متأهبٌ آمرٌ ناهٍ لكل عضوٍ من أعضاء البدن، ويشتد حصارُ الآفاتِ وتجمُّعها عند أخطرِ الأعضاءِ مكانةً وأعظمِها فائدةً وأشدِّها أثرًا على القلب والعين والأذن واللسان وغيرها من الأعضاء.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى على لسان أعداء القلب: «فإذا استوليتم على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين أن يكون نظره اعتبارًا، بل اجعلوا نظره تفرجًا وَاستحسانًا وَتلهيًا، فَإِن استَرَقَ نَظْرةَ عِبرةٍ؛ فأفسدوها عليه بنظرةِ الغفلةِ وَالاستحسانِ وَالشَّهوة، فَإِنَّه أقربُ إليه، وَأعلقُ بنفسه، وَأخفُّ عليه، وَدونكم ثغر العين، فَإِنَّ منه تنالون بغيتكم، فإني ما أفسدت بني آدم بشيء مثل النظر، فإني أبذر به في القلب بذر الشَّهوة، ثم أسقيه بماء الأُمنية، ثم لا أزال أَعِدُه وَأُمنيه حتى أُقويَّ عزيمته، وَأقوده بزمام الشَّهوة إلى الانخلاع من العصمة، فلا تهملوا أمر هذا الثغر، وَأفسدوه بحسب استطاعتكم، وَهوّنوا عليه أمره، وَقولوا له: مقدار نظرة تدعوك إلى تسبيح الخالق، وَالتأمل لبديع صنيعه، وَحسن هذه الصورة التي إنما خُلقت ليستدلَ بها الناظر عليه، وَما خلق الله لك العينين سُدى، وَما خلق هذه الصورة ليحجبَها عَنْ النظر، وَإن ظفرتم به قليل العلم فاسد العقل، فقولوا له: هذه الصورة مظهر من مظاهر الحقِّ وَمجلى من مجاليه، فادعوه إلى القول بالاتحاد[1]، فَإِن لم يقبل فالقول بالحلول العام[2]، أَوْ الخاص[3] وَلا

(١) «أصحاب الاتحاد» الذين يقولون: إن الخالق والمخلوق متحدان في ذات واحدة ـ تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرًا ـ.

(٢) الذين يقولون بـ«الحلول العام» أو «وحدة الوجود»، أي أن هذا العالَم هو الرب والإله، وهو الخالق والمخلوق معًا ـ تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرًا ـ.

(٣) «الحلول الخاص» أن تحل الذات الإلهية في ذات أخرى، كما تقول النَّصَارَى في المسيح، حيث يقولون: إن الألوهية حلت في المسيح. فعندما كَانَ يحيي الموتى كانت الألوهية هي التي تحيي الموتى ـ تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرًا ـ.

تَقْنَعوا منه بدون ذلك، فَإِنَّهُ يصير به من إخوان النَّصارى، فمروه حينئذٍ بالعفة وَالصيانة، وَالعبادة وَالزهد في الدنيا، وَاصطادوا عليه وَبه الجهال، فهذا من أكبر خلفائي وَأكبر جندي، بل أنا من جنده وَأعوانه».

اَلْمَعْرَكَةُ عِنْدَ ثَغْرِ الْأُذُنِ:

ثم يقول رَحِمَهُ اللهُ: «امنعوا ثغر الأذن أن يدخلَ منه ما يُفسد عليكم الأمر، فاجتهدوا أن لا تدخلوا منه إلا الباطل، فَإِنَّهُ خفيفٌ على النفس، تستحليه وَتستحسنه، تخيروا له أعذب الألفاظ وَأسحرها للألباب، وَامزجوه بما تهوى النَّفسُ مزجًا، وَألقوا الكلمةَ، فَإِن رأيتم منه إصغاء إليها فزجُّوه بأخواتها، وَكلما صادفتم منه استحسانَ شيء فالهجوا له بذكره، وَإياكم أن يدخلَ من هذا الثغر شيءٌ من كلام الله، أَوْ كلام رسوله ﷺ، أَوْ كلام النُّصحاء، فَإِن غُلبتم على ذلك وَدخل من ذلك شيء فحُولوا بينه وَبين فهمه وَتدبره؛ وَالتفكر فيه وَالعظة به، إما بإدخال ضده عليه، وَإما بتهويل ذلك وَتعظيمه، وَأن هذا أمرٌ قد حيل بين النفوس وَبينه فلا سبيل لها إليه، وَهو حِمل يثقلُ عليها لا تستقل به وَنحو ذلك، وَإمّا بإرخاصه على النفوس، وَأن الاشتغالَ ينبغي أن يكونَ بما هو أغلى عند النّاس، وَأعزُّ عليهم، وَأغربُ عندهم، وَزبونه القابلون له أكثر، وَأما الحق فهو مهجور، وَقائله مُعرِّض نفسه للعداوة، وَالرابحُ بين النّاس أولى بالإيثار وَنحو ذلك، فتدخلون الباطل عليه في كل قالب يقبله وَيخف عليه، وَتخرجون له الحقَّ في كل قالب يكرهه وَيثقل عليه.

وإذا شئت أن تعرفَ ذلك فانظر إلى إخوانهم من شياطين الإنس، كيف يخرجون الأمر بالمعروف وَالنهي عَنْ المنكر في قالب كثرة الفضول، وَتتبع عثراتِ النّاس، وَالتعرض من البلاء لما لا يطيق، وَإلقاء الفتن بين النّاس، وَنحو ذلك، وَيخرجون أتباع السنة، وَوصف الرب تَعَالَى بما وَصف به نفسه وَوصفه به رسوله ﷺ في قالب التجسيم وَالتشبيه وَالتكييف، وَيسمون عُلوَّ الله على خلقه وَاستواءَه على عرشه وَمباينتَه لمخلوقاته تحيزًا، وَيسمون نزوله إلى

سماء الدنيا وَقوله: «مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ»[1] تحركًا وَانتقالًا، وَيسمون ما وُصف به نفسه من اليدِ وَالوجهِ أعضاء وَجوارح، وَيسمون ما يقوم به من أفعاله حوادث، وَما يقوم به من صفاته أعراضًا، ثم يتوصلون إلى نفي ما وَصف به نفسه بنفي هذه الأمور، وَيوهمون الأغمارَ وَضعفاء البصائر أن إثباتَ الصفاتِ التي نطق بها كتابُ الله وَسنةُ رسوله ﷺ تستلزم هذه الأُمور، وَيُخرجون هذا التعطيل في قالب التنزيه وَالتعظيم، وَأكثرُ النّاس ضعفاءُ العقولِ يقبلون الشيء بلفظه، وَيردونه بعينه بلفظ آخر، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] فسماه زخرفًا، وَهو باطل؛ لأن صاحبه يزخرفه وَيزينه ما استطاع، وَيلقيه إلى سمع المغرور، فيغتر به.

والمقصود: أن الشَّيطان قد لزم ثغر الأذن، أن يُدخل فيها ما يضر العبد وَلا ينفعه، وَيمنع أن يدخل إليها ما ينفعه، وَإن دخل بغير اختياره أفسده عليه».

اَلْمَعْرَكَةُ عِنْدَ ثَغْرِ اللِّسَانِ:

ثم يقول: «قوموا على ثغر اللسان، فَإِنَّه الثغر الأعظم، وَهو قبالةُ الملك، فأجروا عليه من الكلام ما يضره وَلا ينفعه، وَامنعوه أن يجريَ عليه شيءٌ مما ينفعه من ذكر الله تعالى، وَاستغفاره، وَتلاوة كتابه، وَنصيحة عباده، وَالتكلم بالعلم النافع، وَيكون لكم في هذا الثغر أمران عظيمان، لا تبالون بأيهما ظفرتم:

أحدهما: التّكلم بالباطل، فَإِنَّ المتكلم بالباطل أخٌ من إخوانكم وَمن أكبر جندكم وَأعوانكم.

والثاني: السُّكوت عَنْ الحق، فَإِنَّ السّاكت عَنْ الحق أخ لكم أخرس،

(١) رَوَاهُ البخاري (١١٤٥)، مُسْلِمٌ (٧٥٨).

كما أن الأول أخ ناطق، وَربما كان الأخ الثاني أنفع أخويكم لكم، أما سمعتم قول النَّاصح: «المتكلمُ بالباطِلِ شَيْطانٌ نَاطِقٌ، وَالسَّاكِتُ عَنْ الحقِّ شَيْطَانٌ أَخْرَسٌ».

فالرباطَ الرباطَ على هذا الثغرِ أن يتكلم بحق، أَوْ يمسك عَنْ باطل، وَزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق، وَخوِّفوه من التكلم بالحق بكل طريق.

واعلموا يا بني أن ثغر اللسان هو الذي أُهْلِك منه بَنِي آدم، وَأَكُبُّهُمْ منه على مَناخرِهم في النار، فكم لي من قتيلٍ وَأسيرٍ وَجريح أخذته من هذا الثغرِ!.

وأُوصيكم بوصية فاحفظوها: لينطقْ أحدُكم على لسان أخيه من الإنس بالكلمة، وَيكون الآخر على لسان السامع، فينطق باستحسانها وَتعظيمها وَالتعجب منها، وَيطلب من أخيه إعادتها، وَكونوا أعوانًا على الإنس بكل طريق، وَادخلوا عليهم من كل باب، وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ. أما سمعتم قَسَمي الذي أقسمت به لربهم حيث قلت: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧].

أَو ما تروني قد قعدت لابن آدم بطرُقه كُلّها، فلا يفوتني من طريق إلا قعدت له بطريقٍ غيرِه، حتى أصيبَ منه حاجتي، أَوْ بعضَها؟ وَقد حذرهم ذلك رَسُولهُم ﷺ، وَقال لهم كما روي عَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِهٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الشَّيطان قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ: أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ. قَالَ: فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ: أَتُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ. قَالَ: فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، قَالَ: ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ لَهُ: هُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقَسَّمُ الْمَالُ. قَالَ: فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ

فَمَاتَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»[1].

فهكذا فاقعدوا لهم بكُلِّ طرق الخير، فإذا أراد أحدهم أن يتصدقَ فاقعدوا له على طريق الصدقة وَقولوا له في نفسه: أَتُخْرِج المال فتبقى مثل هذا السائل، وَتصير بمنزلته أنت سواء؟ أَوْ ما سمعتم ما ألقيت على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه، فقال: هي أموالنا إن أعطيناكموها صرنا مثلكم، وَاقعدوا له بطريق الحج، فقولوا طريقة مَخُوفةٌ مشقة، يتعرض سالكُها لتلف النفسِ وَالمال، وَهكذا فاقعدوا على سائر طرق الخير بالتنفير عنها وَذكر صعوباتِها وَآفاتِها، ثم اقعدوا لهم على طرق المعاصي فحسِّنوها في أعين بني آدم، وَزينونها في قلوبهم، وَاجعلوا أكثرَ أعوانِكم على ذلك النِّسَاء، فمن أبوابهن فادخلوا عليهم، فنعم العون هن لكم، ثم الزموا ثغر اليدين وَالرجلين، فامنعوها أن تبطش بما يضركم وَتمشي فيه».

أَكْبَرُ الْأَعْوَانِ فِي الْمَعْرَكَةِ:

ثم يقول رَحِمَهُ اللهُ: «واعلموا أن أكبر أعوانكم على لزومِ هذه الثغور مصالحةُ النفسِ الأمارةِ، فأعينوها وَاستعينوا بها، وَأمدّوها وَاستمدوا منها، وَكونوا معها على حرب النفس المطمئنة، فاجتهدوا في كسرِها وَإبطالِ قواها، وَلا سبيل إلى ذلك إلا بقطعِ موادِّها عنها، فإذا انقطعت موادُّها وَقويت موادُّ النفس الأمارة، وَانطاعت لكم أعوانها؛ فاستنزلوا القلب من حصنه، وَاعزلوه عَنْ مملكته، وَولوا مكانه النفسَ الأمارة، فإنها لا تأمرُ إلا بما تَهوُونه وَتحبونه، وَلا تجيئكم بما تكرهونه البتة، مع أنها لا تخالفكم في شيء تشيرون به عليها، بل إذا أشرتم عليها بشيء بادرت إلى فعله، فَإِن أحسستم من القلبِ

---

(١) صحيح: رَوَاهُ النسائي (٣١٣٤)، أَحْمَدُ (٣/ ٤٨٣)، ابن حبان (٤٥٩٣)، الطبراني في «المعجم الكبير» (٦٥٥٨).

منازعة إلى مملكته، وَأردتم الأمن من ذلك فاعقدوا بينه وَبين النفسِ عقد النِّكاح، فزينوها وَجملوها، وَأروها إياه في أحسن صورة عروس توجد، وَقولوا له: ذُق طعم هذا الوصال، وَالتمتع بهذه العروس، كما ذقت طعم الحرب وَباشرت مرارة الطعن وَالضرب، ثم وَازن بين لذة هذه المسالمة وَمرارة تلك المحاربة، فدع الحربَ تَضَعُ أوزارها، فليست بيوم وَتنقضي، وَإنما هو حرب متصل بالموت، وَقواك تضعف عَنْ حرب دائم، واستعينوا يا بني بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما:

أحدهما: جند الغفلة، فأغلقوا قلوب بني آدم عَنْ الله تَعَالَى وَالدار الآخرة بكل طريق، فليس لك شيءٌ أبلغُ في تحصيل غرضكم من ذلك، فَإِنَّ القلب إذا غفل عَنْ الله تَعَالَى تمكنتم منه وَمن إغوائه.

والثاني: جندُ الشهواتِ، فزينوها في قلوبهم، وَحسنوها في أعينهم، وَصُولوا عليهم بهذين العسكرين، فليس لكم من بني آدم أبلغ منهما، وَاستعينوا على الغفلة بالشهوات، وَعلى الشهوات بالغفلة وَاقرنوا بين الغافلين، ثم استعينوا بهما على الذاكر، وَلا يغلب وَاحد خمسة، فَإِنَّ مع الغافلين شياطين صاروا أربعة وَشيطان الذاكر معهم، وَإِذَا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم من ذكر الله أو مذاكرة أمره ونهيه ودينه ولم تقدروا على تفريقهم؛ فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من الإنس البطالين، فقربوهم منهم، وَشوِّشوا عليهم بهم.

وبالجملة فأعدُّوا للأمور أقرانها، وَادخلوا على كل وَاحد من بني آدم من باب إرادته وَشهوته، فساعدوه عليها، وَكونوا أعوانًا له على تحصيلها، وَإِذَا كان الله قد أمرهم أن يصبروا لكم، وَيصابروكم، وَيرابطوا عليكم الثغور، فاصبروا أنتم وَصابروا وَرابطوا عليهم بالثغور، وَانتهزوا فرصكم فيهم عند الشَّهوة وَالغضب، فلا تصطادون بني آدم في أعظم من هذين الموطنين.

واعلموا أن منهم من يكون سلطانُ الشَّهوة عليه أغلبَ؛ وَسلطانُ غضبه

ضعيفٌ مقهور، فخذوا عليه طريق الشَّهوة، وَدعوا طريق الغضب، وَمنه من يكون سلطان الغضب عليه أغلب، فلا تخلوا طريق الشَّهوة قلبه، وَلا تعطلوا ثغرها؛ فإنَّ منْ لم يملك نفسه عند الغضب فَإِنَّهُ بالحري أن لا يملك نفسه عند الشَّهوة، فزوجوا بين غضبه وَشهوته، وَامزجوا أحدهما بالآخر، وَادعوه إلى الشَّهوة من باب الغضب، وَإلى الغضب من طريق الشَّهوة.

واعلموا أَنَّهُ ليس لكم في بني آدم سلاحٌ أبلغُ من هذين السّلاحين، وَإنما أخرجت أبويهم من الجنة بالشَّهوة، وَإنما ألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب، فَبِه قَطَعْتُ أرحامهم وَسفَكْتُ دِماءَهم، وَبه قتل أحد ابني آدم أخاه.

واعلموا أن الغضبَ جمرةٌ في قلب ابن آدم، وَالشَّهوةُ نارٌ تثور من قلبه، وَإنما تُطفأُ النار بالماءِ وَالصَّلاةِ وَالذكرِ وَالتكبيرِ، فإياكم أن تمكنوا ابنَ آدم عند غضبه وَشهوته من قربان الوضوءِ وَالصَّلاة، فَإِنَّ ذلك يطفئُ عنهم نارَ الغضب وَالشَّهوة، وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليكم بالصبر وَالصَّلاة، فحُولوا بينهم وَبين ذلك، وَأنسوهم إياه، وَاستعينوا عليهم بالشَّهوة وَالغضب، وَأبلغُ أسلحتِكم فيهم وَأنكاها: الغفلةُ، وَاتباعُ الهوى، وَأعظم أسلحتهم فيكم وَأمنع حصونهم: ذكر الله، وَمخالفة الهوى. فإذا رأيتم الرجل مخالفًا لهواه فاهربوا من ظله، وَلا تدنوا منه.

والمقصود: أن الذنوب وَالمعاصي سلاحٌ وَمددٌ يمد بها العبدُ أعداءه، وَيعينهم بها على نفسه، فيقاتلونه بسلاحه، وَيكون معهم على نفسه، وَهذا غاية الجهل:

مَا يَبْلُغُهُ الأعْداءُ مِنْ جَاهِلٍ ... ما يبلغُ الجاهِلُ مِنْ نفسِهِ

ومن العجائب أن العبد يسعى بجهده في هوانِ نفسه، وَهو يزعم أَنَّهُ لها مكرمٌ، وَيجتهد في حرمانها أعلى حظوظها وَأشرفها، وَهو يزعم أَنَّهُ يسعى في حظها، وَيبذل جهده في تحقيرها وَتصغيرها وَتدسيتها، وَهو يزعم أَنَّهُ يعليها وَيرفعها وَيكبرها.

وكان بعض السلف يقول في خطبته: «ألا رُبّ مُهِينٍ لنفسه وَهو يزعم أَنَّهُ لها مكرم، وَمُذلٌّ لنفسه وَهو يزعم أَنَّهُ لها مُعزٌّ، وَمُصغرٍ لنفسه وَهو يزعم أَنَّهُ لها مكبر، وَمُضيِّعٍ لنفسه وَهو يزعم أَنَّهُ مراعٍ لحفظها، وَكفى بالمرءِ جهلًا أن يكون مع عدوه على نفسه، يبلغ منها بفعله ما لم يبلغ منه عدوه ـ والله المستعان ـ»[1].

(١) «الداء وَالدواء» (١٤١ ـ ١٥٠).

الهَوَى وَالمعْرَكَة

تعرِيفُ الهَوَى: هو محبةُ الإنسانِ الشيءَ وَغَلَبَتُه على قلبه؛ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] معناه: نَهاها عَنْ شَهَوَاتِها وَما تدعو إِليه من معاصي الله ﷻ(١).

فالهوى: دَافعٌ داخلُ الإنسانِ يحركه إلى ما يحب، وَمَيْلُ الطّبعِ إلى ما يلائمه، وَهذا الميل قد خلق في الإنسان لضرورة بقائه، فَإِنَّهُ لولا ميلُه إلى المطعم ما أكل، وَإلى المشرب ما شرب، وَإلى المنكح ما نكح، وَكذلك كل ما يشتهيه، فالهوى مستجلب له ما يفيد، كما أن الغضبَ دافعٌ عنه ما يؤذي، فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق، وَإنما يذم المفرط من ذلك، وَهو ما يزيد على جلب المصالح وَدفعِ المضار.

ولما كان الغالبُ من مُوافق الهوى أَنَّهُ لا يقف منه على حدّ المنتفع أُطلق ذمّ الهوى وَالشّهوات لعمومِ غلبةِ الضَّررِ؛ لأنه يبعد أن يفهمَ المقصودَ من وَضعِ الهوى في النفس، وَإِذَا فهم تعذر وَجود العمل به وَندر، مثالُه أن شهوة المطعم إنما خلقت لاجتلابِ الغذاء، فيندر من يتناول بمقتضى مصلحته وَلا يتعدى، فَإِن وَجد ذلك انغمر ذكر الهوى في حقّ هذا الشخص وَصار مستعملًا للمصالح، وَأما الأغلب من النّاس فإنهم يوافقون الهوى فَإِنَّ حصلت مصلحة حصلت ضمنًا وَتبعًا.

فَإِنَّ القلب كالمرآة وَالهوى كالصدأ فيها، فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي عليه، وَإِذَا صدئت لم تنطبع فيها صور

---

(١) «لسان العرب» مادة: «هوا».

المعلومات فيكون علمه وَكلامه من باب الخرص وَالظنون.

ولذلك فَإِنَّ اتباع الهوى يطمس نور العقل، وَيعمي بصيرة القلب، وَيصد عَنْ اتباع الحق، وَيضل عَنْ الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة العبرة معه البتة، وَالعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه وَنظره، فأَرَتْه نفسُه الحسنَ في صورة القبيح، وَالقبيحَ في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنى له الانتفاع بالتذكر وَالتفكر أَوْ بالعظة، فكلما ضعف نور الإيمان في القلب كلما كانت الغلبةُ للهوى.

وعلى هذا فَإِنَّ اتباع الهوى أصلٌ في الغي وَالضلال وَعدم الهدى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قَالَ ابن الجوزي: «اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللَّذةِ الحاضرةِ من غير فكر في عاقبة، وَيحث على نيل الشّهوات عاجلًا وَإن كانت سببًا للألم وَالأذى في العاجل وَمنع لذّاتٍ في الآجل.

فأما العاقل فَإِنَّهُ ينهى نفسه عَنْ لذةٍ تعقب ألمًا، وَشهوةٍ تورِث ندمًا، وَكفى بهذا القدرِ مدحًا للعقل وَذمًا للهوى.

ألا ترى أن الطفل يؤثر ما يهوى وَإن أداه إلى التلف، فيفضل العاقل عليه بمنع نفسه من ذلك؛ وَقد يقع التساوي بينهما في الميل بالهوى.

وبهذا القدر فُضِّل الآدميُّ على البهائم ـ أعني ملكة الإرادة ـ لأن البهائم

وَاقفة مع طباعها لا نظر لها إلى عاقبة وَلا فكر في مآل، فهي تتناول ما يدعوها إليه الطبع من الغذاء إذا حضر، وَتفعل ما تحتاج إليه من الرَّوث وَالبول أيَّ وَقت اتفق، وَالآدمي يمتنع عَنْ ذلك بقهر عقله لطبعه.

وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالبًا وَجب عليه أن يرفعَ كلَّ حادثةٍ إلى حاكم العقل، فَإِنَّهُ سيشير عليه بالنظر في المصالح الآجلة، وَيأمره عند وَقوع الشبهة باستعمال الأحوط في كف الهوى إلى أن يتيقن السلامة من الشر في العاقبة.

وينبغي للعاقل أن يتمرن على دفع الهوى المأمونِ العواقبِ ليستمر بذلك على ترك ما تؤذي غايته، وليعلم العاقلُ أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذونها وَهم مع ذلك لا يستطيعون تركها لأنها قد صارت عندهم كالعيش الاضطراري، وَلهذا ترى مدمن الخمر وَالجماع لا يلتذ بذلك عُشر التذاذ من لم يدمن؛ غير أن العادة تقتضيه ذلك، فيلقي نفسه في المهالك لنيل ما يقتضيه تَعَوُّده، وَلو زال رَيْن الهوى عَنْ بصر بصيرته لرأى أَنَّهُ قد شقي من حيث قدَّر السعادة، وَاغتم من حيث ظنَّ الفرح، وَأَلِمَ من حيث أراد اللذة، فهو كالحيوان المخدوع بحب الفخ لا هو نال ما خُدع به وَلا أطاق التخلص مما وَقع فيه»[(١)].

ولما اختلف الهوى وَالهدى من الله؛ كان متبع الهوى ضالاً، فَإِنَّ اتباع الإنسان لما يهواه هو أخذ القول وَالفعل الذي يحبه، وَردُّ القول وَالفعل الذي يبغضه بلا هدى من الله، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص: ٥٠].

وقَالَ تَعَالَى لِدَاوُدَ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [ص: ٢٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن

(١) «ذم الهوى» لابن الجوزي ص(١٨).

شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: ١٥٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

فمن اتبع أهواء النّاس بعد العلم الذي بعث الله به رسوله، وَبعد هدى الله الذي بينه لعباده فهو بهذه المثابة، وَلهذا كان السّلف يُسمون أهل البدع وَالتفرق المخالفين للكتاب وَالسنة أهل الأهواء، حيث قبلوا ما أحبوه وَردوا ما أبغضوه بأهوائهم بغير هدى من الله.

فالضلال: العمل بغير علم، وَالغي: اتباع الهوى. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم: ١، ٢].

فلا ينالُ الهدى إلا بالعلم، وَلا ينالُ الرّشاد إلا بالصبر، وَلهذا قَالَ علي رضي الله عنه: «ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا انقطع الرأس بان الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له»(١).

ولذلك فَإِنَّ اتباع الهوى يضعف عبادة الله وَحده، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات: ٤٠].

أَثَرُ الْهَوَى عَلَى القلبِ:

والهوى حينما يغلب على القلب ويقهره فلا ينتفع القلب بفائدة قط؛ بل

---

(١) رواه عبد الرزاق «المصنف» (١١/ ٢١٠٣١)، ابن أبي شيبة «المصنف» (٦/ ٣٠٤٣٩)، البيهقي «شعب الإيمان» (١/ ٤٠).

يصبح كريشة في مهب الرياح أينما هبت انكفأت معها، وتدور المعركة بين القلب وبين الهوى، فكلما قوي القلب انقهر الهوى وحينما يضعف القلب يستأسره الهوى ولا يرجى منه نفع أو فائدة.

وتأمل هذا الحديث عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا[1] فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا[2] كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا[3] لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[4].

ترى هذا الصراعَ وهذه المعركةَ بين الهوى وبين القلب، وتُدال المعركة مع الأقوى، فكلما قوي القلب ودفع الهوى عند أول محنة صقل وثبت وعظم فيه الإيمان وبدأ شعاعُه فيه يدب، وفي حال ضعف القلب وهجوم الهوى وانتصاره على القلب تكون الظلمة ويقع السواد حتى يسقط القلب بالكلية.

وقد شبه النبي ﷺ القلب الأول بقلب كالصفا لما فيه من القوة والشدة وعدم التأثر بالهوى، والقلب الآخر بالوعاء الذي اسود من طول مكثه في النار وانقلب فلا يرجى منه فائدة.

ومن آثار هذه الهزيمةِ وهذا السقوطِ غيابُ الحق وعدم تحكيمه في القلب، فقد حل الهوى محل الإيمان ومن هذه الثمار الخبيثة.

---

(١) قال القاضي عياض رحمه الله: ليس تشبيهه بالصفا بيانًا لبياضه، لكن صفة أخرى لشدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل، وأن الفتن لم تلصق به ولم تؤثر فيه، كالصفا وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء. «شرح النووي على مسلم» (٢/ ١٧٢).

(٢) مُرْبادًّا: ارْبِدادُ القلب من حيث المعنى لا الصورة، فإن لون القلب إلى السواد ما هو، قال أبو عبيدة: الرُّبْدَةُ لَون بين السواد والغبرة. «لسان العرب» (٣/ ١٧٠).

(٣) المُجَخِّي: المائل عن الاستقامة والاعتدال، فشَبَّه القَلْب الذي لا يَعِي خَيْرًا بالكُوز المائل الذي لا يَثْبُت فيه شيء. «النهاية» (١/ ٦٩٦).

(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٤٤).

الِاتِّبَاعُ الْأَعْمَى وَالتَّقْلِيدُ الْجَاهِلُ:

فهذا الاتباع وَالتقليد الذي ذمه الله هو اتباع الهوى، إما للعادة وَالنَّسَبِ كاتباع الآباء، وَإما للرئاسة كاتباع الأكابر وَالسّادة وَالمتكبرين، فهذا مثل تقليد الرجل لأبيه، أَوْ سيده، أَوْ ذي سلطانه، وَهذا يكون لمن لم يستقل بنفسه وَهو الصغير فَإِنَّ دينه دينُ أمه، فَإِن فقدت فدين مَلِكِهِ وَأبيه، فَإِن فقدت فدين العادات التي عليها أهل البلد الذي هو فيه، فأما إذا بلغ وَأعرب لسانه فإمّا شاكرًا وَإما كفورًا.

وقد بيَّن الله أن الواجبَ الإعراضُ عَنْ هذا التقليد إلى اتباع ما أنزل الله على رسله، فإنهم حجة الله التي أعذر بها إلى خلقه.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابن تيمية: «وَليس للمعلِّمين أن يُحَزِّبُوا النّاس وَيفعلوا ما يُلقي بينهم العداوةَ وَالبغضاءَ، بل يكونون مثل الإخوة المتعاونين على البر وَالتقوى، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ [المائدة: ٢].

وليس لأحد منهم أن يأخذ على أحد عهدًا بموافقته على كل ما يريده وَموالاةِ من يواليه وَمعاداةِ من يعاديه، بل من فعل هذا كان من جنس جنكيزخان وَأمثاله الذين يجعلون من وَافقهم صديقًا، وَمن وَالى من خالفهم عدوًا باغيًا، بل عليهم وَعلى أتباعهم عهد الله وَرسوله بأن يطيعوا الله وَرسوله وَيفعلوا ما أمر الله به وَرسوله، وَيحرِّموا ما حرم الله وَرسوله، وَيدعوا حقوق المعلمين كما أمر الله وَرسوله، فَإِن كان أستاذ أحد مظلومًا نصره، وَإن كان ظالمًا لم يعاونه على الظلم بل يمنعه منه كما ثبت في الصَّحِيح عَنْ أنس رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»(١).

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٦٩٥٢).

وإذا وَقع بين معلم وَمعلم، أَوْ تلميذ وَتلميذ، أَوْ معلم وَتلميذ خصومةٌ وَمشاجرةٌ لم يجز لأحد أن يعين أحدهما حتى يعلم الحقّ، فلا يعاونه بجهل وَلا بهوى بل ينظر في الأمر فإذا تبين له الحق أعان المحق منهما على المبطل سواء كان المحق من أصحابه أَوْ أصحاب غيره، وَسواء كان المبطل من أصحابه أَوْ أصحاب غيره، فيكون المقصود عبادة الله وَحده وَطاعة رسوله واتباع الحقّ وَالقيام بالقسط، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

يقال: لوى يلوي لسانه فيخبر بالكذب، وَالإعراض أن يكتم الحق، فَ «إِنَّ السَّاكتَ عَنْ الحقِّ شَيْطَانٌ أَخْرَسٌ».

ومن مال مع صاحبه سواء كان الحق له أَوْ عليه فقد حكم بحكم الجاهلية؛ وَخرج عَنْ حكم الله وَرسوله، وَالواجب على جميعهم أن يكونوا يدًا وَاحدة مع المحق على المبطل، فيكون المعظَّمُ عندهم من عظَّمه اللهُ وَرسولُه، وَالمقدَّمُ عندهم من قدَّمه اللهُ وَرسولُه، وَالمحبوب عندهم من أحبه الله وَرسوله، وَالمهان عندهم من أهانه الله بحسب ما يرضى الله وَرسوله لا بحسب الأهواء، فإنه من يطع الله وَرسوله فقد رشد، وَمن يعص الله وَرسوله فإنه لا يضر إلا نفسه، فهذا هو الأصل الذي عليهم اعتماده وَحينئذ فلا حاجة إلى تفرقهم وَتشيُّعهم، فَإِنَّ الله تَعَالَى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍۚ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ﴾ [آل عمران: ١٠٥][(١)].

تالله لقد عمَّت هذه الفتنة وكثرت في هذا الزمان، وهجر الكتاب والسنة

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٥).

لقول فلان وفلان، فلقد كان الأُوَل يعيبون من قلد مالكًا والشافعي، وأما هؤلاء فأكثرهم قد اجتمعوا على من ليس بعالمٍ أو طالبٍ رَضِيّ.

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ أَيْضًا: «وإذا اجتمعوا على طاعةِ الله وَرسوله وَتعاونوا على البر وَالتقوى لم يكن أحد مع أحد في كلِّ شيء، بل يكون كل شخص مع كل شخص في طاعة الله وَرسوله، وَلا يكونون مع أحد في معصية الله وَرسوله، بل يتعاونون على الصدق وَالعدل وَالإحسان وَالأمر بالمعروف وَالنهي عَنْ المنكر وَنصر المظلوم وَكل ما يحبه الله وَرسوله، وَلا يتعاونون لا على ظلم وَلا عصبيةٍ جاهليةٍ، وَلا اتباعِ الهوى بدون هدى من الله وَلا تفرق وَلا اختلاف، وَلا شد وَسط لشخص ليتابعه في كل شيء وَلا يحالفه على غير ما أمر الله به وَرسوله»[1].

انْتَبِه... لحومُ هَؤلاءِ مسمومةٌ!!

ولقد نبغ في عصْرِنا جماعةٌ من الغلمان؛ لا للإسلامِ نصروا، ولا للكفرِ كسروا، بل هم بأسٌ وبلاء على الإسلام وأهله، قاموا بتجريحِ وتشريح علماء الأمة؛ فهتكوا أعرَاضَهُم وأدموا قلوبهم ورموهم بمنكرٍ من القول عظيم، ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥﴾ [النور: ١٥].

فهم حدثاء الأسنان، سُفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يطوف أحدهم على الشيخ فلان، وينتقل إلى علان، يجلس عند هذا متسكعًا، وعند ذاك متسولًا، ما حصَّل من العلم فقرة، ولا ذاق من الأدب رتقة[2]، ثم انطلق متبجحًا أَنَّهُ درس عند فلان، وأجاز له علان، فبدأ جرحًا بهؤلاء!! ثم انطلق يتطاول على أسياده من العلماء، ويناطح الجهابذة الفقهاء، ويتمسح بقربه ودُنُوِّه من الأمراء.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٨/٢٨).

(٢) الرَّتْقُ ضدّ الفَتْق، الرَّتْقُ: إلحام الفَتْق وإِصلاحُه. «لسان العرب» مادة: «رتق».

فإن الخوف على الأمة من أولئك الذين لبسوا ثياب العلم الشرعي ـ وما هم من العلم الشرعي في شيء ـ، لهو الخوف الصادق على الأمة من الفساد والانحراف، ذلك بأنَّ تصدُّر الجهالِ في حين فقدِ العلماءِ الصَّادقين المتمكنين بابٌ واسعٌ للضلالِ والإضلالِ، وتزيّ هؤلاء الأحداث بزي العلم الشرعي لهو من أخطر الأبواب.

وهذا ما أخبر به النبيُّ ﷺ في قوله ـ كما في حديثِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ـ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[1].

قال زَيْدُ بنُ وَهْبٍ: سمعت ابن مسعود يقول: «إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ: كَثِيرٌ فُقَهَاؤه، قَلِيلٌ خُطَبَاؤه، قَلِيلٌ سُؤَّالُهُ، كَثِيرٌ مُعْطُوه، العَمَلُ فِيهِ قَائِدٌ للهوى، وَسَيأتي مِنْ بَعْدِكم زَمَانٌ: قَلِيلٌ فُقَهَاؤه، كَثِيرٌ خُطَبَاؤه، كَثِيرٌ سُؤَّالُهُ، قَلِيلٌ مُعْطُوه، الهوى فِيه قَائِدٌ للعملِ، اعْلَمُوا أَنَّ حُسْنَ الهدي، في آخِرِ الزَّمانِ، خَيْرٌ مِنْ بَعْضِ العَمَلِ»[2].

ولقد انتبه أهل العلم المخلصون لخطورةِ هذا الصّنف مِنْ الناس على دين الأمة وعقيدتها ومصيرها، فَقَضَوْا بوجوب الحذر والتحذير منهم، وعدم الأخذ عنهم، **وإليك قول إمامين جليلين في هذا:**

الأول: قول أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني رحمه الله تعالى: «اعْلَمُوا رَحِمَنا الله وإياكُم: أَنَّ أَهْلَ البِدَعِ والضَّلالِ مِنْ الخوارِجِ والرَّوَافِضِ والمعتزِلَةِ قَدْ اجْتهدُوا أَنْ يُدْخِلُوا عَلَى أَهْلِ السُّنةِ والجماعةِ شَيْئًا مِنْ بِدَعِهم وضَلالِهم، فَلَم يَقْدِروا عَلَى ذَلِك، لِذَبِّ أهلِ العلمِ وَدَفْعِهم البَاطل، حتى ظَفَروا بِقَومٍ في آخرِ الوَقْتِ ممنْ تَصَدَّى للعلمِ وَلَا عِلْمَ لَهُ وَلَا فهم، وَيَسْتَنْكِفُ

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (١٠٠).

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيّ «الأدب المفرد» (٧٨٩).

وَيَتَكَبَّرُ أَنْ يَتفهّمَ وأن يتعلّمَ، لأنَّه قَدْ صَارَ متصدّرًا معلمًا بِزَعْمِهِ فيرى - بجهله - أَنَّ عَلَيْهِ فِي ذَلِك عارًا وَغضَاضَة، وَكَانَ ذَلِك مِنْهُ سَبَبًا - إلى ضَلَالِه وضَلالِ جماعِتِه مِنْ الأمة»[1]. اهـ.

الثاني: قال الرّاغِبُ الأَصْبَهَاني - رحمه الله تعالى -: «لا شَيء أَوْجَبُ عَلَى السُّلْطَان مِنْ رِعَايةِ أَحْوَالِ المتصدِّين للرِّياسةِ بالعِلْم، فَمِن الإِخْلالِ بها يَنْتَشِرُ الشَّر ويكثرُ الأشْرَارُ وَيَقَعُ بين النَّاسِ التَّباغُضُ والتَّنَافُرُ، وَلَمَّا تَرَشَّحَ قَوْمٌ للزَّعَامَةِ فِي العِلْم بِغَيرِ اسْتِحْقَاقٍ، وأَحْدَثُوا بِجَهْلِهم بِدَعًا اسْتَغْنوا بِهَا عَامَّة، واسْتَجْلَبُوا بِهَا مَنْفَعَةً وَرِياسَةً، فَوَجَدُوا مِنْ العَامَّةِ مُسَاعَدَةً بِمُشَارَكَتِهِمْ لَهُمْ، وَقُرْبِ جَوهَرِهِم مِنْهُم، وَفَتَحُوا بِذَلِكَ طُرُقًا مُنْسَدَّة، وَرَفَعُوا بِهِ سُتُورًا مُسَبّلة، وَطَلَبُوا مَنْزِلَةَ الخاصَّة فَوَصَلُوهَا بِالوَقَاحَةِ، وَبِمَا فِيهِم مِنْ الشَّره، فبدَّعوا العُلَمَاءَ وجَهَّلُوهم؛ اغتِصَابًا لسُلْطَانهم، ومُنَازَعَةً لمكَانِهِم، فَأَغْرَوا بهم أَتْبَاعَهم حتى وَطِئوهم بأظلافِهم وأخفَافِهم، فتولد بذلك البوارُ والجورُ العامُّ والعَارُ»[2]. اهـ.

الطَّعْنُ فِي الأَفَاضِلِ قَدِيم:

وهذه فتنةٌ هوجاء مطوية قد سبقهم إليها من طعن في أفاضل الأمة من الصحابة وأتباعهم من خير البرية، ولولا أني رأيت الطعن في كبار العلماء والعباد، ورؤوس الدعوة في هذه البلاد وغيرها من بلاد الإسلام على امتداد ما طرقت هذا الباب، وخصوصًا أن التوجه لهذه الفتنة بدأ يزيد؛ وقد شارك فيها الأعمى والبليد، فأردت بيان خطرها وما ينجم في هذه الأمة من شررها.

فمن سمات أهل السنة والجماعة؛ وعلامات أهل الأثر والاتباع؛ سلامة قلوبهم وألسنتِهم للصحابةِ الأخيار، وحملةِ الشريعة الأتقياء الأبرار، والذبِّ عن حرماتهم وأعراضهم من رموز الجراحين، وثلب العابثين وألسنة الحاقدين، والزجر والتغليظ على من تعلق بخيوط الأوهام، وبات في أودية الظلام،

---

(١) الباقلاني «الإنصاف» ص(١١٤).
(٢) «فيض القدير» (٢/ ٣٤٧).

فغمس لسانه في البهت والآثام، وسلب من الصحابةِ وأتباعهم العدالة، وجعلهم كسائر الأنام لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، فَوَلَغَ في حُرُمَاتهم وأعراضهم وجمع مساويهم وعثراتهم.

وقد أنكر الإمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ على من جمع الأخبار التي فيها طعن على بعض أصحاب رسول الله ﷺ، وغَضِبَ لذلك غضبًا شديدًا، وقال: «لَو كَانَ هَذَا فِي أَفْنَاءِ النّاسِ لأنْكَرْتُهُ، فَكَيف في أصْحَابِ رسول الله ﷺ، وَقَالَ: أَنَا لَمْ أَكْتُبْ هَذِهِ الأَحَادِيث».

قَالَ المَرْوَزِيُّ: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ الله: فَمَنْ عَرَفْتَهُ يَكْتُبُ هَذِهِ الأحاديثِ الرَّديئةِ ويجمَعُهَا أيُهْجَرُ؟ قال: نعم، يستأهلُ صاحبُ هذه الأحاديثِ الرَّديئةِ الرّجْم»[1].

وقد امتطى هذه الأخبار المروية في مساويهم دعاةُ الفتنة والضلالة، فاستخفُّوا بحرمات المؤمنين ووزراء رسول رب العالمين، فبسطوا ألسنتهم في تجريحهم والتشفي منهم بضروبٍ من التطاولِ والقذفِ بالباطلِ، وهذا التربص منتهاه نزع الثقةِ عن خيارِ الأمةِ، والتشكيكُ في أعمالِهم وفتوحاتِهم وعلومِهم وعدالتِهم، وقد مضت الأمة خيارًا عن خيارٍ على مدح الصحابة والثناء عليهم، وحسن الظن بهم والكف عن مساويهم وسوء الظن بهم.

فيا ويل من تعرض لهم بسوء وأوقد نار الفتنة، وجَرَّأَ السفهاء والغوغاء على الوقيعة فيهم، وقد صَحَّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»[2].

وقال الإمام محمد بن صُبيح بن السّماك[3]: «عَلِمْتَ أَنَّ اليَهُودَ لَا يَسُبُّون

---

(١) رواه الخلال في «السنة» (٣/ ٥٠١) بسند صحيح.

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٣٦٧٣)، مُسْلِمٌ (٢٥٤٠).

(٣) انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (٥/ ٣٦٨).

أصْحابَ موسى عليه السلام، وأن النّصارى لا يسبون أصحاب عيسى ﷺ، فما بالك يا جاهل سببت أصحاب محمد ﷺ، وقد علمتُ من أين أُتيت، لم يشغلك ذنبك، أما لو شغلك ذنبك لخفتَ ربك، لقد كان في ذنبك شغلٌ عن المسيئين فكيف لم يشغلْك عن المحسنين، أما لو كنت من المحسنين لما تناولت المسيئين ولرجوت لهم رحمةَ أرحمِ الراحمين، ولكنك من المسيئين، فمن ثَمَّ عبت الشهداء والصالحين، أيها العائب لأصحاب محمد ﷺ لو نمت ليلك وأفطرت نهارك؛ لكان خيرًا لك من قيام ليلك وصوم نهارك مع سوء قولك في أصحاب محمد ﷺ، فويحك! لا قيام ليلٍ ولا صوم نهارٍ وأنت تتناول الأخيار، فأبشر بما ليس فيه البُشْرى إن لم تتب مما تسمع وترى، ويحك! هؤلاء شرفوا في أُحد، وهؤلاء جاء العفو عن الله تعالى فيهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، فما تقول فيمن عفا الله عنه؟ وبمَ تحتج يا جاهل إلا بالجاهلين، شر الخلف خلفٌ شَتَمَ السَّلف، والله لواحد من السلف خير من ألفٍ من الخلف»(١).

وقد اتفق أهل العلم على أنهم خير الناس بعد الأنبياء، فقد جاء في الصحيحين من طريق إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ...»(٢).

وأفضل الصحابة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم أجمعين - وأدلة هذا كثيرة وعامة أهل العلم على هذا، وقد جعل الله جلَّ وعلا بقاء الصّحابة أمنة للأمة، فإذا ذهب قرنُهم وانقرض جيلُهم حلَّت بمن بعدهم الفتن وظهرت البدع وفشا الجور والفساد، فعَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ

---

(١) رواه المعافى بن زكريا الجريري في كتابه «الجليس الصالح» (٢/ ٣٩٢) بأطول من هذا.

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٢٦٥٢)، مُسْلِمٌ (٢٥٣٣).

مَعَهُ الْعِشَاءَ. قَالَ: فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا؟! قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ ثُمَّ قُلْنَا: نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ. قَالَ: أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ، قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ـ وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ـ فَقَالَ: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ»(١).

وهذا دليلٌ على فضلهم وعظيم ما دفع الله بهم من البدع والفتن والجَوْرِ والفساد، فلا جرم أن جعلهم الله وزراء نبيه وحزب خليله.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُوْدٍ ﷺ: «إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّءٌ»(٢).

عن عَبْدِ رَبِّهِ بنِ سَعِيْدٍ قال: «كنا عند الحسنِ في مجلس، فذكر كلامًا، وذكر أصحابَ النبيِّ ﷺ فقال: «أولئك أصحاب محمد كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلَّها تكلفًا، قوم اختارهم الله ﷻ لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فإنهم كانوا وربِّ الكعبة على الهدي المستقيم»»(٣).

وَقَالَ الإِمَامُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللهُ: «فأمّا أصحابُ رسول الله ﷺ فهم الذين شهدوا الوحي والتنزيلَ وعرفوا التفسير والتأويل، وهم الذين

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٣١).

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ (١/ ٣٧٩) من طريق عاصم بن أبي النجود، عن زر بن حبيش، عن عبد الله، وسنده حسن.

(٣) الآجري في «الشريعة» (١١٦١)، وابن عبد البر «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٧).

اختارهم الله ﷻ لصحبة نبيه ﷺ ونصرته وإقامة دينه وإظهار حقه، فرضيهم له صحابةً وجعلهم لنا أعلامًا وقدوة، فحفظوا عنه ﷺ ما بلغهم عن الله ﷻ، وما سن وما شرع وحكم وقضى وندب وأمر ونهى وأدب، وَوَعَوْه وأتقنوه، ففقهوا في الدين وعلموا أمر الله ونهيه ومراده بمعاينة رسول الله ﷺ ومشاهدتهم منه تفسير الكتاب وتأويله وتَلَقُّفهم منه واستنباطهم عنه، فشرفهم الله ﷻ بما مَنَّ عليهم وأكرمهم به من وضعه إياهم موضع القدوة، فنفى عنهم الشك والكذب والغلط والريبة والغمز وسماهم عدول الأمة، فقال - عز ذكره - في محكم كتابه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ففسر النبي ﷺ عن الله - عز ذكره - قوله: ﴿وَسَطًا﴾ قال: عدلًا، فكانوا عدول الأمة وأئمة الهدى وحجج الدين ونقلة الكتاب والسنة، وندب الله ﷻ إلى التمسك بهديهم والجري على منهاجهم والسلوك لسبيلهم والاقتداء بهم فقال: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥]».

وقال الإمام أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله عن الصحابة: «سمحت نفوسهم رضي الله عنهم بالنفس والمال والولد والأهل والدار، ففارقوا الأوطان وهاجروا الإخوان وقتلوا الآباء والإخوان، وبذلوا النفوس صابرين، وأنفقوا الأموال محتسبين، وناصبوا من نَاوَأهم متوكلين، فآثروا رضاء الله على الغناء، والذلَّ على العز، والغربة على الوطن، هم المهاجرون الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون حقًا، ثم إخوانهم من الأنصار أهل المواساة والإيثار أعز قبائل العرب جارًا، واتخذ الرسول عليه السلام دارهم أمنًا وقرارًا، الأعفَّاءُ الصُّبر والأصدقاءُ الزهُر ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

فمن انطوت سريرته على محبتهم، ودان الله تعالى بتفضيلهم ومودتهم،

وتبرأ ممن أضمر بغضهم، فهو الفائز بالمدح الذي مدحهم الله تعالى فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

فالصحابة ﷺ هم الذين تولى الله شرح صدورهم، فأنزل السكينة على قلوبهم وبشرهم برضوانه ورحمته فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١]، جعلهم خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينْهَوْن عن المنكر ويطيعون الله ورسوله، فجعلهم مثلًا للكتابين لأهل التوراة والإنجيل، خير الأمم أمته وخير القرون قرنه، يرفع الله من أقدارهم إذ أمر الرسول ﷺ بمشاورتهم لما علم من صدقهم وصحة إيمانهم وخالص مودتهم ووفور عقلهم ونبالة رأيهم وكمال نصيحتهم وتبين أمانتهم رضي الله عنهم أجمعين»(١).

وهذا محل اتفاق من أهل السنة، فلا كان ولا يكون مثل الصحابة ﷺ في إمامتهم وفضلهم وسبقهم وعلو مقامهم بالأمر والنهي والعلم والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، ولهذا قيل: كل خير فيه المسلمون إلى يوم القيامة من الإيمان والإسلام والقرآن والعلم والمعارف والعبادات، ودخول الجنة والنجاة من النار، وانتصارهم على الكفار، وعلو كلمةِ الله فإنما هو ببركة ما فعله الصحابة الذين بلَّغوا الدين وجاهدوا في سبيل الله، وكل مؤمن آمن بالله فللصحابة ﷺ الفضلُ إلى يوم القيامة(٢).

وقد قال تعالى في فضلهم ومآلهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

والمراد بـ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ هم الذين تأخر إسلامهم من

---

(١) «الإمامة والرد على الرافضة» (٢٠٩ ـ ٢١١).

(٢) من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وانظر: «طريق الهجرتين» للإمام ابن القيم رحمه الله ص(٣٦٢).

وقال الإمام الطّحاوي في عقيدته: «وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يُذكرون إلا بالجميل ومن ذكرهم بسوء فهو على غير سبيل»[(١)].

وَقَالَ الحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ: «واعلم يا أخي ـ وفقنا الله وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حقّ تُقَاتِهِ ـ أَنَّ لُحُومَ العُلَمَاءِ ـ رحمة الله عليهم ـ مَسْمُومَةٌ، وعادةُ الله في هَتْكِ أَسْتَارِ منتقصيهم مَعْلومةٌ؛ لأنَّ الوَقِيعةَ فَيهم بما هُمْ مِنْهُ بَرَاء أمرُه عظيمٌ، والتّناول لأعْرَاضِهم بالزّور والافتراءِ مَرْتَعٌ وَخِيم، والاختلاق على من اختاره الله مِنْهم لنعشِ العِلْم خُلُقٌ ذَمِيم»[(٢)].

كَلَامٌ نَفِيسٌ!!

قال الشّيخ بكر أبو زيد ـ حفظه الله تعالى ـ في كتابه «تصنيف الناس بين الظن»[(٣)]: قَالَ أَبُو زُرْعَةَ الرَّازِيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: «إذا رأيت الرّجل ينتقصُ أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أَنَّهُ زِنْدِيقٌ؛ وذلك أن رسول الله ﷺ حقٌّ، والقرآن حقٌّ، وما جاء به حق، وإنما أدى إلينا ذلك كلّه الصحابةُ، وهؤلاء يريدون أن يجرِّحوا شهودنا؛ ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة».

وقد أجرى العلماء هذا الحكمَ بمن قدح في أحدٍ من حملةِ الشرعِ المطهر، علماء الأمة العاملين؛ لأن القدح بالحامل يُفضي إلى القدح بما يحمله من رسالة البلاغ لدين الله وشرعه؛ ولهذا أطبق العلماءُ ـ رحمهم الله تعالى ـ على أن من أسباب الإلحاد: «القدح بالعلماء».

قال الدورقي ـ رحمه الله تعالى ـ: «من سمعته يذكر أحمد بن حنبل بسوء فاتهمه على الإسلام».

---

(١) «العقيدة الطحاوية» ص(٥٨) بتعليق الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) «تبيين كذب المفتري» ص(٤٩).

(٣) من مجموع «الردود» للشيخ «بكر أبو زيد» (٤٠٠).

﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: ٨ ـ ١٠].

فاحفظ ـ رعاك الله تعالى ـ ثناء الله عليهم ورضاه عنهم، ولا يكن في قلبك غِلٌّ على أحدٍ منهم، فإن هذا من أعظم خبث القلوب، واستوص بهم خيرًا، ففي سبيل ذلك تهون الأرواحُ والدماءُ، بخلاف محترف الطعن وسيئ الظن، فقد أتعب نفسه وآذى غيره، فركض وراء السراب وطعن في بعضهم بشبهة أحاديث ضعيفة ومكذوبة، وأخبار لها محامل حميدة فقلبها هفوات ومثالب، ونذر نفسه للوقيعة في هؤلاء الأجلاء.

وكذلك من تبعهم وسار على نهجهم من التابعين وتابعيهم، ومن نحا نحوهم وسار على طريقتهم من علماء أهل السنة، فهم خيرةُ أهل الأرض ومناراتُها، فمن غمزهم وطعن فيهم وشوَّش عليهم له عظيمٌ من الإثم وقسطٌ من البغي.

ولقد دهش عقلي وتعطل فكري وأنا أرى هؤلاء أصحاب الفتنة الهوجاء بدءوا برؤوس السلف طعنًا وهضمًا، وبأصول أهل السنة سلبًا وهدمًا.

فَهَتْك عرض المسلم والجنايةُ عليه عظيم عند الله ورسوله والمؤمنين، وهو من كبائر الذنوب ومن التشبه بالمنافقين، وأعظم منه غمسُ الألسنة والأقلام في أهل العلم ومحاولةُ إسقاط قدرهم بأوهام من هنا وهناك، والإيغالُ بالدخول في نياتهم ومقاصدهم والصد عن سبيلهم والاستخفاف بحقوقهم.

قَالَ الإِمَامُ عَبْدُ اللهِ بنُ المُبَارَكِ رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ استخفَّ بالعلماءِ ذَهَبَتْ آخرته»[1].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٠٨ ـ ١٧/ ٢٥١).

الصحابة ﷺ، قاله جماعة من أهل العلم، ويؤيده ما قاله الحافظ العلائي رَحِمَهُ اللَّهُ: «بأن الآياتِ كُلّها فيما يتعلق بالمتخلفين عن النبي ﷺ من المنافقين في غزوة تبوك، فأتبع الله ذلك بفضيلة الصحابة الذين غَزَوْا معه ﷺ، وقسَّمهم إلى السابقين الأولين ومن بعدهم، ثم أتبع ذلك بذكر الأعراب وأهل البوادي الذين في قلوبهم نفاق أو لم يرسخوا في الإسلام، فقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ [التوبة: ١٠١].

فدل على أن المراد بـ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ هم بقية الذين تأخر إسلامهم، فشملت الآية جميع الصحابة»(١).

فمن أَعْملَ لسانَه وسَخَّر قلمَه في الطعن فيهم، أو رميهم بالنفاق، أو شكك في إسلامهم، وأورد الاحتمالات بدون بيان من الله ورسوله ﷺ وبدون برهان، قام عليه الدليل فقد ردَّ على الله خبره، وافترى على هؤلاء الصحابة بهتانًا وإثمًا مبينًا، ومثل هذا لا يصدر إلا ممن قلَّ دينه، وعظم ظلمه، واسودَّ قلبه، وبلغ منه الجهل بالكتاب والسُّنة وسيرة القوم مبلغًا عظيمًا.

وقد قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالطّلقاء الذين أسلموا عام الفتح مثل معاوية وأخيه يزيد، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، قد ثبت بالتواتر عند الخاصة إسلامهم وبقاؤهم على الإسلام إلى حين الموت»(٢).

وقال تَعَالَى في وَصْفِ المهاجرين، ومدح الأنصار، وذكر من أسلم بعدهم وسار على طريقتهم: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

---

(١) كتاب «تحقيق منيف الرتبة لمن ثبت له شريف الصحبة» ص(٦٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/٤٦٦).

وقالها أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ في حق يحيى بن معين، وقيلت في حق أبي زرعة وعكرمة ـ رحم الله الجميع ـ.

قال سفيان بن وكيع: «أحمد عندنا محنة، من عاب أحمد فهو عندنا فاسق».

وقال أيضًا: «إن كشف الأهواءِ، والبدع المضلة، ونقد المقالاتِ المخالفة للكتاب والسنة، وتعريةِ الدعاة إليها، وهجرِهم وتحذيرِ الناس منهم، وإقصائِهم، والبراءة من فعلاتهم، سنةٌ ماضية في تاريخ المسلمين في إطار أهل السنة، معتمدين شرطي النقد: العلم، وسلامة القصد».

فالعلم بثبوت البينة الشرعية، والأدلة اليقينية على المدعي به في مواجهة أهل الهوى والبدعة، ودعاة الضلالة والفتنة، وإلا كان الناقد ممن يَقْفُو ما ليس له به علم، وهذا عين البهت والإثم.

ويرون بالاتفاق أن هذا الواجبَ من تمام النصح لله ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين، وعامتهم، وهذا شرط القصد لوجه الله تعالى، وإلا كان الناقد بمنزلة من يقاتل حميةً ورياءً، وهو من مدرك الشرك في القصد.

وهذا من الوضوح بمكان مكين لمن نظر في نصوص الوحيين الشريفين، وسير الأئمة الهداة في العلم والدين.

ولا يلتبس هذا الأصل الإسلامي بما تراه مع بلج الصّبح، وفي غسق الليل من ظهور ضمير أسود، وافد من كل فج، استبعد نفوسًا بضراوة، أراه: «تصنيف الناس» وظاهرة عجيب نفوذها هي: «رمز الجراحين» أو: «مرض التشكيك وعدم الثقة» حمله فِئَامٌ غِلاظٌ من الناس يعبدون الله على حَرْفٍ، فألقوا جلباب الحياء، وشغلوا به أغرارًا، التبس عليهم الأمر فضلّوا، وأضلّوا، فلبس الجميعُ أثواب الجرح والتعديل، وتدثروا بشهوة التجريح، ونسج الأحاديث، والتعلق بخيوط الأوهام، فبهذه الوسائل ركبوا ثبج التصنيف[1] للآخرين؛ للتشهير، والتنفير، والصد عن سواء السبيل.

---

(١) التصنيف تمييز الأشياء بعضها عن بعض، والثبج ركبوا عماه وظلمته، ولم يُبِنْهُ.

ومن هذا المنطلق الواهي، غمسوا ألسنتهم في ركام من الأوهام والآثام، ثم بسطوها بإصدار الأحكام عليهم، والتشكيك فيهم، وخدشهم، وإلصاق التهم بهم، وطمس محاسنهم، والتشهير بهم، وتوزيعهم أشتاتًا وعزين في عقائدهم، وسلوكهم، ودواخل أعمالهم، وخلجات قلوبهم، وتفسير مقاصدهم، ونياتهم. . . كل ذلك وأضعاف ذلك مما هنالك من الويلات، يجري على طرفي التصنيف: الديني، واللاديني.

فترى وتسمع رَمْيَ ذاك، أو هذا بأنه: خارجي، معتزلي، أشعري، طرقي، إخواني، تبليغي، مقلد، متعصب، متطرف، متزمت، رجعي، أصولي.

وفي السلوك: مداهنٌ، مراءٍ، من علماء السلطان، من علماء الوضوء والغسل.

ومن طرف لا ديني: ماسوني، علماني، شيوعي، اشتراكي، بعثي، قومي، عميل.

وإن نقبوا في البلاد، وفتشوا عنه العباد، ولم يجدوا عليه أي عثرة، أو زلة، تصيدوا له العثراتِ، وأوجدوا له الزلاتِ، مبنيةً على شُبَهٍ واهية، وألفاظ محتملة.

أما إن أفلست جهودهم من كل هذا رَمَوْه بالأخرى فقالوا: متستر، محايد.

إلى غير ذلك من ضروب تطاول سعاة الفتنة والتفرق، وتمزيق الشمل والتقطع.

وقد جَرَّت هذه الظاهرة إلى الهلكة في ظاهرة أخرى من كثرة التساؤلات المتجنية ـ مع بسمة خبيثة ـ عن فلان، وعلان، والإيغال بالدخول في نيته، وقصده، فإذا رأوا شيخًا ثنى ركبتيه للدرس، ولم يجدوا عليه أي ملحظ، دخلوا في نيته، وكيَّفوا حاله: لِيُبَيِّنَ نفسه، لسان حاله يقول: أنا ابن من فاعرفوني! ليتقمص شخصية الكبار، يترصد الزعامة.

وإن ترفقوا، وغلبهم الورع، قالوا: محترف بالعلم.

وإن تَورع الجراحُ عن الجرح بالعبارة، أو استنفدها، أو أراد ما هو أكثر إيغالًا بالجرح، سلك طريق الجرح بالإشارة، أو الحركة بما يكون أخبثَ، وأكثرَ إقذاعًا، مثل: تحريك الرأس، وتعويج الفم، وصرفه، والتفاته، وتحميض الوجه، وتجعيد الجبين، وتكليح الوجه، والتغير، والتضجر، أو يسأل عنه، فيشير إلى فمه، أو لسانه معبرًا عن أَنَّهُ: كذاب، أو بذيء، ومثل: تقليب اليد، أو نفضها، إلى غير ذلك من أساليب التوهين بالإشارة، أو التحريك، «ألا شلت تلك اليمين عند حركة التوهين ظلمًا، وصدعت تلك الجبين عند تجعيدها للتوهين ظلمًا»، «ويا ليت بنسعة من جلد، تربط بها تلك الشفة عند تعويجها للتوهين ظلمًا».

وقال أيضًا: ومن ألأم المسالك ما تسرب إلى بعض ديار الإسلام من بلاد الكفر من نصب مشانق التجريح للشخص الذي يرادُ تحطيمه، والإحباط به بما يلوث وجه كرامته.

ويجري ذلك بواسطة سفيه يسافه عن غيره، متلاعب بدينه قاعد مَزْجَرَ الكَلْبِ النابح، سافل في خلقه، ممسوخ الخاطر، صفيق الوجه، مغبون في أدبه وخُلقه ودينه.

وقال أيضًا: وإذا علمت فُشُوَّ ظاهرة التصنيف الغَلَّابة، وإن إطفاءها واجب، فاعلم أن المحترفين لها سلكوا لتنفيذها طرقًا منها:

أنك ترى الجرّاح القصّاب، كلما مر على ملأ من الدعاة اختار منهم ذبيحًا، فرماه بقذيفةٍ من هذه الألقاب المرَّةِ، تمرق من فمه مروق السَّهم من الرَّميَّة، ثم يرميه في الطَّريق، ويقول: «أميطوا الأذى عن الطَّريقِ، فإنَّ ذلك من شُعب الإيمان!!!».

وترى دأبه التربص، والترصد، عين للترقب، وأذن للتجسس، كل هذا للتحريش، وإشعال نار الفتن بالصّالحين وغيرهم.

وترى هذا «الرَّمز البغيض» مهمومًا بمحاضرةِ الدُّعاة بسلسلة طويلٍ ذرعها، رديءٍ متنها، تجر أثقالًا من الألقاب المنفرة، والتهم الفاجرة، ليسلكهم في قطار أهل الأهواء، وضلال أهل القبلة، وجعلهم وقود بلبلة، وحطب اضطراب، وبالجملة فهذا القطيع هم أسوأ غزاة الأعراض بالأمراض والعضِّ بالباطل في غوارب[1] العباد، والتفكه بها، فهم مقرنون بأصفاد: الغلِّ، والبغضاءِ، والحسد، والغيبة، والنميمة، والكذب، والبهت، والإفك، والهمز، واللمز، جميعها في نفاذ واحد، إنهم بحق «رمز الإرادة السيئة» يرتعون فيها بشهوة جامحة، نعوذ بالله من حالهم، لا رعوا.

آثارها:

فيا لله كم لهذه «الوظيفة الإبليسية» من آثار موجعة للجرّاح نفسه؛ إذ سلك غير سبيل المؤمنين، فهو لقيٌّ، منبوذ، آثم، جان على نفسه، وخلقه، ودينه، وأمته.

من كل أبواب سوء القول قد أخذ بنصيب، فهو يقاسم القاذف، ويقاسم: البهَّات، والقتَّات، والنمَّام، والمغتاب، ويتصدر الكذابين الوضَّاعين في أعز شيء يملكه المسلم: عقيدته وعرضه.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وهذا البهت قد يوجب ردة للقائل نفسه، كما لو قال لمن عمل بالإسلام: رجعي، متخلف، كما ترى تقريره في أبواب الردة من كتب الشريعة الحديثية والفقهية؛ ولهذا ألف ابن قطلوبغا، رسالة باسم: «من يكفر ولم يشعر».

وهذا أسوأ أثر على المتفكهين بهذه الظاهرةِ فضلًا عن آثارها الأخرى

---

(١) أعلى ما في الشيء.

عليه: منها سقوط الجرَّاح من احترام الآخرين، وتقويمُه بأنه خفيفٌ، طيَّاش، رقيق الديانة، صاحب هوى، جرَّه هواه وقصور نظره عن تمييز الحقِّ من الباطل، إلى مخاصمة المحق، والهجوم عليه بغير حق.

بل وسوأة عظمى!!! احتسابُ المبتلى هذا السَّعيَ بالفساد من الدين، وإظهاره بلباس الشرع المتين، والتلذذ بذكره، ونشره.

حقًا لقد أتعب التاريخ، وأتعب نفسه، وآذى التاريخ، وآذى نفسه، فلا هو قال خيرًا فغنم، ولا سكت فسلم.

وكم أورثت هذه التهمُ الباطلةُ من أذى للمكلوم بها من خفقةٍ في الصَّدر، ودمعةٍ في العين، وزفراتِ تظلُّم يرتجف منها بين يدي ربه في جوف الليل لهجًا بكشفها، مادًّا يديه إلى مغيث المظلومين، كاسرِ الظالمين. والظَالمُ يُغط في نومه، وسهامُ المظلومين تتقاذفه من كل جانب، عسى أن تصيب منه مقتلًا.

فيا لله «ما أعظم الفرق بين من نام وأعين الناس ساهرة تدعو له، وبين من نام وأعين الناس تدعو عليه».

وكم جرَّت هذه المكيدةُ من قارعةٍ في الدِّيار، بتشويه وجه الحقِّ، والوقوفِ في سبيله، وضربٍ للدعوة من حُدَثاءِ الأسنان في عظماءِ الرِّجال باحتقارهم وازدرائهم، والاستخفافِ بهم وبعلومهم، وإطفاء مواهبهم، وإثارة الشحناء، والبغضاء بينهم.

ثم هضم لحقوق المسلمين: في دينهم، وعرضهم.

وتحجيم لانتشار الدَّعوة بينهم، بل صناعة توابيت، تقبر فيها أنفاس الدُّعاة ونفائس دعوتهم؟

انظر: كيف يتهافتون على إطفاء نورها، فالله حسبهم، وهو حسيبهم.

فإنك لو سألت الجرّاح عن مستنده، وبيِّنته على هذا التصنيف الذي يصك به العبادَ صك الجندل، لأفلت يديه، يقلب كفيه، متلعثمًا اليوم بما برع

به لسانه بالأمس، ولوجدت نهاية ما لديه من بينات هي: وساوسُ غامضةٌ، وانفعالاتٌ متوترة، وحسدٌ قاطع، وتوظيفٌ لسوء الظن، والظن أكذب الحديث.

هذا التصيد، داءٌ خبيث متى ما تمكن من نفسٍ أطفأ ما فيها من نور الإيمان، وصير القلب خرابًا يبابًا، يستقبل الأهواء والشهوات.

اعلم أن تصنيف العالم الداعية ـ وهو من أهل السنة ـ ورميهُ بالنقائص: ناقض من نواقض الدّعوة وإسهام في تقويض الدعوة، ونكثِ الثقة، وصرفِ الناس عن الخير، وبقدر هذا الصدِّ، ينفتح السبيل للزائغين.

أَسْنَدَ البُخَارِيّ في (كتابِ الشروط) من صحيحه: قصة الحديبية ومسير النبي ﷺ إليها وفيها: «وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ. فَأَلَحَّتْ[1]، فَقَالُوا: خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ[2]، خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا خَلأَتْ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ[3]...» الحديث[4].

---

(١) «حَلْ حَلْ»: بفتح المهملة وسكون اللام، كلمة تقال للناقة إذا تركت السير. وقال الخطابي: إن قلت: حل واحدة فالسكون، وإن أعدتها نونت في الأولى وسكنت في الثانية. وحكى غيره السكون فيهما والتنوين كنظيره في بخ بخ، يقال: حلحلت فلانًا إذا أزعجته عن موضعه. «فتح الباري» (٥/ ٣٣٥). فألحّت: بتشديد المهملة أي تمادت على عدم القيام، وهو من الإلحاح. «نفس المصدر».

(٢) خلأت القصواء: أي امتنعت من المشي. «فتح الباري» (١/ ١١٣). القَصواء: اسم ناقة رسول الله ﷺ، وقيل: كان طرف أذنها مقطوعًا. والقصو قطع طرف الأذن. «فتح الباري» (٥/ ٣٣٥).

(٣) هو فيلُ أَبْرَهَة الحبَشِي الذي جاء يَقْصِد خَراب الكعبة، فحَبس الله الفيل فلم يَدْخُل الحرم، وردّ رأسه راجعًا من حيثُ جاء، يعني أنَ الله حَبس ناقة النبي ﷺ لما وصَل إلى الحُدَيْبية فلم تَتَقَدّم ولم تَدْخُل الحَرمْ؛ لأنه أراد أن يَدْخُل مكة بالمسلمين. «النهاية» (١/ ٨٧٢).

(٤) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٢٧٣١).

قال الحافظ ابن حجر في فقه هذا الحديث: «جَوَازُ الحكم على الشيءِ بما عُرِف من عادته، وإن جاز أن يطرأ غيره، فإذا وقع من شخص هفوةٌ لا يُعهد منه مثلُها، لا يُنْسب إليها، ويُرد على من نسبه إليها، ومعذرة من نسبه إليها ممن لا يعرف صورة حاله؛ لأن خلأ القصواء لولا خارق العادة لكان ما ظنه الصحابة صحيحًا، ولم يعاتبهم النبيُّ ﷺ على ذلك لعذرهم في ظنِّهم»[1]. اهـ.

فقد أعذر النبي ﷺ غير المكلف من الدَّواب باستصحابِ الأصل، ومن قياس الأولى إذا رأينا عالمًا عاملًا، ثم وقعت منه هنَّة أو هفوة، فهو أولى بالإعذار، وعدم نسبته إليها والتشنيع عليه بها استصحابًا للأصل، وغَمْر ما بدر منه في بحر علمه وفضله، وإلا كان المعنف قاطعًا للطريق، ردءًا للنفس اللوامة، وسببًا في حرمان العالم من علمه، وقد نُهينا أن يكون أحدنا عونًا للشيطان على أخيه، فما ألطفَ هذا الاستدلال وأدقَّ هذا المنزع، ورحم الله الحافظ الكناني ابن حجر العسقلاني، على شفوف نظره، وفقه نفسه، وتعليقه الحكم بمدركه.

قال الصّنعاني ـ رحمه الله تعالى ـ: «وليس أحدٌ مِنْ أفرادِ العلماءِ إلا وله نادرةٌ ينبغي أن تُغمرَ في جنبِ فَضْلِهِ وتجتنب». اهـ.

وقال أبو هلال العسكري: «وَلَا يضعُ مِنْ العَالمِ الذي برَعَ في عِلْمِهِ زلةٌ، إنْ كانت على سبيلِ السَّهو والإغفالِ، فإنّه لم يعر من الخطأ إلا من عَصَمَ الله جَلَّ ذِكْره، وقد قالت الحكماء: «الفاضِلُ مَنْ عُدت سَقَطَاتُهُ»، وليتنا أدركنا بعضَ صوابهم أو كنّا ممن يميز خَطَأَهُم». اهـ.

وقد تتابعت كلمةُ العلماءِ في الاعتذارِ عَنْ الأئمةِ فيما بدر منهم، وأن ما يبدو من العالم من هنَّات لا تكون مانعة للاستفادة من علمه وفضله.

فهذا الحافظ الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول في ترجمة كبير المفسرين

---

(١) فتح الباري (٥/ ٣٣٥).

قَتَادَةُ بنُ دِعَامَةَ السَّدوسي المتوفى سنة (١١٧هـ) - رحمه الله تعالى - بعد أن اعتذر عنه: «ثم إن الكبير من أئمة العلم إذا كَثُر صوابُه، وعلم تحريه للحقِّ، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعُرِف صلاحُه وورعه واتباعه يغفر له زلله، ولا نضلِّله ونطرحه وننسى محاسنه، نعم لا نقتدي به في بدعته وخطئه ونرجو له التوبة من ذلك» اهـ.

وقال أيضًا في دفع العتاب عن الإمام **مُحَمَّدِ بنِ نَصْرٍ المَرْوَزِيّ** - رحمه الله تعالى -: «ولو أنا كلّما أخطأ إمامٌ في اجتهادِهِ في آحاد المسائل خطأً مغفورًا له، قمنا عليه، وبدّعناه وهجرناه لما سَلِمَ معنا لا ابن نصر ولا ابن منده، ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة». اهـ.

وقال في ترجمة **إمامِ الأئمةِ ابْنِ خُزَيْمَةَ** المتوفى سنة (٣١١هـ) - رحمه الله تعالى -: «وكتابه في التوحيد مجلد كبير، وقد تأول في ذلك «حديث الصورة»[١]، فليعذر من تأول بعض الصفات، وأما السّلف فما خاضوا في التأويل، بل آمنوا وكَفُّوا، وفَوَّضوا علم ذلك إلى الله ورسوله، ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده - مع صحة إيمانه وتوخيه لاتباع الحق - أهدرناه وبدّعناه، لقلَّ من يسلم من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمنِّه وكرمه» اهـ.

وقال في ترجمة باني مدينة الزهراء بالأندلس: الملك الملقب بأمير المؤمنين **عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مُحَمَّدٍ** صاحب الأندلس المتوفى سنة (٣٥٠هـ): «وإذا كان الرأس عالي الهمة في الجهاد، احتملت له هنات، وحسابه على الله، أما إذا أمات الجهاد، وظلم العباد، وللخزائن أباد، فإن ربك لبالمرصاد». اهـ.

وقال في ترجمة **القَفَّالِ الشَّاشِيِّ** الشافعي المتوفى سنة (٣٦٥هـ) - رحمه الله تعالى -: «قال أبو الحسن الصّفار: سمعت أبا سهل الصعلوكي، وسُئل عن

(١) حديث: «فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ». رواه مسلم (٢٦١٢).

تفسير أبي بكر القفال، فقال: قدَّسه من وجه، ودنَّسه من وجه، أي: دنسه من جهة نصره للاعتزال».

قال الذهبي: «قد مر موته، والكمال عزيز، وإنما يمدح العالم بكثرة ما له من الفضائل، فلا تدفن المحاسن لورطةٍ، ولعلَّه رجع عنها، وقد يغفر له في استفراغه الوسع في طلب الحق، ولا حول ولا قوة إلا بالله». اهـ.

وبعد أن ذكر بعض الهفوات **لأبي حَامِدٍ الغزَالِيّ** المتوفى سنة (٥٠٥هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ قال: «الغزّالي إمامٌ كبير، وما من شرط العالم أَنَّهُ لا يخطئ». اهـ.

وقال أيضًا: «ما زال الأئمة يخالف بعضهم بعضًا، ويرد هذا على هذا، ولسنا ممن يذم العالم بالهوى والجهل». اهـ.

وقال أيضًا: «فرحم الله الإمام أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله، ولكن لا ندّعي عصمته من الغلط والخطأ، ولا تقليد في الأصول». اهـ.

ونبه على حال **مُجَاهِدُ بنُ جَبْرٍ** فقال: «ولمجاهد أقوالٌ وغرائبُ في العلم والتفسير تُستنكر». اهـ.

وقال في ترجمة **ابْنِ عَبْدِ الحَكَمِ**: «له تصانيفُ كثيرة، منها: كتاب في الرَّد على الشَّافعي، وكتاب «أحكام القرآن»، وكتاب «الرَّدُّ عَلَى فُقَهاءِ العِرَاقِ»، وما زال العلماءُ قديمًا وحديثًا يرد بعضهم على بعض في البحث وفي التّواليف، وبمثل ذلك يتفقه العالم، وتتبرهن له المشكلاتُ، ولكن في زمننا قد يعاقب الفقيه إذا اعتنى بذلك لسوء نيته، ولطلبه للظهور والتكثر، فيقوم عليه قضاة وأضداد، نسأل الله حسن الخاتمة وإخلاص العمل». اهـ.

وفي ترجمةِ **إِسْمَاعِيْلَ التَّيْمِيّ** المتوفى سنة (٥٣٥هـ) أَنَّهُ قال: «أخطأ ابن خزيمة في «حديث الصورة»، ولا يطعن عليه بذلك بل لا يؤخذ عنه هذا فحسب».

قال أبو موسى ـ المديني ـ: «أشار بهذا إلى أَنَّهُ قلَّ إمامٌ إلا وله زلّة،

فإذا تُرك لأجل زلته، تُرِك كثيرٌ من الأئمة، وهذا لا ينبغي أن يُفعل».اهـ.

فهذا الذهبي نفسه قد تكلم رحمه الله تعالى في أن علوم أهل الجنة تسلب عنهم **في الجنة** ولا يبقى لهم شعور بشيء منها، وقد تعقبه العلامة **الشوكاني في فتاواه المسمَّاة**: «الفتح الرباني»، وذكر إجماع أهل الإسلام على **أن عقول أهل الجنة** تزداد صفاءً وإدراكًا لذهاب ما كان يعتريهم في الدنيا، وساق النصوص في ذلك، منها قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٦ ـ ٢٧].

وهذا **الإمامُ الحافظ ابْنُ حِبَّانَ** المتوفى سنة (٣٥٤هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ تكلم بقوله: «النُّبوةُ: العِلْمُ والعَمَلُ. فهُجِر وحُكمَ عَلَيه بالزندقة، وكتب فيه إلى الخليفة فكتب بقتله. لكن أنصفه المحققون من أهلِ العلم فوجهوا قوله واستفادوا من علمه وفضله، منهم: ابن القيم، والذهبي، وابن حجر في سواهم من المحققين».

ومما قاله الذهبي: «وهذا أيضًا له محملٌ حسنٌ، ولم يرد حصر المبتدأ في الخبر، ومثله: الحجُّ عرفةُ، فمعلوم أن الرجل لا يصيرُ حاجًّا بمجرد الوقوف بعرفة، إنما ذكر مهم الحج، ومهم النبوة، إذ أكمل صفات النبي: العلم والعمل، ولا يكون أحدٌ نبيًا إلا أن يكون عالمًا عاملًا، نعم النبوة موهبة من الله تعالى لمن اصطفاه من أولي العلم والعمل لا حيلة للبشر في اكتسابها أبدًا، وبها يتولد العلمُ النافعُ والعملُ الصالحُ، ولا ريب أن إطلاق ما نقل عن أبي حاتم: لا يسوغ، وذلك نفسٌ فلسفي».اهـ.

وهذا العلامة **أَبُو الوَلِيْد البَاجِيُّ** المالكي المتوفى سنة (٤٧٤هـ) رحمه الله تعالى افترع القول بارتفاعِ أُميَّة النبي ﷺ لقصة الحديبية، فقام عليه أهل عصره حتى حكموا بكفره.

وقال بعضهم فيه:

لبَرِئْتُ مِمَّنْ شَرَى دُنْيا بآخِرَةٍ   وَقَالَ: إنَّ رَسُوْلَ اللهِ قَدْ كَتَبا

ثم تطامنت الفتنة وأوضح المحققون بأن واقعة الحديبية لا سبيلَ إلى

إنكارها لثبوتها لكنها لا تنفي الأمية، كما أن النبي ﷺ بُعث في العرب وهم أمةٌ أميةٌ لا تكتب ولا تحسب، ومع هذا يوجد فيهم من يكتب مثل كتاب الوحي ـ لكنهم على ندرة، ولم ينف هذا أمية أمته ﷺ من العرب.

حقق ذلك الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى في ترجمة الباجي من السير.

قد ترى الرجل العظيم يُشار إليه بالعلم والدين، وقفز القنطرة في أبواب التوحيد على أصول الإسلام والسنة وجادة سلف الأمة، ثم يحصل منه هفوة، أو هفوات، أو زلة، أو زلات.

فلتعلم هنا: أَنَّهُ ما كل عالم ولا داعية كذلك يؤخذ بهفوته، ولا يُتبع بزلته، فلو عُمِل ذلك لما بقي معنا داعيةٌ قط، وكُلٌّ رادٌّ ومردُودٌ عليه، والعصمة لأنبياء الله ورسله.

نعم: يُنبه على خطئه، ولا يُجَرَّمُ به، فيُحرمُ النّاسُ من عِلْمِهِ ودعوته، وما يحصل على يديه من الخير.

ومِنْ جُرْمِ المخطئِ في خطئه الصّادر عن اجتهادٍ له فيه مسرحٌ شرعًا، فهو صاحب هوى يحمل التبعة مرتين:

ـ تبعة التجريم. ـ وتبعة حرمان الناس من علمه.

بل عليه عدة تبعات معلومة لمن تأملها. اهـ.

وكلام الشيخ وغيره في هذا يطول، وإن الطَّعن في الأخيار والأفاضل على مَرِّ التاريخ مشهودٌ ومعروفٌ، قد شُحنت به الكتب وزكمت منه الأنوف، فلا غَرْوَ أن نرى هذا في زمن الفتن وقلة العلم، ولكن الخطأ هو سُكوت أهل العلم طلبًا للسلامة؛ وخصوصًا أن هؤلاء لهم ألسنة أَشَدُّ من الحديد، وطولُ نفسٍ لا ينقطع حتى ينقطع منهم حبل الوريد ـ فنسأل الله السلامة من كيدهم وشرِّهم، وأن يعصمنا من الزَّلل والخطأ، وأن يوفقنا لاتباع سنة نبينا ﷺ ومن سار على نهجها ـ اللهم آمين. اهـ.

لقد قلّ الإنصافُ وتحكمت الأهواءُ وأصبحت المحبة وقضايا الاتباع لا

يحكمها إلا ضابط الهوى عند الغالب من النّاس، «فالسكوت عن أخطاء الموافق أصل وذلك لمصلحة الدين، وتتبع زلات المخالف هدي؛ والتقي من ينشرها بين يدي العالمين»، هذه حال الأكثر من الشباب الذين تربوا على الحزبية المقيتة والجهل المركب الذي خلا من نصوص الكتاب والسنة الصريحة.

فإياك وهؤلاء، فإنهم قذى العيون ورأسُ الفتنة ومصدر الشر، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ: «وَليس لأحد أن يتبع زلات العلماء، كما ليس له أن يتكلم في أهل العلم وَالإيمان إلا بما هم له أهل، فَإِنَّ الله تَعَالَى عفا للمؤمنين عما أخطئوا كما قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ اللهُ: قد فعلت. وَأمرنا أن نتبع ما أنزل إلينا من ربنا وَلا نتبع من دونه أولياء، وَأمرنا أن لا نطيع مخلوقًا في معصية الخالق، وَنستغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، فنقول: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، وَهذا أمرٌ وَاجب على المسلمين في كل ما كان يشبه هذا من الأمور، وَتعظم أمر الله تَعَالَى بالطاعة لله وَرسوله وَترعى حقوق المسلمين لا سيما أهل العلم منهم كما أمر الله وَرسوله، ومن عدل عَنْ هذهِ الطَّريق فقد عدل عَنْ اتباع الحجة إلى اتباع الهوى في التقليد، وَآذى المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فهو من الظالمين، وَمن عظَّم حرمات الله وَأحسن إلى عباد الله كان من أولياء الله المتقين ـ وَالله سُبْحَانَهُ أعلم»[1].

اَلْهَوَى يُعْمِي وَيُصِمُّ:

إنَّ من أعظم أضرار الهوى حينما يتمكن من القلب أَنَّهُ يهوي بصاحبه في لجج الفتن، فلا يرى حقًا إلا ما وافق هواه، ولا يرى باطلًا إلا ما ينكره هواه.

---

(١) «الفتاوى الكبرى» (٣٢/ ٢٣٩).

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[1].

فانظر عند غلبة الهوى على القلب كيف تقلبت الأمور بعد سواد القلب واستحكام الهوى، فلا شرع ولا دين يضبط؛ إنما الضَّابط هو الهوى.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠].

قَالَ ابن القيم: «واتباع الهوى يصد عَنْ التصديق بالحق واتباع ما أوجبه العلم به، وَهذه حال عامة المكذبين مثل مكذبي محمد ﷺ وَموسى ﷺ وَغيرهما، فإنهم علموا صدقَهما علمًا يقينيًا لما ظهر من آيات الصدق وَدلائله الكثيرة، لكن اتباع الهوى صد عَنْ الحق، قَالَ تَعالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وَقَالَ تَعَالَى عَنْ قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وَقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

ولهذا قَالَ: ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

فعلموا أنها حق وَغفلوا عنها كما يغفل الإنسان عما يعلمه.

ولهذا سمي أصحاب البدع «أصحاب الأهواء» فَإِنَّ طريق السنة علم

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٤٤).

وَعدل وَهدى، وَفي البدعة جهل وَظلم وَفيها اتباع الظن وَما تهوى الأنفس.

واتباع الهوى يطمس نور القلب وَيُعمي بصرَه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر: هل الحاكم عليه الهوى أَوْ الوحي؟ فَإِن كان الحاكم عليه هو الهوى وَهو من أهل الغفلة كان أمره فرطًا، وَمعنى الفرط: فسر بالتضييع، أي أمره الذي يجب أن يلزمَه وَيقوم به وَبه رشدُه وَفلاحُه ضائع قد فرط فيه، وَفسر بالإسراف، أي قد أفرط، وَفسر بالإهلاك، وَفسر بالخلاف للحق، وَكلها أقوال متقاربة، وَالمقصود أن الله ﷻ نهى عَنْ طاعة من جَمَعَ هذه الصفات، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وَقدوته وَمتبوعه، فَإِن وَجده كذلك فليبعد منه، وَإن وَجده ممن غلب عليه ذكر الله ﷻ وَاتباع السنة وَأمره غير مفروط عليه؛ بل هو حازم في أمره فليستمسك بغرزه، وَلا فرق بين الحيّ وَالميت إلا بالذكر، فمثل الذي يذكر ربه وَالذي لا يذكر ربه كمثل الحي وَالميت»[١].

وقال أيْضًا: «واتباع الهوى يعمي عين القلب فلا يميز بين السّنة وَالبدعة، أَوْ ينكسه فيرى البدعة سنة وَالسنة بدعة، فهذه آفةُ العلماء إذا آثروا الدنيا وَاتبعوا الرّياسات وَالشهوات، وَهذه الآيات فيهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

فهذا مثل عالم السُّوء الذي يعمل بخلاف علمه، وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه وَذلك من وجوه:

أحدها: أنَّهُ ضل بعد العلم وَاختار الكفر على الإيمان عمدًا لا جهلًا.

---

(١) «الوابل الصيب» (٥٦).

وثانيها: أَنَّهُ فارق الإيمان مُفارقةَ من لا يعود إليه أبدًا، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تَنْسَلِخُ الحية من قشرها، وَلو بقي معه منها شيءٌ لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشَّيطان أدركه وَلحقه بحيث ظفر به وَافترسه، وَلهذا قَالَ: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، وَلم يقل: «تبعه» فَإِنَّ في معنى «أتبعه»: أدركه وَلحقه، وَهو أبلغ من «تبعه» لفظًا وَمعنى.

ورابعها: أَنَّهُ غوى بعد الرشد، وَالغي: الضلال في العلم وَالقصد، وَهو أخص بفساد القصد وَالعمل، كما أن الضّلال أخص فساد العلم وَالاعتقاد، فإذا أُفردَ أحدُهما دخل فيه الآخر، وَإن اقترنا فالفرق ما ذكر.

وخامسها: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لم يشأْ أن يرفعَه بالعلم؛ فكان سبب هلاكه؛ لأنه لم يُرفع به فصار وَبالًا عليه، فلو لم يكن عالمًا كان خيرًا له وَأخف لعذابه.

وسادسها: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أخبر عَنْ خِسَّةِ همته، وَأنّه اختارَ الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أنَّ اختياره للأدنى لم يكن عَنْ خاطرٍ وَحديثِ نفس، وَلكنه كان عَنْ إخلاد إلى الأرض وَميل بكليته إلى ما هناك، وَأصل الإخلاد اللزوم على الدوام كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض، وَمن هذا يقال: أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به، قَالَ مالك بن نويرة:

بِأبناءِ حَيّ مِنْ قَبائِلِ مالك ... وَعَمْرو بن يربوع أقامُوا فأخْلدوا

وعبر عَنْ ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض؛ لأن الدنيا هي الأرض وَما فيها وَما يستخرج منها من الزينة وَالمتاع.

وثامنها: أَنَّهُ رغب عَنْ هداه وَاتبع هواه فجعل هواه إمامًا له يقتدي به وَيتبعه.

وتاسعها: أَنَّهُ شبَّهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات هِمَّة، وَأسقطها نفسًا، وَأبخلها وَأشدها كَلَبًا، وَلهذا سمي كَلْبًا.

وعاشرها: أَنَّهُ شبه لهثه على الدنيا وَعدم صبره عنها وَجزعَه لفقدها وَحرصَه على تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه وَالحملِ عليه بالطَّرد. . وَهكذا، هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا، وَإن وَعَظ وَزَجَر فهو كذلك، فاللّهث لا يفارقه في كلِّ حالٍ كلهث الكلب.

قَالَ ابن قتيبة: «كل شيء يلهث، فإنما يلهث من إعياء أَوْ عطش إلا الكلب؛ فإنه يلهث في حال الكلال وَحال الرَّاحة، وَحال الرِّي وَحال العطشِ، فضربه الله مثلًا لهذا الكافر، فقال: إن وَعظته فهو ضالٌّ وَإن تركته فهو ضال، كالكلب إن طردته لهث وَإنْ تركته على حاله لهث، وَهذا التمثيل لم يقع بكل كلب وَإنما وَقع بالكلب اللاهث، وَذلك أخسُّ ما يكون وَأشنعه»[1].

وإن من آفات الهوى أَنَّهُ قد يوقع العبد في الشِّرك الأكبر ويحيد به عن الطريق بل ويستحكم فيه الهوى حتى يصير إلهه الذي يعبده ويطيع أمره.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

قَالَ ابنُ القيمِ: «فأين يذهبُ من تولّى عَنْ توحيدِ ربه وَطاعته وَلم يرفع رأسا بأمره وَدعوته، وَكذَّبَ رسوله وَأعرض عَنْ متابعته، وَحاد عَنْ شريعته وَرغب عَنْ ملته، وَاتبع غير سنته وَلم يستمسِك بعهده، وَمكن الجهل من نفسه وَالهوى وَالعناد من قلبه، وَالجحود وَالكفر من صدره، وَالعصيان وَالمخالفة من جوارحه، فقد قابل خبر الله بالتكذيب، وَأمرَه بالعصيان وَنهيَه بالارتكاب، يغضب الرَّب وَهو راضٍ، وَيرضى وَهو غضبان، يحب ما يُبغض وَيُبغض ما يحب، وَيوالي من يعاديه وَيعادي من يواليه، يدعو إلى خلافِ ما يرضى، وَينهى عبدًا إذا صلى، قد اتخذ إلهه هواه وَأضلّه الله على علمٍ فأصمّه وَأبكمه وَأعماه، فهو ميت الدَّارين فاقد السعادتين قد رضي بخزيِ الدنيا وَعذاب

---

(١) «الفوائد» (١٠١).

الآخرة، وَباع التجارة الرابحة بالصفقة الخاسرة، فقلبه عَنْ ربه مصدود، وَسبيل الوصول إلى جنته وَرضاه وَقربه عنه مسدود، فهو وَلي الشَّيطان وَعدو الرحمن وَحليف الكفر وَالفسوق وَالعصيان، رضي المسلمون بالله ربًّا وَبالإسلام دينًا وَبمحمد رسولًا، وَرضي المخذول بالصليب وَالوثن إلهًا، وَبالتثليث وَالكفر دينًا، وَبسبيل الضلالِ وَالغضب سبيلًا، أعصى النّاس للخالق ـ الذي لا سعادة له إلا في طاعته ـ، وَأطوعهم للمخلوقِ ـ الذي ذهاب دنياه وَأخراه في طاعته ـ، فإذا سئل في قبره: مَنْ ربك وَما دينك وَمن نبيك؟ قَالَ: هاه هاه لا أدري، فيقال: لا دريت وَلا تليت وَعلى ذلك حييت وَعليه مِتْ وَعليه تبعثُ إن شاء الله. ثم يُضْرمُ على قبرهِ نارًا وَيضيق عليه كالزج في الرُّمح[1] إلى قيام الساعة، وَإذا بعثر ما في القبور، وَحُصِّلَ ما في الصدور، وَقام النّاس لرب العالمين، وَنادى المنادي: وَامتازوا اليوم أيها المجرمون، ثم رفع لكل عابد معبودُه الذي يعبده وَيهواه، وَقال الرب تَعَالَى وَقد أنصت له الخلائق: أليس عدلًا مني أن أولي كل إنسان منكم ما كان في الدنيا يتولاه؟ فهناك يعلم المشرك حقيقة ما كان عليه وَيتبين له سوء منقلبه وَما صار إليه، وَيعلم الكفار أنهم لم يكونوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٥]»[2].

وقال ابن القيم: «من أحبَّ شيئًا سوى الله تَعَالَى وَلم تكن محبته لله تَعَالَى وَلا لكونه معينًا له على طاعة الله تعالى عُذِّب به في الدنيا قبل يوم القيامة، كما قيل:

أَنْتَ الْقَتِيلُ بِكلِّ مَنْ أَحْبَبْتَه فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ فِي الْهَوَى مَنْ تَصْطَفِي

فإذا كان يوم المعاد ولَّى الحَكَمُ العدل سُبْحَانَهُ كُلَّ محبٍّ ما كان يحبه في الدنيا، فكان معه إما منعمًا أَوْ معذبًا، وَلهذا يمثل لصاحب المالِ ماله

---

(١) الزُّجُّ: الحديدة التي تُرَكَّبُ في أسفل الرمح. «لسان العرب» باب: (زجج).

(٢) «هداية الحيارى» (٧).

شجاعًا أقرع يأخذ بلهزمتيه ـ يعني شدقيه يقول: «أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ»[1]، وَيصفَّح له صفائح من نار يكوى بها جبينه وَجنبه وَظهره، وَكذلك عاشقُ الصور إذا اجتمع هو وَمعشُوقه على غير طاعة الله تَعَالَى جمع الله بينهما في النار وعذب كل منهما بصاحبه، قَالَ تعَالَى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧].

وَأخبر سُبْحَانَهُ أن الذين توادوا في الدنيا على الشِّرك يكفر بعضهم ببعض يوم القيامة، وَيلعن بعضهم بعضًا، وَمأواهم النار وَما لهم من ناصرين.

فالمحب مع محبوبه دنيا وَأخرى، وَلهذا «يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَمْ تَرْضَوْا مِنْ رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ، وَصَوَّرَكُمْ، وَرَزَقَكُمْ، أَنْ يُوَالِيَ كُلُّ إِنْسَانٍ مَا كَانَ يَعْبُدُ فِي الدُّنْيَا وَيَتَوَلَّى، أَلَيْسَ ذَلِكَ عَدْلٌ مِنْ رَبِّكُمْ؟»، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «فَيَنْطَلِقُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ إِلَى مَا كَانَ يَتَوَلَّى فِي الدُّنْيَا، وَيُمَثَّلُ لَهُمْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ فِي الدُّنْيَا»[2].

وَقال ﷺ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[3].

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ۝٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ۝٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ۝٢٩﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ۝٢٤ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٥].

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (١٤٠٣).

(٢) حسن بشواهده: رَوَاهُ الحاكم «المستدرك» (٤/ ٦٣٢)، ابن خزيمة «التوحيد» (٢/ ٥٨٣) ـ رقم (٣٤٣)، عبد الله بن أحمد «السنة» (١٢٠٣)، محمد بن نصر «تعظيم قدر الصلاة» (٢٧٨) وهو «حسن» على خلاف في بعض رواته.

(٣) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٦١٦٨)، مسلمٌ (٢٦٤٠).

قَالَ عمر بن الخطاب ﷺ: ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أشباههم وَنُظَرَاؤُهم.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ [التكوير: ٧].

فقرن كُلّ شكل إلى شكله وَجعل معه قرينًا وَزوجًا، البر مع البر، وَالفاجر مع الفاجر، والمقصود: أَنَّ من أحبَّ شيئًا سوى الله ﷻ فالضرر حاصل له بمحبوبه، إن وجد وَإن فقد، فَإِنَّهُ إن فقده عُذِّب بفواته، وَتألم على قدر تعلق قلبه به، وَإن وَجده كان ما يحصل له من الألم قبل حصوله وَمن النَّكدِ في حال حصوله وَمن الحسرة عليه بعد فوته أضعاف أضعاف ما في حصوله له من اللذة:

فَمَا فِي الْأَرْضِ أَشْقَى مِنْ مُحِبٍّ ... وَإِنْ وَجَدَ الْهَوَى حُلْوَ الْمَذَاقِ
تَرَاهُ بَاكِيًا فِي كُلِّ حَالٍ ... مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أَوْ لِاشْتِيَاقِ
فَيَبْكِي إِنْ نَأَوْا شَوْقًا إِلَيْهِمْ ... وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا حَذَرَ الْفِرَاقِ
فَتَسْخَنُ عَيْنُه عِنْدَ الفراق ... وَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التلاق

وهذا أمر معلوم بالاستقراءِ وَالاعتبارِ وَالتجارب، وَلهذا قَالَ النبيّ ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وَغيره: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَالَاهُ»(١).

فذكره جميع أنواع طاعته، فكل من كان في طاعته فهو ذاكرٌ له وَإن لم يتحرك لسانه بالذكر، وَكلُّ من وَالاه الله فقد أحبه وَقرَّبه، فاللعنة لا تنال ذلك بوجه وَهي نائلة كل ما عداه»(٢).

وإن من أعظم نعم الله على العبد أن يرزقه الهداية والاستقامة على أمر الله، حتى ولو عظم الهوى فنور العلم يمحي ظلامه وإن أثقل القلب، فعونُ الله يسري بقلب العبد إلى بلد لم يكن بالغه إلا بشق الأنفس.

قَالَ ابن القيم أيضًا: «فَإِنَّ العلم نور الله يقذفه في قلب عبده، وَالهوى

(١) حسن: رَوَاهُ الترمذي (٢٣٢٢)، قال الشيخ الألباني: حسن.

(٢) «إغاثة اللَّهفَان» (٤٠).

وَالمعصية رياحٌ عاصفةٌ تطفئ ذلك النور أَوْ تكاد وَلا بد أن تضعفه، وشهدت شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه ـ إذا أعيته المسائلُ وَاستصعبت عليه فرّ منها إلى التوبة وَالاستغفار وَالاستغاثة بالله وَاللجأ إليه، وَاستنزال الصَّواب من عنده، وَالاستفتاح من خزائن رحمته، فقلما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مدًّا، وَتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ.

وَلا ريب أن من وُفّق لهذا الافتقار علمًا وَحالًا وَسار قلبه في ميادينه حقيقة وَقصدًا؛ فقد أعطي حظه من التوفيق، وَمن حُرمه فقد منع الطريق وَالرفيق، فمتى أُعين مع هذا الافتقار ببذل الجهد في درك الحق فقد سلك به الصِّراط المستقيم، وَذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وَالله ذو الفضل العظيم»[١].

---

(١) «إعلام الموقعين» (٤/ ١٧٢).

الدُّنْيَا مَطِيةُ الهَوَى

إنّ مِنْ أَعْظَمِ أسبابِ تمكن الهوى في القلب هو التعلق بالدنيا، وقد حذّر الله أبناءها، وبين لهم حقيقتها قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥].

فمن اغتر بها ولزم العمل لها وغفل عن آخرته نال فيها الذل والخسارة في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ [يونس: ٧].

وقد حذَّر النبي ﷺ أبناءَها من الاغترار بها، والرُّكونِ إليها، فإن ركون القلب إليها مضيعةُ الدنيا والآخرة، وفتحُ باب الهوى على القلب حتى يأسره.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ».

ثُمَّ ذَكَرَ زَهْرَةَ الدُّنْيَا فَبَدَأَ بِإِحْدَاهُمَا وَثَنَّى بِالْأُخْرَى، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوَ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، قُلْنَا: يُوحَى إِلَيْهِ. وَسَكَتَ النَّاسُ كَأَنَّ عَلَى رُؤوسِهِمْ الطَّيْرَ، ثُمَّ إِنَّهُ مَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ الرُّحَضَاءَ فَقَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ آنِفًا أَوَ خَيْرٌ هُوَ ثَلَاثًا، إِنَّ الْخَيْرَ لَا يَأْتِي إِلَّا بِالْخَيْرِ، وَإِنَّهُ كُلَّمَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرِ[1]، كُلَّمَا أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا

---

(١) «الحبَط» بالتحريك: الهلاك. و«يُلِمّ»: يقْرُب. أي يَدْنُو من الهلاك. و«الخضِرُ» بكسر الضّاد: نوع من البُقول ليس من أحرارها وجَيّدها. «النهاية» (٢/ ١٠٧).

امْتَلأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ الشَّمْسَ فَثَلَطَتْ[(١)] وَبَالَتْ ثُمَّ رَتَعَتْ[(٢)]، وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ لِمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ، فَجَعَلَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ فَهُوَ كَالْآكِلِ الَّذِي لَا يَشْبَعُ وَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(٣)].

قال ابن الأثير: «ضَرَبَ في هذا الحديثِ مَثَلين:

أحَدُهما: لِلْمُفْرِطِ في جَمْعِ الدُّنيا والمَنْعِ من حَقّها.

والآخر: لِلْمُقْتَصِدِ في أخْذِها والنَّفعِ بها.

فقوله: «وَإِنَّهُ كُلَّمَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ»: فإنه مَثَلٌ للمُفْرِطِ الذي يَأخذ الدنيا بغير حَقّها، وذلك أن الربيع يُنْبِتُ أحرار البُقول، فَتَسْتَكْثر الماشِية منه لاسْتِطَابَتِها إياه حتى تُنْتَفخَ بُطونُها عند مُجَاوَزتِها حَدّ الاحْتمالِ، فتَنْشَقّ أمعاؤُها من ذلك فتَهْلِك أو تُقَارب الهلاك، وكذلك الذي يَجْمَع الدُّنيا من غير حِلّها ويَمْنَعُها مُسْتَحِقّها قد تَعرّض للهلاك في الآخرة بدخُول النَّار وفي الدنيا بأذى الناس له وحَسدهم إيَّاه، وغير ذلك من أنواع الأذى.

وأما قوله «إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرِ» فإنه مَثَلٌ للمُقْتَصِد؛ وذلك أن الخضر ليس من أحْرار البُقول وجَيّدِها التي يُنْبتُها الربيعُ بتوالي أمْطارِه فتحْسُنُ وتَنْعُمُ، ولكنَّه من البُقول التي ترعاها المواشي بعد هَيْج البُقول ويُبْسِها حيث لا تَجِدُ سواها، وتُسمِّيها العَربُ الجَنَبة؛ فلا تَرى الماشِية تُكثر من أكْلها ولا تَسْتَمْرِئها، فضرَب آكِلة الخضر من المواشي مثلًا لمن يَقتَصد في أخذ الدنيا وجَمْعها، ولا يَحْمله الحِرْصُ على أخْذِها بغير حقّها؛ فهو بنَجْوةٍ من وبالها؛ كما نَجَتْ آكلةُ

(١) وثَلَطَ البعير يَثْلِط: إذا ألقى رَجِيعه سَهْلًا رَقيقًا. «المصدر السابق».

(٢) الرَّتْعُ الأكل والشرب رَغَدًا في الرِّيف.. يقال: خرجنا نَرْتَعُ ونَلْعب، أي: نَنْعَم ونَلْهو.. ورتَعَت الماشِيَةُ تَرْتَع رَتْعًا ورُتُوعًا أكلت ما شاءت وجاءت وذهبت في المَرْعَى نهارًا. «لسان العرب» (٨/ ١١٢).

(٣) رواهُ البُخَارِيّ (٢٨٤٢)، مسلمٌ (١٠٥٢).

الخضر، ألا تراه قال: «أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ الشَّمْسَ فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ»، أراد أنها إذا شَبِعَت منها برَكَت مُسْتَقْبِلَةً عين الشمس تَسْتَمْرِئُ بذلك ما أكلَتْ، وتجْتَرُّ وتَثْلِطُ، فإذا ثَلَطَت فقد زال عنها الحَبَطُ. وإنما تَحبَطُ الماشية لأنها تَمتلىء بُطُونها ولا تَثْلِطُ ولا تَبُول فتَنْتَفِخُ أجْوَافها فَيعْرِض لها المَرضُ فتَهْلِك. وأراد بزَهْرةِ الدّنيا حُسنَها وبَهْجَتَها، وببَركات الأرضِ نَمَاءَها وما يخرج من نَبَاتِها»[1].

وإن من أعظم آفاتها أنها تدخل العبد في زي الآخرة فترغبه فيها طمعًا في استدراجه إليها، فتعرض عليه الوصل إلى مأرب أخروي ممزوج بالدنيا؛ كالرئاسة والوجاهة والإمارة من أجل أن يقيم لله أمرًا وَسَرعان ما تجره إليها فيُضَيّع من أجل هذا الطلبِ جميع الأوامر.

عن عوف الْأَعْرَابِيّ، عن أبي المنهال، قال: «لما كان زمن أخرج ابن زياد وثب مروان بالشّام، وابن الزبير بمكة، ووثب الذين كانوا يدعون القراء بالبصرة غُمَّ أبي غمًا شديدًا ـ وكان يثني على أبيه خيرًا ـ قال: قال لي: انطلق إلى هذا الرجل الذي من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أبي برزة الأسلمي. فانطلقت معه حتى دخلنا عليه في داره وإذا هو في ظلِّ علو له من قصب في يوم شديد الحر، فجلست إليه، قال: فأنشأ أبي يستطعمه الحديث، وقال: يا أبا برزة ألا ترى؟ قال: فكان أول شيء تكلم به أن قال: إني أحتسب عند الله ﷻ أني أصبحت ساخطًا على أحياءِ قريش، وأنكم معشر العرب كنتم على الحال الذي قد علمتم من جهالتكم، والقلةِ والذِّلةِ والضَّلالةِ، وأن الله ﷻ نعشكم بالإسلام، وبمحمد ﷺ خير الأنام، حتى بلغ بكم ما ترون، وأنّ هذه الدُّنيا هي التي أفسدت بينكم، وإن ذاك الذي بالشّام والله إن يقاتل إلا على الدنيا، وإن الذي حولكم الذين تدعونهم قراءكم؛ والله لن يقاتلوا إلا على الدّنيا، قال: فلما لم يدع أحدًا قال له أبي: بما تأمر إذًا؟ قال: لا أرى خير

---

(١) «النهاية في غريب الأثر» (٢/ ١٠٧).

الناس اليوم إلا عِصَابةً مُلَبَّدة؛ خِمَاصَ البطونِ من أموال الناس، خِفافَ الظُّهورِ من دمائهم»[1].

ومن آفات الدنيا أنها تتزين لأهل العلم والفضل فتزجهم إليها عن طريق الشهرة والظهور، والترأس وحبِّ المكانة، فلا يرى العالم نفسه إلا في موضع يحب فيه الثناء والمدح، ولا يرى نفسه بين الناس إلا مشارًا إليه، ومن هذا الباب كان سقوط الكثير.

قال عبد الرحمن بن مهدي: «كُنْتُ أجلسُ يوم الجمعةِ في مسجدِ الجامعِ، فيجلسُ إلي النّاسِ فإذا كانوا كثيرًا فرحت؛ وإذا قلّوا حزنت»؛ فسألت بشر بن منصور فقال: «هذا مجلسُ سُوءٍ لا تعد إليه». قال: فما عدت إليه.

وقام من المجلسِ يومًا وتبعه الناس، فقال: «يا قوم لا تطؤوا عقبي، ولا تمشوا خلفي ـ ووقف»[2].

وخطب عمر بن عبد العزيز فقال: «إن الدُّنيا ليست بدارِ قرارِكم، دَارٌ كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها منها الظَّعن، فكم عامرٌ موثق عما قليل مخرب، وكم مقيم مغتبط عما قليل يظعن، فأحسنوا ـ رحمكم الله ـ منها الرحلةَ بأحسن ما يحضركم من النقلة، وتزودوا فإن خير الزّاد التقوى، إنما الدنيا كَفَيْءِ ظِلال قَلَصَ فذهب. بينا ابن آدم في الدنيا ينافسُ فيها وبها قرير العين إذ دعاه الله بقدره، ورماه بيوم حَتْفِه، فسلبه آثاره ودنياه، وصير لقومٍ آخرين مصانعه ومغناه، إن الدُّنيا لا تسر بقدر ما تضر، إنها تسر قليلًا، وتجر حزنًا طويلًا»[3].

قال الشّافعي لأخٍ له في الله تعالى يعظه ويخوِّفه: «يا أخي، إن الدُّنيا دَحْضُ مَزِلَّةٌ[4]، ودَارُ مَذَلّة، عُمْرانها إلى الخرابِ صائر، وساكنها للقبورِ

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٣).
(٢) «حلية الأولياء» (٩/ ١٢).
(٣) «حلية الأولياء» (٥/ ٢٩٢).
(٤) الدَّحْضُ: الزَّلَقُ وهو موضع الزَّلَل، مَزَلَّة: تزلَقُ عليه الأقْدَام ولا تثبت.

زائر، شملُها على الفُرقةِ موقوفٌ، وغناها إلى الفقرِ مصروف، الإكثارُ فيها إعسار، والإعسار فيها يسار، فافزع إلى الله، وارض برزقِ الله تعالى، ولا تستلف من دار بقائك في دار فنائك، فإن عيشك فيءٌ زائل، وجدارٌ مائل، أكثرْ من عملك، وقَصِّر من أملك».

وقيل للشّافِعِي: «ما لك تُدمنُ إمساكَ العصا ولسْتَ بضعيفٍ؟». فقال: «لأذكر أني مسافر، يعني في الدُّنيا».

وقال: «مَنْ شَهِدَ الضّعفَ من نفسه نال الاستقامة».

وقال: «مَنْ غَلَبَتْهُ شِدَّة الشّهوة للدّنيا لزمته العبودية لأهلها، وَمَنْ رَضِي بالقنوعِ زال عنه الخضوع».

وقال: «خير الدنيا والآخرة في خمس خصال: غنى النفس، وكف الأذى، وكسب الحلال، ولبس التقوى، والثقة بالله ﷻ على كل حال»[1].

فإذا فُتِح باب استيلاءِ الدنيا على القلب فتح باب الهوى، فأفسد القلبَ وعَطّل سيره إلى ربه، فطوبى لعبد أمسك الدنيا بلجام التقوى، وما أخذ منها إلا قدر الحاجة، فعطل الهوى عن ركوب الدنيا فخفّ حمله، وبان له الحق فعمل به، وألزم نفسه أن تكون طوعًا لربه.

(١) «تهذيب الأسماء» للنووي (١/ ٥٥).

الشَّيْطَانُ والْمَعْرَكَةِ

القلبُ موضعُ الإيمانِ ومنه يشعّ نوره على الجوارح، وعلى قدر هذا الإيمان يكون الأثر على الجوارح، ولذلك نرى أن الشَّيطان يختار أقرب المواقع من القلب ليُحكم كيده، ويتمكن من الوصول لغايته من الوسوسة والتأثير على القلب.

والشَّيطانُ أشدُّ أعداءِ بني آدم وأخطرها على الإطلاق، فهو قائد المعارك جميعًا ضد القلب، وهو قد اختار أشرف بقعةٍ وأعظمَ مكانٍ ليستقر فيه وهو القلب ليفسد على ابن آدم دينه ودنياه، ولذلك كان الشيطان أعظم إفسادًا للقلبِ وضررًا، فلا يزال يضعفه ويؤذيه حتى يُدْخِل عليه ما يعطل به جوارحه جارحة جارحة من الآفات المهلكة للقلب.

وقد اختلف العلماءُ في المكان الذي يقعد فيه الشَّيطان من القلب، فقيل هو يسري في دمه وعروقه وكلما وجد فرصة للاستقرار في القلب فعل، واستدلوا بالحديث: «فَإِنَّ الشَّيطان يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ»[(١)].

والبعض قال: «حظُّه من الإنسانِ النّقطةُ السّوداءُ العالقةُ بالقلبِ».

وقيل: «بل مجلسه خارج القلب يمد خُرطومه لقلب ابن آدم فإن وجد سبيلًا اقتحم ووسوس؛ وإلا خنس ورجع مكانه».

قال الحافظُ ابنُ حَجَر: وَوَقَعَ فِي حَدِيث عَبْد الله بْن سَرْجَس عِنْد مُسْلِم «أَنَّ خَاتَم النُّبُوَّةِ كَانَ بَيْن كَتِفَيْهِ عِنْد نَاغِض[(٢)] كَتِفه الْيُسْرَى»[(٣)].

---

(١) سيأتي قريبا إن شاء الله تعالى.

(٢) والنَّاغِضُ الغُضْرُوفُ. قاله: ابن سيده، ونُغْضُ الكَتِف حيث تذهَب وتجيء. وقيل: هو أعلى مُنْقَطع غُضْرُوفِ الكَتِف. وقيل: النُّغْضانِ اللّذان يَنْغُضان من أَصل الكتف فيتحَرّكانِ إذا مشَى... نُغْضُ الكتِف هو العظم الرقيق على طَرَفها. «لسان العرب» باب: «نغض».

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٣٤٦).

قَالَ الْعُلَمَاءُ: «السِّرُّ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْقَلْب فِي تِلْكَ الْجِهَة، وَقَدْ وَرَدَ فِي خَبَرٍ مَقْطُوع: «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَبّه أَنَّ يُرِيه مَوْضِع الشَّيطان، فَرَأَى الشَّيطان فِي صُورَةِ ضُفْدَع عِنْد نُغْض كَتِفه الْأَيْسَر حِذَاء قَلْبه لَهُ خُرْطُوم كَالْبَعُوضَة»».

قَالَ السُّهَيْلِيُّ: «وَضْعُ خَاتَم النُّبُوَّة عِنْد نُغْضِ كَتِفه ﷺ لِأَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنْ وَسْوَسَة الشَّيطان، وَذَلِكَ الْمَوْضِعُ يَدْخُلُ مِنْهُ الشَّيطان»[١].

والشَّيطانُ لا يريد إسقاط عُضْوٍ من البدن إلا القلب، فإذا سقط القلب سقطت في العبد كلُّ جارحة، ولذلك يستعمل الشَّيطان جميع المنافذ للوصول إلى القلب أو القرب منه بشتى الصور والحيل، ويتربصُ بالعبد حال نومه ويقظته؛ في عبادته وغفلته حتى يصلَ إلى المراد، وقد صح عن النبي ﷺ جملةُ أحاديث تبين حالَ الشَّيطان للوصول إلى العبد واختياره جميع السُّبل حتى يصلَ إلى بغيته، فهذه جمل من طرقه وحيله للوصول إلى القلب:

حيل الشيطان للوصول إلى العبد:

١ ـ عَلَقَةُ الْقَلْبِ:

وهذه العلقةُ قيل: هي موضع الغلِّ والحسدِ ومواطن الشر من العبد، وهي حظ الشَّيطان من قلب العبد، وقد مَنَّ الله على رسوله ﷺ باستخراجها فلم يجعل للشيطان عليه سبيلًا.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيطان مِنْكَ. ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ ـ يَعْنِي ظِئْرَهُ، فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ[٢]». قَالَ أَنَسٌ: «وَقَدْ كُنْتُ أَرَى

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٥٦٣).

(٢) مُنْتَقِعًا لونُه: أي مُتَغَيِّرًا. يقال: انْتُقِع لونُه وامْتُقِع إذا تَغَيَّر من خَوْفٍ أو أَلَمٍ ونحو ذلك. «النهاية» (٥/ ٢٢٧).

أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ»[1].

٢ ـ فَتْحَتِي الْأَنْفِ:

وأضعفُ ما يكون العبد حال نومه، فيأتيه الشَّيطان عند خيشومه فيبيت، ولا يزال يؤذيه ويضره حتى يُصْبح.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا اسْتَيْقَظَ ـ أُرَاهُ ـ أَحَدُكُم مِنْ مَنَامِهِ فَتَوَضَّأَ فَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلَاثًا، فَإِنَّ الشَّيطان يَبِيتُ عَلَى خَيْشُومِهِ»[2].

٣ ـ حَالَ التَّثَاؤُبِ:

وعند تثاؤبِ العبدِ، فإنَّ الشَّيطانَ حينما يراه على هذه الحالةِ النّكرةِ فيتمكنُ منه بالدخولِ إلى جوفِه ولا يزالُ يضحكُ منه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعُطَاسَ وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ، فَإِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ وَحَمِدَ اللهَ كَانَ حَقًّا عَلَى كل مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ. وَأَمَّا التَّثَاؤُبُ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ الشَّيطان، فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَرُدَّهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا تَثَاءَبَ ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيطان»[3].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعُطَاسَ وَيُبْغِضُ أَوْ يَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ، فَإِذَا قَالَ أَحَدُهُمْ: هَا هَا فَإِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيطان يَضْحَكُ مِنْ جَوْفِهِ»[4].

٤ ـ مَجْرَى الدَّمِ:

عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ أم المؤمنين ـ رضي الله تعالى عنها ـ قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُعْتَكِفًا فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا، فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ فَانْقَلَبْتُ فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي، وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٦٢).
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٣٢٩٥).
(٣) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٦٢٢٦).
(٤) حسن: رَوَاهُ الترمذي (٢٧٤٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، أَحْمَدُ (٢/ ٢٦٥)، ابن خزيمة (٩٢١)، ابن حبان (٢٣٥٨).

رَأَيَا النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا[١] إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ. فَقَالَا: سُبْحَانَ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: إِنَّ الشَّيطان يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا، أَوْ قَالَ: شَيْئًا»[٢].

٥ ـ عِنْدَ وَطْءِ الزَّوْجَةِ:

وكذلك الشَّيطانُ يأتي العبد عند التعرِّي ومقارفةِ الأهلِ محاولًا مشاركته وطء امرأته وولده.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَقُولُ حِينَ يَأْتِي أَهْلَهُ: «بِاسْمِ اللهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنِي الشَّيطان وَجَنِّبْ الشَّيطان مَا رَزَقْتَنَا». ثُمَّ قُدِّرَ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ أَوْ قُضِيَ وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا»[٣].

٦ ـ حَالَ الوِلَادَةِ:

وَمَنْ ذلك القُربُ وَالدّنوُ حَالَ وِلادَةِ الولدِ ومحاولةُ طعنِهِ وإيذائِه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ يَطْعُنُ الشَّيطان فِي جَنْبَيْهِ بِإِصْبَعِهِ حِينَ يُولَدُ غَيْرَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَهَبَ يَطْعُنُ فَطَعَنَ فِي الْحِجَابِ[٤]»[٥].

٧ ـ حَالَ دُخُولِ الْبُيوتِ:

التطفلُ والتربّصُ لدخولِ البيتِ بأيّ طريقةٍ ووسيلةٍ لإيذاءِ أهلِها في أولادِهم وطعامِهم وشرابِهم ونومِهم.

---

(١) على رِسْلكما: أي اثبتًا ولا تعجلا. «النهاية» (٢/ ٥٣٩).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيّ (٣٢٨١).

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيّ (٥١٦٥)، ومسلم (١٤٣٤).

(٤) في الحجاب: هو الجلدة التي فيها الجنين، وتسمى المشيمة. قاله ابن الجوزي، وقيل: الحجاب الثوب الذي يلف فيه المولود، وفيه فضيلة ظاهرة لعيسى وأمه ﷺ، وأراد الشيطان التمكن من أمه فمنعه الله منها ببركة أمها حنة بنت فاقوذ بن ماثان حيث قالت: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]. «عمدة القاري» (١٥/ ١٧٦).

(٥) رَوَاهُ الْبُخَارِيّ (٣٢٨٦).

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵄، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ أَوْ أَمْسَيْتُمْ فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَتْ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ فَخَلُّوهُمْ وَأَغْلِقُوا الْأَبْوَابَ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ، فَإِنَّ الشَّيطان لَا يَفْتَحُ بَابًا مُغْلَقًا»(١).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵄ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيطان: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرْ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيطان: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ. وَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ»(٢).

٨ ـ حَالَ الْجُلُوسِ عِنْدَ قَافِيَةِ الْعَبْدِ:

ففي حالِ نومِ العبدِ يظلُّ الشَّيطانُ عندَ رأسِ العبدِ يُمنِّيه ويَخْدَعهُ حتى يُضيِّعَ عليه أجلَّ وأفضلَ لحظاتِ العبادةِ من الليلِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَعْقِدُ الشَّيطان عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ(٣) إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ؛ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ»(٤).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ ﵁ قَالَ: «ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ، فَقِيلَ: مَا زَالَ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحَ مَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَقَالَ: بَالَ الشَّيطان فِي أُذُنِهِ»(٥).

٩ ـ حَالَ النَّوْمِ:

التلاعب ببني أدم حال نومهم من إحداث رؤى وأحلام تزعجهم فلا يشعرون بهناءة نوم.

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٣٣٠٤)، ومسلم (٢٠١٢).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٠١٨).

(٣) القافِية: القَفَا. وقيل: قافية الرأس: مُؤَخَّره. وقيل: وسَطه، أراد تَثْقيله في النَّوم وإطالته، فكأنه قد شَد عليه شِدادًا وعَقَده ثلاث عُقَد. «النهاية» (١٤٧/٤).

(٤) رَوَاهُ البُخَارِيّ (١١٤٢).

(٥) رَوَاهُ البُخَارِيّ (١١٤٤).

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللهِ وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيطان، فَمَنْ رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَنْفِثْ[1] عَنْ شِمَالِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيطان، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ، وَإِنَّ الشَّيطان لَا يَتَرَاءَى بِي»[2].

وعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ رَأْسِي قُطِعَ. قَالَ: فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «إِذَا لَعِبَ الشَّيطان بِأَحَدِكُمْ فِي مَنَامِهِ فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ النّاس»[3].

١٠ ـ حَالَ الصَّلَاةِ:

محاولةُ إفسادِ أجلِّ العباداتِ وأعظَمِ الطاعاتِ وهي الصَّلاةُ، والإصرارُ على ملامسةِ العبدِ والقربِ والدنوِ مِنْهُ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيطان وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلاة أَدْبَرَ حَتَّى إِذَا قَضَى التَّثْوِيبَ[4] أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى»[5].

وعَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الِالْتِفَاتِ فِي الصَّلاة فَقَالَ: هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيطان مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ»[6].

---

(١) النَّفْث بالفَم وهو شَبيه بالنَّفْخ، وهو أقَلُّ من التَّفْل؛ لأن التَّفْل لا يكون إلّا ومعه شيءٌ من الرِّيق. «النهاية» (٥/ ١٩٧).

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٦٩٩٥). (٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٢٦٨).

(٤) التَّثوِيب: إقامة الصلاة. والأصل في التَّثْويب: أن يجيء الرجُل مُسْتَصْرِخًا فيُلَوِّح بثوبه لِيُرَى ويَشْتَهر فسُمِّي الدعاء تَثْوِيبا لذلك. وكلُّ داعٍ مُثَوِّبٌ. وقيل: إنما سُمّي تَثْوِيبًا من ثاب يَثُوب إذا رجع، فهو رُجُوع إلى الأمر بالمُبادرة إلى الصلاة، وأنّ المؤذن إذا قال حيَّ على الصلاة فقد دعاهم إليها، وإذا قال بعدها: الصلاة خير من النَّوم. فقد رَجَع إلى كلام معناه المبادرة إليها. «النهاية» (١/ ٦٥٢).

(٥) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٦٠٨). (٦) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٧٥١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي جَاءَ الشَّيطان فَلَبَسَ عَلَيْهِ حَتَّى لَا يَدْرِيَ كَمْ صَلَّى، فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ»(١).

وَقَدْ حاول الشّيطانُ إيذاء النبي ﷺ وقطع صلاته ﷺ، ولكن مكن الله رسوله منه حتى همّ أن يربطه في المسجد.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ قَالَ: «قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ. ثُمَّ قَالَ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ ـ ثَلاثًا ـ وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ الصَّلاة، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلاة شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ قَالَ: «إِنَّ عَدُوَّ اللهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ ـ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ـ ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ، وَاللهِ لَوْلَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ»(٢).

١١ ـ عَرْضُ الْهَوَاجِسِ:

عَرْضُ الْهَوَاجِسِ وإجراءُ الحواراتِ مَعَ الأنفسِ المريضةِ؛ حتى يُوقِعَ العبدَ في الشِّرك بالله تعالى.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَأْتِي الشَّيطان أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا مَنْ خَلَقَ كَذَا حَتَّى يَقُولَ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ، فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ»(٣).

١٢ ـ حَالَ الْغَضَبِ:

انتهازُ فُرصِ العبدِ حَالَ غضبهِ فيسري في دمِهِ ويشعلُ فيه نارَ الحميةِ والعصبيةِ حتى يهلكه.

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (١٢٣٢)، ومسلم (٣٨٩). (٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٥٤٢).

(٣) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنَ صُرَدٍ: «أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى انْتَفَخَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كلمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ». فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ: تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ الشَّيطان، فَقَالَ: أَتُرَى بِي بَأْسٌ أَمَجْنُونٌ أَنَا، اذْهَبْ»[1].

١٣ ـ أَرْحَامُ النِّسَاء:

رَكْضُ أرحامِ النِّسَاء وفتقُ عروقِهن لسيلانِ الدمِ حتى يحرمَ الزوجَ من الاستمتاعِ بزوجِهِ، وقد يحرمه إنجابَ الولدِ.

عَنْ حَمْنَةَ بِنْتِ جَحْشٍ ﵂ قَالَتْ: «كُنْتُ أُسْتَحَاضُ حَيْضَةً كَثِيرَةً شَدِيدَةً، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَسْتَفْتِيهِ وَأُخْبِرُهُ فَقَالَ: «إِنَّمَا هِيَ رَكْضَةٌ[2] مِنْ الشَّيطان»[3].

١٤ ـ مَغْرَسُ الضَّفَائِرِ عِنْدَ الْقَفَا:

تربُعه عَلَى رأسِ العبدِ حالَ ثني ضفائِر شعرِه والجلوسِ بينها ليكونَ أقربَ إلى الوسوسةِ في الصَّلاةِ.

عَنْ أَبِي رَافِعٍ: «أَنَّهُ مَرَّ بِالْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ وَهُوَ يُصَلِّي وَقَدْ عَقَصَ ضَفِرَتَهُ فِي قَفَاهُ فَحَلَّهَا، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ مُغْضَبًا فَقَالَ: أَقْبِلْ عَلَى صَلَاتِكَ وَلَا تَغْضَبْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «ذَلِكَ كِفْلُ الشَّيطان»[4].

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيّ (٦٠٤٨).

(٢) أصْلُ الرَّكْضِ: الضَّربُ بالرِّجْل والإصابة بها، كما تُرْكَض الدَّابة وتُصَاب بالرِّجْل، أراد الإضرارَ بها والأذى. والمعنى: أن الشيطان قد وَجَد بذلك طريقًا إلى التَّلْبيس عليها في أمر دِينها وطُهْرها وصلاتها حتى أنْساها ذلك عادتَها وصار في التقدير، كأنه رَكْضة بآلة من رَكضاته. «النهاية» (٢/ ٦٢٨).

(٣) حسن: رَوَاهُ الترمذي (١٢٨)، أَحْمَدُ (٦/ ٤٦٤).

(٤) حسن: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٦٤٦)، الترمذي (٣٨٤) وقال: حديث أبي رافع حديث حسن.

١٥ ـ عِنْدَ عَثْرَةِ اللِّسَانِ:

وذلك بإتيانِ الإنسانِ حَالَ عجلتِه وتفريطِه فيعظمُ عليه المصابُ وربما يوصلُه إلى اليأسِ والقنوطِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيطان»(١).

فبهذا يتبينُ أن الشَّيطانَ هدفُه وغايتُه أَنْ يَصِلَ إِلَى الْقَلْبِ بأي طريقةٍ أو وسيلةٍ حتى يسقطَ العبدَ ويرديه في لججِ الهلكةِ.

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٦٤).

مَصَائِدُ الْفُضَلَاء

الذي يتأملُ في سيرِ العلماءِ والعبَّادِ والزُّهادِ وقوةِ إرادتِهم وعظيمِ مجاهدتِهم يعلمُ أن هذا غيظٌ وحسرةٌ للشيطانِ، ولذلك نرى أن الجهدَ الأكبرَ الذي يبذله الشَّيطانُ للغوايةِ والوقوعِ في المهلكةِ يوجّه إلى العبَّادِ والأخيارِ، ويبذلُ معهم الحيلَ والأساليبَ التي توقعُ بهم في لججِ الفتنِ.

الْتَّمْيِيزُ بَيْنَ طُرُقِ الشَّيْطَانِ وَحِيَلِهِ:

فمن الواجباتِ المسلماتِ التي يجب على العبدِ معرفتُها التمييزُ بين طرقِ الشَّيطانِ وحيلِهِ وإلى ما يتردّدُ فيه هل هو من لمَّةِ الملكِ، أَوْ من لمةِ الشَّيطانِ، فَإِنَّ من مكايدِ الشَّيطانِ أن يَعْرِضَ الشرَّ في معرضِ الخيرِ، وَالتمييزُ في ذلك غامضٌ، وَأكثرُ العبادِ به يهلكونَ، فَإِنَّ الشَّيطانَ لا يقدرُ على دُعائِهم إلى الشرِّ الصَّريحِ فيصورُ الشرَّ بصورةِ الخيرِ، وقد يأتي الشَّيطانُ بسبعينَ بابًا من أبوابِ الخيرِ إمَّا ليتوصلَ بها إلى بابٍ واحدٍ من الشرِّ، وإمَّا ليفوتَ بها خيرًا أعظمَ من تلك السبعين بابًا وأجلَّ وأفضلَ.

وغالبًا ما تكون مصائده هذه للعبَّاد والقصَّاص والوعَّاظ الذين لم يتربوا بدقائقِ العلم، وهذا لا يُتَوصَّلُ إلى معرفته إلا بنورٍ من الله يقذفه في قلب العبد؛ يكون سببُه تجريدَ متابعةِ الرَّسولِ وشدةَ عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبِّها إليه وأرضاها له، وأنفعها للعبد وأعمها نصيحة لله تعالى ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتِهم وعامتِهم، ولا يعرف هذا إلا مَنْ كان مِنْ ورثةِ الرَّسُول ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض، وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك فلا يخطر بقلوبهم، والله تعالى يمن بفضله على من يشاء من عباده.

فمثلاً يأتي للعابد فيعظم له شأن العبادة ويصرفه عن تعلم العلم فيوقعه في جهلٍ عميق، فيأتي من الأعمال ما يمحقُ بها عبادتَه ويكون بها الهلكة؛ كحال العابد الذي أفتى قاتل التسعةِ والتسعين.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا. فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا. فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ لَهُ»[1].

أو يأتي العالم فيشغله عن العبادةِ مزينًا له فضلَ العلم، ويجعله دائم الانشغال به حتى يصدَّه الطَّلبُ عن أصول العبادات، ولقد رأينا بعضَ الطلبةِ ممن ينشغل بالعلم يبيت الليلَ في تحصيله، وربما يؤذن عليه الفجر وما صلى الوتر فضلًا عن قيام الليل.

أو يأتي الدّاعيةَ أو الواعظَ فيقول له: «أما تنظر إلى الخلقِ وَهم موتى من الجهل، هلكى من الغفلة، قد أشرفوا على النار، أما لك رحمة على عباد الله، تنقذهم من المعاطب بنصحُكوَوعْظِك، وَقد أنعم الله عليك بقلبٍ بصير، وَلسانٍ ذَلقٍ، وَلهجةٍ مقبولة، فكيف تكفر نعمة الله تَعَالَى، وَتتعرض لسخطه، وَتسكت عَنْ إشاعة العلم، وَدعوة الخلق إلى الصِّراط المستقيم». وَهو لا يزال يقرِّر ذلك في نفسه، وَيستجره بلطيف الحيل إلى أن يشتغل بوعظ النّاس، ثم يدعوه بعد ذلك إلى أن يتزين لهم، وَيتصنع بتحسين اللفظ، وَإظهار الخير، وَيقول له: إن لم تفعل ذلك سقط وَقعُ كلامك من قلوبهم، وَلم يهتدوا إلى الحقِّ، وَلايزال يقرر ذلك عنده، وَهو في أثنائه يؤكد فيه شوائبَ الرِّياء، وَقبول الخلق، وَلذة الجاه، وَالتعزز بكثرة الأتباع وَالعلم، وَالنظر إلى الخلق

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٣٤٧٠)، مُسْلِمٌ (٢٧٦٦).

بعين الاحتقار، فَيُسْتَدْرَجُ المسكين بالنُّصْحِ إلى الهلاك، فيتكلمُ وَهو يظن أن قصده الخير وَإنما قصْدُه الجاه وَالقبول، فيهلك بسببه وَهو يظن أَنَّهُ عند الله بمكان، وَهو من الذين قيل فيهم كما صح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... وَإِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ»(١).

ولا يميز هذه الطُّرق إلا من شرح الله صدره، وبَصَّره بطرقه وأعانه على اقتداءِ الصِّراط المستقيم.

صُورٌ مُعاصِرة:

ومن عجيب ما نراه الآن من وقوع بعض الأخيار في لجج الفتن وأعاصير الهوى، ومن ذلك:

- الانشغالُ بالعلم عن العبادة وتزكية النفس.
- الانشغالُ بالدعوة دون تحصيل العلم النافع.
- الانشغالُ بعلم الفروع عن علم الأصول.
- ضياعُ الوقت وصرفه فيما لا يفيد مع عدم تحديد أولويات إنفاقه.
- المحاكاةُ والمشاكلة لما عليه العامة وإن خالف السنة للخروج من مأزق النقد.
- الحديثُ عن النفس والتبجح بالمكانة في العلم والعمل حتى وإن خالف الواقع.
- كثرةُ النقد للآخرين مع عدم قَبول أي نقد من أحد.
- عدم التوازنِ بين الواجبات مع التقصير في النوافل.
- وحشةُ التفرد والأنس بالآخرين؛ مما يؤدي إلى التنازل عن بعض الواجبات.

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٣٠٦٢)، مُسْلِمٌ (١١١).

قَبول القلب ورفضه بقدر ما فيه من إيمان:

قَالَ الغَزّالي: «اعلم أنّ القلب مثل قبة مضروبة لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب، وَمثِاله أيْضًا مثال هدف تنصب إليه السِّهام من الجوانب، أَوْ هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءى فيها صورةٌ بعد صُورةِ وَلا تخلو عنها، أَوْ مثال حوض تَنْصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه، وَإنما مداخل هذه الآثارِ المتجددةِ في القلب في كلِّ حال.

أما من الظَّاهر؛ فالحواسُّ الخمسُ، وَأما من الباطن؛ فالخيالُ وَالشَّهوةُ وَالغضبُ وَالأخلاقُ المركّبةُ من مزاجِ الإنسان، فَإِنَّهُ إذا أدرك بالحواسِّ شيئًا حصل منه أثرٌ في القلب، وَكذلك إذا هاجت الشَّهوةُ مثلًا بسببِ كثرةِ الأكلِ وَبسببِ قوة في المزاج حصل منها في القلب أثرٌ، وَإن كف عَنْ الإحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى، وَينتقلُ الخيال من شيءٍ إلى شيءٍ، وَبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر، وَالمقصود أن القلب في التغيرِ وَالتأثرِ دائمًا من هذه الأسباب، وَأخص الآثار الحاصلة في القلب هي الخواطر، وَأعني بالخواطر: ما يحصل فيه من الأفكار وَالأذكار، وَأعني به إدراكاتِه علومًا إما على سبيل التجدد، وَإما على سبيل التذكر، فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلًا عنها، وَالخواطر هي المحركات للإرادات فَإِنَّ النيةَ وَالعزمَ وَالإرادةَ إنما تكون بعد خطور المنوي بالبال لا محالة، فمبدأ الأفعال الخواطرُ ثم الخاطرُ يحرك الرغبة، وَالرغبة تحرك العزم، وَالعزم يحرك النية، وَالنية تحرك الأعضاء.

وَالخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشرِّ، أعني: إلى ما يضر في العاقبة، وَإلى ما يدعو إلى الخير، أعني: إلى ما ينفع في الدار الآخرة، فهما خاطران مختلفَان فافتقرا إلى اسمين مختلفين، فالخاطر المحمود يسمى إلهامًا، وَالخاطر المذموم أعني: الداعي إلى الشر يسمى وسواسًا، ثم إنك تعلم أن هذه الخواطرَ حادثة، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدثٍ، وَمهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب، هذا ما عرف من سنة الله تَعالَى في

ترتيب المسببات على الأسباب، فمهما استنارت حيطان البيت بنورِ النار وَأظلَمَ سقفه وَاسودّ بالدُّخانِ علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة.

وَكذلك لأنوارِ القلبِ وَظُلْمتِه سببانِ مختلفَانِ، فسبب الخاطر الدّاعي إلى الخير يسمى ملكًا، وَسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطانًا، وَاللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقًا، وَالذي به يتهيأ لقبول وَسواسِ الشَّيطان يسمى إغواءً وَخذلانًا، فَإِنَّ المعاني المختلفَةَ تفتقر إلى أسامي مختلفة، وَالمَلَك عبارة عَنْ خَلْقٍ خلقه الله تَعَالَى شأنُه إفاضةُ الخير، وَإفادةُ العلم، وَكشفُ الحق، وَالوعدُ بالخير، وَالأمرُ بالمعروف، وَقد خلقه وَسخره لذلك، وَالشَّيطانُ عبارةٌ عَنْ خلق شأنه ضد ذلك وَهو الوعدُ بالشر، وَالأمرُ بالفحشاء، وَالتخويفُ عند الهمِّ بالخير بالفقر، فالوسوسة في مقابلة الإلهام، وَالشَّيطان في مقابلة الملك، وَالتوفيق في مقابلة الخذلان، وَإليه الإشارة بقوله تَعَالَى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩].

فَإِنَّ الموجوداتِ كُلّها متقابلةٌ مزدوجةٌ إلا الله تَعَالَى، فَإِنَّهُ فرد لا مقابل له، بل هو الواحد الأحد الحق الخالق للأزواج كُلّها، فالقلب متجاذبٌ بين الشَّيطانِ وَالملَك».

قَالَ الحسنُ: «إنما هما همَّان يجولان في القلبِ، همٌّ من الله تَعَالَى، وَهمٌّ من العدوِ، فرحم اللهُ عبدًا وَقفَ عند همِّه، فما كان من الله تَعَالَى أمضاه، وَمَا كان مِنْ عَدوِّه جاهده». وَيتجاذب القلب بين هذين المسَّلطين.

عَنْ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﵄ قَالَ: إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلّها بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»[(١)].

وَالقلبُ بأصلِ الفِطْرةِ صالحٌ لقبولِ آثارِ الملك وَلقبولِ آثارِ الشَّيطان

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٥٤).

صلاحًا متساويًا ليس يترجح أحدُهما على الآخر، وَإنما يترجح أحدُ الجانبين باتباع الهوى وَالإكبابِ على الشّهوات، أَوْ الإعراض عنها وَمخالفتها، فَإن اتبع الإنسان مقتضى الغضبِ وَالشَّهوةِ ظهر تسلطُ الشَّيطانِ بواسطة الهوى وَصارَ القلبُ عشَّ الشَّيطان وَمعدنه؛ لأن الهوى هو مرعى الشَّيطان وَمرتعه، وَإن جاهد الشهوات وَلم يسلطها على نفسه، وَتشبه بأخلاق الملائكة ﷺ صار قلبه مستقرَّ الملائكة وَمهبطهم، وَلما كان لا يخلو قلب عَنْ شهوة وَغضب وَحرص وَطمع وَطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عَنْ الهوى، لا جرم لم يخلِ قلب عَنْ أن يكون للشيطان فيه جَوَلانٌ بالوسوسة، كما صح عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنْ الْجِنِّ»، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُول اللهِ؟ قَالَ: «وَإِيَّايَ إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»[(١)].

وَإنما كان هذا لأنّ الشَّيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشَّهوة، فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لا تنبسط إلا حيث ينبغي؛ وَإلى الحد الذي ينبغي، فشهوته لا تدعو إلى الشرِّ، فالشَّيطان المتدرِّعُ بها لا يأمر إلا بالخير، وَمهما غلب على القلب ذكرُ الدنيا بمقتضيات الهوى وَجد الشَّيطان مجالًا فوسوس، وَمهما انصرف القلب إلى ذكر الله تَعَالَى ارتحل الشَّيطانُ وَضاقَ مجالُه، وَأقبل الملَكُ وَألهم، وَالتطارد بين جندي الملائكة وَالشياطين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن وَيستمكن، وَيكون اجتيازُ الثاني اختلاسًا، وَأكثرُ القلوب قد فتحتها جنودُ الشياطين وَتملكتْها، فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة وَاطّراح الآخرة، وَمبدأ استيلائها اتباع الشهوات وَالهوى، وَلا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عَنْ قوت الشَّيطان؛ وَهو الهوى وَالشهوات، وَعِمارته بذكرِ الله تَعَالَى الذي هو مطرح أثر الملائكة[(٢)].

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٨١٤).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٧).

شُرُورُ الشَّيطَانِ

الشَّيطانُ عظيمُ الشَّرِّ معدوم النفع؛ فهو من أخطرِ وَأشدّ أعداءِ الإنسان، فهو عدو خفي، وَهو متربصٌ بالعبدِ ليل نهار لا يفتر عنه أبدًا، وَهو قريب جدًا من الإنسان، فهو يجري من ابن آدم مجرى الدم كما في الحديث: «إِنَّ الشَّيطان يَجْرِي مِنْ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ»(١).

فأصل كل معصيةٍ وَبلاءٍ إنما هي من الشَّيطان، فَكُلُّ محنِ بني آدم وبلاياهم إنما هي منه، وتأمل هذه الآيات وهي تصفُ حيله ومكره ودهاءه مع بني آدم، وأنّ عداوته لا تنقطع ولا تفتر أبدًا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ
فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠
خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا
فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾
قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن
تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا
وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا
مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ
بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن

---

(١) سبق تخريجه.

تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف: ١١ ـ ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦١ ـ ٦٥].

فشرُّ الشَّيطانِ مستطيرٌ، وخَطْبُه جسيم، ومكره وحِيَلُه أَعْيت بني آدم من أول الخليقة؛ ولا تزال إلى قيامِ الساعة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

«**فمن شرِّه** أَنَّهُ لصٌّ سارقٌ لأموال النّاس، فكلُّ طعام، أَوْ شراب لم يذكر اسم الله تَعَالَى عليه فله فيه حظٌّ بالسَّرقة وَالخطف، وَكذلك يَبيتُ في البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله تَعَالَى، فيأكلُ طعامَ الإنسِ بغيرِ إذنهم وَيبيت في بيوتهم بغير أمرهم، فيدخل سارقًا وَيخرج مغيرًا، وَيدل على عوراتهم، فيأمر العبدَ بالمعصية، ثم يُلقي في قلوب النّاس يقظةً وَمنامًا أَنَّهُ فعل كذا وَكذا، وَمن هذا أن العبدَ يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من النّاس فيصبح وَالنّاس يتحدثون به، وَما ذاك إلا أن الشَّيطان زينه له وَألقاه في قلبه ثم وَسوس إلى النّاس بما فعل وَألقاه إليهم، فأوقعه في الذنب ثم فضحه به، فالرب تَعَالَى يستره وَالشَّيطان يجهد في كشف سترِه وَفضيحتِه، فيغترُّ العبد وَيقول: هذا ذنبٌ لم يره إلا اللهُ تَعَالَى، وَلم يشعر بأن عدوه ساعٍ في إذاعته وَفضيحته، وَقلَّ من يتفطن من النّاس لهذه الدقيقة.

ومِنْ شَرِّه أَنَّهُ إذا نام العبد عقد على رأسه عقدًا تمنعه من اليقظة، كما

روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: «يَعْقِدُ الشَّيطان عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِن اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنَّ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ»(١).

وِمِنْ شَرِّه أن يبول في أذن العبد حتى ينام إلى الصباح كما ثبت عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: «ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ، فَقِيلَ: مَا زَالَ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحَ، مَا قَامَ إِلَى الصَّلاة، فَقَالَ: «بَالَ الشَّيطان فِي أُذُنِهِ»(٢).

وِمِنْ شَرِّه أَنَّهُ قعد لابن آدم بطرق الخير كُلّها، فما من طريقٍ من طرقِ الخير إلا وَالشَّيطان مرصدٌ عليه يمنعه بجهده أن يسلكه، فَإِن خالفه وَسلكه ثبَّطه فيه وَعوَّقه وَشوَّش عليه بالمعارضات وَالقواطع، فَإِن عمله وَفرغ منه قيض له ما يبطل أثره وَيرده على حافرته، وَيكفي من شره أَنَّهُ أقسم بالله ليقعدن لبني آدم صراطه المستقيم، وَأقسم ليأتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ، وَلقد بلغ شره أن أعمل المكيدة وَبالغ في الحيلة حتى أخرج آدم من الجنة، ثم لم يَكْفه ذلك حتى استقطع من أولاده شرطة النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وَتسعين، ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة في إبطال دعوة الله من الأرض، وَقصد أن تكون الدعوة له، وَأن يعبد من دون الله، فهو ساع بأقصى جهده على إطفاء نور الله تعالى وَإبطال دعوته وَإقامة دعوة الكفر وَالشِّرك وَمحو التوحيد وَأعلامه من الأرض.

ويكفي من شره أَنَّهُ:

١ ـ تصدَّى لإبراهيمَ خليلِ الرَّحمن حتى رماه قومُه بالمنجنيق في النار، فردّ الله تَعَالَى كيدَه عليه وَجعلَ النار على خليله بردًا وَسلامًا.

٢ ـ وتصدَّى لعيسى ﷺ حتى أراد اليهود قتلَه وَصلبه، فردّ الله كيده وَصان المسيح وَرفعه إليه.

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (١١٤٢)، مُسْلِمٌ (٧٧٦). (٢) رَوَاهُ البُخَارِيّ (١١٤٤).

٣ ـ وتصدَّى لزكريا وَيحيى عليهما السلام حتى قُتلا.

٤ ـ واستثار فرعون حتى زين له الفسادَ العظيمَ في الأرض، وَدعوى أَنَّهُ ربَّهم الأعلى.

٥ ـ وتصدَّى للنَّبِيِّ ﷺ، وَظاهَرَ الكفار على قتله بجهده، وَالله تَعالَى يكبته وَيردّه خاسئًا، وَتفلت على النَّبِيِّ ﷺ بشهاب من نار يريد أن يرميه به وَهو في الصَّلاة فجعل النَّبِيُّ ﷺ يقول: «أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ...» الحديث[1].

٦ ـ وأعان اليَهُودَ على سحرهم للنَّبِيِّ ﷺ.

فإذا كان هذا شأنه وَهمته في الشَّر، فكيف الخلاص منه إلا بمعونة الله وَتأييده وَإعاذته[2].

طرقُ الشَّيطانِ للإيقاعِ في الشَّر:

فالشَّيطان له من الطُّرقِ والحيل ما أعيا بها بني آدم، فما من مصيبة ولا بلية ولا محنة ولا رزية إلا وقائدُها الشَّيطان، فقد قعد لابن آدم بأطْرُقِه جميعًا صادًّا عن سبيل الله آمرًا بالمنكر ناهيًا عن المعروف.

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

وقد بيَّن النبيُّ ﷺ قعودَ الشَّيطان على كل باب يطرقه ابنُ آدم فلا يدعه يمضي إلا بعد عناء، عَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِهٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٥٤٢).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/٣٥٨).

يَقُولُ: «إِنَّ الشَّيطان قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ. فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ. فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ، وَيُقْسَمُ الْمَالُ. فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»(١).

فكلُّ خُطا بني آدم مرصودةٌ، وكل أقواله وأعماله محسوبة، والشَّيطان يرسل بعوثه ويستفزز جنوده، ويلحق بني آدم حتى يلحق به الضرر.

عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا. فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا. قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ. قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ»(٢).

مَرَاتِبُ شُرُورِ الشَّيطَانِ:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «ولا يمكن حصر أجناس شرِّه فضلًا عن آحادِها إذ كل شر في العالم فهو السبب فيه، ولكن ينحصر شرُّه في ستةِ أجناسٍ لا يزال بابن آدم حتى ينالَ منه واحدًا منها أو أكثر:

الشَّرُّ الأَوَّلُ: شرُّ الكفر وَالشِّركِ وَمعادِاة الله وَرسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه، وَاستراح من تعبه معه، وَهو أول ما يريد من العبد فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا نال ذلك صيره من جنده وَعسكره وَاستنابه على أمثاله

(١) صحيح: رَوَاهُ النسائي (٣١٣٤)، أَحْمَدُ (٣/ ٤٨٣)، ابن حبان (٤٥٩٣) الطبراني «المعجم الكبير» (٦٥٥٨).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٨١٣).

وَأشكاله، فصار من دعاة إبليس وَنوابه، فإن يئس منه من ذلك وَكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلى المرتبة الثانية من الشر.

الشَّرُّ الثَّانِي: وَهو البدعة وَهي أحبُّ إليه من الفسوق وَالمعاصي؛ لأن ضررها في نفس الدين وَهو ضرر متعدٍ، وَهي ذنب لا يتاب منه، وَهي مخالفةٌ لدعوةِ الرسل، وَدعا إلى خلاف ما جاءوا به، وَهي باب الكفر وَالشِّرك، فإذا نال منه البدعةَ وَجعله من أهلها بقي أيْضًا نائبه وَداعيًا من دعاته، فَإن أعجزه من هذه المرتبة وَكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة وَمعاداة أهل البدع وَالضلال نقله إلى المرتبة الثالثة من الشر.

الشَّرُّ الثَّالِثُ: وَهو الكبائرُ على اختلافِ أنواعها فهو أشدُّ حرصًا على أن يوقعه فيها وَلا سيما إن كان عالمًا متبوعًا، فهو حريصٌ على ذلك لينفر النّاسَ عنه، ثم يشيعُ من ذنوبه وَمعاصيه في النّاس، وَيستنيبُ منهم من يشيعها وَيذيعها تدينًا وَتقربًا بزعمه إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَهو نائب إبليس وَلا يشعر، فإِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، هذا إذا أحبوا إشاعتَها وَإذاعتَها، فكيف إذا تولوا هم إشاعتَها وَإذاعتَها لا نصيحة منهم؛ وَلكِن طاعة لإبليس وَنيابة عنه، كلُّ ذلك لينفر النّاس عنه وَعن الانتفاعِ به، وَذنوب هذا وَلو بلغت عنان السَّماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء، فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر الله وَتابَ إليه قبلَ الله توبتَه وَبدَّلَ سيئاتِه حسناتٍ، وَأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين وَتتبع لعورتهم، وَقصدٌ لفضيحتهم، وَالله سُبْحَانَهُ بالمرصاد، لا تخفى عليه كمائن الصدور وَدسائس النفوس، فَإن عجز الشَّيطان عَنْ هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الرابعة.

الشَّرُّ الرَّابِعُ: وَهو الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها، كما روي عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا، كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا فَأَجَّجُوا نَارًا وَأَنْضَجُوا

مَا قَذَفُوا فِيهَا»[1].

فمعناه: أن كُلَّ وَاحِدٍ منهم جاء بعودِ حطبٍ حتى أوقدوا نَارًا عظيمةً فطبخوا وَاشتووا، وَلا يزال يُسَهِّلُ عليه أمرَ الصَّغائر حتى يستهينَ بها، فيكونَ صاحبُ الكبيرة الخائف منها أحسنَ حالًا منه، فَإِن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى...

اَلْمَرْتَبَةُ اَلْخَامِسَةُ: وَهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها وَلا عِقاب، بل عاقبتُها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها.

فَإِن أعجزه العبد من هذه المرتبة وَكان حافظًا لوقته شحيحًا به يعلم مقدار أنفاسه وَانقطاعها، وَما يقابلها من النعيم وَالعذاب نقله إلى...

اَلْمَرْتَبَةُ اَلسَّادِسَةُ: وهو أن يشْغَلَه بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليزيحَ عنه الفضيلةَ؛ وَيفوته ثواب العملِ الفاضلِ، فيأمره بفعل الخيرِ المفضولِ وَيحضه عليه وَيحسنه له، إذا تضمن ترك ما هو أفضل وَأعلى منه، وَقلَّ من يتنبه لهذا من النّاس، فَإِنَّهُ إذا رأى فيه داعيًا قويًّا وَمحركًا إلى نوع من الطّاعة لا يشك أَنَّهُ طاعةٌ وَقربة، فَإِنَّهُ لا يكاد يقول: إن هذا الداعي من الشَّيطان، فَإِنَّ الشَّيطان لا يأمر بخير. وَيرى أن هذا خير فيقول: هذا الداعي من الله. وَهو معذور وَلم يصل علمه إلى أن الشَّيطانَ يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير، إما ليتوصل بها إلى بابٍ وَاحدٍ من الشَّر، وَإما ليفوت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين بابًا وَأجل وَأفضل.

وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنورٍ من الله يقذفُه في قلب العبد، يكون سببُه تجريدَ متابعة الرسول، وَشدةَ عنايتِه بمراتب الأعمال عند الله تَعَالَى، وَأحبِّها إليه وَأرضاها له، وَأنفعِها للعبد، وَأعمها نصيحةً لله وَلرسوله وَلكتابه وَلعباده المؤمنين خاصتِهم وَعامتِهم، وَلا يعرف هذا إلا من كان من وَرثة الرسول وَنوابه في الأمة وَخلفائِه في الأرض، وَأكثرُ الخلق محجوبون عَنْ ذلك

---

(١) صحيح: رَوَاهُ أَحْمَدُ (١/ ٤٠٢).

فلا يخطر بقلوبهم، وَالله تَعَالَى يمن بفضله على من يشاء من عباده.

فَإِذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست وَأعيا عليه، نقله إلى...

اَلْمَرْتَبَةُ اَلْسَّابِعَةُ: سلط عليه حزبه من الإنس وَالجنّ بأنواع الأذى وَالتكفير وَالتّضليل وَالتبديع وَالتحذير منه، وَقصدَ إخماله وَإطفاءه ليشوش عليه قلبه، وَيشغل بحربِه فكرَه، وَليمنع النّاس من الانتفاع به، فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس وَالجن عليه، وَلا يفتر وَلا يني، فحينئذ يَلبسُ المؤمن لأمَة الحرب وَلا يضعها عنه إلى الموت وَمتى وَضعها أُسر، أَوْ أُصيب فلا يزال في جهادٍ حتى يلقى الله.

فتأمل هذا الفصل وَتدبر موقعه وَعظيم منفعته، وَاجعله ميزانك تزن به النّاس وَتزن به الأعمال، فَإِنَّهُ يطلعك على حقائقِ الوجودِ وَمراتبِ الخلق ـ وَالله المستعان وَعليه التكلان»[1].

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٦٠).

تَمكُّنُ الشَّيطَانِ مِنَ القَلْبِ

الذي يجب على العبد أن يعلمه أن الشَّيطان ليس له إلا وظيفةٌ واحدةٌ مع بني الإنسان؛ وهي أن يفسدَ على العبادِ طريقَهم إلى الله ﷻ، والذي يتأملُ حال الشَّيطان حينما أراد ربه أن يخرجه من الجنة وقد حلَّت عليه اللعنة، ما كان لعدوِّ الله هدفٌ إلا إغواء بني آدم جميعًا بارِّهم وفاجرِهم.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٣٤ ـ ٤٢].

فبهذا نرى أن الشَّيطانَ مستميتٌ في عداوته لبني آدم وأنه لن يهدأ أبدًا حتى يوقع بالعباد فيضلهم ويحيد بهم عن طريق الله ﷻ، والشَّيطانُ عدوٌّ خفيٌّ لا يُرى، وله من الحيلِ والأساليبِ ما يتمكن بها من قلبِ العبدِ، فهو خناسٌ ـ من خنس يخنس إذا توارى واختفى، وَمنه قول أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَقِيَهُ فِي بَعْضِ طَرِيقِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ جُنُبٌ فَانْخَنَسْتُ مِنْهُ، فَذَهَبَ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: «أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟»، قَالَ: كُنْتُ جُنُبًا فَكَرِهْتُ أَنْ أُجَالِسَكَ وَأَنَا عَلَى غَيْرِ طَهَارَةٍ، فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ! إِنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَنْجُسُ»(١).

وحقيقة اللفظ اختفاءٌ بعد ظهور، فليست لمجرد الاختفاء، وَلهذا وَصفت بها الكواكب في قوله تَعالَى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾ [التكوير: ١٥].

---

(١) صحيح: رَوَاهُ البخاري (٢٨٣)، أَبُو دَاوُدَ (٢٣١)، الترمذي (١٢١) وقال: حديث حسن صحيح.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأصل الخنوسِ الرُّجوع إلى وَراء، وَالخنَّاس مأخوذ من هذين المعنيين، فهو من الاختفاء وَالرُّجوع وَالتأخر، فَإِنَّ العبد إذا غفل عَنْ ذكر الله جثم على قلبه الشَّيطان[1] وَانبسط عليه، وَبذر فيه أنواع الوساوس التي هي أصل الذنوب كُلّها، فإذا ذكر العبد ربه وَاستعاذ به انخنس وَانقبض كما ينخنس الشيء ليتوارى، وَذلك الانخناس وَالانقباض هو أيْضًا تجمع وَرجوع وَتأخر عَنْ القلب إلى خارج، فهو تأخر وَرجوع معه اختفاء»[2]. اهـ.

قال ابن القيم أيضًا: «وتأمل حكمة القرآن الكريم وَجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شرِّ الشَّيطان الموصوف بأنَّه الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ، ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾﴾ [الناس: ٥]، وَلم يقل «من شَرِّ وَسوسته» لتعم الاستعاذة شره جميعه، فَإِنَّ قوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ [الناس: ٤] يعم كل شَرِّه، وَوصفه بأعظم صفاته وَأشدِّها شرًّا، وَأقواها تأثيرًا وَأعمِّها فسادًا؛ وَهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة، فَإِنَّ القلبَ يكون فارغًا من الشَّر وَالمعصية فيوسوس إليه، وَيخطر الذنب بباله فيصوره لنفسه وَيمنِّيه وَيُشهِّيه فيصير شهوة، وَيزينها له وَيحسِّنها وَيخيلها له في خيال تميل نفسه إليه فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل وَيخيِّل وَيمنِّي وَيشهِّي وَيُنسي علمه بضررها وَيطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وَبين مطالعته؛ فلا يرى إلا صورةَ المعصية وَالتذاذه بها فقط، وَينسى ما وَراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرصُ عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطَّلب، فيبعث الشَّيطان معهم مدادًا لهم وَعونًا؛ فَإن فتروا حركهم وَإن وَنوا أزعجهم، كما قَالَ تَعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣] أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا كلما فتروا، أَوْ وَنوا أزعجتهم الشياطينُ وَأَزَّتهم وَأثارتهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب، وَتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلةٍ وَأتمِّ مكيدة.

(١) جثم: أي لَزِم مكانه فلم يَبْرَحه.

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٥٥).

قد رضي الشَّيطانُ لنفسه بالقيادة لفجرة بني آدم، وَهو الذي استكبر وَأبى أن يسجد لأبيهم بتلك النخوة وَالكبر، وَلا يرضاه أن يصير قوَّادًا لكل من عصى الله كما قَالَ بعضهم:

عَجِبْتُ مِنْ إِبْلِيسَ فِي تِيْهِهِ ... وَقُبْحِ مَا أَظْهَرَ مِنْ نَخْوَتِهِ
تَاهَ عَلَى آدَمَ فِي سَجْدَةٍ ... وَصَارَ قَوَّادًا لِذُرِّيَّتِهِ[1]

ولذلك كان لزامًا على العبد أن يعرف طرقه وأبوابه إلى القلب.

أَبْوَابُ الشَّيْطَانِ إِلَى الْقَلْبِ:

١ ـ الْحَسَدُ وَالْحِرْصُ:

فبالحسد لُعِن إبليسُ وجُعِل شيطانًا رجيمًا، قال تعالى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر: ٣٣ ـ ٣٥].

وأما الحرص فإنه أُبيح لآدمَ الجنة كُلّها إلا الشجرةَ فأصاب منها وخالف أمر الله، ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٥ ـ ٣٦].

٢ ـ الشِّبَعُ مِن الطَّعَامِ وَإِنْ كَانَ حَلالًا صَافِيًا:

فإن الشِّبعَ يقوي الشَّهواتِ والشَّهواتُ أسلحة الشَّيطان. فقد روي عن ثابت البناني: «أَنَّ إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليه السلام فرأى عليه معاليق من كُلِّ شيء، فقال له: يا إبليسُ ما هذه المعاليقُ؟ قال: هذه الشَّهواتُ التي أصبتُ بها ابنَ آدم. فقال: فهل لي فيها من شيء؟ قال: ربما شبعت فثقلناك عن الصَّلاة وعن الذِّكر، قال: فهل غيرُ ذلك؟ قال: لا، قال: لله علي أن لا أملأ بطني من الطَّعام أبدًا، فقال له إبليس: لله علي أن لا أنصح مسلمًا أبدًا»[2].

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٥٧).

(٢) «مسند ابن الجعد» (١٣٨٦)، حلية الأولياء (٢/ ٣٢٨)، شعب الإيمان (٥/ ٤١).

ويقال: في كثرة الأكل ست خصال مذمومة:

- أولها: أن يذهب خوف الله من قلبه.
- الثاني: أن تذهب رحمة الخلق من قلبه لأنه يظن أنهم كلهم شباع.
- والثالث: أَنَّهُ يثقل عن الطاعة.
- والرابع: أَنَّهُ إذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة.
- والخامس: أَنَّهُ إذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع في قلوب النّاس.
- والسادس: أن يهيج فيه الأمراض.

٣ ـ حُبُّ التَّزَيُّنِ مِنَ الْأَثَاثِ وَالثِّيَابِ وَالدَّارِ:

فإن الشَّيطان إذا رأى ذلك غالبًا على قلب الإنسان باض فيه وفرّخ، فلا يزال يدعوه إلى عمارةِ الدارِ وتزيين سقوفِها وحيطانِها وتوسيع أبنيتها، ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب ويستسخره فيها طولَ عمره، وإذا أوقعه في ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية، فإن بعض ذلك يجرُّه إلى البعض فلا يزال يؤديه من شيء إلى شيء إلى أن يساق إليه أجله فيموت وهو في سبيلِ الشَّيطانِ واتباع الهوى، ويخشى من ذلك سوءَ العاقبةِ بالكفر ـ نعوذ بالله منه ـ.

٤ ـ الطَّمَعُ فِي النَّاسِ:

لأنه إذا غلب الطمعُ على القلب لم يزلْ الشَّيطانُ يحبِّبُ إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيسِ، حتى يصيرَ المطموعُ فيه كأنه معبودُه، فلا يزال يتفكر في حيلة التودد والتحبب إليه ويدخل كلَّ مدخل للوصول إلى ذلك. وأقلُّ أحواله الثناءُ عليه بما ليس فيه؛ والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥ ـ اَلْعَجَلَةُ وَتَرْكُ التَّثَبُّتِ فِي الْأُمُورِ:

قال ﷻ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤].

وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة والمعرفة، والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتمهل، والعجلة تمنع من ذلك، وعند الاستعجال يُرَوِّج الشَّيطانُ شره على الإنسان من حيث لا يدري.

٦ ـ اَلْدَّرَاهِمُ وَالْدَّنَانِيرُ وَسَائِرُ أَصْنَافِ اَلْأَمْوَالِ مِنَ اَلْعُرُوضِ وَالْدَّوَابِّ وَاَلْعَقَارِ:

فإنَّ كل ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشَّيطان، فإن من معه قوته فهو فارغ القلب. فلو وجد مائةَ دينارٍ مثلًا على طريق انبعث من قلبه شهوات تحتاج كلُّ شهوة منها إلى مائة دينار أخرى فلا يكفيه ما وجد بل يحتاج إلى تسعمائة أخرى بل ربما يتحول إلى عبدٍ مأسورٍ لها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ[1]، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ[2]»[3].

٧ ـ الْبُخْلُ وَخَوْفُ اَلْفَقْرِ:

فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق والتصدُّق، ويدعو إلى الادخار والكنز والعذاب الأليم وهو الموعود للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا

---

(١) «الْخَمِيصَة»: هي ثَوْب خَزٍّ أو صُوف مُعْلَم. وقيل: لا تُسَمَّى خَمِيصةً إلا أن تكون سَوْدَاء مُعْلَمة، وكانت من لِبَاس الناس قديمًا وجَمْعُها الخمَائِصُ. «النهاية» (٢/ ١٥١).

(٢) «وإذا شِيكَ فلا انتَقَشَ»: أي إذا شَاكَته شَوْكة فلا يَقْدِر على انْتِقاشها، وهو إخراجُها بالمِنْقاش. «النهاية» (٢/ ١٢٤٦).

(٣) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٢٨٨٧).

الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلَا تَتَّسِعُ»[1].

قال إسحاق بن عبد المؤمن الدِّمشقي: كتب إلي أحمد بن عاصم الأنطاكي فكان في كتابه: «إنا أصْبَحْنَا في دَهْرِ حَيْرَةٍ، تضطرب علينا أمواجه، يغلبه الهوى، العالمُ منّا والجاهل، فالعالِمُ منّا مفتونٌ بالدُّنيا يبيع ما يدَّعيه من العلم، والجاهلُ منَّا عاشقٌ لهما مستمد من فتنةِ عالمه، فالمقل لا يقنع، والمكثر لا يشبع، فكلٌّ قد شغلَ الشَّيطانُ قلبه بخوفِ الفقرِ فأعاذنا الله وإياك من قبول عِدَة إبليس وتركنا عِدَةَ ربِّ العالمين، يا أخي لا تصحب إلا مؤمنًا يعظك بعقله ومصاديقِ قوله؛ أو مؤمنًا تقيًا، فمتى صَحِبت غير هؤلاء أورثوك النَّقص في دينك وقبح السيرة في أمورك، وإياك والحرص والرغبة فإنهما يسلبانك القناعة والرضا، وإياك والميل إلى هواك فإنّه يصدُّك عن الحقِّ، وإياك أنْ تُظْهِرَ أنّك تخشى الله وقلبُك فاجِر، وإياك أن تضمر ما إن أظهرته أخزاك، وإن أضمرته أرداك، والسَّلام»[2].

وقيل: صلاح القلوب في ستة أشياء، وفسادها في أربعة أشياء:

● فالصلاح في:

- الجوع الدّائم. - وسهر الليل.
- وقراءة القرآن. - والزهد في الدنيا.
- والاستعداد للموت قبل نزوله. - التوكل على الله وأن تريد ما يريد.

● وفسادها في:

- إرادة العزة. - ومخافة الذل.
- ومحبة الغنى. - وخوف الفقر[3].

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيّ (١٤٤٣)، مُسْلِمٌ (١٠٢١).

(٢) «تاريخ دمشق» (٨/ ٢٦١).

(٣) «تاريخ دمشق» (١٧/٥٦).

٨ ـ اَلْتَّعَصُّبُ لِلْمَذاهِبِ وَالْأَهْوَاءِ، وَالْحِقْدُ عَلَى الْخُصُومِ، وَالْنَّظَرُ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ الِازْدِرَاءِ وَالِاسْتِحْقَارِ:

وذلك مما يهلك العُبَّاد والفسَّاق جميعًا، فإن الطَّعنَ في النّاسِ والاشتغال بذكر نقصهم صفةٌ مجبولةٌ في الطبع من الصفات السبعية، فإذا خَيَّلَ إليه الشَّيطانُ أن ذلك هو الحق؛ وكان موافقًا لطبعه غلبت حلاوته على قلبه فاشتغل به بكل همته، وهو بذلك فرحان مسرور؛ يظن أَنَّهُ يسعى في الدين وهو ساعٍ في اتباع الشياطين، فترى الواحد منهم يتعصب لبعض الصحابة أو العلماء وهو آكلُ الحرام ومطلق اللسان بالفضول والكذب؛ ومتعاطٍ لأنواع الفساد، ولو رآه هذا الصحابيُّ أو العالم لكان أولَ عدو له، إذ مُوالي الصحابةِ والعلماءِ من أخذ سبيلهم وسار بسيرتهم وحفظ ما بين لحييه.

وهكذا حكم المتعصبين للمذاهب والجماعات والدعاة والعلماء، فكل من ادعى اتباع إمام وهو ليس يسير بسيرته فذلك الإمام هو خصمُه يوم القيامة، إذ يقول له: كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان، وكان الحديث باللسان لأجل العمل لا لأجل الهذيان؛ فما بالك خالفتني في العمل والسيرة التي هي مذهبي ومسلكي الذي سلكته وذهبت فيه إلى الله تعالى ثم ادعيتَ مذهبي كاذبًا؟! وهذا مدخل عظيم من مداخل الشَّيطان قد أهلك به أكثر العالَم، وقد سُلِّمت المدارس العلمية لأقوام قلَّ من الله خَوْفُهُمْ، وضعُفت في الدين بصيرتهم، وقويت في الدنيا رغبتهم، واشتد الأتباعُ على المخالف وتجاهلوا أخطاءَ الموافق، فحبسوا ذلك في صدورهم، ولم ينبهوا إخوانهم على مكايدِ الشَّيطان فيهم، بل نابوا عن الشَّيطان في تنفيذ مكيدته فاستمر النّاسُ عليه ونسوا ما أمات دينهم، وقد هلكوا وأهلكوا.

ومن عظيم مفاسده أن ينشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين النّاس في المذاهب والخصومات.

٩ ـ اَلْتَّقَرُّبُ مِنْ اَلْعَوَامِ:

وذلك بحمل هؤلاء الذين لم يمارسوا العلمَ ولم يتبحروا فيه على التفكير

في ذات الله تعالى وصفاته، وفي أمور لا يبلغها حدُّ عقولهم حتى يشككَهم في أصل الدين، أو يُخيلَ إليهم في الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها، يصير أحدهم بها كافرًا أو مبتدعًا وهو به فرح مسرور مبتهجٌ بما وقع في صدره، يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة وأنه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله، فأشد النّاس حماقةً أقواهم اعتقادًا في عقل نفسه، وأثبت النّاس عقلًا أشدهم اتهامًا لنفسه وأكثرُهم سؤالًا من العلماء.

١٠ ـ سُوءُ الْظَّنِّ بِالْمُسْلِمِينَ:

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

فمن يفتح على نفسه أبواب الظنون على غيره، بعثه الشَّيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة فيهلك، أَوْ يقصر في القيام بحقوقه، أَوْ يتوانى في إكرامه، وَينظر إليه بعين الاحتقار، وَيرى نفسَه خيرًا منه، وَكلُّ ذلك من المهلكات، وَلأجل ذلك منع الشرعُ من التعرض للتهم، فعَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ قَالَت: «كَانَ رَسُول اللهِ ﷺ مُعْتَكِفًا فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا فَحَدَّثْتُهُ، ثُمَّ قُمْتُ فَانْقَلَبْتُ فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي، وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيّ ﷺ أَسْرَعَا، فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا[1] إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ»، فَقَالَا: سُبْحَانَ اللهِ يَا رَسُول اللهِ، قَالَ: «إِنَّ الشَّيطان يَجْرِي مِنْ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا، أَوْ قَالَ شَيْئًا»[2].

فانظر كيف أشفق ﷺ على دينهما فحرسهما، وَكيف أشفق على أمته فعلمهم طريقَ الاحترازِ من التهمة، حتى لا يتساهلَ العالمُ الورع المعروف بالدين في أحواله فيقول: مثلي لا يظن به إلا الخير إعجابًا منه بنفسه، فَإِنَّ

---

(١) أي: اثبتًا ولا تعجلا. «النهاية» (٢/ ٥٣٩).

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٣٢٨١)، مُسْلِمٌ (٢١٧٥).

أورع النّاس وَأتقاهم وَأعلمهم لا ينظر النّاس كلُّهم إليه بعين وَاحِدة، بل بعضهم بعين الرضا وبعضهم بعين السخط، وَلذلك قَالَ الشّاعر:

وَعَينُ الْرِّضَا عَنْ كل عَيْبٍ كليلَةٌ   وَلَكِنَّ عَينَ الْسُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

فيجب الاحترازُ عَنْ ظن السوء، وَعن تهمةِ الأشرارِ، فَإِنَّ الأشرارَ لا يظنون بالنّاس كلهم إلا الشرَّ، فمهما رأيت إنسانًا يسيءُ الظنَّ بالنّاس طالبًا للعيوب، فاعلم أَنَّهُ خبيث الباطن، وَأن خبثه يترشح منه، وَإنما رأى غيره من حيث هو، فَإِنَّ المؤمن يطلب المعاذير وَالمنافق يطلب العيوب، وَالمؤمن سليمُ الصدرِ في حقِّ الخلق كافة.

الْغَفْلَةُ عَنْ أَبْوَابِ الشَّيْطَانِ

فهذه العداوةُ الدائمةُ من الشَّيطان لابن آدم وهذه الأبوابُ التي يدخل عليه منها؛ إن لم يكن ابن آدم على حذر منها هلك وقد بيَّن النبيُّ ﷺ هذه الأبواب وأنها سهلة الدخول، وبين فضل الله على عبادِه ببيان ووضوح الطريق إلى الله ﷻ.

عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّراط سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّراط دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاس ادْخُلُوا الصِّراط جَمِيعًا وَلَا تَتَفَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّراط فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّراط الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللهِ تَعَالَى، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّراط كِتَابُ اللهِ ﷻ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّراط وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كل مُسْلِمٍ»(١).

فالنجاة من الدخول من هذه الأبوابِ بوضوحِ الطريق، وعدمِ الالتفاتِ لغيره وقد جعل الله ﷻ للطريق علاماتٍ ودلالاتٍ تحدِّده.

فهذه بعض مداخلِ الشَّيطان إلى القلب، فليس في الآدمي صفة مذمومة إلا وَهي سلاحُ الشَّيطانِ وَمدخلٌ من مداخله، فَإن قلت: فما العلاج في دفع الشَّيطان؟ وَهل يكفي في ذلك ذكرُ الله تَعالَى، وَقولُ الإنسان لا حول وَلا قوة إلا بالله؟ فاعلم أن علاج القلب في ذلك سدُّ هذه المداخل بتطهير القلب من

---

(١) صحيح: رَوَاهُ أَحْمَدُ (٤/ ١٨٢).

هذه الصِّفات المذمومة، فإذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان للشيطان بالقلب اجتيازاتٌ وَخطراتٌ وَلم يكن له استقرار، وَيمنعه من الاجتياز ذكر الله تَعَالَى؛ لأن حقيقة الذِّكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى وَتطهيرِه من الصفات المذمومةِ، وَإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب، فلا يدفع سلطانَ الشَّيطانِ، وَلذلك قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١]، خصص بذلك المتقي، فمثل الشَّيطان كمثل كلب جائع يقربُ منك، فَإِن لم يكن بين يديك خبزٌ، أَوْ لحمٌ فَإِنَّهُ ينزجر بأن تقول له اخسأ، فمجرد الصَّوتِ يدفعه، فَإِن كان بين يديك لحمٌ وَهو جائع، فَإِنَّهُ يهجم على اللَّحم وَلا يندفع بمجرد الكلام، فالقلبُ الخالي عَنْ قوتِ الشَّيطان ينزجر عنه بمجرد الذِّكر، فأما الشَّهوة إذا غلبت على القلبِ دفعت حقيقةَ الذِّكرِ إلى حواشي القلب، فلم يتمكن من سويدائه، فيستقرُ الشَّيطانُ في سويداء القلب، وَأما قلوب المتقين الخالية من الهوى وَالصِّفات المذمومة فَإِنَّهُ يطرقُها الشَّيطان لا للشَّهوات بل لخلوها بالغفلة عَنْ الذكر، فإذا عاد إلى الذكر خنس الشَّيطان، وَدليلُ ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: «إِنَّ شَيْطَانَ الْمُؤْمِنِ يَلْقَى شَيْطَانَ الْكَافِرِ، فَيَرَى شَيْطَانَ الْمُؤْمِنِ شَاحِبًا أَغْبَرَ مَهْزُولًا، فَيَقُولُ شَيْطَانُ الْكَافِرِ: مَا لَكَ؟ وَيْحَكَ، قَدْ هَلَكْتَ، فَيَقُولُ شَيْطَانُ الْمُؤْمِنِ: لا وَاللهِ مَا أَصِلُ مَعَهُ إِلَى شَيْءٍ، إِذَا طَعِمَ ذَكَرَ اسْمَ اللهِ، وَإِذَا شَرِبَ ذَكَرَ اسْمَ اللهِ، وَإِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ ذَكَرَ اسْمَ اللهِ، فَيَقُولُ الآخَرُ: لَكِنِّي آكُلُ مِنْ طَعَامِهِ، وَأَشْرَبُ مِنْ شَرَابِهِ، وَأَنَامُ عَلَى فِرَاشِهِ، فَهَذَا سَاحٌ، وَهَذَا مَهْزُولٌ»(١).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنْ الْجِنِّ تَفَلَّتَ

---

(١) موقوف: رَوَاهُ عبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ٤١٩)، الطبراني في «الكبير» (٩/ ١٥٦)، البيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٧٥).

الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ. . . » الحديث[١].

وعَنْ محمد بن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «اسْتَأْذَنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَعِنْدَهُ نِسْوَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُكلمْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَهُ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ عَلَى صَوْتِهِ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قُمْنَ فَبَادَرْنَ الْحِجَابَ، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَدَخَلَ عُمَرُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَضْحَكُ، فَقَالَ عُمَرُ: أَضْحَكَ اللهُ سِنَّكَ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي فَلَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الْحِجَابَ»، فَقَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ أَحَقُّ أَنْ يَهَبْنَ يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: يَا عَدُوَّاتِ أَنْفُسِهِنَّ أَتَهَبْنَنِي وَلَا تَهَبْنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ فَقُلْنَ: نَعَمْ أَنْتَ أَفَظُّ وَأَغْلَظُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيهًا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيطَانُ سَالِكًا فَجًّا قَطُّ إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ»[٢].

وَهذا لأنّ القلوب كانت مطهرةً عَنْ مرعى الشَّيطانِ وَقوتِه؛ وَهي الشّهوات، فمهما طمعت في أن يندفع الشَّيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عَنْ عمر ﷺ كان محالًا، وَكنت كمن يطمع أن يشرب دواء قبل الاحتماءِ وَالمعدة مشغولة بغليظ الأطعمة، وَيطمعُ أن ينفعَه كما نفع الذي شربه بعد الاحتماء وَتخلية المعدة، وَالذكر الدّواء، وَالتقوى احتماء وَهي تخلي القلب عَنْ الشهوات، فإذا نزل الذكر قلبًا فارغًا عَنْ غير الذكر اندفع الشَّيطانُ كما تندفعُ العلة بنزول الدواء في المعدة الخالية عَنْ الأطعمة، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

وَقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج: ٤].

وَمن ساعد الشَّيطان بعمله فهو مواليه وَإن ذكر الله بلسانه.

قال الغزّالي: «وَتأمل أن منتهى ذكرك وَعبادتك الصَّلاة، فراقب قلبك إذا

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٣٤٢٣).

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٣٦٨٣)، ومسلم (٢٣٩٦).

كنت في صلاتك، كيف يجاذبه الشَّيطانُ إلى الأسواق، وَحساب العالمين وَجوابِ المعاندين، وَكيف يمر بك في أودية الدنيا وَمهالكها، حتى إنك لا تذكرُ ما قد نسيته من فضول الدنيا إلا في صلاتِك، وَلا يزدحم الشَّيطان على قلبك إلا إذا صليت، فالصَّلاة محكُّ القلوب، فبها يظهر محاسنُها وَمساويها، فالصَّلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا، فلا جرم لا ينطرد عنك الشَّيطانُ بل ربما يزيد عليك الوسواس، كما أن الدّواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر، فَإن أردت الخلاصَ من الشَّيطانِ فقدم الاحتماء بالتقوى، ثم أردفه بدواء الذكر يفر الشَّيطان منك كما فر من عمر ﷺ».

وَلذلك قَالَ وَهب بن منبه: «اتق الله، وَلا تسب الشَّيطانَ في العلانيةِ، وَأنت صديقُه في السّر ـ أي: أنت مطيع له ـ»[1].

وَكما أن الله تَعالَى قَالَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

وَأنت تدعوه وَلا يستجيب لك، فكذلك تذكر الله وَلا يهرب الشَّيطان منك لفقد شروط الذكرِ وَالدعاءِ.

قيل لإبراهيم بن أدهم: «ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا وَقد قَالَ تَعالَى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

قَالَ: لأن قلوبكم ميتة، قيل: وَما الذي أماتها؟

قَالَ: ثمان خصال:

عرفتم حقَّ الله وَلم تقوموا بحقه.

وقرأتم القرآنَ وَلم تعملوا بحدوده.

وقلتم: نحبُّ رَسُول اللهِ ﷺ، وَلم تعملوا بسنته.

وقلتم: نخشى الموت، وَلم تستعدوا له.

---

(١) «حلية الأولياء» (٨/ ١٥٤).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. فواطأتموه على المعاصي.

وقلتم: نخاف النار، وَأرهقتم أبدانكم فيها.

وقلتم: نحب الجنة، وَلم تعملوا لها.

وإذا قمتم من فُرُشِكم رميتم عيوبكم وَراء ظهوركم، وَافترشتم عيوب النّاس أمامكم، فأسخطتم ربكم.

فكيف يستجيب لكم؟!»[1].

فَإِن قلت: فالدّاعي إلى المعاصي المختلفة شيطانٌ وَاحدٌ، أَوْ شياطين مختلفون، فاعلم أَنَّهُ لا حاجة لك إلى معرفة ذلك في المعاملة، فاشتغل بدفع العدو وَلا تسأل عَنْ صفته، كُلِ البقل من حيث يؤتى، وَلا تسأل عَنْ المبقلة، وَلكن الذي يتضحُ بنورِ الاستبصارِ في شواهد الأخبار أنهم جنودٌ مجندة، وَأن لكلٍّ نوعٍ من المعاصي شيطانًا يخصُّه وَيدعو إليه، فأما طريقُ الاستبصارِ فذكره يطول، وَهو أن اختلافَ المسبباتِ يدل على اختلاف الأسباب»[2].

ونظرًا لأن الشَّيطان عدو خفي لا يرى، فكان الاحتراز منه من أصعب ما يكون، فكان على العبد أن يستعين بالله عليه، وأن يعرف طُرقَه ومداخلَه ومخارجَه وهيئتَه وصفتَه وموضعَه.

فَلَهُ صِفَاتٌ ثَلَاثٌ:

١ ـ اَلْوَسْوَسَةُ.

٢ ـ اَلْخَنَّاسُ.

٣ ـ مَكَانُه فِي الصُّدُورِ.

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ [الناس: ٥].

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٦٩١).

(٢) ملخصًا من كتاب «إحياء علوم الدين» (٣/ ٤٠).

فذكر وَسوسته أولًا، ثم ذكر أَنَّهُ خناسٌ يختفي ويظهرُ وإن كان لا يُرى، **ثم محل هذه** الوسوسةِ أنها في صدورِ النّاس، وَقد جعل الله للشيطان دخولًا **في** جوف العبد وَنفوذًا إلى قلبه وَصدرِه، فهو يجري منه مجرى الدم، وَقد وكِّل بالعبد فلا يفارقه إلى الممات.

وفي الصَّحِيح أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاة أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قَضَى التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى»[(١)].

ومن وَسْوَسَتِه ما ثبت في الصَّحِيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَأْتِي الشَّيطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ»[(٢)].

وَفِي الصَّحِيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»[(٣)].

وفي روايةٍ عند أحمد: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ»[(٤)].

وَمِنْ وَسْوَسَتِهِ أَيْضًا: أن يشغل القلبَ بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله، وَلهذا يضاف النسيان إليه إضافتَه إلى سببه.

قَالَ تَعَالَى حكاية عَنْ صاحبِ موسى أَنَّهُ قَالَ: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣].

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (١٢٢٢)، وَمُسْلِمٌ (٣٨٩).

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٣٢٧٦)، وَمُسْلِمٌ (١٣٤).

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٣٢).

(٤) صحيح: رَوَاهُ أَحْمَدُ (١/ ٢٣٥).

اعْتِصَامُ الْعَبْدِ مِنَ الشَّيْطَانِ

الشَّيطانُ عدو ملازم للعبد؛ خطره عظيم وخطبه جسيم، لا طاقة للعبد به إلا باللجوءِ والاستعاذة بالله ﷻ، فقد توعَّد بني آدم بالغواية كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧].

فقال تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨].

ورغم شره وعظيم خطره فقد طمأن الله عباده فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

ولذلك يجب على العبد أن يستدفعَ كيدَ هذا العدو ويحترزَ منه.

الْوَسَائِلُ التي تُعِينُ عَلَى التَّحَرُّزِ مِنْ كَيْدِهِ:

فَهُنَاكَ وَسَائِلُ تُعِينُ عَلَى صِحَّةِ الْقَلْبِ وَسَلَامَتِهِ مِنْهَا:

١ ـ كَمَالُ المَحَبَّةِ فِي اللهِ:

قَالَ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

٢ ـ صِدْقُ الإِخْلَاصِ:

قَالَ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢].

٣ ـ حُسْنُ الْمُتَابَعَةِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧].

وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

٤ ـ الثَّبَاتُ عِنْدَ الامْتحانِ وَالابْتِلَاءِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ٢].

٥ ـ ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى:

قَالَ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦].

وَقال تَعَالَى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وَأعظمُ الذِّكْرِ قراءةُ كتابِ الله.

فالذي يجب أن يراعيه كل مسلم مراعاة حالة قلبه وما يدخل عليه من المؤثرات التي تغيره، ولقد كان النبي ﷺ يراعي أمر قلبه وإنه المغفور له وقد صانه الله وحفظه من وسوسة الشَّيطان وكيده.

عَنْ الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ ـ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ ـ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»(١).

قال النَّوويُّ: قَالَ أَهْل اللُّغَة: «الْغَيْن» بِالْغَيْنِ الْمُعْجَمَة وَالْغَيْم بِمَعْنًى، وَالْمُرَاد هُنَا مَا يَتَغَشَّى الْقَلْب.

قَالَ الْقَاضِي: قِيلَ: الْمُرَاد الْفَتَرَات وَالْغَفَلَات عَنْ الذِّكْر الَّذِي كَانَ شَأْنه الدَّوَام عَلَيْهِ، فَإِذَا أَفْتَرَ عَنْهُ أَوْ غَفَلَ عَدَّ ذَلِكَ ذَنْبًا، وَاسْتَغْفَرَ مِنْهُ.

قَالَ: وَقِيلَ: هُوَ هَمّه بِسَبَبِ أُمَّته، وَمَا اطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِهَا بَعْده، فَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ.

وَقِيلَ: سَبَبه اشْتِغَاله بِالنَّظَرِ فِي مَصَالِح أُمَّته وَأُمُورهمْ، وَمُحَارَبَة الْعَدُوّ وَمُدَارَاته، وَتَأْلِيف الْمُؤَلَّفَة، وَنَحْو ذَلِكَ فَيَشْتَغِل بِذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ مَقَامه، فَيَرَاهُ

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٧٠٢).

ذَنْبًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَظِيم مَنْزِلَته، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ مِنْ أَعْظَم الطَّاعَاتِ، وَأَفْضَلِ الْأَعْمَال، فَهِيَ نُزُول عَنْ عَالِي دَرَجَته، وَرَفِيع مَقَامه مِنْ حُضُوره مَعَ الله تَعَالَى، وَمُشَاهَدَته وَمُرَاقَبَته وَفَرَاغه مِمَّا سِوَاهُ، فَيَسْتَغْفِر لِذَلِكَ.

وَقِيلَ: يَحْتَمِل أَنَّ هَذَا الْغَيْن هُوَ السَّكِينَة الَّتِي تَغْشَى قَلْبه، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفتح: ١٨]، وَيَكُون اِسْتِغْفَاره إِظْهَارًا لِلْعُبُودِيَّةِ وَالِافْتِقَار، وَمُلَازَمَة الْخُشُوع، وَشُكْرًا لِمَا أَوْلَاهُ.

وَقَدْ قَالَ الْمُحَاسِبِيّ: «خَوْف الْأَنْبِيَاء وَالْمَلَائِكَة خَوْف إِعْظَام، وَإِنْ كَانُوا آمِنِينَ عَذَاب الله تَعَالَى».

وَقِيلَ: «يَحْتَمِل أَنَّ هَذَا الْغَيْن حَال خَشْيَةٍ وَإِعْظَامٍ يَغْشَى الْقَلْب، وَيَكُون اسْتِغْفَاره شُكْرًا»، كَمَا سَبَقَ.

وَقِيلَ: «هُوَ شَيْءٌ يَعْتَرِي الْقُلُوبَ الصَّافِيَةَ مِمَّا تَتَحَدَّث بِهِ النَّفْس فَهُوَّشها - وَالله أَعْلَم»[1].

فانظر كيف كان النبي ﷺ يراعي أمر قلبه ويتعاهده من حين لآخر فيلجأ إلى الله ﷻ ويستغفره.

فيجب على العبد أن ينظر إلى كل ما يكدر عليه قلبه، ويعكر عليه صفوه فينحيه جانبًا[2].

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حروزًا عشرة يستدفع بها العبد شرَّ الشيطان.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمما يعتصم به العبد من الشَّيطان وَيستدفعُ به شرَّه وَيحترز منه وَذلك في عشرة أسباب:

اَلْحِرْزُ اَلْأَوَّلُ: الاستعاذة بالله من الشَّيطان، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٦﴾ [فصلت: ٣٦].

---

(١) «شرح مُسْلِم» (١٧/ ٢٣).

(٢) انظر كتابي: «مكدرات القلوب» - دار ابن رجب المصرية.

وَفي موضع آخر: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، والسّمعُ المراد به هاهنا سمع الإجابة لا مجرد السّمعِ التامِّ.

وتأمل سرّ القرآن الكريم كيف أكد الوصف بالسّميع العليم، بذكر صيغة «هو» الدّال على تأكيد النِّسبة وَاختصاصها، وَعرف الوصف بالألف وَاللام في «سُورَة حم» لاقتضاء المقام لهذا التأكيد، وَتركه في «سُورَة الأعراف» لاستغناء المقام عنه، فَإِنَّ الأمر بالاستعاذة في «سُورَة حم» وَقع بعد الأمرِ بأشق الأشياء على النفس وَهو مقابلة إساءة المسيء بالإحسان إليه، وَهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون وَلا يلقاه إلا ذو حظ عظيم كما قَالَ اللهُ تعالى.

والشَّيطان لا يدع العبد يفعل هذا بل يريه أن هذا ذلٌّ وَعَجْز، وَيسلط عليه عدوه فيدعوه إلى الانتقام وَيزينه له، فَإِن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه وَأن لا يسيء إليه وَلا يحسن، فلا يؤثر الإحسان إلى المسيء إلا من خالفه وَآثر الله تَعَالَى وَما عنده على حظه العاجل، فكان المقامُ مقامَ تأكيدٍ وَتحريضٍ فقال فيه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٦].

وَأما في «سُورَة الأعراف» فَإِنَّهُ أمره أن يعرض عَنْ الجاهلين، وَليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان بل بالإعراض، وَهذا سهل على النفوس غير مستعص عليها فليس حرص الشَّيطان وَسعيه في دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقد تقدم ذكر الفرق بين هذين الموضعين، وَبين قوله في «سُورَة حم» (المؤمن).

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

وَفي صَحِيحِ البُخَارِيّ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ ﷺ قَالَ: «كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَرَجُلَانِ يَسْتَبَّانِ، فَأَحَدُهُمَا احْمَرَّ وَجْهُهُ وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ، فَقَالَ

النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كلمةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ الشَّيطان» ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ». فَقَالُوا لَهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ الشَّيطان، فَقَالَ: وَهَلْ بِي جُنُونٌ»(١).

اَلْحِرْزُ الثَّانِي: قراءةُ المعوذتين فَإِنَّ لهما تأثيرًا عجيبًا في الاستعاذةِ باللهِ تَعَالَى من شَرِّهِ وَدفعه وَالتحصُّنِ منه، وَلهذا روي عَنْ عَابِسٍ الْجُهَنِيِّ ﷺ: «أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ: يَا ابْنَ عَابِسٍ أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا تَعَوَّذَ الْمُتَعَوِّذُونَ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ»(٢).

وَقد كان النبي ﷺ يتعوذ بهما.

عَنْ عَائِشَةَ ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَنْفِثُ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْمَرَضِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، فَلَمَّا ثَقُلَ كُنْتُ أَنَا أَنْفِثُ عَلَيْهِ بِهِنَّ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ لِبَرَكَتِهَا» فَسَأَلْتُ الزُّهْرِيَّ(٣): كَيْفَ كَانَ يَنْفِثُ قَالَ: «يَنْفِثُ عَلَى يَدَيْهِ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ»(٤).

وَأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كُلّ صلاة(٥).

اَلْحِرْزُ الثَّالِثُ: قراءة «آية الكرسي»، ففي الصَّحِيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «وَكَّلَنِي رَسُول اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعام فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ: وَاللهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُول اللهِ ﷺ. قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُول اللهِ شَكَا حَاجَةً

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٣٢٨٢)، وَمُسْلِمٌ (٢٦١٠).

(٢) صحيح: رَوَاهُ النسائي (٨/ ٢٥١)، أَحْمَدُ (٤/ ١٤٤).

(٣) الزهري أحد رواة الحديث، والقائل معمر.

(٤) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٥٧٥١)، وَمُسْلِمٌ (٢١٩٢).

(٥) صحيح: رَوَاهُ أَبو دَاوُدَ (١٥٢٣)، الحديث: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: «أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَقْرَأَ بِالْمُعَوِّذَاتِ دُبُرَ كل صَلَاةٍ».

شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ. فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُول اللهِ ﷺ: أَنَّهُ سَيَعُودُ. فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعام فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُول اللهِ ﷺ، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ لَا أَعُودُ. فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُول اللهِ ﷺ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُول اللهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ. فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعام فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُول اللهِ وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ. قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كلمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا. قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِن اللهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُول اللهِ ﷺ: مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُول اللهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كلمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: مَا هِيَ؟ قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ، فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: ذَاكَ شَيْطَانٌ»(١).

اَلْحِرْزُ الرَّابِعُ: قراءة سُورَة البقرة: ففي الصَّحِيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيطان يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَة الْبَقَرَةِ»(٢).

اَلْحِرْزُ الْخَامِسُ: قراءة خاتمة سُورَة البقرة: فقد ثبت في الصَّحِيح عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَة

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيّ (٢٣١١). (٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧٨٠).

الْبَقَرَةِ مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»[1].

وَعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِأَلْفَيْ عَامٍ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلَا يُقرآن فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ»[2].

اَلْحِرْزُ الْسَّادِسُ: قول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كل شَيْءٍ قَدِيرٌ»:

ففي الصَّحِيحين من حديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كل شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْم مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ الشَّيطان يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»[3].

فهذا حِرْزٌ عظيمُ النّفعِ جَليلُ الفائِدَةِ، يسيرٌ سهلٌ على من يسَّره الله تَعَالَى عليه.

اَلْحِرْزُ الثَّامِنُ: كثرة ذكر الله وَهو من أنفع الحروز من الشَّيطان، عَنْ الْحَارِثِ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كلمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا، فَقَالَ عِيسَى: إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كلمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ، وَإِمَّا أَنْ آمُرَهُمْ. فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي، أَوْ أُعَذَّبَ. فَجَمَعَ النّاس فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَامْتَلَأَ الْمَسْجِدُ وَتَعَدَّوْا عَلَى الشُّرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كلمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ: أَوَّلُهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٤٠٠٨)، وَمُسْلِمٌ (٨٠٧).

(٢) صحيح: رَوَاهُ الترمذي (٢٨٨٢).

(٣) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٣٢٩٣)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٩١).

وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ، أَوْ وَرِقٍ فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي، وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ وَإِنَّ اللهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلاة، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا، فَإِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ. وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ فَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ، أَوْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا، وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ. وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: أَنَا أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ فَفَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ. وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيطان إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ.

قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَالْجِهَادُ وَالْهِجْرَةُ وَالْجَمَاعَةُ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُول اللهِ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ: «وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللهِ»[١].

فقد أخبر النَّبِيُّ ﷺ في هذا الحديث: أن العبد لا يحرز نفسه من الشَّيطان إلا بذكر الله، وَهذا بعينه هو الذي دلت عليه سُورَة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، فَإِنَّهُ وَصف الشَّيطانَ فيها بأنه الخناس، وَالخناس الذي إذا ذكر العبد الله انخنس وَتجمع وَانقبض، وَإِذَا غفل عَنْ ذكر الله تَعَالَى التقمَ القلب وَألقى إليه الوساوسَ التي هي مبادئُ الشر كله، فما أحرز العبد نفسه من الشَّيطان بمثل ذكرِ الله ﷻ.

اَلْحِرْزُ التَّاسِعُ: الوضوء وَالصَّلاة، وَهذا من أعظم ما يُتَحَرَّزُ به منه، عَنْ

---

(١) صحيح: رَوَاهُ الترمذي (٢٨٦٣).

أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِبِلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ: «يَا بِلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ». قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طَهُورًا فِي سَاعَةِ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أُصَلِّيَ»[1].

فما أطفأَ العبد جمرةَ الغضبِ وَالشَّهوةِ بمثل الوضوءِ وَالصَّلاةِ، فإنها نارٌ وَالوضوء يطفئها، وَالصَّلاةُ إذا وَقعت بخشوعِها وَالإقبالِ فيها على الله أذهبت أثرَ ذلك كلّه، وَهذا أمر تجرِبتُه تغني عَنْ إقامة الدليل عليه.

اَلْحِرْزُ العَاشِرِ: إِمْسَاكُ فضولِ النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس، فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة[2].

ثم فصل ابن القيم البيان لهذه الأبواب الأربعة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: إمساك فضول النظر، وَالكلام، وَالطَّعام، وَمخالطة النّاس، فَإِنَّ الشَّيطان إنما يتسلط على ابن آدم وَينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة.

فُضُول النَّظَرِ:

فَإِنَّ فُضُولَ النَّظَرِ يدعو إلى الاستحسانِ، وَوقوع صورةِ المنظورِ إليه في القلب وَالاشتغال به وَالفكرة في الظفر به، فمبدأُ الفتنةِ من فضولِ النظرِ، فالحوادث العظام إنما كُلّها من فضولِ النظرِ فكم نظرة أعقبت حسراتٍ لا حسرة كما قَالَ الشاعر:

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَؤهَا مِنْ النَّظَرِ ... وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةٍ فَتَكَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا ... فَتْكَ السِّهَامِ بِلَا قَوْسٍ وَلَا وَتَرِ

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيّ (١١٤٩).

(٢) مختصرًا من كتاب «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٩٠).

وقال الآخر:

وَكُنْتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا ... لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ
رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ ... عَلَيْهِ وَلَا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

وقال المتنبي:

وَأَنَا الَّذِي جَلَبَ الْمَنِيَّةَ طَرْفُهُ ... فَمَنِ الْمُطَالِبُ وَالْقَتِيلُ الْقَاتِلُ؟

ولي من أبيات[1]:

يَا رَامِيًا بِسِهَامِ اللَّحْظِ مُجْتَهِدًا ... أَنْتَ الْقَتِيلُ بِمَا تَرْمِي فَلَا تُصِبِ
وَباعث الطَّرْفِ يَرْتَادُ الشِّفَاءُ لَهُ ... تَوَقَّهُ إِنَّهُ يَرْتَدُّ بِالْعَطَبِ
تَرْجُو الشِّفَاءَ بِأَحْدَاقٍ بِهَا مَرَضٌ ... فَهَلْ سَمِعْتَ بِبَرْءٍ جَاءَ مِنْ عَطَبِ
وَمُفْنِيًا نَفْسَهُ فِي إِثْرِ أَقْبَحِهِم ... وَصفًا للطَّخِ جَمَالٍ فِيهِ مُسْتَلَبِ
وَوَاهِبًا عُمْرَهُ فِي مِثْلِ ذَا سَفَهًا ... لَوْ كُنْتَ تَعْرِفُ قَدْرَ الْعُمْرِ لَمْ تَهِبِ
وَبَائِعًا طَيْبَ عَيْشٍ مَا لَه خَطَرٌ ... بِطَيْفِ عَيْشٍ مِنْ الْآلَامِ منتهبِ
غُبِنْتَ وَاللهِ غَبْنًا فَاحِشًا فلو اسْـ ... تَرْجَعْتَ ذَا الْعَقْدِ لَمْ تُغْبَنْ وَلَمْ تَخبِ
وَوَارِدًا صَفْوِ عَيْشٍ كُلُّهُ كَدَرٌ ... أَمَامَك الْوِرْدُ صَفْوًا لَيْسَ بِالْكَذِبِ
وَحَاطِبِ اللَّيْلِ فِي الظَّلْمَاءِ مُنْتَصِبًا ... لِكل دَاهِيَةٍ تَدْنُو مِنَ الْعَطَبِ
شَابَ الصِّبَا وَالتَّصَابِي بَعْدُ لَمْ يِشِبِ ... وَضَاعَ وَقْتُكِ بَيْنَ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ
وَشَمْسُ عُمْرِكَ قَدْ حَانَ الْغُرُوبُ لَهَا ... وَالضَّي فِي الْأُفُقِ الشَّرْقِي لَمْ يَغِبِ
وَفَازَ بِالوَصْلِ مَنْ قَدْ فَازَ وَانْقَشَعَتْ ... عَنْ أُفُقِهِ ظُلُمَاتِ الليلِ وَالسُّحُبِ
كَمْ ذَا التَّخَلُّفُ وَالدُّنْيَا قَدْ ارْتَحَلَتْ ... وَرُسْلُ رَبِّكَ قَدْ وَافَتْكَ فِي الطَّلَبِ
مَا فِي الدِّيَارِ وَقَدْ سَارَتْ رَكَائِبُ مَنْ ... تَهْوَاهُ للصَّبِّ مِنْ سُكْنَى وَلا أَرَبِ
فَافرِشْ الْخَدَّ ذَيَّاكَ التُّرَاب وَقُلْ ... مَا قَالَهُ صَاحِبُ الْأَشْوَاقِ فِي الْحِقَبِ
مَا رَبْعُ مَيَّةَ مَحْفُوفًا يَطُوفُ بِهِ ... غيلانُ[2] أَشْهَى له مِنْ رَبْعِكَ الْخَرِبِ

---

(١) القائل: ابن القيم.

(٢) غيلانُ: هو ذو الرمة الشاعر العربي المعروف، والذي اشتهر بحب ميَّة ومنادمة ربعها.

وَلَا الْخُدُودُ وَإِنْ أَدْمَيْنَ مِنْ ضَرَجٍ أَشْهَى إِلَى نَاظِرِي مِنْ خَدِّكِ التَّرِبِ
مَنَازِلًا كَانَ يَهْوَاهَا وَيَأْلَفُهَا أَيَامَ كَانَ مَنَالُ الْوَصْلِ عَنْ كَثَبِ
فَكُلَّمَا جُلِّيَتْ تِلْكَ الرُّبُوعُ لَهُ يَهْوَى إِلَيْهَا هَوِيَّ الْمَاءِ مِنْ صَبَبِ
أَحْيَا لَهُ الشَّوْقُ تِذْكَارَ الْعُهودِ بِهَا فَلَوْ دَعَا الْقَلْبُ للسَّلوان لَمْ يَجِبِ
هَذَا وَكَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ وَمَا لَه فِي سِوَاهَا الْدَّهْرُ مِنْ رَغَبِ
مَا فِي الْخِيَامِ أَخُو وَجْدٍ يُرِيحُكَ إِنْ بَثَثْتَهُ بَعْضَ شَأْنِ الْحُبِّ فَاغْتَرِبِ
وَأَسرِ فِي غَمَرَاتِ الليلِ مُهْتَدِيًا بِنَفْحَةِ الطِّيْبِ لَا بِالْنَّارِ وَالْحَطَبِ
وَعَادِ كُلَّ أَخِي جُبْنٍ وَمعجزة وَحَارِبْ النَّفْسَ لَا تُلْقِيكَ فِي الْحَرَبِ
وَخُذْ لِنَفْسِكَ نُورًا تَسْتَضِيءُ بِهِ يَوْمَ اقْتِسَامِ الْوَرَى الْأَنْوَارَ بِالرُّتَبِ
فَالْجِسْرُ ذُو ظُلُمَاتٍ لَيْسَ يَقْطَعُهُ إِلَا بِنُورٍ يُنَجِّي الْعَبْدَ فِي الْكُرَبِ

والمقصودُ أَنّ فضول النظر أصل البلاء.

فُضول الْكَلَام:

وَأَمَّا فُضُولُ الْكَلَامِ فإنها تفتحُ للعبدِ أبوابًا من الشرِّ كُلّها مداخلُ للشّيطان، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبوابَ كُلّها، وَكم من حرب جرتها كلمةٌ وَاحدةٌ، وَقد قَالَ النَّبيّ ﷺ لمعاذ ﷺ: «وَهَلْ يَكُبُّ النّاس فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ[1]»[2].

وَأكثر المعاصي إنما تَوَلُّدُها من فضولِ الكلام وَالنظر، وَهما أوسعُ مداخلِ الشَّيطان، فَإِنَّ جارحتيهما لا يملّان وَلا يسأمان بخلاف شهوة البطن فَإِنَّهُ إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطّعام، وَأما العين وَاللسان فلو تركا لم يفترا من النظر وَالكلام فجنايتهما متسعةُ الأطرافِ كثيرة الشّعب عظيمةُ الآفاتِ.

وَكان السَّلف يحذِّرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام،

---

(١) «حَصائدُ ألسِنتهم» أي: ما يَقْتطِعُونه من الكلام الذي لا خير فيه. «النهاية» (١/ ٩٧٨).
(٢) صحيح لغيره، رَوَاهُ الترمذي (٢٦١٦)، ابن ماجه (٣٩٧٣)، أَحْمَدُ (٥/ ٢٣١).

وَكانوا يقولون: «مَا شَيْءٌ أَحْوَجُ إِلى طُولِ السِّجْنِ مِنَ اللِّسانِ».

فُضُول الْطَّعَام:

وَأَمَّا فُضُولُ الْطَّعَامِ فهو داعٍ إلى أنواعٍ كثيرة من الشَّر، فَإِنَّهُ يحرك الجوارح إلى المعاصي، وَيثقلها عَنِ الطّاعات، وَحسبك بهذين شرًّا، فكم من معصية جلبها الشبع وَفضول الطَّعام، وَكم من طاعة حال دونها، فمن وُقي شرَّ بطنه فقد وُقي شرًا عظيمًا، وَالشَّيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطَّعام، قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ»[1].

وَلو لم يكن في الامتلاء من الطَّعام إلا أَنَّهُ يدعو إلى الغفلة عَنْ ذكر الله ساعة وَاحدة جثم عليه الشَّيطانُ وَوعدَه وَمنَّاه وَشهاه وَهام به في كل وَادٍ، فَإِنَّ النفس إذا شبعت تحركت وَجالت وَطافت على أبواب الشَّهوات، وَإِذَا جاعت سكنت وَخشعت وَذلت.

فُضُول الْمُخَالَطَةِ:

إن فُضُولَ الْمُخَالَطَةِ هي الدَّاءُ العضالُ الجالبُ لكل شر، وَكم سلبت المخالطة وَالمعاشرة من نعمة، وَكم زرعت من عداوةٍ، وَكم غَرَسَتْ في القلب من حزازات؛ تزول الجبال الراسيات وَهي في القلوب لا تزول، ففضول المخالطةِ فيه خسارةُ الدُّنيا وَالآخرة، وَإنما ينبغي للعبد أن يأخذَ من المخالطة بمقدار الحاجة، وَيجعلَ النّاس فيها أربعة أقسام متى خلط أحد الأقسام بالآخر وَلم يميز بينهما دخل عليه الشّر.

أَحَدُهَا: مَنْ مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم وَالليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدّوام، وَهذا الضرب أعزُّ من الكبريت الأحمر، وَهم العلماء بالله تَعالَى وَأمرِه، وَمكايدِ

---

(١) صحيح: الترمذي (٢٣٨٠)، رَوَاهُ ابن ماجة (٣٣٤٩)، أحمد (٤/ ١٣٢) على خلاف في سماع يحيى بن جابر الطائي من المقدام بن معدي كرب.

عَدّوه، وَأمراضِ القلوب وَأدويتها، الناصحون لله تَعَالَى وَلكتابه وَلرسوله وَلخلقه، فهذا الضرب في مخالطتهم الرّبحُ كله.

الْقِسْمُ الثَّانِي: مَنْ مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحًا فلا حاجة لك في خلطته، وَهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش؛ وَقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات وَالمشاركات وَالاستشارة وَالعلاج للأدواء وَنحوها، فإذا قضيت حاجتك من مخالطةِ هذا الضربِ بقيت مخالطتهم مِن..

الْقِسْمُ الثَّالِثُ: وَهم مَن مخالطته كالدّاء على اختلاف مراتبه وَأنواعه وَقوته وَضعفه:

فمنهم من مخالطته كالدّاء العضالِ وَالمرضِ المزمنِ: وَهو من لا تربح عليه في دين وَلا دنيا، وَمع ذلك فلا بد من أن تخسرَ عليه الدِّين وَالدنيا أَوْ أحدَهما، فهذا إذا تمكنت مخالطتُه وَاتصلت فهي مرض الموت المخوف.

ومنهم مَنْ مخالطتُه كوجع الضرس يشتد ضربًا عليك، فإذا فارقك سكن الألم.

ومنهم مَنْ مخالطتُه حُمَّى الرُّوح وَهو الثقيل البغيض العقل؛ الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، وَلا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، وَلا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها، بل إن تكلم فكلامه كالعصي تنزل على قلوب السّامعين مع إعجابِهِ بكلامِهِ وَفرحِهِ به؛ فهو يحدث من فيه كلما تحدث وَيظن أَنَّهُ مسكٌ يطيبُ به المجلس، وَإن سكت فأثقلُ من نصف الرَّحا العظيمة التي لا يطاق حملها وَلا جرُّها على الأرض.

ويذكر عَنْ الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «ما جَلَسَ إلى جانبي ثَقِيلٌ إلا وَجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانبِ الآخر».

ورأيت يومًا عند شيخنا ـ قدس الله روحه ـ رجلًا من هذا الضرب وَالشيخ يحمله وَقد ضعف القوي عَنْ حمله، فالتفت إلي وَقال: «مجالسةُ الثقيلِ حمى الرِّبع».

ثم قَالَ: «لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمَّى فصارت لها عادة» أَوْ كما قَالَ.

وَبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للرُّوح؛ فَعَرَضيةٌ وَلازمة.

ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب، وَليس له بد من معاشرته وَمخالطتِه فليعاشرْه بالمعروف حتى يجعل الله له فرجًا وَمخرجًا.

اَلْقِسْمُ الرَّابِعُ: مَنْ مخالطتُه الهلك كله، وَمخالطته بمنزلة أكل السّم، فإن اتفق لآكله ترياق، وَإلا فأحسن الله فيه العزاء، وَما أكثرَ هذا الضربَ في النّاسِ - لا كثرهم الله - وَهم أهل البدع وَالضلالة الصّادون عَنْ سنة رَسُول اللهِ الداعون إلى خلافها، الذين يصدون عَنْ سبيل الله وَيبغونها عوجًا، فيجعلون البدعة سنة، وَالسّنة بدعة، وَالمعروف منكرًا، وَالمنكر معروفًا.

إن جَرَّدتْ التوحيدَ بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء وَالصالحين.

وَإن جَرَّدتْ المتابعةَ لرَسُول اللهِ ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين.

وإن وَصَفْت الله بما وَصف به نفسه وَبما وَصفه به رسوله ﷺ من غير غلو وَلا تقصير قالوا: أنت من المشبهين.

وَإن أمرت بما أمر الله به وَرسوله ﷺ من المعروف وَنهيت عما نهى الله عنه وَرسوله من المنكر قالوا: أنت من المفتنين.

وَإن اتبعت السنةَ وَتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهلِ البدعِ المضلين.

وَإن انقطعت إِلَى اللهِ تَعَالَى وَخلَّيت بينهم وَبين جيفة الدنيا قالوا: أنت من المبلسين.

وَإن تركت ما أنت عليه وَاتبعت أهواءهم فأنت عند الله تَعَالَى من الخاسرين وَعندهم من المنافقين.

فالحزمُ كلُّ الحزمِ التماسُ مرضاةِ الله تَعَالَى وَرسوله بإغضابهم، وَأن لا تشتغل بإعتابهم وَلا باستعتابهم، وَلا تبالي بذمهم وَلا بغضبهم، فَإِنَّه عين كمالك كما قَالَ:

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلُ

وقال آخر:

وَقَدْ زَادَنِي حُبًّا لِنَفْسِي أَنَّنِي بَغِيضٌ إِلَى كل امْرِئٍ غَيْرِ طَائِلِ

فمن كان بواب قلبه وَحارسه من هذه المداخل الأربعة التي هي أصل بلاء العالم، وَهي فضول النظر وَالكلام وَالطَّعام وَالمخالطة وَاستعمل ما ذكرناه من الأسباب التي تحرزه من الشَّيطان فقد أخذ بنصيبِه من التوفيقِ، وَسدَّ على نفسه أبوابَ جهنم، وَفتح عليها أبواب الرّحمة، وَانغمر ظاهرُه وَباطنُه، وَيوشكُ أن يحمدَ عند الممات عاقبةَ هذا الدواءِ، فعند الممات يحمدُ القومُ التقى، وَعند الصباح يحمدُ القومُ السّرى ـ وَالله الموفق لا رب غيره وَلا إله سواه[1].

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٧١ ـ ٢٧٦).

آفَاتُ الْقُلُوبِ

القلب كالبحر لاحتوائه على أسرارٍ عجيبة وَغموض كبير وَأحوال متقلبة سواءً كانت منكرة كـ:

- الغفلة. - الزّيغ.
- الإقفال. - القسوة.
- الرّياء. - الحسد.
- النفاق،.. إلخ.

وَالنتيجة: الطّبع، وَالختم، وَالموت،.. إلخ.

وَصفته: أسود.

أَوْ كانت تلك الأحوال محمودة: كـ:

- اللين. - الإخبات.
- الخشوع. - الإخلاص.
- المتابعة. - الحب.
- التقوى. - الثبات.
- الخوف. - الرجاء.

والنتيجة: السَّلامة، وَالحياة، وَالإيمان.

وصفته: أبيض.

فالقلب وَالجوارح عالمٌ مستقلٌ، بل إن شئت قل هي مملكة متكاملة من مَلِكٍ وجنودٍ وحرسٍ وَأتباعٍ، وَهذه المملكة تقوى بقوة ملكها وَتضعف بضعفه، وَهذا الملك هو القلب، وَتتسلط عليه من الآفات ما تضعفه وَتهلكه؛ بل وَتكون سببًا في انهيار هذه المملكة بأسرها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة: ١٠٩].

واعلم أن آفاتِ القلوبِ تنقسمُ إلى جملةٍ من الآفاتِ قد لا يبلغها الحصر، ولكن الذي يعنينا منها الآفاتُ الرئيسية.

آفَاتُ الْقُلُوبِ الرَّئِيسة:

مَرَضُ الشُّبُهَاتِ.

مَرَضُ الشَّهَوَاتِ.

ولا بد أن نعلمَ أن القلبَ يعترضه مرضان خطيران إذا استحكما فيه كان هلاكُه وَموتُه، وَهما: مرض الشَّهوات، وَمرض الشُّبهات، وَهذان أصل داء الخلق إلا من عافاه الله ﷻ.

قَالَ ابن القيم: «القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه إذا استحكما فيه كان هلاكه وَموته، وَهما مرض الشَّهوات وَمرض الشُّبهات، هذان أصل داء الخلق إلا من عافاه الله، وَقد ذكر الله تَعَالَى هذين المرضين في كتابه.

أَمَّا مَرَضُ الشُّبُهَاتِ:

وَهو أصعبها وَأقتلها للقلب، ففي قوله في حقِّ المنافقين: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾ [البقرة: ١٠].

وقوله: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ﴾ [المدثر: ٣١].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ [الحج: ٥٣].

فهذه ثلاثة مواضع؛ المراد بمرضِ القلب فيها مرض الجهل وَالشبهة.

وأما مَرَضُ الشَّهْوَةِ:

وهو مرضٌ فتّاكٌ مثبطٌ مقعِدٌ عن الطاعات والعبادات، وهو منكس للقلب، إذا استحكم في القلبِ صار العبدُ أسيرًا لشهوته ولذته أينما تمكنَ من تحصيلها حصلها.

وفي هذا قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

أي لا تُلِنَّ في الكلام فيطمع الذي في قلبه حبُّ الفاحشة.

وللقلب أمراضٌ أُخر من:

الرِّياء، وَالكبر، وَالعجب، وَالحسد، وَالفخر، وَالخيلاء، وَحب الرياسة، وَالعلو في الأرض وغيرها من العلل والأمراض، وَهذه الأمراض إما من شُبهة أو شهوة، أو مركب من المرضين معًا، فَإِنَّهُ لا بد فيه من تخيلٍ فاسدٍ وَإرادةٍ باطلةٍ كالعجب وَالفخر وَالخيلاء، وَالكبر المركب من تخيل عظمته وَفضله وَإرادة تعظيم الخلق له وَمحمدتهم فلا يخرج مرضه عَنْ شهوة، أَوْ شبهة، أَوْ مركب منهما، وَهذه الأمراض كُلّها متولدة عَنْ الجهل؛ وَدواؤها العلم.

فأمراض القلوب أصعب من أمراض الأبدان لأن غاية مرض البدن أن يفضي بصاحبه إلى الموت، وَأما مرض القلب فيفضي بصاحبه إلى الشّقاء الأبدي، وَلا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم، وَلهذا سمى الله تَعالَى كتابه شفاء لأمراض الصُّدور، وَقَالَ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس: ٥٧].

وَلهذا السبب كانت نسبةُ العلماءِ إلى القلوبِ كنسبةِ الأطباءِ إلى الأبدان، وَما يقال للعلماء: «أطباء القلوب» فهو لقدر ما جامع بينهما، وَقد يعيش الرجل عمره، أَوْ برهةً منه لا يحتاج إلى طبيب، وَأمّا العلماء بالله وَأمره فهم حياة الموجود وَروحه وَلا يُستغنى عَنْهُم طرفة عين، فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجةِ إلى التنفسِ في الهواءِ بل أعظم، وَبالجملة فـ «العلم للقلب مثل الماء للسمك» إذا فقده مات، فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها، وَكنسبة سمع الأذن للأذن، وَكنسبة كلامِ اللسانِ إليه، فإذا عدمه كان كالعين العمياءِ وَالأذن الصّماءِ وَاللّسانِ الأخرسِ، وَلهذا يصفُ سُبْحَانَهُ أهل الجهل بالعمى وَالصّم وَالبكم، وَذلك صفةُ قلوبِهم حيث فقدت العلم النافع فبقيت

على عماها وَصممها وَبكمها، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٢]، وَالمراد عمى القلب في الدنيا.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ [الإسراء: ٩٧].

لأنهم هكذا كانوا في الدنيا، وَالعبد يُبْعَثُ على ما مات عليه.

واختُلف في هذا العمى في الآخرة.

فقيل: هو عمى البصيرة، بدليل إخباره تَعَالَى عَنْ رؤية الكفار ما في القيامة وَرؤية الملائكة وَرؤية النار.

وَقيل: هو عمى البصر، ورجح هذا بأن الإطلاق ينصرف إليه، وَبقوله: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥﴾ [طه: ١٢٥].

وَهذا عمى العين، فَإِنَّ الكافر لم يكن بصيرًا بحجته، وَأجاب هؤلاء عَنْ رؤية الكفار في القيامة بأن الله يخرجهم من قبورهم إلى موقف القيامة بصراء، وَيحشرون من الموقف إلى النار عميًا[(١)].

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٢١).

أَوَّلًا: مَرَضُ الشُّبُهَاتِ

وهو أشدّهما فتكًا وَهلاكًا للقلب، إذ هو يحيل بسير العبد، وَيعسر عليه طرق النَّجاة، وَيمنعه من سيره إلى ربه وَمولاه، وَصاحبه إما أن تتلبس به شعبة من الكفر، أَوْ شعبة من النِّفاق، أَوْ البدعة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور: ٤٨ ـ ٥٠].

فقد جمع في هذا المرضِ مرضَ الجهلِ وَالشُّبهةِ، وأسوقُ منه مثالًا وهو البدعة إذ هي البداية لكل مرض شبهة زاد أم قل:

• اَلْبِدْعَةُ:

وَالْبِدْعَةُ: بدَع الشيءَ يَبْدَعُه بَدْعًا، وابْتَدَعَه: أَنشأَه وبدأَه، وبدَع الرَّكِيّة: اسْتَنْبَطها وأَحدَثها، والبَدِيعُ والبِدْعُ الشيء الذي يكون أَوّلًا، والبِدْعةُ: الحَدَث وما ابْتُدِعَ من الدِّينِ بعد الإِكمال(١).

وَأصل هذه الكلمةِ من الاختراع، وَهو الشيءُ الذي يحدث من غير أصلٍ سابقٍ وَلا مثال احتذي وَلا أُلف مثله، وَمنه قولهم: أبدعَ الله الخلقَ، أي

(١) «لسان العرب» مادة: «بدع».

خلقهم ابتداءًا، وَمنه قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] أي لم أكن أول رسول إلى أهل الأرض. وَهذا الاسم يدخل فيما تخترعُه القلوب، وَفيما تنطق به الألسنة وَفيما تفعله الجوارح(١).

والبِدْعَةُ في الشَّرعِ تُطْلَقُ عَلَى مُقَابِلِ السُّنَّةِ، «وَهِيَ مَا لَمْ تَكُنْ فِي عَهْدِهِ ﷺ».

تَقْسِيمُ البِدْعَةِ:

بدعةٌ حقيقيةٌ: هي التي لا يدل عليها دليلٌ شرعي لا من كتاب وَلا سنة وَلا إجماع.

ومن أمثلتها: تحريم الحلال، وَتحليل الحرام، استنادًا إلى شبهةٍ وَبدون عذرٍ شَرعي، أَوْ قصدٍ صحيحٍ.

فقد أخرج البُخَارِيّ في صَحِيحه عَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: «كُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَلَيْسَ مَعَنَا نِسَاءٌ، فَقُلْنَا: أَلَا نَخْتَصِي؟ فَنَهَانَا عَنْ ذَلِكَ فَرَخَّصَ لَنَا بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ نَتَزَوَّجَ الْمَرْأَةَ بِالثَّوْبِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧]»(٢).

وروى البُخَارِيّ عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ ﷺ قَالَ: «دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ أَحْمَسَ يُقَالُ لَهَا: زَيْنَبُ فَرَآهَا لَا تَكَلَّمُ، فَقَالَ: مَا لَهَا لَا تَكَلَّمُ؟ قَالُوا: حَجَّتْ مُصْمِتَةً. قَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ، هَذَا مِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَتَكَلَّمَتْ فَقَالَتْ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: امْرُؤٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ»(٣).

ومن أمثلتها: اختراعُ عبادةٍ ما أنزلَ الله بها من سلطانٍ، كالزيادةِ في الصَّلاةِ، أَوْ النقص، أَوْ الصَّلاةُ بغير طهارة، أَوْ بطهارةٍ ناقصةٍ، أَوْ بإحداث

---

(١) «الحوادث وَالبدع» للطرطوشي.

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٤٦١٥).

(٣) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٣٨٣٤).

زيادةٍ فيها، أَوْ إنكارِ الاحتجاج بالسنة، أَوْ تقديمِ العقلِ على النقلِ وَجعلِه أصلًا وَالشرع تابعاً، أَوْ كحال بعض زعماء المتصوفة من القول بارتفاع التكاليفِ عند الوصول إلى مرحلةٍ معينةٍ من التجردِ، مع بقاءِ العقلِ وَشرط التكاليف فلا تجبُ عند ذلك طاعاتٌ، وَلا تحرم محرمات، وَإنما الأمر على حسب الهوى وَالرغبات، وَإشباعِ الشهوات.

هذه نماذج من البدع الحقيقية التي يخترعها أصحابها من عند أنفسهم.

بدعة إضافية: وَأما البدعة الإضافية، فلها جانبان:

١ - جانب مشروع، وَلكن المبتدع يُدْخل على هذا الجانب المشروع أمرًا من عند نفسه فيخرجها عَنْ أصل مشروعيتها بعمله هذا، وَأكثر البدع المنتشرة عند النّاس من هذا النوع.

ومن أمثلتها: الصوم، الذّكْرُ، الطّهارة، وَإسباغ الوضوء على المكاره، الصَّلاةُ، هذه عبادات مشروعة أمر بها الشّارعُ وَحث عليها. فإقامتُها على طريقةٍ مخالفةٍ يُعُّد بدعة كصيام الدهرِ، أَوْ في الذكر من الالتزام بكيفياتٍ وَهيئاتٍ معينة، كالاجتماع على صوتٍ وَاحدٍ، أَوْ الالتزام بعبادات معينة في أوقاتٍ معينة، من غير أن يوجد لها ذلك التعيين في الشَّريعة، كصيام يوم النصف من شعبان وَقيامه.

وفي الطَّهارة: كأن يكون عند شخصٍ ماءٌ ساخنٌ، وَماءٌ بارد شديد البرودة، وَفي أيامٍ شديدة البرد، فيترك الماء السَّاخن وَيأخذ بالطريق الأصعب؛ فيأخذ الماء الشديد البرودة، وَهذا تشديد على النفس فلم يُعطها حقَّها.

فهذه العبادات: الصوم، وَالذكر، وَالصَّلاة، وَالطهارة، كُلّها عباداتٌ مشروعة، أمر بها الشارع وَرغب فيها وَحث عليها وَبين جزيلَ ثوابها، وَلكن هذه الكيفيات وَالهيئات التي أدخلت عليها عمل لا دليل عليه من الشارعِ، وَالبدعةُ في الدين كيفما كانت صفتُها فهي استدراكٌ على الشرعِ وَافتِياتٌ عليه، وَالله ﷻ يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣].

عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحمن قَالَ: «كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَبْلَ صَلاةِ الْغَدَاةِ، فَإِذَا خَرجَ مَشَيْنَا مَعهُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ فَقَالَ: أَخَرجَ إِلَيْكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَعْدُ؟ قُلْنَا: لَا، فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرجَ، فَلَمَّا خَرجَ قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعًا، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ آنِفًا أَمْرًا أَنْكَرْتُهُ، وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ للهِ إِلَّا خَيْرًا. قَالَ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: إِنْ عِشْتَ فَسَتَرَاهُ، قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْمًا حِلَقًا جُلُوسًا يَنْتَظِرُونَ الصَّلاة، فِي كل حَلْقَةٍ رَجُلٌ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حَصًى فَيَقُولُ: كَبِّرُوا مِائَةً، فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً، فَيَقُولُ: هَلِّلُوا مِائَةً، فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً، وَيَقُولُ: سَبِّحُوا مِائَةً فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً. قَالَ: فَمَاذَا قُلْتَ لَهُمْ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئًا انْتِظَارَ رَأْيِكَ أَوِ انْتِظَارَ أَمْرِكَ. قَالَ: أَفَلَا أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ. ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلْقَةً مِنْ تِلْكَ الْحِلَقِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَصًى نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ. قَالَ: فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ، وَيْحَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَسْرَعَ هَلَكَتِكُمْ، هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبْلَ وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ، وَالَّذِي نَفْسِي فِي يَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ، أَوَ مُفْتَتِحِي بَابِ ضَلَالَةٍ. قَالُوا: وَاللهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْخَيْرَ. قَالَ: وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَدَّثَنَا: أَنَّ قَوْمًا يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَأَيْمُ اللهِ مَا أَدْرِي لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ. ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُم، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلِمَةَ: رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الْحِلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ»[١].

ومنها بدعة المولد: فَإِنَّ محبة النَّبِيِّ ﷺ وَاجبةٌ على كل مسلمٍ، وَلا يتم إيمانُ المسلم حتى يكونَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أحبَّ إليه من النفسِ فما دونها. كما في صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ

(١) حسن: رَوَاهُ الدارمي (٢٠٤).

حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(١).

ولكن محبتَه هي طاعتُه وَمتابعتُه، أي امتثالُ أمره، وَاجتنابُ نهيه، وَقد نهى عَنْ البدع وَحذر منها.

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢).

ولم يثبتْ عنه وَلا عَنْ خلفائه، وَلا عَنْ الصّحابة، وَلا علماءِ السُّنةِ المتبوعينَ مَنْ عَمِلَ مولدًا، وَإنما هذا المولدُ أحدثه الفاطميون العُبيديون الرّافضة؛ الذين يرجعون إلى المدعي النّسب الفاطمي وَهو يهودي من سلمية(٣).

فمن أخلص أعماله لله، متبعًا في ذلك رَسُول اللهِ ﷺ، فهذا الذي عملُه مقبولٌ، وَمن فقد الإخلاص، وَالمتابعة لرَسُول اللهِ ﷺ، أَوْ أحدَهما فعملُه مردودٌ داخل في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

ومن جمع الأمرين فهو داخل في قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

وفي قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢].

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (١٥)، ومسلم (٤٤). (٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٧١٨).

(٣) هو: أبو تميم معد بن المنصور إسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن المهدي عبيد الله العبيدي الفاطمي المغربي، الملقب بالمعز لدين الله، والذي تنسب إليه القاهرة المعزية.

مولده: بالمهدية في يوم الاثنين حادي عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة.

وبويع بالخلافة في الغرب يوم الجمعة التاسع والعشرين من شوال سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة بعد موت أبيه، اسم جد الخلفاء المصريين سعيد، ويلقب بالمهدي، وكان أبوه يهوديًا حدادًا بسلمية. «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» لابن تغري بردي (١/ ٤١٢).

فحديث عمر رضي الله عنه: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[1] ميزان للأعمال الباطنة.

وَحديث عائشة رضي الله عنها: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ميزان للأعمال الظاهرة.

فهما حديثان عظيمان يدخلُ فيهما الدينُ كلُّه: أصولُه، وَفروعُه، ظاهرُه وَباطنُه، أقوالُه، وَأفعالُه[2].

والبدعةُ آفةٌ في طريقِ الاتباع، فمهما ادعى العبدُ المحبةَ وَالإخلاصَ، فالطرق أمامه مسدودة، حتى يدخل من باب الاتباع، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

فجعل الله سبحانه وتعالى شرط المحبة الاتباع.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: «إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»[3].

فالسائر إِلَى اللهِ سبحانه وتعالى لابد له من مراحل يقطعها، فَإِن قطعها لاح له الطريق وَبان، وَهذه المراحل عليها أبواب:

البَابُ الأَوَّلُ: بَابُ الإِخلاصِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢ ـ ٣].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[4].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «بهجة قلوب الأبرار وَقرة عيون الأخيار» للسعدي ص(١٠).

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٨٦٧). (٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٩٨٥).

والباب الثاني: المتابعة:

لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

وَعَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ؛ أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ، وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنْ السَّبُعِ، وَلَا لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ، فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ»(١).

والباب الثالث: متابعة الصحابة في فهم الكتاب وَالسنة:

لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

فهنا جعل ﷻ متابعةَ الصحابةِ من علاماتِ صحةِ الطريقِ.

عَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ ﷺ قَالَ: «وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً؛ ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ؛ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»(٢).

وقد جاء في ذمِّ البدعةِ نصوصٌ كثيرةٌ من الكتاب وَالسنة، وَحذر منها الصحابةُ وَالتابعون لهم بإحسان:

---

(١) صحيح: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٦٠٤)، وقال الشيخ الألباني: صحيح. وَرَوَاهُ أَحْمَدُ (٤/ ١٣٠).

(٢) صحيح: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٦٠٧). قال الشيخ الألباني: صحيح.

أولًا: من القرآن:

قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧].

وَقال ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فالصِّراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعا إليه، وَهو السُّنة، وَالسبل هي سبل أهل الاختلاف الحائدين عَنْ الصِّراط وَهم أهل البدع، فهذه الآية تشمل النهي عَنْ جميع طرق البدع.

وَقال ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل: ٩]، فالسّبيل القصد: هو طريق الحق، وَما سواه جائرٌ عَنْ الحق: أي عادل عنه، وَهي طرق البدع وَالضلالاتِ.

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وَهؤلاء هم أصحابُ الأهواءِ، وَالضلالاتِ، وَالبدع من هذه الأمة.

وَقال ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١ ـ ٣٢].

وَقال ﷻ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقال ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥].

وَقَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]، ـ وَالله ﷻ أعلم ـ[1].

---

(١) انظر: «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٧٠ ـ ٩١).

ثانيًا: من السُّنة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»(١).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَسُول اللهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلَا صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ، وَيَقُولُ: بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ - وَيَقْرِنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَيَقُولُ: - أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ. وَخَيْرَ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(٢).

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: «أيها النّاس إنما أنا مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بمبتَدِع، فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ زغت فقوِّموني»(٣).

وَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ﷺ: «إياكُم وَأَصْحَابَ الرَّأيِ فإنهم أعداءُ السُّنن أعيتهم الأحاديثُ أن يحفظوها؛ فقالوا بالرّأي فضلُّوا وَأضلُّوا»(٤).

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُوْدٍ ﷺ: «اتَّبِعوا وَلا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفِيتم، كُلُّ بَدْعَةٍ ضَلالَةٌ»(٥).

كَتَبَ عُمَرُ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللهُ إِلَى رَجُلٍ فقال: «أَمَّا بَعْدُ، أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ، وَالِاقْتِصَادِ فِي أَمْرِهِ، وَاتِّبَاعِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَتَرْكِ مَا أَحْدَثَ

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٧٤). (٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٨٦٧).

(٣) «الطبقات الكبرى» (٣/ ١٣٦).

(٤) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة وَالجماعة» (١/ ١٣٩)، وَالدارمي في سننه (١٢١)، وَابن عبد البر في «جامع بيان العلم وَفضله» (٢/ ١٠٤١).

(٥) أخرجه ابن وَضاح في ما جاء في البدع، ص(٤٣)، برقم (١٤، ١٢)، وَالطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٥٤)، وَقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨١): «ورجاله رجال الصحيح»، وَأخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة وَالجماعة» (١/ ٩٦).

الْمُحْدِثُونَ بَعْدَ مَا جَرَتْ بِهِ سُنَّتُهُ»(١).

وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «لا يَصِحُّ القَوْلُ إِلَّا بِعَمَلٍ، وَلا يَصِحُّ قَوْلٌ وَعَمَلٌ إِلَّا بِنِيَّةٍ، وَلا يَصِحُّ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنيةٌ إلا بالسُّنة»(٢).

وَقَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللهُ: «حُكْمِي في أَصْحَابِ الكَلامِ أَنْ يُضْرَبوا بالجرِيد، وَيُحمَلوا على الإبل، وَيطافُ بهم في العَشَائرِ وَالقَبائِلِ، وَيقالُ: هذا جَزاءُ مَنْ تَرَكَ الكِتَابَ وَالسُّنة وَأخذَ فِي الكَلَامِ»(٣).

وَقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ ابتدَعَ فِي الإِسْلام بِدْعَةً يَرَاها حَسَنَةً فَقَدْ زَعَمَ أَنَّ محمدًا ﷺ خَانَ الرِّسَالة؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فَمَا لم يكن يَوْمَئِذٍ دِينًا، فَلا يَكُونُ اليَوْمَ دِينًا»(٤).

وَقالَ الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللهُ: «أُصُولُ السُّنة عندنا التمسُّك بما كان عليه أصْحابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَالاقتداءُ، وَترْكُ البِدَعِ، وَكلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَترْكُ الخصُوماتِ وَالجلُوسِ مَعَ أَصْحَابِ الأهواءِ، وَترْكُ المراءِ وَالجِدالِ وَالخصوماتِ في الدِّين»(٥).

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ: «بَلَغَنِي أَنَّ أَوَّلَ الدِّينِ تَرْكًا: السُّنَّةُ. يَذْهَبُ الدِّينُ سُنَّةً سُنَّةً، كَمَا يَذْهَبُ الْحَبْلُ قُوَّةً قُوَّةً».

وعَنْ حَسَّانَ بْنِ عَطِيّة قَالَ: «مَا ابْتَدَعَ قَوْمٌ بِدْعَةً فِي دِينِهِمْ إِلَّا نَزَعَ اللهُ مِنْ سُنَّتِهِمْ مِثْلَهَا ثُمَّ لَا يُعِيدُهَا إِلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(٦).

«كَان عَبْدُ الله بن الحسن يُكْثِرُ الجلُوسَ إلى رَبِيعةَ قَالَ: فَتَذَاكَرُوا يومًا

---

(١) صحيح: سنن أبي داود، كتاب السنة، باب لزوم السنة، برقم (٤٦١٢)، وَانظر: «صحيح سنن أبي داود» للألباني (٣/ ٨٧٣).

(٢) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنة وَالجماعة» (١/ ٦٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١١٦).

(٤) «الاعتصام» للإمام الشاطبي (١/ ٦٥).

(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة وَالجماعة» للالكائي (١/ ١٧٦).

(٦) إسنادهما صحيح: رواهما الدارمي (٩٨ ـ ٩٩).

السُّنَن، فَقَالَ رَجُلٌ كَانَ فِي المجلِسِ: ليس العملُ عَلى هذا. فَقَالَ عبد الله: أَرَأَيْتَ إِنْ كَثُرَ الجهالُ حَتَّى يَكُونُوا هُمْ الحكَّامُ أَفَهُمُ الحجَّةُ عَلَى السُّنّة؟ فَقَالَ رَبِيعَةُ: أَشْهَدُ أَنَّ هَذَا الكَلَامَ كَلامُ أَبْنَاءِ الأَنْبِياءِ»[1][2].

وقد تجمعُ البدعة آفة أخرى كحبِّ ظُهُورٍ وشهوةٍ خفية؛ فتقضي على العبد وتهلكه.

عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه: «يُفْتَحُ الْقُرْآنُ عَلَى النّاس حَتَّى تَقْرَأَهُ الْمَرْأَةُ وَالصَّبِيُّ وَالرَّجُلُ، فَيَقُولُ الرَّجُلُ: قَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فَلَمْ أُتَّبَعْ، وَاللهِ لأَقُومَنَّ بِهِ فِيهِمْ لَعَلِّي أُتَّبَعُ، فَيَقُومُ بِهِ فِيهِمْ فَلَا يُتَّبَعُ، فَيَقُولُ: قَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فَلَمْ أُتَّبَعْ، وَقَدْ قُمْتُ بِهِ فِيهِمْ فَلَمْ أُتَّبَعْ لأَحْتَظِرَنَّ فِي بَيْتِي مَسْجِدًا لَعَلِّي أُتَّبَعُ، فَيَحْتَظِرُ فِي بَيْتِهِ مَسْجِدًا فَلَا يُتَّبَعُ، فَيَقُولُ: قَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فَلَمْ أُتَّبَعْ، وَقُمْتُ بِهِ فِيهِمْ فَلَمْ أُتَّبَعْ، وَقَدِ احْتَظَرْتُ فِي بَيْتِي مَسْجِدًا فَلَمْ أُتَّبَعْ، وَاللهِ لآتِيَنَّهُمْ بِحَدِيثٍ لَا يَجِدُونَهُ فِي كِتَابِ اللهِ، وَلَمْ يَسْمَعُوهُ عَنْ رَسُول اللهِ لَعَلِّي أُتَّبَعُ، قَالَ مُعَاذٌ: فَإِيَّاكُمْ وَمَا جَاءَ بِهِ فَإِنَّ مَا جَاءَ بِهِ ضَلَالَةٌ»[3].

ولذلك فَإِنَّ البِدْعَةَ قَرِينَةُ الشِّرْكِ، فَفِي كتابِ اللهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

فالإثم وَالبغي قرينان، وَالشِّرك وَالبدعة قرينان.

ولهذا اشتد نكيرُ السَّلفِ وَالأئمةِ لها، وَصاحوا بأهلها من أقطارِ الأرضِ وَحذروا فتنتَهم أشدَّ التحذير، وَبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثلَه في إنكار الفواحش وَالظلم وَالعدوان إذ مضرةُ البدعِ وَهدمُها للدين وَمنافاتُها له أشدُّ.

---

(١) الخطيب «الفقيه وَالمتفقه» (١٤٢٨).

(٢) ينظر المزيد من كتابي: «العبادة واجتهاد السلف فيها» ص(٣٧).

(٣) إسناده صحيح: رَوَاهُ الدارمي (٢٠٥).

ثَانِيًا: مَرَضُ الشَّهَوَاتِ

وأمَّا مرضُ الشَّهوةِ فهو اتباعُ ما تهوى النفوس، فهو تعلق النفس بما يضرُّها، وَقد يعظم فيتحولُ إلى بغض ما ينفعُها، ففي قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢].

أي لا تُلِنَّ في الكلام فيطمعَ الذي في قلبه فجور وَزِنا، قالوا: وَالمرأة ينبغي لها إذا خاطبت الأجانبَ أن تغلظ كلامَها وَتقويه وَلا تلينه وَتكسره، فَإِنَّ ذلك أبعدُ من الريبة وَالطمع فيها، وَقد يجتمعُ المرضان على العبد فيكون هلاكُه هلاكًا ليس بعده نجاةٌ إلا من رَحِمَهُ اللهُ، قَالَ تَعالَى: ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣].

وأسوق منها مثالًا وهي المعصيةُ إذ هي بدايةُ كل شهوةٍ زادت أم قلَّت:

اَلْمَعْصِيَةُ:

العِصْيانُ: خِلافُ الطَّاعَة. عَصى العبدُ ربَّه: إذا خَالَف أَمْرَه، وَعصى فلانٌ أَميرَه يَعْصِيه عَصْيًا وَعِصْيانًا وَمَعْصِيَةً: إذا لم يُطِعْهُ، فهو عاصٍ وَعَصِيٌّ(١).

فالمعاصي مِنْ أَشَدِّ أعمالِ القلوبِ خطرًا وَمن أعظمِها هلاكًا، إذ المعاصي تبدأ بالهجوم على القلبِ قطرةً قطرةً ثم سَرعان ما تتعاظمُ حتى تُهلِكَ القلبَ.

---

(١) «لسان العرب» باب: «عصو».

عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»(١).

فهي سَبَبُ فَسَادِ الدّنيا وَالدّين، وَهي سبب زوالِ النّعم وَهلاكِ الأمم، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾ [المزمل: ١٦].

فما أَخرجَ الأبوانِ مِنْ الجنة إلا المعصيةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾ [طه: ١٢١].

ولها أثر عظيمٌ على توحيدِ العبدِ وَسيره إِلَى اللهِ تَعَالَى فقد أمر الله تَعالَى نبيه ﷺ بعد التّوحيد؛ بالمواظبة على الاستغفار من الذنوب، كما قَالَ تعالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ۝١٩﴾ [محمد: ١٩].

وبقدر التهاونِ بالذنبِ بقدرِ ما يقعُ في قلبِ العبدِ من فسادٍ وعطبٍ.

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ الْمُوبِقَاتِ»، الْمُوبِقَاتِ هي: الْمُهْلِكَاتِ(٢).

عَنْ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٤٤).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيّ (٦٤٩٢).

يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا» قَالَ أَبُو شِهَابٍ: بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ»(١).

بل إن الأَمْرَ أَشَدُّ وَأخطرُ، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكُهُ»(٢).

وَفي روايةٍ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ»(٣).

وقد ذكر أهلُ العلم أن الصّغيرةَ قد يقترن بها من قلةِ الحياءِ، وَعدمِ المبالاةِ، وَتركِ الخوفِ من اللهِ مع الاستهانةِ بها ما يُلحقُها بالكبائر بل يجعلُها في رتبتها، وَلأجل ذلك: «لا صَغِيرَة مَعَ الإِصْرَارِ، وَلا كبيرة مع الاستغفار».

ونقول لمن هذه حاله: «لا تنظر إلى صغر المعصية، وَلكن انظر إلى من عصيت».

وقد بيَّن سبحانه وتَعَالَى في غيرِ موضعٍ من كتابه على أن من عصاه لا يعقل. قَالَ اللهُ تَعَالَى حاكيًا عَنْ قوم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠].

ثم قَالَ تَعَالَى مصدقًا لهم: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١١].

وحدُّ الحمقِ؛ استعمالُ المعاصي وَالرذائلِ.

فائدة: وأما إحكامُ أمرِ الدُّنيا وَالتوددُ إلى النَّاس بما وَافقهم وَصلحت عليه حال المتودد من باطلٍ أَوْ غيرِه أَوْ عيبٍ أَوْ ما عداه، وَالتحيّلُ في إنماء المال، وَبُعد الصّيت، وَتثبيتِ الجاه بكل ما أمكن من معصيةٍ وَرذيلةٍ فليس

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٦٣٠٨).

(٢) حسن: رَوَاهُ أَحْمَدُ (٥/ ٣٣١).

(٣) حسن: رَوَاهُ أَحْمَدُ (١/ ٤٠٢).

عقلًا. وَلقد كان الذين ذكرهم الله بأنهم لا يعقلون، سائسين لدنياهم، مثمرين لأموالهم، مدارين لملوكهم، حافظين لرياستهم. لكن هذا الخلقَ يسمَّى الدهاءُ، وَضِده العقلُ وَالسّلامةُ. وَأمّا إذا كان السّعي فيه تَصاونٌ وَأنَفَةٌ فهو: الحزم، وَضِدّه المنافي له التضييع. وَأما الوقارُ وَوضع الكلام موضعَه وَالتوسطُ في تدبير المعيشة وَمسايرة النّاس بالمسالمة؛ فهذه الأخلاقُ تسمى الرّزانة، وَهي ضد السّخف.

الذُّنوبُ تَنْقَسِمُ إِلَى كَبَائِرَ وَصَغَائِرَ:

فالكبائر: ما نهى الله وَرسوله عنه في الكتابِ وَالسنةِ؛ وَالأثرِ عَنْ السَّلف الصَّالحين، والصغائرُ ما دون ذلك، وَقد ضَمِنَ الله تَعَالَى في كتابِه العزيزِ لمن اجتنب الكبائر وَالمحرمات أن يكفر عنه الصغائر من السيئات لقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١].

فقد تكفل الله تَعَالَى بهذا النصِ لمن اجتنب الكبائرَ أن يدخلَه الجنة.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورى: ٣٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾ [النجم: ٣٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»(١).

فتعين علينا الفحص عَنْ الكبائر ما هي؟ لكي يجتنبَها المسلمون، فوجدنا العلماءَ رحمهم الله تَعَالَى قد اختلفوا فيها: فقيل: هي سبع. وَاحتجوا بقول النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»(٢).

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٣٣).
(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيّ (٢٧٦٦).

فذكر منها: «الشِّرك بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»(١).

وَأما الحديث فما فيه حصر الكبائر، وَالذي يتجه وَيقوم عليه الدّليل أن من ارتكب شيئًا من هذه العظائم مما فيه حد في الدنيا كالقتل، وَالزنا، وَالسرقة، أَوْ جاء فيه وَعيد في الآخرة من عذابٍ، أَوْ غضبٍ، أَوْ تهديدٍ، أَوْ لُعن فاعلُه على لسان نبينا محمد ﷺ فَإِنَّهُ كبيرة، وَلا بد من التسليم أن بعض الكبائر أكبرُ من بعض، ألا ترى أَنَّهُ ﷺ عد الشِّركَ بالله من الكبائر مع أن مرتكبه مخلدٌ في النار وَلا يُغفرُ له أبدًا، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، ويغفر الله دون الشِّرك لمن يشاء.

فإن من أجَلِّ مراتب العبودية: الاستسلامَ الكامل لله ﷻ وإقرارَ العبد أن الله ﷻ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

وأنه ﷻ ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وأنه ﷻ ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ [آل عمران: ١٢٩].

التِحَاقُ الكَبِيرةِ بالصَّغِيرةِ والعَكْس:

فالله ﷻ قد يغفر لهذا بفضله ورحمته، ويعذب هذا بعدلِه وحكمتِه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وههنا أمر ينبغي التفطن له:

وَهو: أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء، وَالخوف وَالاستعظام لها ما يلحقها بالصّغائر.

وَقد يقترن بالصّغيرة من قلةِ الحياء، وَعدمِ المبالاة، وَتركِ الخوف، وَالاستهانةِ بها ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رتبها.

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٢٧٦٦)، مُسْلِمٌ (٨٩).

وَهذا أمر مرجعُه إلى ما يقوم بالقلب، وَهو قدرٌ زائدٌ على مجرد الفعل، وَالإنسان يعرف ذلك من نفسه وَمن غيرِه، وَأيضا فَإِنَّهُ يعفى للمحب وَلصاحب الإحسان العظيم ما لا يعفى لغيره، وَيسامح بما لا يسامحُ به غيرُه.

وَسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «انظر إلى موسى صلوات الله وَسلامه عليه:

- رمى الألواحَ التي فيها كلامُ اللهِ؛ الذي كتبه بيده فكسرها.
- وَجرَّ بلحيةِ نبي مثله - وَهُو هارون -.
- وَلطَمَ عين ملك الموت ففقأها.
- وَعاتبَ ربه ليلة الإسراء في محمّد، وَرَفعه عليه.

وَربُّه تَعالَى يحتمل له ذلك كُلَّه وَيحبه، وَيُكرمه، ويتجاوز عنه؛ لأنه قام لله تلك المقاماتِ العظيمةَ في مقابلةِ أعدى عدوٍّ له، وَصدَعَ بأمره، وَعالج أُمَّتَيِ القبط وَبني إسرائيل أشَدَّ المعالجة، فكانت هذه الأمورُ كالشعرةِ في البحر.

وَانظر إلى يُونس بن متَّى حيث لم يكن له هذه المقاماتُ التي لموسى؛ غاضب ربه مرّة فأخذه، وَسجنه في بطن الحوت، وَلم يحتمل له ما احتملَ لموسى.

وَفرق بين من إذا أتى بذنب وَاحد وَلم يكن له مِنْ الإحسانِ وَالمحاسنِ ما يشفعُ له؛ وَبين من إذا أتى بذنبٍ جاءتْ محاسنُه بكلِّ شَفِيعٍ، كما قيل:

وَإِذَا اَلْحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعِ

فالأعمالُ تشفعُ لصاحبِها عند الله، وَتذكر به إذا وَقع في الشدائد، قَالَ تَعالَى عَنْ ذي النون: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤].

وَفرعون لَمَّا لم تكن له سابقة خير تشفع له، وَقال: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ

أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: ٩٠]، قال له جبريل: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩١].

وفي المسند عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللهِ وَتَسْبِيحِهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَهْلِيلِهِ تَتَعَطَّفُ حَوْلَ الْعَرْشِ لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ يُذَكِّرُونَ بِصَاحِبِهِنَّ، أَفَلَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ لَا يَزَالُ لَهُ عِنْدَ اللهِ شَيْءٌ يُذَكِّرُ بِهِ»(١).

ولهذا من رجَحَتْ حسناتُه على سيئاتِه أفلح وَلم يُعذب، وَوُهِبت له سيئاتُه لأجل حسناته، وَلأجل هذا يُغفرُ لصاحبِ التوحيد ما لا يغفر لصاحبِ الإشراك؛ لأنه قد قام به مما يحبه الله ما اقتضى أن يُغْفَرَ له، وَيسامحَه ما لا يسامح به المشرك، وَكلما كان توحيدُ العبدِ أعظمَ كانت مغفرةُ الله له أتم، فمن لقيه لا يشرك به شيئًا البتة غفر له ذنوبَه كُلّها كائنة ما كانت وَلم يعذبْ بها، وَلسنا نقول: إنَّه لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد بل كثير منهم يدخل بذنوبه، وَيعذب على مقدارِ جُرمه، ثم يخرجُ منها، وَلا تنافي بين الأمرين لمن أحاط علمًا بما قدمناه(٢).

نُورُ التَّوْحِيدِ وظُلْمَةُ المعصِيةِ:

ثم قَالَ ابْنُ القَيِّمِ أَيْضًا: ونزيد ههنا إيضاحًا لعظمِ هذا المقام من شدّةِ الحاجة إليه: اعلم أن أشعة «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» تبدد من ضبابِ الذنوبِ وَغيومِها بقدر قوةِ ذلك الشعاع وَضعفه، فلها نور، وَتفاوت أهلها في ذلك النور قوةً وَضعفًا لا يحصيه إلا الله تَعَالَى:

فمن النّاس: من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس.

ومنهم: من نورها في قلبه كالكوكب الدري.

(١) إسناده صحيح: رَوَاهُ أَحْمَدُ (٤/ ٢٦٨).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢٩٧).

ومنهم: من نورها في قلبه كالمشعل العظيم.

وآخر: كالسراج المضيء.

وآخر: كالسراج الضعيف.

ولهذا تظهر الأنوارُ يوم القيامة بأيمانهم وَبين أيديهم، على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نورِ هذه الكلمةِ علمًا وَعملًا وَمعرفةً وَحالًا، وَكُلَّما عظُمَ نورُ هذه الكلمةِ وَاشتد: أَحْرَقَ مَنْ الشُّبهاتِ وَالشهواتِ بحسب قوته وَشدته، حتى إنَّه ربما وَصَلَ إلى حالٍ لا يصادف معها شبهةً وَلا شهوةً وَلا ذنبًا إلا أحرقه، وَهذه حالُ الصّادقِ في توحيدِهِ الذي لم يشرك بالله شيئًا، فأيّ ذنب، أَوْ شهوةٍ، أَوْ شبهةٍ دنت من هذا النورِ أحرقها، فسماء إيمانه قد حُرِست بالنّجوم من كل سارقٍ لحسناته، فلا ينال منها السارق إلا على غرةٍ وَغفلةٍ لا بد منها للبشر، فإذا استيقظ وَعلم ما سُرق منه استنقذه من سارقِه، أَوْ حصل أضعافه بكسبِه، فهو هكذا أبدا مع لصوص الجن وَالإنس، ليس كمن فتح لهم خزانته، وَولى الباب ظهره، وَليس التوحيدُ مجردَ إقرارِ العبد بأنه لا خالق إلا الله، وَأن الله ربُّ كل شيء وَمليكُه، كما كان عُبّاد الأَصْنَامِ مقرين بذلك وَهم مشركون، بل التوحيد يتضمن من محبة الله، وَالخضوعِ له، وَالذلِّ له، وَكمالِ الانقياد لطاعته، وَإخلاصِ العبادة له، وَإرادةِ وَجهه الأعلى بجميع الأقوالِ وَالأعمالِ، وَالمنعِ وَالعطاءِ، وَالحبِّ وَالبغضِ ما يحول بين صاحبه وَبين الأسبابِ الداعية إلى المعاصي وَالإصرارِ عليها، وَمن عرف هذا عرف قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»(١).

وَما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التي أَشْكلت على كثير من النّاس، حتى ظنها بعضُهم منسوخةً، وَظنها بعضُهم قيلت قبل ورود الأوامر وَالنواهي وَاستقرار الشرع، وَحملها بعضهم على نار المشركين وَالكفار، وَأَوَّلَ بعضُهم الدخولَ بالخلود، وَقال: المعنى لا يدخلها خالدًا وَنحو ذلك من

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٤٢٥)، ومسلم (٣٣).

التأويلات المستكرهة، وَالشارع صلوات الله وَسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلًا بمجرد قولِ اللسانِ فقط، فَإِنَّ هذا خلافُ المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فَإِنَّ المنافقين يقولونها بألسنتهم وَهم تحت الجاحدين - أي الكفار - لها في الدرك الأسفل من النار، فلا بد من قول القلب، وَقول اللسان، وَقولُ القلب: يتضمن من معرفتها وَالتصديق بها، وَمعرفةِ حقيقةِ ما تضمنته من النفي وَالإثبات، وَمعرفةِ حقيقة الإلهية المنفية عَنْ غير الله والمختصةِ به التي يستحيل ثبوتها لغيره، وَقيامِ هذا المعنى بالقلب علمًا وَمعرفةً وَيقينًا وَحالًا ما يوجب تحريمَ قائِلها على النار، وَكل قول رتَّب الشارع ما رتب عليه من الثواب فإنما هو القول التام كقوله: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»(١).

وليس هذا مرتبًا على مجرد قول اللسان، نعم؛ من قالها بلسانه غافلًا عَنْ معناها، معرضًا عَنْ تدبرها، وَلم يواطىء قلبُه لسانَه وَلا عرف قدرها وَحقيقتها، راجيًا مع ذلك ثوابها حطت من خطاياه بحسب ما في قلبه، فَإِنَّ الأعمال لا تتفاضل بصورها وَعددها، وَإنما تتفاضلُ بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين وَاحدة، وَبينهما في التفاضل كما بين السماء وَالأرض، وَالرجلان يكون مقامهما في الصف وَاحدًا؛ وَبين صلاتيهما كما بين السماء وَالأرض.

وتأملْ حديث البطاقةِ التي توضع في كفة وَيقابلها تسعة وَتسعون سجلًا كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وَتطيش السجلات فلا يعذب، وَمعلوم أن كلَّ موحدٍ له مثل هذه البطاقةِ، وَكثيرٌ منهم يدخل النار بذنوبه، وَلكن السرَّ الذي ثقَّل بطاقة ذلك الرجل وَطاشت لأجله السجلات لما لم يحصلْ لغيره من أربابِ البطاقات، انفردت بطاقته بالثقل وَالرزانة؟ وَإِذَا أردت زيادة الإيضاح لهذا المعنى؛ فانظر إلى ذكر من قلبه ملآن بمحبتك، وَذكر من هو معرض عنك غافلٌ ساهٍ مشغولٌ بغيرك، قد انجذبت دواعي قلبه إلى محبة غيرك،

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيّ (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١).

وَإيثارِه عليك هل يكون ذكرُهما وَاحدًا؟ أم هل يكون وَلداك اللذان هما بهذه المنزلة، أَوْ عبداك، أَوْ زوجتاك عندك سواء؟.

وتأملْ ما قام بقلب قاتلِ المائة من حقائق الإيمان؛ التي لم تشغله عند السياق عَنْ السير إلى القرية، وَحملته وَهو في تلك الحال على أن جعل ينوء بصدره وَيعالج سكراتِ الموتِ، فهذا أمر آخر وَإيمان آخر، وَلا جرم أن أُلحق بالقرية الصالحة وَجُعل من أهلها.

وقريب من هذا: ما قام بقلبِ البَغِي التي رأت ذلك الكلب؛ وَقد اشتد به العطش يأكلُ الثَّرى، فقام بِقَلْبِها ذلك الوقتِ مع عدم الآلةِ، وَعدم المعين، وَعَدَمِ مَنْ تُرَائِيه بعملها؛ ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر، وَملءِ الماء في خفها، وَلم تعبأْ بتعرضها للتلف، وَحملِها خفَّها بفيها وَهو ملآن حتى أمكنها الرّقي من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادةُ النّاس بضربه، فأمسكت له الخفَّ بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاءً وَلا شُكورًا، فأحرقت أنوارُ هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء، فغُفر لها، فهكذا الأعمالُ وَالعمالُ عند الله، وَالغافلُ في غفلةٍ من هذا الإكسير الكيماوي الذي إذا وُضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهبًا ـ وَالله المستعان[1].

فائدة: الذي يجب على العبد أن يَعْلَمَهُ أن المعاصي حِجَابٌ عن الرَّبِّ ﷻ، وَلا يرفعها إلا التوبةُ، وَالخروجُ من المظالم، وَتصميمُ العزم على ترك العود، وَتحقيقُ النَّدم على ما مضى، وَردُّ المظالم، وَإرضاءُ الخصومِ، فَإِنَّ مَنْ لم يصححِ التَّوبةَ وَلم يهجر المعاصي الظّاهرة تكاثفت الحجبُ وحِيلَ بين العَبدِ وبين قلبه.

قِصَّة:

قَالَ مَنْصُورُ بَنُ عَمّار: «خرجت في ليلةٍ من الليالي وظننت أن النهار قد

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٢٩).

أضاء فإذا الصبح علي، فقعدت إلى دهليز مشرف فإذا أنا بصوت شاب يدعو ويبكي وهو يقول: «اللهم وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتَك، ولقد عصيتك إذ عصيتك وما أنا بنكالِك جاهل، ولا لعقوبتِك مُعْرِضٌ، ولا بنظرك مستخفٌ، ولكن سوَّلت لي نفسي فأعانتني عليها شِقْوَتي، وغرَّني سترُك المرخيُّ عليّ، فقد عصيتك وخالفتك بجهلي، فَمَنْ مِنْ عَذَابك يستنقذني؟ ومِنْ أيدي زبانيتك مَنْ يخلصني؟ وبحبل من أتصل إذا أنت قطعت حبلَك عني؟ واسوأتاه! إذا قيل للمخفين جوزوا وللمثقلين حطّوا، فيا ليت شعري مع المثقلين نحط أم مع المخفين نجوز وننجو؟! كلما طال عمري وكبر سني كثرت ذنوبي وكثرت خطاياي، فيا ويلي كم أتوب! وكم أعود! ولا أستحي من ربي».

قال منصور: فلما سمعت هذا الكلامَ وضعتُ فمي على بابِ دارِه، وقلت: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيم بِسم اللهِ الرَّحمٰن الرَّحِيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

قال منصور: ثم سمعت للصَّوت اضطرابًا شديدًا وسكن الصَّوتُ. فقلت: إن هناك بليةً فعلَّمت على الباب علامة ومضيت لحاجتي، فلما رجعت من الغد إذا أنا بجنازة منصوبةٍ وأكفانٍ تصلح وعجوزٍ تدخل الدار وتخرج باكية. فقلت: يا أمة الله من هذا الميت منك؟. قالت: إليك عني، لا تجدد عليَّ أحزاني. قلت: إني رجل غريب أخبريني. قالت: والله لولا أنك غريب ما أخبرتك، هذا ولدي، ومن زل عن كبدي، ومن كنت أظن به سيدعو لي من بعدي، كان ولدي من مَوالي رسول الله ﷺ، وكان إذا جن عليه قام في محرابه يبكي على ذنوبه، وكان يعمل هذا الخوصَ فيقسِّم كسبَه أثلاثًا: فثلث يطعمني، وثلث للمساكين، وثلث يفطر عليه، فمر علينا البارحةَ رجلٌ لا جزاه الله خيرًا؛ فقرأ عند ولدي آية فيها ذكر النار فلم يزل يضطرب ويبكي حتى مات رَحِمَهُ اللهُ(١).

(١) «حلية الأولياء» (١٠/ ١٨٩).

أُصُولُ المَعَاصِي

الذي يتأمل الكتاب والسنة يرى أن المعاصي مولدات، وأن المعصية قد تكون صغيرة ولا يزال يتدرج فيها العبد حتى تصلَ إلى الموبقات، وقد تكون كبيرةً وتنشطر وتتفرع إلى أخوات، فما من معصيةٍ إلا ولها أصولٌ وفروعٌ.

قَالَ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أُصُولُ المعاصِي كُلّها كبارها وَصغارها ثلاثة:

- تعلقُ القلبِ بغير الله.
- وَطاعةُ القوةِ الغضبية.
- وَالقوة الشهوانية.

وَهي:

- الشِّرك.
- وَالظّلم.
- وَالفواحش.

فغاية التعلّق بغير الله شِرْك، وَأن يدعى معه إله آخر.

وَغاية طاعة القوة الغضبية: القتل.

وَغاية القوة الشّهوانية: الزنا.

وَلهذا جمع الله سُبْحَانَهُ بين الثلاثة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وَهذه الثلاثة يدعو بعضُها إلى بعض:

فالشِّرك يدعو إلى الظلم وَالفواحش، كما أن الإخلاص وَالتوحيد

يصرفهما عَنْ صاحبه قَالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فالسُّوء العشق، وَالفحشاء الزِّنا.

وَكذلك الظلم يدعو إلى الشِّرك وَالفاحشة، فَإِنَّ الشِّرك أظلمُ الظلم، كما أن أعدل العدل التوحيد، فالعدلُ قرين التوحيد، وَالظلمُ قرين الشِّرك، وَلهذا يجمع سُبْحَانَهُ بينهما.

أما الأول: ففي قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٨].

وَأما الثاني: فكقوله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وَالفاحشةُ تدعو إلى الشِّرك وَالظلم، وَلا سِيما إذا قويت إرادتها، وَلم تحصل إلا بنوع من الظلم بالظلم، وَالاستعانة بالسِّحر وَالشَّيطان، وَقد جمع سُبْحَانَهُ بين الزِّنا وَالشِّرك في قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور: ٣].

فهذه الثلاثة يجر بعضها إلى بعض، وَيأمر بعضها ببعض، وَلهذا كلما كان القلب أضعفَ توحيدًا وَأعظمَ شركًا؛ كان أكثرَ فاحشةً وَأعظمَ تعلقًا بالصُّور وَعشقًا لها، وَنظير هذا قوله تَعالَى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٧].

فأخبر أن ما عنده خيرٌ لمن آمن به وَتوكل عليه؛ وَهذا هو التوحيدُ، ثم قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الشورى: ٣٧] فهذا اجتنابُ داعي القوةِ الشهوانيةِ.

ثم قَالَ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] فهذا مخالفة القوة الغضبية.

فجمع بين التوحيد، وَالعِفّة، وَالعدل التي هي جماع الخير كُلّه»[1].

فأعظم المهلكاتِ لابن آدم شهوةُ البطن، فبها أُخرج آدم عليه السلام وَحواء من دار القرارِ إلى دارِ الذُّل وَالافتقار، إذ نُهيا عَنْ الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها، فبدت لهما سوآتهما. وَالبطنُ على التحقيق ينبوع الشَّهوات، وَمنبتُ الأدواء وَالآفات، إذ يتبعها شهوةُ الفرج، وَشدةُ الشَّبق إلى المنكوحات، ثم تتبع شهوة الطَّعام وَالنكاح شدة الرغبة في الجاه وَالمال؛ اللذين هما وَسيلة إلى التوسع في المنكوحات وَالمطعومات، ثم يتبع استكثار المال وَالجاه أنواعُ الرعونات، وَضروبُ المنافسات وَالمحاسدات، ثم تتولد من ذلك باقي آفات القلب.

فالشَّهوة تضعف القلب وَتهلكه من ذنب أصغرَ إلى أكبرَ، حتى يصبح عاجزًا أن يقيم لله أمرًا، ثم تتبعها الشُّبهات التي تنحرف بالقلب إلى البدعة وَربما الشِّرك بالله، وَقد وَسم الله سُبْحَانَهُ الشِّرك، وَالزنا، وَاللواطة بالنجاسة وَالخبث في كتابه دون سائر الذنوب وَإن كانت مشتملةً على ذلك، لكن الذي وَقع في القرآن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وَقوله تَعالَى في حق اللوطية: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وَقالت اللوطية: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فأقرُّوا مع شركِهم وَكفرِهم أنهم هم الأخابث الأنجاس، وَأن لوطًا وَآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له، وَقَالَ تَعالَى في حق الزناة: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ [النور: ٢٦].

---

(١) «الفوائد» (١٠٠).

ونرى أن اللسان يعبر عن ذلك كله، فكل خسيسةٍ تعلق بها العبد يعبر عنها اللسانُ، فهو ترجمانُ كلِّ جارحةٍ في العبد وفاضحُ أمرِها.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَفَعَهُ قَالَ: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّها تُكَفِّرُ اللِّسَانَ، فَتَقُولُ: «اتَّقِ اللهَ فِينَا، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»»[1].

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: قُلْتُ: «يَا نَبِيَّ اللهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ، فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ[2] يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاس فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[3].

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ»[4].

اَلْعَجْزُ أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ:

فالعجز يقعدُ بالعبد عن كل طاعة ويجعلُه أسيرَ شهوته وهواه، فلا يتحرك إلا ما تحركه الشَّهوةُ والهوى، فَإِنَّ العبد الذي يعجز عَنْ أسباب فعل الطاعات، وَعن الأسباب التي تبعده عَنْ المعاصي وَتحولُ بينه وَبينها؛ عاجزٌ والعاجزُ فريسةٌ للشيطان، وكلما قوي العبد كلما كان الشَّيطان منه أبعد.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ

---

(١) حسن: رَوَاهُ الترمذي (٢٤٠٧)، أَحْمَدُ (٣/ ٩٥)، الطيالسي في «المسند» (٢٢٠٩)، أبو يعلى في «المسند» (١١٨٥)، «المنتخب من مسند عبد بن حميد» (٩٧٩).

(٢) الثُّكْل الموت والهلاك، والثُّكْل والثَّكَل بالتحريك فِقْدان الحبيب، وأَكثر ما يستعمل في فُقْدان المرأَة زَوْجَها، وفي المحكم أكثر ما يستعمل في فُقْدان الرجل والمرأَة وَلَدَهما. «لسان العرب» (١١/ ٨٨).

(٣) حسن: رَوَاهُ الترمذي (٢٦١٦)، ابن ماجه (٣٩٧٣)، أَحْمَدُ (٥/ ٢٣١).

(٤) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٦٤٧٤).

إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ: «قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيطان»(١).

قال الحافظ ابن رجب: «وإنَّما المتوكِّلُ حقيقةً من يعلم أنَّ الله قد ضَمِنَ لعبده رزقَه وكفايته، فيصدقُ الله فيما ضَمِنه، ويثقُ بقلبه، ويحقّقُ الاعتماد عليه فيما ضمنه من الرِّزق من غير أنْ يخرج التوكُّل مخرج الأسباب في استجلاب الرِّزق به، والرِّزق مقسومٌ لكلِّ أحدٍ من برٍّ وفاجرٍ، ومؤمنٍ وكافرٍ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

هذا مع ضعفِ كثيرٍ من الدواب وعجزها عن السَّعي في طلب الرزق، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

فما دام العبدُ حيًّا، فرزقُه على الله، وقد يُيسره الله له بكسب وبغير كسب، فمن توكَّل على الله لطلب الرِّزق، فقد جعل التوكُّلَ سببًا وكسبًا، ومن توكَّل عليه لثقته بضمانه، فقد توكَّل عليه ثقة به وتصديقًا»(٢).

وهذا كله إشارة إلى أنَّ التوكل لا يُنافي الإتيانَ بالأسباب حيث إن التوكل سبب لاعتماده على الله ﷻ في تهيئةِ أسبابِ الفعل والعونِ عليه، ولذلك يكون الشروعُ في الفعل من تمام الأسباب، وبهذا يكون جمعهما أفضلَ.

قال معاوية بن قرة: «لقي عمرُ بْنُ الخطَّابِ ناسًا مِنْ أهلِ اليمنِ، فَقَالَ: مَنْ أنتم؟ قالوا: نحن المتوكِّلون، قال: بَلْ أنتم المتواكِلون، إنَّما المتوكل الذي يُلقي حبَّه في الأرض، ويتوكَّل على الله ﷻ»(٣).

قال ابن القيم: وقال البُخَارِيّ في صحيحه: قَالَ عَمَّار: «ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ: الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ،

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٦٤). (٢) «جامع العلوم والحكم» (٤٤٢).
(٣) ذكره الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ٤٠٥).

وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ[1]»[2].

وقد تضمنت هذه الكلماتُ أصولَ الخيرِ وَفروعَه، فَإِنَّ الإنصاف يوجب عليه أداءَ حقوق الله كاملةً موفرةً، وَأداء حقوقِ النّاس كذلك، وَأن لا يطالبَهم بما ليس له، وَلا يحملهم فوقَ وسعِهم، وَيعامِلَهم بما يحب أن يعاملوه به، وَيعفيهم مما يحب أن يُعفوه منه، وَيحكم لهم وَعليهم بما يحكم به لنفسه وَعليها، وَيدخلُ في هذا إنصافه نفسه من نفسه، فلا يدعي لها ما ليس لها، وَلا يُخبِّثها بتدنيسه لها؛ وَتصغيرِه إياها؛ وَتحقيرِها بمعاصي الله، وَينميها وَيكبرُها وَيرفعُها بطاعة الله، وَتوحيده، وَحبه، وَخوفه، وَرجائه، وَالتَّوكل عليه، وَالإنابة إليه، وَإيثارِ مرضاته، وَمحابِّه على مراضي الخلق وَمحابهم، وَلا يكون بها مع الخلق وَلا مع الله، بل يعزلها من البين كما عزلها الله، وَيكون بالله لا بنفسه في حبه، وَبغضه، وَعطائه، وَمنعه، وَكلامِه، وَسكوته، وَمدخلِه، وَمخرجه، فينجي نفسَه من البين، وَلا يرى لها مكانةً يعمل عليها فيكون ممن ذمهم الله بقوله: ﴿اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

فالعبد المحض ليس له مكانة يعمل عليها، فَإِنَّهُ مُسْتَحِقُّ المنافعِ وَالأعمالِ لسيده، وَنفسُه ملكٌ لسيده، فهو عامل على أن يؤديَ إلى سيده ما هو مستحقٌ له عليه ليس له مكانة أصلًا، بل قد كوتب على حقوقٍ منجمةٍ كلما أدى نجمًا حل عليه نجمٌ آخر، وَلا يزال المكاتب عبدًا ما بقي عليه شيء من نجوم الكتابة.

والمقصود أن إنصافه من نفسه يوجب عليه معرفة ربه، وَحقه عليه، وَمعرفة نفسه، وَما خلقت له، وَأن لا يزاحمَ بها مالكَها وَفاطرها، وَيدعي لها الملكة وَالاستحقاق، وَيزاحمُ مراد سيده وَيدفعُه بمراده هو، أَوْ يقدمه وَيؤثره

(١) «الْإِنْصَافُ»: العدل وإعطاء الحق لصاحبه. «بَذْلُ السَّلَامِ»: إعطاؤه أي إلقاؤه على من يلقاه. «الْإِقْتَارِ»: الافتقار.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيّ تعليقًا تحت بَاب: «إِفْشَاءُ السَّلَامِ مِنَ الْإِسْلَامِ»، ووصله عبد الرزاق في «المصنف» (١٩٤٣٩).

عليه، **أَوْ** يقسم إرادته بين مراد سيده وَمراده، وَهي قِسْمَةٌ ضِيزَى مثل قسمة **الذين قالوا:** ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦].

فلينظرِ العبد لا يكون مِنْ أهل هذه القسمة بين نفسه وَشركائِه وَبين الله؛ لجهله وَظلمه؛ وَإلا لبس عليه وَهو لا يشعر، فَإِنَّ الإنسان خُلق ظلومًا جهولًا، فكيف يُطلب الإنصاف ممن وَصفُه الظلمُ وَالجهلُ؟ وَكيف يُنصف الخلقَ مَنْ لم ينصف الخالق؟ كما في أثر إلهي يقول الله ﷻ: «ابن آدم ما أنصفتني، خيري إليك نازل وَشرُّك إليَّ صاعد، كم أتحبب إليك بالنعم وَأنا غني عنك، وَكم تَتَبغضُ إلي بالمعاصي وَأنت فقيرٌ إلي، وَلا يزال الملكُ الكريم يعرج إليَّ منك بعملٍ قبيحٍ»(١).

وفي أثر آخر: «ابن آدم ما أنصفتني، خلقتُك وَتعبد غيري، وَأرزقُك وَتشكر سواي»(٢).

ثم كيف يُنصف غيره من لم ينصف نفسه وَظلمها أقبحَ الظلم، وَسعى في ضررها أعظم السّعي، وَمنعها أعظمَ لذاتها من حيث ظن أَنَّهُ يُعطيها إياها، فأتعبها كل التعب، وَأشقاها كل الشقاء من حيث ظن أَنَّهُ يريحها وَيسعدُها، وَجد كل الجد في حرمانها حظَّها من الله وَهو يظن أَنَّهُ يُنيلها حظوظَها، وَدسَّاها كل التدسية وَهو يظن أَنَّهُ يُكبرها وَينميها، وَحقرها كل التحقير وَهو يظن أَنَّهُ يعظمها، فكيف يُرجى الإنصافُ ممن هذا إنصافه لنفسه؟ إذا كان هذا فعلُ العبد بنفسه فماذا تراه بالأجانبِ يفعل؟!.

والمقصود أن قول عَمّار ؓ: «ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ: الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ». كَلَامٌ جَامِعٌ لأصولِ الخيرِ وَفروعه.

---

(١) «حلية الأولياء» (٤/ ٢٧).

(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ١٤٨).

وَ«بَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ»: يتضمنُ تواضعَه وَأنه لا يتكبرُ على أحدٍ، بل يبذل السَّلامَ للصغيرِ، وَالكبيرِ، وَالشريفِ، وَالوضيعِ، وَمن يعرفه، وَمن لا يعرفه، وَالمتكبرُ ضد هذا فَإِنَّهُ لا يرد السَّلامَ على كلٍّ من سلَّم عليه كبرًا منه وَتيهًا، فكيف يبذل السلام لكل أحدٍ؟!.

وأما «الْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ»: فلا يصدر إلا عَنْ قوةِ ثقةٍ بالله، وَأن الله يُخلفه ما أنفقه، وَعن قوة يقين، وَتوكلٍ، وَرحمةٍ، وَزهد في الدنيا، وَسَخاءِ نفسٍ بها، وَوثوقٍ بوعد من وَعده مغفرةً منه وَفضلًا، وَتكذيبٍ بوعد من يعده الفقر وَيأمر بالفحشاء وَالله المستعان[1].

---

(١) «زاد المعاد» (٢/٤٠٩).

مَشَاهِدُ الْخَلْقِ فِي الْمَعْصِيَةِ

لقد كرَّم الله بني آدم وفضّلهم على كثيرٍ من خلقِه، وأراد بخلقهم أن يفردوه بالعبادةِ، فكان الإنسانُ في أجملِ صورةٍ وأعظم تكريم قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].

فإذا لزم الإنسانُ ما خُلِق له من عبادةٍ وملازمةِ الطَّاعة كان قدرُه عند الله عظيمًا، فيحبه الله ويدنيه ويقربه ويجتبيه، كما ورد في الحديث القُدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(١).

فهذا مشهدُ القربِ عندما يحققُ العبدُ ما أراد الله منه، أما عند شُرُودِهِ ومعصيتِه فينزل إلى أخسّ الدركات، فمشهد التدني إلى المعصية هو مشهدُ الحيوانيةِ إذ «ما من ذنب إلا وصاحبه فيه صفة من صفات الحيوانات».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فأمّا مشهدُ الحيوانيةِ وَقضاء الشَّهوة: فمشهد الجهّالِ الذين لا فرق بينهم وَبين سائرِ الحيوان إلا في اعتدالِ القامةِ وَنطقِ

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٦٥٠٢).

اللسان، ليس همُّهم إلا مجردَ نيلِ الشَّهوةِ بأي طريقٍ أفضت إليها، فهؤلاء نفوسُهم نفوسٌ حيوانية لم تَترقَّ عنها إلى درجة الإنسانية فضلًا عَنْ درجة الملائكة، فهؤلاء حالُهم أخسُّ من أن تذكر، وَهم في أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التي هم على أخلاقها وَطباعها.

فمنهم مَنْ نفسه كلبيةٌ، لو صادف جيفةً تشبعُ ألفَ كلب لوقع عليها وَحماها من سائر الكلاب، وَنبح كلَّ كلبٍ يدنو منها، فلا تقربها الكلاب إلا على كُرهٍ منه وَغلبةٍ، وَلا يسمح لكلب بشيء منها، وَهمُه شبعُ بطنه من أي طعام اتفق؛ ميتة أَوْ مذكى، خبيث أَوْ طيب، وَلا يستحي من قبيح، إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ، إن أطعمته بصبص بذنبه وَدار حولك، وَإن منعته هرك وَنبحك.

ومنهم مَنْ نفسُه حماريةٌ، لم تخلق إلا للكدِّ وَالعلف، كلَّما زيد في علفه زيد في كدِّه، أبكم الحيوان، وَأقله بصيرة، وَلهذا مثَّل الله ﷻ به من حمَّله كتابه فلم يحمله معرفة وَلا فقهًا، وَلا عملًا، وَمثَّلَ بالكلب عالِمَ السّوءِ الذي آتاه الله آياتِه فانسلخ منها وَأَخْلَدَ إلى الأرض وَاتَّبع هواه، وَفي هذين المثلين أسرارٌ عظيمةٌ ليس هذا موضع ذكرِها.

ومنهم مَنْ نفسه سبُعيةٌ غضبيةٌ، همتُه العدوان على النّاس، وَقهرهم بما وَصلت إليه قدرته، طبيعته تتقاضى ذلك كتقاضي طبيعةِ السبعِ لما يصدر منه.

ومنهم مَنْ نفسُه فأريةٌ، فاسقٌ بطبعه، مفسدٌ لما جاوره، تسبيحُه بلسان الحال سبحان من خَلَقَه للفساد.

ومنهم مَنْ نفسُه على نفوس ذواتِ السّمومِ وَالحمات، كالحية وَالعقرب وَغيرهما، وَهذا الضرب هو الذي يؤذي بعينِه فيدخلُ الرجلَ القبرَ، وَالجملَ القِدرَ، وَالعَينُ وَحدها لم تفعل شيئًا، وَإنما النّفس الخبيثةُ السُّمية تكيفت بكيفيةٍ غضبيةٍ مع شدة حسد وَإعجاب، وَقابلت المعينَ على غرّة منه وَغفلة؛ وَهو أعزلُ من سلاحِه فلدغته، كالحية التي تنظر إلى موضعٍ مكشوفٍ من بدن الإنسان فتنهشُه فإما عطب وَإما أذى، وَلهذا لا يتوقفُ أذى العائنِ على الرؤيةِ

وَالمشاهدةِ، بل إذا وُصف له الشيءُ الغائبُ عنه وَصل إليه أذاه، وَالذنب **لجهلِ** المعين وَغفلتِه وَغرته عَنْ حمل سلاحه كلَّ وَقت، فالعائن لا يؤثر في **شاكي** السلاح، كالحيةِ إذا قابلت درعًا سابغًا على جميعِ البدنِ ليس فيه موضعٌ **مكشوفٌ**، فحقٌ على من أراد حفظَ نفسه وَحمايتها أن لا يزال متدرعًا متحصنًا لابسًا أداة الحرب مواظبًا على أورادِ التعوُّذات وَالتحصينات النبوية التي في القرآن وَالتي في السنة.

وإذا عُرف الرجلُ بالأذى بالعين وَجب حبسه وَإفراده عَنِ النّاس، وَيطعم وَيسقي حتى يموت، ذكر ذلك غيرُ وَاحد من الفقهاء، وَلا ينبغي أن يكون في ذلك خلاف؛ لأن هذا من نصيحة المسلمين، وَدفعِ الأذى عَنْهُم، وَلو قيل فيه غير ذلك لم يكن بعيدًا من أصول الشرع.

فَإِنْ قيل: فهل تقيدون منه إذا قتل شخصًا بعينه؟

قيل: إن كان ذلك بغير اختيارِه بل غلب على نفسِه لم يُقتص منه وَعليه الديةُ، وَإن تعمد وَقدر على رده وَعلم أَنَّهُ يُقتلُ به ساغ للولي أن يقتلَه بمثلِ ما قتل به، فَيَعِيْنُهُ إن شاء كما عان هو المقتولَ، وَأما قتله بالسيف قصاصًا فلا؛ لأن هذا ليس مما يقتل غالبًا وَلا هو مماثل لجنايته.

وسألت شيخنا أبا العباس ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ عَنْ القتل بالحال هل يوجب القصاص؟

فقال: للولي أن يقتله بالحال كما قتل به.

فَإِنْ قيل: فما الفرقُ بين القتلِ بهذا وَبين القتلِ بالسِّحر؛ حيث توجبون القصاص به بالسيف؟

قلنا: **اَلْفَرْقُ مِنْ وَجْهَيْنِ**:

أَحدهما: أن السِّحر الذي يقتلُ به هو السِّحرُ الذي يقتلُ مثله غالبًا، وَلا ريب أن هذا كثير في السِّحر، وَفيه مقالات وَأبواب معروفة للقتل عند أربابه.

الثَّانِي: أَنَّهُ لا يمكن أن يُقتص منه بمثل ما فعل لكونه محرمًا لحق الله،

فهو كما لو قتله باللواط وَتجريعِ الخمر فَإِنَّهُ يُقتصُّ منه بالسَّيف.

وليس هذا موضعَ ذكرِ هذه المسائل، وَإنما ذكرت لما ذكرنا أنّ من النفوسِ البشرية ما هي على نفوس الحيوانات العادية وَغيرِها، وَهذا هو تأويلُ سفيان بن عيينة في قوله تَعالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

وعلى هذا الشبهِ اعتمادُ أهل التعبيرِ للرؤيا في رؤية هذه الحيوانات في المنام عند الإنسان وَفي دارِه، أَوْ أنها تحاربه، وَهو كما اعتمدوه، وَقد وَقع لنا وَلغيرنا من ذلك في المنام وَقائع كثيرة، فكان تأويلُها مطابقًا لأقوامٍ على طباع تلك الحيوانات.

١ ـ وَقد رأى النَّبِيُّ ﷺ في قصة أحد بقرًا تنحرُ، فكان من أُصِيب من المؤمنين بنحر الكفار، فَإِنَّ البقر أنفعُ الحيوانات للأرض، وَبها صلاحُها وَفلاحُها، مع ما فيها من السكينة، وَالمنافع، وَالذِّل ـ بكسر الذال ـ، فإنها ذلولٌ مذلَّلة منقادةٌ غيرُ أبيَّة، وَالجواميس كبارهم وَرؤساؤهم.

٢ ـ وَرأى عمر بن الخطاب كأن ديكًا نقره ثلاث نقرات، فكان طعن أبي لؤلؤة له، وَالديك رجلٌ أعجميٌ شريرٌ.

ومن النّاس مَنْ طبعُه طبعُ خنزير، يمر بالطيبات فلا يلوي عليها، فإذا قام الإنسان عَنْ رجيعه قمه[1]، وَهكذا كثير من النّاس يسمع منك، وَيرى من المحاسن أضعافَ أضعاف المساوىء فلا يحفظها، وَلا ينقلها، وَلا تناسبه، فإذا رأى سقطةً، أَوْ كلمةً عوراءَ وَجد بُغيته وَما يناسبها، فجعلها فاكهتَه وَنقله.

ومنهم مَنْ هو على طبيعة الطاووس، ليس له إلا التطوس وَالتزين بالريش، وَليس وَراء ذلك من شيء.

ومنهم مَنْ هو على طبيعة الجمل، أحقد الحيوان وَأغلظه كبدًا.

---

(١) قَمَهَ الشيءَ في الماء يَقْمَهه إذا غَمَسه فارتَفع رأسُه أَحْيانًا وانْغَمَرَ أَحيانًا، فهو قامِهٌ.

ومنهم مَنْ هو على طبيعة الدّب، أبكم خبيث.

وَمنهم على طبيعة القرد... إلخ.

وأَحْمَدُ طبائع الحيوانات طبائعُ: الخيل، التي هي أشرف الحيوانات نفوسًا، وَأكرمُها طبعًا، وَكذلك الغنمُ، وَكلّ من ألف ضربًا من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وَخلقه، فَإن تغذى بلحمه كان الشبه أقوى فَإنَّ الغاذي شبيه بالمغتذي، ولهذا حرَّم الله أكلَ لحوم السباع وَجوارح الطير لما تورث آكلها من شبه نفوسها بها، وَالله أعلم.

والمقصودُ أن أصحاب هذا المشهد ليس لهم شهود سوى ميلِ نفوسِهم وَشهواتهم لا يعرفون ما وَراء ذلك البتة[١].

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٥٧).

أَعْظَمُ آفَاتِ الْقُلُوبِ

فآفاتُ القلوبِ لا يحصرُها العدّ وأصولها كما ذكرنا تنحصر في أصلين عظيمين هما «الشُّبهات»، وَ«الشَّهوات» ولو وقعت منهما قطرةٌ في قلب العبد أتلفته.

ويتفرعِ من هذين المرضين عِللٌ وَآفات قد يصعب معها العد، منها ما يتعلق بالشُّبهات، وَمنها ما يتعلق بالشهوات، وَمنها ما هو خليطٌ منهما. وَقد جاء في الكتاب وَالسنة جملٌ منها، فقد جعل الله كتابَه هو الدواءَ لجميع أدواءِ القلوب.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وأسوق جملًا من آفات القلوب قد تتعلق بالشبهة ويكون الباعث لها أيضا الشهوة وقد يكون العكس ومن أشد هذه الآفاتِ خطرًا وأعظمِها ضررًا:

* الشِّرْكُ *

* الشِّرك:

لغة: يقال: شَرِكْتُه في الأمر أشْرَكُه شِرْكة، والاسمُ: الشِّرك. وشارَكْته: إذا صِرْت شَرِيكه. وقد أشْرك بالله إذا جعل له شريكًا(١).

---

(١) «النهاية» باب: «شرك».

وَشرعًا: جعل لله شريكًا، تَعالَى الله عَنْ ذلك... وَقال الجوهريّ: **الشِّرك**: الكفر[1].

وقد عرَّفه النَّبيّ ﷺ كما روي عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: «سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ. قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»[2].

وهو من أخطرِ آفاتِ القلوبِ بل هو أخطرُها على الإطلاق، إذ صاحبُه خالدٌ مخلدٌ في النّار، قَالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦].

قَالَ تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

قَالَ تَعالَى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

قَالَ تَعالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور: ٤٣].

قَالَ ابن القيم: «فأما نجاسة الشِّرك فهي نوعان:

- **نَجَاسَةٌ مُغَلَّظَةٌ.**
- **وَنَجَاسَةٌ مُخَفَّفَةٌ.**

فالْمُغَلَّظَةُ: الشِّرك الأكبر الذي لا يغفره الله ﷻ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ.

وَالْمُخَفَّفَةُ: الشِّرك الأصغر كيسير الرياء، وَالتصنعِ للمخلوق، وَالحلف به، وَخوفه، وَرجائه.

وَنجاسةُ الشِّرك عينية، وَلهذا جعل سُبْحَانَهُ الشِّرك نجسًا ـ بفتح الجيم،

---

(١) «لسان العرب» مادة: «شرك».

(٢) رَواهُ البُخارِيّ (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

وَلم يقل: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجِس ـ بالكسر، فَإِنَّ النجَس عين النجاسة، وَالنجِس بالكسر هو المتنجس، فالثوب إذا أصابه بول، أَوْ خمر نجِس، وَالبول وَالخمر نجَس، فأَنْجَسُ النجاسةِ الشِّركُ، كما أَنَّهُ أظلمُ الظلم، فَإِنَّ النجسَ في اللغة وَالشرع: هو المستقذر الذي يطلب مباعدته وَالبعد منه بحيث لا يُلمس وَلا يُشم وَلا يُرى فضلًا أن يُخالطَ وَيلابسَ لقذارته وَنفرةِ الطباع السليمة عنه، وَكلما كان الحقُّ أكملَ حياةً وَأصحَّ حياءً كان إبعاده لذلك أعظمَ وَنفرته منه أقوى.

فالأعيان النجسة إما أن تؤذي البدنَ، أَوْ القلبَ، أَوْ تؤذيهما معًا، وَالنجسُ قد يؤذي برائحته وَقد يؤذي بملابسته وَإن لم تكن له رائحةٌ كريهةٌ.

والمقصود: أن النجاسةَ تارةً تكون محسوسةً ظاهرةً، وَتارة تكون معنوية باطنة، فيغلب على الروح وَالقلب الخبثُ وَالنجاسةُ حتى إن صاحب القلب الحي ليشمُّ من تلك الروح وَالقلب رائحةً خبيثة يتأذى بها كما يتأذى من شم رائحة النتن، وَيظهر ذلك كثيرًا في عرقه، حتى ليوجدُ لرائحة عرقه نتنًا، فَإِنَّ نتن الروح وَالقلب يتصل بباطن البدن أكثر من ظاهره، وَالعرقُ يفيض من الباطن، وَلهذا كان الرجلُ الصالحُ طيبَ العرق، وَكان رَسُولُ اللهِ ﷺ أطيبَ النّاس عرقًا، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «دَخَلَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ[1] عِنْدَنَا، فَعَرِقَ وَجَاءَتْ أُمِّي بِقَارُورَةٍ فَجَعَلَتْ تَسْلِتُ الْعَرَقَ فِيهَا، فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «يَا أُمَّ سُلَيْمٍ مَا هَذَا الَّذِي تَصْنَعِينَ؟»، قَالَتْ: هَذَا عَرَقُكَ نَجْعَلُهُ فِي طِيبِنَا، وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطِّيبِ»[2].

فالنفسُ النجسةُ الخبيثةُ يقوى خبثُها وَنجاستُها حتى يبدو على الجسد، وَالنفسُ الطيبةُ بضدها، فإذا تجردت وَخرجت من البدنِ وُجد لهذه كأطيب نفحةِ مسكٍ وُجدت على وَجه الأرض، وَلتلك كأنتن ريح جيفةٍ وُجدت على وَجه الأرض.

---

(١) أي: نام ساعة القيلولة.

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٣٣١).

والمقصود: أن الشِّرك لما كان أظلمَ الظلمِ، وَأقبحَ القبائحِ، وَأنكرَ المنكراتِ كان أبغضَ الأشياء إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَأكرهها له، وَأشدَّها مقتًا لديه، وَرتب عليه من عقوبات الدنيا وَالآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه[1]

* أَنْوَاعُ اَلشِّرْكِ *

أَوَّلًا: الْشِّرْكُ الأَكْبَرُ:

الشِّرك ينقسم إلى ثلاثةِ أقسام؛ وَكلٌّ منها قد يكون أكبرَ وَأصغرَ مطلقًا، وَقد يكون أكبر بالنسبة إلى ما هو أصغرُ منه، وَيكون أصغر بالنسبة إلى ما هو أكبر منه.

- **اَلْقِسْمُ الأَوَّلُ**: الشِّرك في الرُّبوبية:

وَهو نوعان:

أحدهما: شِرْكُ التَّعْطِيلِ:

وَهو أقبح أنواع الشِّرك، كـ:

شرك فِرْعَوْن إذ قَالَ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

وَمن هذا شركُ الفلاسفة القائلين: بقِدَمِ العالم وَأبديته، وَأنه لم يكن معدومًا أصلًا بل لم يزل وَلا يزال، وَالحوادث بأسرها مستندةٌ عندهم إلى أسبابٍ وَوسائطَ اقتضت إيجادَها يسمونها: العقولَ وَالنفوسَ.

ومن هذا شركُ طائفةِ أهلِ وَحدةِ الوجود كأصحاب ابن عربي وابن سبعين وابن الفارض والتلمساني والبلياني وغيرهم[2]، وَنحوِهم من الملاحدة الذين كَسَوا الإلحادَ حليةَ الإسلام وَمزجوه بشيء من الحق حتى راج أمرُهم على خفافيش البصائر.

---

(١) «إغاثة اللَّهفَان» (١/ ٦٠).

(٢) هؤلاء من رؤوس الضلالة الذين يقولون بوحدة الوجود.

ومن هذا شركُ من عطّل أسماءَ الرب وَأوصافَه من غلاة الجهمية.

الثاني: شِرْكُ من جعل معه إلهًا آخر وَلم يُعطلْ أسماءَه وَصفاتِه وَربوبيتَه: كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة.

وَشركِ المجوس القائلين: بإسناد حوادثِ الخيرِ إلى النّور، وَحوادثِ الشرِّ إلى الظلمة.

ومن هذا شِرْكُ كثيرٍ ممن يشرك بالكواكبِ العُلْوياتِ وَيجعلُها مدبِّرةً لأمرِ هذا العالمِ، كما هو مذهب مُشْرِكِي الصّابئةِ وَغيرهم.

ويلتحق به من وَجه شرك غلاةِ عبادِ القبورِ الذين يزعمون أن أرواحَ الأولياء تتصرف بعد الموت، فيقضُون الحاجاتِ، وَيفرجون الكرباتِ، وَينصرون من دعاهم، وَيحفظون من التجأ إليهم، وَلاذَ بحماهم، فَإِنَّ هذه من خصائص الربوبية.

• **الْقِسْمُ الثَّانِي**: الشِّرْكُ في توحيدِ الأسماءِ وَالصّفات:

وَهو أيسر مما قبله وَهو نوعان:

أحدهما: تشبيه الخالقِ بالمخلوقِ: كمنْ يقول: يدٌ كيدي، وَسمعٌ كسمعي، وَبصرٌ كبصري، وَاستواءٌ كاستوائي، وَهو شرك المشبهة.

الثاني: اشتقاقُ أسماءٍ للآلهةِ الباطلةِ من أسماءِ الإله الحق:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قَالَ ابن جرير: وأما قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فإنه يعني به: المشركين.

وكان إلحادُهم في أسماء الله، أنهم عدَلوا بها عمّا هي عليه، فسموا بها آلهتَهم وأوثانَهم، وزادوا فيها ونقصُوا منها، فسموا بعضها «اللات» اشتقاقًا منهم لها من اسم الله الذي هو «الله»، وسموا بعضها «العُزَّى» اشتقاقًا لها من اسم الله الذي هو «العزيز».

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن سعد قال: حدثني أبي قال: ثني عمي قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠] قال: إلحاد الملحدين: أن دعوا «اللات» في أسماء الله[1].

• **الْقِسْمُ الثَّالِثُ**: الشِّرك في توحيد الألوهية وَالعبادة:

وهو أصل الشِّركِ وأخطرُه وأعظمُه، وبه الخلود في النار، ولا يغفره الله أبدًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨].

وَأصل الشِّركِ المحرّمِ اعتقادُ شريكٍ لله تَعَالَى في الأُلوهية وَهو الشِّركُ الأعظمُ وَهو شركُ الجاهلية، وَيليه في الرُّتبةِ اعتقادُ شريك لله تَعَالَى في الفعل وَهو قول مَنْ يجعل لله ندًا يعبده كما يعبد الله، وَهذا هو الشِّرك الأكبر، وَهو الذي قَالَ اللهُ فيه: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ [النساء: ٣٦].

وَقَال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ [السجدة: ٤].

والآيات في النهي عَنْ هذا الشِّرك وَبيان بطلانه كثيرة جدًا.

---

(١) «تفسير ابن جرير» (١٣/ ٢٨٢).

قَالَ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والشِّرك الأكبر: وَهو أن يتخذ من دون الله ندًّا يحبه كما يحب الله، وَهو الشِّرك الذي تضمن تسويةَ آلهةِ المشركين بربِّ العالمين، وَلهذا قالوا لآلهتهم في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨].

مع إقرارهم بأن الله وَحده خالقُ كل شيء، وَربُّه، وَمليكُه، وَأن آلهتهم لا تخلق، وَلا ترزق، وَلا تحيي، وَلا تميت، وَإنما كانت هذه التسويةُ في المحبةِ، وَالتعظيمِ، وَالعبادةِ، كما هو حال أكثرِ مشركي العالم، بل كلُّهم يحبون معبوداتِهم، وَيعظمونها، وَيوالونها من دون الله، وَكثيرٌ منهم بل أكثُرهم يحبون آلهتَهم أعظمَ من محبةِ الله، وَيستبشرون بذكرِهم أعظمَ من استبشارهم إذا ذكر الله وَحده، وَيغضبون لمنتقص معبوديهم وَآلهتهم من المشايخ أعظم مما يغضبون إذا انتقصَ أحدٌ ربَّ العالمين، وَإِذَا انتُهكت حرمةٌ من حرمات آلهتهم وَمعبوداتهم غضبوا غضب الليث إذا حَرِدَ[1]، وَإِذَا انتهكت حرماتُ الله لم يغضبوا لها، بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئًا رضُوا عنه، وَلم تتنكر له قلوبُهم، وَقد شاهدنا هذا نحن وَغيرُنا منهم جهرةً، وَترى أحدَهم قد اتخذ ذكرَ إلهه وَمعبوده من دون الله على لسانه ديدنًا له إن قام، وَإن قعد، وَإن عثر، وَإن مرِض، وَإن استَوْحش، فذكْر إلهه وَمعبوده من دون الله هو الغالبُ على قلبه وَلسانه، وَهو لا ينكر ذلك، وَيزعم أَنَّهُ باب حاجته إِلَى اللهِ وَشفيعُه عنده وَوسيلتُه إليه»[2].

حَالُّ عُبَّادِ الأَصْنَام:

وهكذا كان عُبَّاد الأَصْنَامِ سواء، وَهذا القدرُ هو الذي قام بقلوبهم، وَتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم، فأولئك كانت آلهتهم من الحجر، وَغيرُهم اتخذوها من البشر، قَالَ اللهُ تَعَالَى حاكيًا عَنْ أسلاف هؤلاء المشركين: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ

(١) إذا حَرِدَ: أي إذا غضب.

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٦).

﴿زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٣].

ثم شهد عليهم بالكفر وَالكذب وَأخبر: أَنَّهُ لا يهديهم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، فهذه حال من اتخذ من دون الله وَليًا يزعم أَنَّهُ يقربه إِلَى اللهِ، وَما أعز مَنْ يخلص من هذا، بل ما أعز مَنْ لا يُعادي من أنكره، وَالذي في قلوب هؤلاء المشركين وَسلفهم: أن آلهتَهم تشفعُ لهم عند الله، وَهذا عينُ الشِّركِ، وَقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه، وَأبطله، وَأخبر أن الشفاعة كُلّها له، وَأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه، وَرضَي قولَه، وَعمله، وَهم أهل التوحيد الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يأذن لمن شاء في الشفاعة لهم، حيث لم يتخذْهم شفعاءَ من دونه، فيكون أسعدَ النّاس بشفاعة من يأذنُ الله له: صاحبُ التوحيدِ؛ الذي لم يتخذ شفيعًا من دون الله ـ ربِّه وَمولاه ـ، وَالشفاعةُ التي أثبتها اللهُ وَرسولُه: هي الشفاعةُ الصادرة عَنْ إذنِه لمن وَحَّده، وَالتي نفاها الله: هي الشفاعةُ الشِّركيةُ التي في قلوب المشركين المتخذين من دون الله شفعاءَ، فيُعاملون بنقيضِ قصدِهم من شفعائِهم، وَيفوز بها الموحدون.

وتأمل قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ لأَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ وَقد سَأَلَهُ: «مَنْ أَسْعَدُ النّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «أَسْعَدُ النّاس بِشَفَاعَتِي مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»[1].

فانظر كيف جعل أعظمَ الأسبابِ التي تُنالُ بها شفاعتُه: تجريدَ التوحيدِ عكس ما عند المشركين: أن الشّفاعة تنال باتخاذِهم أولياءَهم شفعاءَ، وَعبادتِهم وَموالاتهم من دون الله، فقلبَ النَّبِيُّ ﷺ ما في زعمهم الكاذبِ، وَأخبر أن سببَ الشفاعة: هو تجريد التوحيد، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع، وَمن جَهْلِ المشركِ: اعتقادُه أن من اتخذه وَليًا، أَوْ شفيعًا: أَنَّهُ يشفع له، وَينفعه عند الله، كما يكون خواصُّ الملوك وَالولاة تنفع شفاعتُهم من

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٩٩).

وَالاهم، وَلم يعلموا أن الله لا يشفعُ عنده أحدٌ إلا بإذنه، وَلا يأذن في الشّفاعة إلا لمن رضي قولَه وَعملَه، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨][١].

السَّلَامَةُ فِي التَّوْحِيدِ وَمُتَابَعَةُ الرَّسُولِ ﷺ:

وَيجب أن يُعلم أَنَّهُ لا يرضى من القول وَالعمل إلا التوحيدَ واتباعَ الرسول، وَعن هاتين الكلمتين يَسأل الأولين وَالآخرين، كما قَالَ أبو العالية: «كلمتان يُسأل عنهما الأولون وَالآخرون: مَاذا كُنْتُمْ تَعْبُدُون؟ وَمَاذا أَجَبْتُم المرْسَلِين؟».

فهذه ثلاثة أصول تقطعُ شَجَرَةَ الشِّركِ من قلب من وَعَاها وَعَقِلها:

١ ـ لا شفاعة إلا بإذنه.

٢ ـ وَلا يأذن إلا لمن رضي قولَه وَعملَه.

٣ ـ وَلا يرضى من القول وَالعمل إلا توحيدَه واتباعَ رسوله ﷺ، فالله تعالى لا يغفر شركَ العادلين به غيره كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وَأصحّ القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادةِ، وَالموالاةِ، وَالمحبةِ، كما في الآية الأخرى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨].

وَكما في آية البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥][٢].

تَشَابَهَتْ أَقْوَالُ الْمُشْرِكِينَ:

وَترى المشرك يكذب حالُه وَعملُه قولَه، فَإِنَّهُ يقول: «لا نحبهم كَحُبِّ اللهِ،

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٧).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٨).

ولا نسويهم بالله»، ثم يغضب لهم وَلحرماتِهم إذا انتهكت أعظمَ مما يغضب لله، وَيستبشر بذكرهم لا سيما إذا ذُكرَ عَنْهُم ما ليس فيهم: من إغاثة اللهفات، وَكشف الكربات، وَقضاء الحاجات، وَأنهم البابُ بين الله وعباده، فإنك ترى المشرك يفرح وَيسر، وَيحن قلبُه، وَتهيج منه لواعجُ التعظيمِ، وَالخضوعِ لهم وَالموالاة، وَإذَا ذكرت له الله وَحده وَجرَّدت توحيدَه لحقته وَحشةُ وَضيق وَحرج، وَرماك بنقص الإلهية التي له، وَربما عاداك، رأينا وَالله منهم هذا عيانًا، وَرمونا بعداوتهم، وَبغوا لنا الغوائل، وَالله مخزيهم في الدنيا وَالآخرة، وَلم تكن حجتهم إلا أن قالوا كما قَالَ إخوانهم: عاب آلهتنا، فقال هؤلاء: تنقَّصتم مشايخَنا، وَأبوابَ حوائجنا إلَى اللهِ. وَهكذا قَالَ النصارى للنبي ﷺ لما قَالَ لهم: إن المسيح عبد الله، قالوا: تنقصت المسيحَ وَعبته. وَهكذا قَالَ أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثانًا تُعبد وَمساجد تُقصد، وَأمر بزيارتها على الوجه الذي أذن الله فيه وَرسوله قالوا: تنقصت أصحابَها.

فانظر إلى هذا التشابه بين قلوبهم حتى كأنهم قد تواصوا به، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧][1].

سَفَاهَةُ مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللهِ تَعَالَى:

وَقد قطع الله تَعَالَى كل الأسباب التي تعلق بها المشركون جميعًا قطعًا يعلم من تأمله وَعرفه: أن من اتخذ من دون الله وَليًا، أَوْ شفيعًا فهو ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ﴾ [العنكبوت: ٤١].

فقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣].

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٩).

فالمشرك إنما يتخذ معبودَه لما يعتقد أَنَّهُ يحصلُ له به من النفعِ، وَالنفعُ لا يكون إلا ممن فيه خصلةٌ من هذه الأربع:

• إما مالك لما يريدُه عابدَه منه.

• فَإِن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك.

• فَإِن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وَظهيرًا.

• فَإِن لم يكن معينًا وَلا ظهيرًا كان شفيعًا عنده.

فنفى سُبْحَانَهُ المراتب الأربع نفيًا مترتبًا متنقلًا من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملكَ، وَالشِّركةَ، وَالمظاهرةَ، وَالشفاعةَ التي يظنها المشرك، وَأثبت شفاعةً لا نصيب فيها لمشرك، وَهي الشفاعة بإذنه، فكفى بهذه الآيةِ نورًا وَبرهانًا وَنجاةً وَتجريدًا للتوحيد، وَقطعًا لأصول الشِّرك وَموادِّه لمن عقلها، وَالقرآن مملوء من أمثالِها وَنظائرِها، وَلكنَّ أكثرَ النّاس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وَتضمَّنه له، وَيظنونه في نوع وَفي قوم قد خَلَوْا من قبل وَلم يعقبوا وَارثًا، وَهذا هو الذي يحولُ بين القلب وَبين فهم القرآن، وَلعمرُ اللهِ إن كان أولئك قد خلوا فقد وَرثهم من هو مثلُهم، أَوْ شرٌّ منهم أَوْ دونهم، وَتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك، وَلكن الأمر كما قَالَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إِنَّمَا تُنْقَضُ عُرَى الْإِسْلَامِ[1] عُرْوَةً عُرْوَةً؛ إِذَا نَشَأَ فِي الإِسْلامِ مَنْ لا يَعِرُف الجاهِلِيَّةَ»[2]، وَهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية، وَالشِّركَ وَما عابه القرآن

(١) عُرَى اللإسلام: أي حُدُوده وأحكامه وأوامِره ونواهيه. «النهاية» (٢/ ٤٦٤).

(٢) لم أجده بنفس اللفظ، أما الأثر الذي وقفتُ عليه فهو ما أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٤١٠)، وابن سعد في الطبقات (٦/ ١٢٩)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٧٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. والبيهقي في الشعب (٦/ ٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٤٣) كلهم من طريق: شبيب بن غرقدة عن المستظل بن حصين البارقي قال: خطبنا عمر بن الخطاب فقال: «قد علمتُ وربِّ الكعبة متى تهلك العرب. فقام إليه رجلٌ من المُسْلِمين فقال: متى يهلكون يا أمير المؤمنين؟ قال: حين يسوس أمرَهم من لم يعالج أمر الجاهلية ولم يصحب الرسول ﷺ». و«المستظل» قال عنه ابن سعد: ثقةٌ قليل الحديث. وذكره العجلي في =

وَذمه: وَقع فيه، وَأقره، وَدعا إليه، وَصوَّبه، وَحسنه، وَهو لا يعرف: أَنَّهُ هو الذي كان عليه أهلُ الجاهلية، أَوْ نظيرُه، أَوْ شرٌّ منه، أَوْ دونه فينقض بذلك عرى الإسلامِ عَنْ قلبه، وَيعود المعروفُ منكرًا، وَالمنكرُ معروفًا، وَالبدعة سنة، وَالسنة بدعة، وَيكفر الرجل بمحض الإيمان وَتجريد التوحيد، وَيبدع بتجريدِ متابعةِ الرسولِ ﷺ وَمفارقةِ الأهواءِ وَالبدعِ، وَمن له بصيرةٌ وَقلبٌ حيٌّ يرى ذلك عيانًا ـ وَالله المستعان[1].

ثَانِيًا: الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ:

وَهو شرك لا يُخرج من الملة؛ لكنه يُنْقص التوحيدَ، وَهو وَسيلة إلى الشِّركِ الأكبرِ، **وَهو قسمان:**

❖ الْقِسْمُ الْأَوَّلُ ❖

شِرْكٌ ظَاهِرٌ عَلَى اللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ

وَهو: أَلْفَاظٌ وَأَفْعَالٌ.

فَالأَلْفَاظُ مثلُ:

- الحَلِفِ بِغَيْرِ اللهِ:

عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ: «أَنَّ ابْنَ عُمَرَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا وَالْكَعْبَةِ. فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِ اللهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»»[2].

= الثقات رقم (١٥٥٨)، وابن حبان (٥/ ٤٦٢).

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٩).

(٢) صحيح: رَوَاهُ أَبو دَاوُدَ (٣٢٥١)، الترمذي (١٥٣٥) وَحسنه، ورَوَاهُ أحمد (٢/ ١٢٥)، ابن حبان (١٠/ ٤٣٥٨) الحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٥) وَصححه، ورَوَاهُ البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٩) وهذا مما لم يسمعه سعد بن عبيدة من ابن عمر، ورَوَاهُ أبو عوانة في «المستخرج» (٥٩٦٧)، وللحديث شواهد عن أبي هريرة وثابت بن الضحاك وغيرهما يرتقي بها إلى الصحة.

● وَقوْلِ: «مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ»:

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عَدْلًا، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[1].

● وَقول: «لولا اللهُ وَفلانٌ».

وَالصَّوابُ أن يُقالَ: «ما شاءَ الله، ثم شاء فلان» - «وَلولا الله، ثم فلان»؛ لأن «ثم» تفيدُ الترتيب مع التراخي، وَتجعلُ مشيئة العبد تابعةً لمشيئة الله، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩].

وَأَمَا الْأَفْعَالُ:

● فمثل لبسِ الحلقة للتبرك.

● وَالخيط لرفعِ البلاء، أَوْ دفعه.

● وَمثل تعليق التمائم خوفًا من العين وَغيرها.

فإذا اعتقد أن هذه أسبابٌ لرفع البلاءِ، أَوْ دفعِه، فهذا شِرْكٌ أصغر؛ لأن الله لم يجعل هذه أسبابًا، أما إن اعتقد أنها تدفع، أَوْ ترفعُ البلاء بنفسها؛ فهذا شرك أكبر لأنه تَعلَّقٌ بغيرِ الله.

❖ الْقِسْمُ الثَّانِي ❖
مِنَ الشِّرْكِ الْأَصْغَرِ

الشِّرْكُ الْخَفِيُّ:

وَهو الشِّرْكُ في الإراداتِ، وَالنِّياتِ، كالرِّياءِ، وَالسُّمْعَةِ، كأن يعملَ عملًا

(١) حسن: رَوَاهُ أحمد (١/ ٢١٤)، البُخَارِيّ «الأدب المفرد» (٧٨٣)، ابن أبي شيبة «المصنف» (٥/ ٢٦٦٢١)، «السنن الكبرى» (٣/ ٢١٧)، الطبراني «المعجم الكبير» (١٢/ ١٣٠٠٥)، الطحاوي «مشكل الآثار» (٢٣٥)، أبو نعيم «الحلية» (٤/ ٩٩).

مما يُتقرب به إلى الله؛ يريدُ به ثناءَ النّاسِ عليه، كَأَنّه يُحسن صلاته، أَوْ يتصدق؛ لأجل أن يُمدح وَيُثنى عليه، أَوْ يتلفظَ بالذكر وَيُحسِّن صوته بالتلاوة لأجل أن يسمعه النّاس، فيُثنوا عليه وَيمدحوه. وَالرياء إذا خالط العمل أبطله، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرك الْأَصْغَرُ»، قَالُوا: وَمَا الشِّركُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ ﷻ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النّاس بِأَعْمَالِهِمْ: «اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»[(١)].

والرياء لا يَسلم منه إلا القليلُ، فقد تجدُ الرجلَ يصلي مبتدءًا صلاته بنيةٍ خالصةٍ لله ثم تتحول نيته عندما يسمع صوتًا فيحسن صلاته، وَهو أدق من دبيب النملةِ السوداء على الصَّفاةِ السَّوداء في الليلة الظلماء. وَفي الحديث القدسي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «أَنَا أَغْنَى الشُّركاءِ عَنْ الشِّرك، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[(٢)].

عَنْ جُنْدَبٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ»[(٣)].

ومنه: العملُ لأجلِ الطّمعِ الدنيوي، كمن يحجّ، أَوْ يؤذِّن، أَوْ يؤمُّ النّاسَ لأجل المالِ، أَوْ يتعلمُ العلمَ الشرعي، أَوْ يجاهدُ لأجل المال، كما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَم، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ»[(٤)].

---

(١) صحيح: رَوَاهُ أحمد (٥/ ٤٢٩).
(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٩٨٥).
(٣) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٦٤٩٩).
(٤) سبق تخريجه.

قَالَ الإمام ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الشِّرك في الإرادات وَالنيات، فذلك البحر الذي لا ساحل له، وَقلَّ من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وَجه الله، وَنوى شيئًا غير التقرب إليه وَطلبِ الجزاءِ منه؛ فقد أشرك في نيته وَإرادته، وَالإخلاص: أن يُخلص لله في أفعاله، وَأقواله، وَإرادته، وَنيته، وَهذه هي الحنيفيةُ ملةُ إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم، وَلا يُقبلُ من أحدٍ غيرُها، وَهي حقيقة الإِسْلَام، كما قَالَ تَعالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

وهي ملَّةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ التي من رغب عنها فهُو من أسفهِ السُّفهاء»[١].

وقال أيْضًا: «وَالشِّركُ لما كان أظلمَ الظُّلمِ، وَأقبح القبائح، وَأنكر المنكرات، كان أبغضَ الأشياء إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَأكرهها له، وَأشدَّها مقتًا لديه، وَرتب عليه من عقوبات الدنيا وَالآخرة ما لم يرتبه على ذنبٍ سواه، وَأخبر أَنَّهُ لا يغفره، وَأن أهلَه نجس، وَمنعهم من قُربان حَرَمِه، وَحرّم ذبائحهم، وَمناكحتَهم، وَقطعَ الموالاةَ بينهم وَبين المؤمنين، وَجعلهم أعداءً له سُبْحَانَهُ وَلملائكته، وَرسلِه، وَللمؤمنين، وَأباح لأهل التوحيد أموالَهم، وَنساءَهم، وَأبناءَهم، وَأن يتخذوهم عبيدًا، وَهذا لأن الشِّرك هضمٌ لحقِّ الربوبية، وَتنقيص لعظمة الألوهية، وَسوءُ ظن برب العالمين، كما قَالَ تَعالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح: ٦].

فلم يجمع على أحد من الوعيد وَالعقوبة ما جمع على أهل الشِّرك، فإنهم ظنوا به ظنَّ السّوء حتى أشركوا به، وَلو أحسنوا به الظن لوحَّدوه حق توحيده، وَلهذا أخبر سُبْحَانَهُ عَنْ المشركين أنهم ما قَدَّروه حق قَدْره في ثلاثة مواضع من كتابه[٢]، وَكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلًا وَندًا يحبه،

---

(١) «الجواب الكافي» (٢٠١).

(٢) وذلك في سور: الأنعام آية (٩١)، الحج (٧٤)، الزمر (٦٧).

وَيخافه، وَيرجوه، وَيذل له، وَيخضع له، وَيهرب من سخطه، وَيؤثر مرضاته، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١]، أي: يجعلون له عدلًا في العبادة وَالمحبة وَالتعظيم، وَهذه هي التسويةُ التي أثبتها المشركون بين الله وآلهتهم، وَعرفوا وَهم في النار أنها كانت ضلالًا وَباطلًا، فيقولون لآلهتهم وَهم في النار معهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨].

وَمعلوم أنهم ما سوَّوهم به في الذّات وَالصفات وَالأفعال، وَلا قالوا: إن آلهتهم خَلَقت السموات وَالأرض، وَأنها تحيي وَتميت، وَإنما سووها به في محبتهم لها، وَتعظيمهم لها، وَعبادتهم إياها، كما ترى عليه أهلَ الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام، وَمن العجب أنهم ينسبون أهلَ التوحيد إلى التنقص بالمشايخ وَالأنبياء وَالصالحين، وَما ذنبهم إلا أن قالوا: إنهم عبيد لا يملكون لأنفسهم وَلا لغيرهم ضرًّا وَلا نفعًا وَلا موتًا وَلا حياةً وَلا نشورًا، وَأنهم لا يشفعون لعابديهم أبدًا، بل قد حرم الله شفاعتهم لهم، وَلا يشفعون لأهل التوحيد إلا بعد إذنِ الله لهم في الشفاعة، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وَالشفاعة كُلّها له سُبْحَانَهُ، وَالولايةُ له، فليس لخلقه من دونه وَليٌّ وَلا شفيعٌ، فالشِّركُ وَالتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله تَعَالَى، وَلهذا قَالَ إبراهيم إمام الحنفاء لخصمائه من المشركين: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾ [الصافات: ٨٦ ـ ٨٧].

وَإن كان المعنى ما ظنكم به أن يعاملكم وَيجازيكم به وَقد عبدتم معه غيره، وَجعلتم له ندًا، فأنت تجد تحت هذا التهديد: ما ظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره!

فَإِنَّ المشرك إما أن يظن أن الله سُبْحَانَهُ يحتاج إلى من يدبر أمر العالم

من وَزير، أَوْ ظهير، أَوْ عون، وَهذا أعظمُ التنقيصِ لمن هو غني عَنْ كلٍّ ما سواه بذاته، وَكل ما سواه فقير إليه بذاته، وَإما أن يظن أن الله سُبْحَانَهُ إنما تتم قدرته بقدرة الشَّريك، وَإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطةُ، أَوْ لا يرحم حتى يجعله الواسطةُ يرحم، أَوْ لا يكفي عبده وَحده، أَوْ لا يفعل ما يريد العبدُ حتى يشفع عنده الواسطة، كما يشفع المخلوق عند المخلوق فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشَّافع، وَانتفاعِه به، وَتكثرِه به من القلة، وَتعززه به من الذلة، أَوْ لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطةَ أن ترفع تلك الحاجاتِ إليه كما هي حال ملوك الدنيا، وَهذا أصل شرك الخلق، أَوْ يظن أَنَّهُ لا يسمع دعاءهم لبعده عَنْهُم حتى يرفع الوسائطُ إليه ذلك، أَوْ يظن أن للمخلوق عليه حقًّا فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوقِ عليه، وَيتوسلُ إليه بذلك المخلوق، كما يتوسل النّاس إلى الأكابر وَالملوك بمن يعز عليهم وَلا يمكنهم مخالفتُه، وَكل هذا تنقص للربوبية، وَهضم لحقها، وَلو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله تَعَالَى، وَخوفِه، وَرجائِه، وَالتوكلِ عليه، وَالإنابةِ إليه، من قلب المشرك بسبب قسمته ذلك بينه سُبْحَانَهُ وَبين من أشرك به فينقص وَيضعف، أَوْ يضمحل ذلك التعظيم، وَالمحبة، وَالخوف، وَالرجاء، بسبب صرف أكثره أَوْ بعضه إلى من عبده من دونه لكفى في شفاعته.

فالشِّرك ملزوم لتنقصِ الرّب سُبْحَانَهُ، وَالتنقص لازم له ضرورة شاء المشرك أم أبى، وَلهذا اقتضى حمدُه سُبْحَانَهُ وَكمالُ ربوبيته أن لا يغفره، وَأن يخلِّد صاحبه في العذاب الأليم، وَيجعله أشقى البرية، فلا تجد مشركًا قط إلا وَهو متنقص لله سُبْحَانَهُ وَإن زعم أَنَّهُ يعظمه بذلك، كما أنك لا تجد مبتدعًا إلا وَهو متنقص للرسول ﷺ وَإن زعم أَنَّهُ معظم له بتلك البدعة، فَإِنَّهُ يزعم أنها خيرٌ من السنة وَأولى بالصواب، أَوْ يزعم أنها هي السنة إن كان جاهلًا مقلدًا، وَإن كان مستبصرًا في بدعته فهو مشاقٌّ لله وَرسوله، فالمتنقصون المنقوصون عند الله تَعَالَى وَرسوله وَأوليائه: هم أهل الشِّرك وَالبدعة[1].

---

(١) «إغاثة اللَّهفَان» (١٥٩).

اَلْكُفْرُ

اَلْكُفْرُ:

في اللّغةِ: التَّغطية وَالستر، وأصْل الكُفْر: تَغْطِيَةُ الشيء تغطيةً تَسْتَهْلِكُهُ[1].

وَشرعًا: ضد الإيمان، فَإِنَّ الكفر: عدم الإيمان بالله وَرسله، سواء كان معه تكذيبٌ، أَوْ لم يكن معه تكذيب، بل مجرد شك وَريب، أَوْ إعراضٍ، أَوْ حسدٍ، أَوْ كبرٍ، أَوْ اتباعٍ لبعض الأهواء الصادَّة عَنِ اتباع الرسالة.

وَإن كان المكذّب أعظم كفرًا، وَكذلك الجاحدُ وَالمكذِّب حسدًا؛ مع استيقان صدق الرسل[2].

* أَنْوَاعُ الْكُفْر *

اَلْكُفْرُ نَوْعَانِ:

- كُفْرٌ أَكْبَرُ.
- كُفْرٌ أَصْغَرُ.

○ **اَلنَّوْعُ اَلْأَوَّلُ: الْكُفْرُ الْأَكْبَرُ:**

يُخرج من الملة، وَهو خمسة أقسام.

---

(١) «النهاية» باب: «كفر».

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٣٣٥).

أقسام الكفر الأكبر:

❖ القسم الأول ❖

كفر التكذيب

والدليل قوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [العنكبوت: ٦٨].

❖ القسم الثاني

كفر الإباء والاستكبار مع التصديق

والدليل قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤].

❖ القسم الثالث ❖

كفر الشك

وهو كفر الظَّن.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف: ٣٥ ـ ٣٨].

❖ القسم الرابع ❖

كفر الإعراض

والدليل قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

❖ الْقِسْمُ الْخَامِسُ ❖

كُفْرُ النِّفَاقِ

وَالدليل قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾ [المنافقون: ٣].

قَالَ ابنُ القَيِّمِ: **وَأَمَّا الْكُفْرُ الْأَكْبَرُ فَخَمْسَةُ أَنْواعٍ:**

- كُفْرُ تَكْذِيبٍ.
- وَكُفْرُ استكبارٍ، وَإباءٍ مع التصديقِ.
- وَكُفْرُ إعراضٍ.
- وَكُفْرُ شَكٍّ.
- وَكُفْرُ نفاقٍ.

١ ـ فَأَمَّا كُفْرُ التَّكْذِيبِ:

فهو اعتقاد كذبِ الرسل، وَهذا القسم قليل في الكفار، فَإِنَّ الله تَعالَى أيد رسلَه وَأعطاهم من البراهين وَالآيات على صدقهم ما أقام به الحجةَ، وَأزال به المعذرةَ، قَالَ اللهُ تَعالَى عَنْ فرعون وَقومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وَقال لرسوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وَإن سُمِّي هذا كفر تكذيبٍ أيْضًا فصحيح، إذ هو تكذيب باللسان.

٢ ـ وَأَمَّا كُفْرُ الْإِبَاءِ وَالاسْتِكْبَارِ:

فنحو: كفر إبليس، فَإِنَّهُ لم يجحد أمر الله وَلا قابله بالإنكار، وَإنما تلقاه بالإباء وَالاستكبار، وَمن هذا كُفر من عرف صدق الرسول، وَأنه جاء بالحق من عند الله؛ وَلم يَنْقَدْ له إباءً وَاستكبارًا.

وَهو الغالب على كفر أعداء الرُّسل، كما حكى الله تَعالَى عَنْ فرعون وَقومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

وَقول الأمم لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

وَقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ [الشمس: ١١].

وَهو كفر اليهود، كما قَالَ تَعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

وَقال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وَهو كفر أبي طالب أيْضًا فَإِنَّهُ صدقه وَلم يشك في صدقه، وَلكن أخذته الحميةُ، وَتعظيم آبائه أن يرغب عَنْ ملتهم، وَيشهدَ عليهم بالكفر.

٣ ـ وَأَمَّا كُفْرُ الإِعْرَاضِ:

وهو أن يعرض بسمعه وَقلبه عَنِ الرسول لا يصدقه، وَلا يكذبه، وَلا يواليه، وَلا يعاديه، وَلا يصغي إلى ما جاء به البتة، كما قَالَ عبد ياليل من الطائف للنبي ﷺ: «والله لَا أُكَلِّمك كَلِمَةً أبدًا؛ لَئِنْ كُنْتَ رَسُولًا مِن الله كَمَا تَقُولُ؛ لَأَنْتَ أَعْظَمُ خطَرًا مِنْ أَنْ أَرُدّ عَلَيْكَ الكَلامَ؛ وَلَئِنْ كُنْتَ تَكْذِبُ عَلَى الله مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أُكَلِّمك!»(١).

٤ ـ وَأَمَّا كُفْرُ الشَّكِ:

فَإِنَّهُ لا يجزم بصدقِه وَلا بكذبِه بل يشك في أمره، وَهذا لا يستمر شكُّه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عَنْ النظر في آيات صدق الرسول جملة، فلا يسمعها وَلا يلتفت إليها، وَأما مع التفاتِه إليها وَنظرِه فيها فَإِنَّهُ لا يبقى معه شكٌّ لأنها مستلزمة للصدق وَلا سيما بمجموعها، فَإِنَّ دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار.

---

(١) «تاريخ الأمم والملوك» (١/ ٥٥٤).

٥ ـ وَأَمَّا كُفْرُ النِّفَاقِ:

فهو أن يُظهر بلسانه الإيمانَ؛ وَينطوي بقلبه على التكذيب، فهذا هو النفاق الأكبر.

○ النَّوْعُ الثَّانِي: كُفْرٌ أَصْغَر:

لا يُخرجُ من الملة، وَهو الكُفرُ العملي، وَهو الذنوب التي وَردت تسميتها في الكتاب وَالسنة كفرًا، وَهي لا تصل إلى حد الكفر الأكبر، مثل:

- **كُفْرُ النِّعْمَةِ:**

المذكور في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢].

- **قِتَالُ الْمُسْلِمِ:**

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»(١).

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبدِ اللهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»(٢).

فقد جَعَلَ ﷻ القاتل من الذين آمنوا، وَجعله أخًا لولي القاصّ فقال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]، والمرادُ: أخوة الدين، بلا ريب. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠](٣).

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٤٨)، ومُسْلِمٌ (٦٤). (٢) رَوَاهُ البُخَارِيّ (١٢١)، مُسْلِمٌ (٦٥).

(٣) «شرح الطحاوية» (٣٦١)، باختصار.

النِّفَاقُ

النفاق لغة: مصدر نافق، يُقال: نافق يُنافق نفاقًا وَمنافقة، وَهو مأخوذ من النافقاء: أحد مخارج اليربوع من جُحرِه؛ فَإِنَّهُ إذا طُلب من مخرج هرب إلى الآخر، وَخرج منه، وَقيل: هو من النفَق وَهو: السرب الذي يستتر فيه[1].

وأما النفاق في الشرع فمعناه: إظهارُ الإسلامِ وَالخيرِ، وَإبطانُ الكفرِ وَالشر؛ سمي بذلك لأنه يدخل في الشرع من باب، وَيخرج منه من باب آخر، وَعلى ذلك نبه الله تَعَالَى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧] أي: الخارجون من الشرع.

وجعل الله المنافقين شرًا من الكافرين فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ٩ ـ ١٠].

* أَنْوَاعُ النِّفَاقِ *

النِّفَاقُ نَوْعَانِ:

- النِّفَاقُ الِاعْتِقَادِيُّ.
- النِّفَاقُ الْعَمَلِيُّ.

---

(١) «النهاية» لابن الأثير باب: «نفق».

○ النَّوْعُ الأَوَّلُ: النِّفَاقُ الاِعْتِقَادِيُّ:

وَهو النفاق الأكبر الذي يُظهر صاحبُه الإسلامَ، وَيُبطن الكفرَ، وَهذا النوع مُخرج من الدين بالكلية، وَصاحبه فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

وهذا النفاق ستة أنواع[1]:

١ ـ تكذيب الرسول ﷺ.

٢ ـ تكذيب بعض ما جاء به الرسول ﷺ.

٣ ـ بُغضُ الرسول ﷺ.

٤ ـ بغضُ بعض ما جاء به الرسول ﷺ.

٥ ـ المسرَّة بانخفاض دين الرسول ﷺ.

٦ ـ الكراهية لانتصار دين الرسول ﷺ.

○ النَّوْعُ الثَّانِي: النِّفَاقُ الْعَمَلِيُّ:

وَهو عملُ شيءٍ من أعمال المنافقين؛ مع بقاء الإيمان في القلب، وَهذا لا يُخرج من الملة، لكنه وَسيلة إلى ذلك، وَصاحبه يكونُ فيه إيمانٌ وَنفاقٌ، وَإِذَا كثر؛ صارَ بسببه منافقًا خالصًا، وَالدليل عليه ما روي عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[2].

فمن اجتمعت فيه هذه الخصالُ الأربعُ، فقد اجتمع فيه الشر، وَخلصت فيه نعوت المنافقين، وَمن كانت فيه وَاحدةٌ منها صار فيه خصلة من النفاق، فَإِنَّهُ قد يجتمع في العبد خصال خير، وَخصال شر، وَخصال إيمان، وَخصال كفر وَنفاق، وَيستحق من الثواب وَالعقاب بحسب ما قام به من موجبات ذلك.

---

(١) «مجموعة التوحيد النجدية» ص(٩).

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٣٤)، مُسْلِمٌ (٥٨).

ومنه: التكاسل عَنْ الصَّلاةِ مع الجماعة في المسجد؛ فَإِنَّهُ من صفات المنافقين.

فالنفاق شر، وَخَطَرٌ جدًا، وَكان الصحابة يتخوَّفون من الوقوع فيه.

قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: «أَدْرَكْتُ ثَلاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ»(١).

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابن تيمية: «وكثيرًا ما تعرض للمؤمن شُعْبةٌ من شُعَبِ النِّفاقِ، ثم يتوبُ الله عليه، وَقد يَرِد على قلبه بعضُ ما يوجب النفاقَ، وَيدفعه الله عنه، وَالمؤمن يبتلى بوساوس الشَّيطان، وَبوساوس الكفر التي يضيق بها صدره، كما رُوي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُحَدِّثُ نَفْسِي بِالْحَدِيثِ لأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»(٣).

وَفِي رِوَايَةٍ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَحَدَنَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ يُعَرِّضُ بِالشَّيْءِ؛ لَأَنْ يَكُونَ حُمَمَةً أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. فَقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ»(٤).

أي حصول هذا الوسواس، مع هذه الكراهة العظيمة، وَدفعه عَنْ القلب، هو من صريح الإيمان»(٥).

---

(١) ذكره البُخَارِيّ تعليقًا (١/٢٦). (٢) صحيح: رَوَاهُ أحمد (٢/٣٩٧).

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٣٢).

(٤) صحيح: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٥١١٢) حُمَمَة: يكون فحمة أو رمادًا.

(٥) كتاب «الإيمان» ص(٢٣٨).

وأما أهل النفاق الأكبر، فقَالَ الله فيهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٨] أي: إلى الإسلام في الباطن.

وَقَالَ تَعَالَى فيهم: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة: ١٢٦].

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابن تيمية: «وقد اختلف العلماءُ في قبول توبتهم في الظاهر؛ لكون ذلك لا يُعلم، إذ هم دائمًا يظهرون الإسلام»[1].

والنِّفاق لم ينته بل هو الآن أخطر منه في عهد الرسول ﷺ.

وَتجد بعض النّاس يقع في صفة من صفات المنافقين من حيث يشعر، أَوْ لا يشعر، كأن يكون تحاكمُه مخالفًا لشرع الله ﷻ لا يرضى من الحكم إلا ما وافق الهوى كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

وقد أجمل ابن القيم وصفهم وبيَّن أحوالهم بما لا يوجد في كتابٍ مثلِه.

قَالَ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «النّفاقُ هو الدّاءُ العضالُ الباطنُ الذي يكون الرجلُ ممتلئًا منه وهو لا يشعر، فَإِنَّهُ أمر خفي على النّاس، وَكثيرًا ما يخفى على من تلبس به، فيزعم أَنَّهُ مصلح وَهو مفسد.

وَهو نَوْعَانِ: أَكْبَرٌ، وَأَصْغَرٌ. وهما الْاِعْتِقَادِي وَالْعَمَلِي.

فَالْاِعْتِقَادِي: وهو خلو القلب من الإيمان مع ظهوره على الجوارح.

وَالْعَمَلِي: هو وجود إيمانٍ في القلب مع ظهور بعض صفات النفاق على الجوارح.

فَالْأَكْبَرُ: يوجب الخلودَ في النار في دركها الأسفل، وَهو أن يُظهر للمسلمين إيمانَه بالله، وَملائكته، وَكتبه، وَرسله، وَاليوم الآخر، وَهو في الباطن منسلخ من ذلك كله، مكذب به، لا يؤمن بأن اللهَ تكلم بكلامٍ أنزله

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥).

على بشر جعله رسولًا للناس، يهديهم بإذنه، وَينذرهم بأسَه، وَيخوفهم عقابَه، وَقد هتك الله سُبْحَانَهُ أستارَ المنافقين، وَكشف أسرارهم في القرآن، وَجلَّى لعباده أمورهم ليكونوا منها وَمن أهلها على حذر، وَذكر طوائف العالم الثلاثة فى أول سُورَة «البقرة»: المؤمنين وَالكفار وَالمنافقين؛ فذكر في المؤمنين أربع آيات، وَفي الكفار آيتين، وَفي المنافقين ثلاث عشرة آية لكثرتهم، وَعموم الابتلاءِ بهم، وَشدة فتنتهم على الإسلام وَأهله، فَإِنَّ بليةَ الإسلام بهم شديدةٌ جدًا لأنهم منسوبون إليه، وَإلى نصرته وَموالاته، وَهم أعداؤه في الحقيقة يخرجون عداوتَه في كل قالب، يظن الجاهل أَنَّهُ علم وَإصلاح، وَهو غاية الجهل وَالإفساد.

فلله!! كم من معقل للإسلام قد هدموه!.

وَكم من حصن له قد قلعوا أساسه وَخرّبوه!.

وَكم من علم له قد طمسوه!.

وَكم من لواء له مرفوع قد وَضعوه!.

وَكم ضربوا بمعاول الشبه فى أصول غراسه ليقلعوه!.

وَكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوه وَيقطعوه!.

فلا يزال الإسلامُ وَأهلُه منهم في محنةٍ وَبلية، وَلا يزال يطرقه من شبههم سريةٌ بعد سريةٍ، وَيزعمون أنهم بذلك مصلحون، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١٢].

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨].

فيما اتفقوا؟؟؟

اتفقوا على مفارقة الوحي، فهم على ترك الاهتداءِ به مجتمعون، ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥٣].

﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وَلأجل ذلك ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

درستْ معالِمُ الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها، وَدثرت معاهدُه عندهم فليسوا يعمرونها، وَأفلت كواكبُه النيِّرةُ من قلوبهم فليسوا يحيونها، وَكسفت شمسُه عند اجتماع ظلم آرائهم وَأفكارهم فليسوا يبصرونها، لم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسولَه، وَلم يرفعوا به رأسًا، وَلم يروا بالإعراض عنه إلى آرائِهم وَأفكارِهم بأسًا، خلعوا نصوصَ الوحي عَنْ سلطنة الحقيقة، وَعزلوها عَنْ وَلاية اليقين، وَشنوا عليها غاراتِ التأويلاتِ الباطلة، فلا يزال يخرجُ عليها منهم كمينٌ بعد كمين، نزلت عليهم نزولَ الضَّيف على أقوامٍ لئام، فقابلوها بغير ما ينبغي لها من القبول وَالإكرام، وَتلقَّوْها من بعيد وَلكن بالدفع في الصدور منها وَالأعجاز، وَقالوا: ما لك عندنا من عبور، وَإن كان لا بد فعلى سبيل الاجتياز، أعدوا لدفعها أصناف العدد وَضروب القوانين. وَقالوا لما حلَّت بساحتهم: ما لنا وَلظواهر لفظية لا تفيدنا شيئًا من اليقين. وَعوامُّهم قالوا: حسبنا ما وَجدنا عليه خلفنا من المتأخرين، فإنهمُ أعلم بها من السَّلف الماضين، وَأقومُ بطرائق الحجج وَالبراهين، وَأولئك غلبت عليهم السَّذاجةُ، وَسلامةُ الصدور، وَلم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر وَلكن صرفوا همَمَهم إلى فعل المأمور وَترك المحظور، فطريقة المتأخرين: أعلم وَأحكم، وَطريقة السلف الماضين: أجهل... لكنها أسلم! أنزلوا نصوص السنة وَالقرآن منزلة الخليفة في هذا الزمان؛ اسمه على السّكة، وَفي الخطبة، فوق المنابر مرفوعٌ، وَالحكم النافذ لغيره[1]، فلا حجة له ولا برهانَ، فحكمُه غير مقبولٍ وَلا مسموع، لبسوا ثياب أهل الإيمان على قلوب أهلِ الزيغِ وَالخسرانِ، وَالغلِّ وَالكفرانِ، فالظواهر ظواهر الأنصار، وَالبواطن قد تحيزت إلى الكفار، فألسنتهم ألسنة المسالمين، وَقلوبهم قلوب المحاربين، وَيقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، رأسُ مالهم الخديعةُ وَالمكر،

(١) يريد ما قام به الأمراء من المماليك بالتفرد بالملك والسلطان، وجعل أمر الخليفة هامشيًا.

وَبضاعتُهم الكذب وَالختر[1]، وَعندهم العقل المعيشي؛ أن الفريقين عَنْهُم راضون وَهم بينهم آمنون: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة: ٩].

قد أنهكت أمراضُ الشُّبهاتِ وَالشهواتِ قلوبَهم فأهلكتها، وَغلبت القصودُ السيئة على إراداتهم وَنياتهم فأفسدتها، ففسادُهم قد ترامى إلى الهلاك فعجز عنه الأطباءُ العارفون، ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة: ١٠].

مَنْ علقت مخالبُ شكوكِهم بأديم إيمانِه مزقته كل تمزيق.

وَمَنْ تعلق شررُ فتنتِهم بقلبه ألقاه في عذاب الحريق.

وَمَنْ دخلتْ شبهاتُ تلبيسهم في مسامعِه حال بين قلبه وَبين التّصديق.

ففسادُهم في الأرض كثير، وَأكثر النّاس عنه غافلون.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ۝١٢﴾ [البقرة: ١١ ـ ١٢].

المتمسك عندهم بالكتاب وَالسنة صاحبُ ظواهرَ مبخوسٌ حظُّه من المعقول.

وَالدائر مع النصوص عندهم كحمارٍ يحمل أسفارًا، فهمه في حملِ المنقول.

وَبضاعة تاجر الوحي لديهم كاسدة، وَما هو عندهم بمقبول.

وَأهل الاتباع عندهم سفهاءُ، فهم في خَلَواتِهم وَمجالسهم بهم يتطيرون.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ۝١٣﴾ [البقرة: ١٣].

---

(١) خَتَرَ اللبن وغيره، يَخْتُرُ بمعنى ثخن واشتدّ، وقيل: هي القيح والمدة من الجرح. «المصباح المنير» (١/ ١٦٤).

لكل منهم وَجهان:

وَجه يلقى به المؤمنين.

وَوجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين.

وَله لسانان:

أحدهما: يقبله بظاهره المسلمون.

وَالآخر: يترجم به عَنْ سره المكنون، ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤].

قد أعرضوا عَنْ الكتاب وَالسّنة استهزاءً بأهلهما وَاستحقارًا، وَأبَوا أن ينقادوا لحكم الوحيين؛ فرحًا بما عندهم من العلم الذي لا ينفع الاستكثار منه أشرًا وَاستكبارًا، فتراهم أبدًا بالمتمسكين بصريحِ الوحي يستهزئون ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٥].

خرجوا في طلب التجارةِ البائرةِ في بحار الظلمات؛ فركبوا مراكب الشبه وَالشكوك، تجري بهم في موج الخيالاتِ، فلعبت بسفنِهم الريحُ العاصفُ فألقتها بين سفن الهالكين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة: ١٦].

أضاءت لهم نارُ الإيمان فأبصروا في ضوئها مواقع الهدى وَالضلال، ثم طُفىء ذلك النور وَبقيت نارًا تأججُ ذات لهب وَاشتعال، فهم بتلك النار معذبون، وَفي تلك الظلمات يعمهون، ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة: ١٧].

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقر(١)، فهي لا تسمع منادي الإيمان، وَعيون بصائرهم عليها غشاوة العمى، فهي لا تبصر حقائقَ القرآن، وَألسنتهم بها

---

(١) الوَقْرُ: ثِقَلٌ في الأُذن، بالفتح. وقيل: هو أن يذهب السمع كله، والثِّقَلُ أَخَفُّ من ذلك. وقد وَقِرَتْ أُذنه بالكسر تَوْقَرُ وقْرًا، أي: صَمَّتْ ووَقَرَتْ وَقْرًا. «لسان العرب» باب: «وقر».

خرسٌ عَنْ الحق، فهم به لا ينطقون ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾ [البقرة: ١٨].

أَثَرُ الْهُدَى عَلَى قُلُوبِهِمْ:

صاب عليهم صيبُ الوحي وَفيه حياة القلوب وَالأرواح، فلم يسمعوا منه إلا رعدَ التهديدِ وَالوعيدِ؛ وَالتكاليفَ التي وظفت عليهم في المساء وَالصّباح، فَجَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ، وَجَدُّوا في الهرب وَالطلب في آثارهم وَالصّياح، فنودي عليهم على رءوس الأشهاد، وَكشف حالهم للمستبصرين، وَضرب لهم مثلان بحسب حال الطائفتين منهم: المناظرين وَالمقلدين فقيل: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾ [البقرة: ١٩].

ضعفت أبصارُ بصائرهم عَنْ احتمال ما في الصَّيِّبِ من بروق أنواره وَضياء معانيه، وَعجزت أسماعُهم عَنْ تلقِّي رعودِه ووعودِه وَأوامرِه وَنواهيه، فقاموا عند ذلك حيارى في أودية التيه، لا ينتفع بسمعه السَّامع، وَلا يهتدي ببصره البصير، ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [البقرة: ٢٠].

عَلامَاتُهُمْ وَدَلاَئِلُ مَعْرِفَتِهِمْ:

لهم علاماتٌ يُعرفون بها مبينةٌ في السُّنة وَالقرآن، بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان، قام بهم وَالله الرياءُ، وَهو أقبح مقام قامه الإنسان، وَقعد بهم الكسلُ عما أُمروا به من أوامر الرحمن، فأصبح الإخلاصُ عليهم لذلك ثقيلًا، ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢]، أحدهم كالشاة العائرة «أي المُتَرَدِّدَةِ بين قَطِيعَين لا تَدْرِي أَيَّهُما تَتبَعُ» بين الغنمين تيعر إلى هذه مرة وَإلى هذه مرة وَلا تستقر مع إحدى الفئتين، فهم وَاقفون بين الجمعين

ينظرون أيهم أقوى وَأعز قبيلًا، ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: ١٤٣].

يتربصون الدوائر بأهل السنة وَالقرآن، فَإِنْ كَانَ لَهُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ. وَأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم، وَإن كان لأعداء الكتاب وَالسنة من النصرة نصيب قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم، وَأن النسب بيننا قريب.

فيا من يريد معرفتَهم، خذ صفتَهم من كلام رب العالمين فلا تحتاج بعده دليلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

يعجب السامعَ قولُ أحدهم لحلاوته وَلينه، وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ من كذبه وَمينه، فتراه عند الحق نائمًا، وَفي الباطل على الأقدام قائمًا، فخذ وَصفهم من قول القدوس السلام: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤].

أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنةٌ لفساد البلاد وَالعباد، وَنواهيهم عما فيه صلاحُهم في المعاش وَالمعاد، وَأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان في الصَّلاة، وَالذكر، وَالزهد، وَالاجتهاد، ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥]، فهم جنس بعضُه يشبه بعضًا يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه، وَينهون عَنْ المعروف بعد أن يتركوه، وَيبخلون بالمال في سبيل الله وَمرضاته أن ينفقوه، كم ذكَّرهم الله بنعمه فأعرضوا عَنْ ذكره وَنسوه، وَكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليجتنبوه، فاسمعوا أيها المؤمنون: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧].

إن حاكمتهم إلى صريح الوحي وَجدتَهم عنه نافرين، وَإن دعوتهم إلى حكم كتاب الله وَسنة رسوله ﷺ رأيتهم عنه معرضين، فلو شهدت حقائقَهم لرأيت بينها وَبين الهدى أمدًا بعيدًا، وَرأيتها معرضة عَنْ الوحي إعراضًا شـــديـــدًا، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١].

فكيف لهم بالفلاح وَالهدى بعد ما أُصيبوا في عقولهم وَأديانِهم، وَأنى لهم التخلصُ من الضلال وَالردى! وَقد اشتروا الكفرَ بإيمانهم فما أخسرَ تجارتَهم البائرة! وَقد استبدلوا بالرّحيق المختوم حريقًا، ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦٢].

نشب زقوم الشبهِ وَالشكوكِ في قلوبهم فلا يجدون له مسيغًا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٣].

تبًّا لهم!! ما أبعدَهم عَنْ حقيقة الإيمان، وَما أكذبَ دعواهم للتحقيقِ وَالعرفَانِ!! فالقوم في شأنٍ وَأتباع الرسول في شأنٍ، لقد أقسم الله ﷻ في كتابه بنفسه المقدسة قسمًا عظيمًا يعرف مضمونَه أولو البصائر، فقلوبهم منه على حذر إجلالًا له وَتعظيمًا، فقَالَ تَعالَى تحذيرًا لأوليائه وَتنبيهًا على حال هؤلاء وَتفهيمًا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

وَصْفُ الْمُنَافِقِين

تسبق يمينُ أحدهم كلامَه من غير أن يعترض عليه:

لعلمه أن قلوب أهلِ الإيمان لا تطمئن إليه فيتبرأ بيمينه من سوءِ الظن به وَكشف ما لديه، وَكذلك أهلُ الريبةِ يكذبون وَيحلفون؛ ليحسب السّامع أنهم صادقون، ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢﴾ [المنافقون: ٢].

تبًّا لهم برزوا إلى البيداءِ مع ركب الإيمان، فلما رأوا طول الطريق وَبعد الشقة نكصوا على أعقابهم وَرجعوا، وَظنوا أنهم يتمتعون بطيب العيش وَلذة المنام في ديارهم فما متعوا به، وَلا بتلك الهَجْعَةِ انتفعوا، فما هو إلا أن صاح بهم الصائحُ فقاموا عَنْ موائد أطعمتهم، وَالقوم جياع ما شبعوا، فكيف حالهم عند اللقاء وَقد عرفوا ثم أنكروا؛ وَعموا بعد ما عاينوا الحق وَأبصروا، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾ [المنافقون: ٣].

أحسنُ النّاس أجسامًا، وَأخلبهم لسانًا، وَألطفهم بيانًا، وَأخبثهم قلوبًا، وَأضعفهم جنانًا، فهم كالخشب المسندة؛ التي لا ثمر لها قد قلعت من مغارسها فتساندت إلى حائط يقيمها لئلا يطأها السالكون، ﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾ [المنافقون: ٤].

يؤخرون الصَّلاة عَنْ وَقتها الأول إلى شرق الموتى[1]، فالصبح عند

---

(١) أي إلى أن يبقى من الشمس مقدار ما يبقى من حياة من شَرِق بريقه عند الموت ـ فعجل موته. «النهاية» (٢/١١٤٣).

طلوع الشمس، وَالعصر عند الغروب، وَينقرونها نقر الغراب، إذ هي صلاة الأبدان لا صلاة القلوب، وَيلتفتون فيها التفات الثعلب إذ يتيقن أَنَّهُ مطرود مطلوب.

وَلا يشهدون الجماعة، بل إن صلى أحدهم ففي البيت أَوْ الدكان، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ. وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ.

هذه معاملتهم للخلق، وَتلك معاملتهم للخالق، فخذ وَصفَهم من أول «المطففين» وَآخر «وَالسماء وَالطارق» فلا يُنَبِّئُكَ عَنْ أوصافهم مِثْلُ خَبِيرٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣].

بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالإِيمَانِ:

فما أكثرَهم! وَهم الأقلون، وَما أجبرَهم! وَهم الأذلون، وَما أجهلَهم! وَهم المتعالمون، وَما أغرَّهم بالله! إذ هم بعظمته جاهلون، ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة: ٥٦].

إن أصاب أهلَ الكتاب وَالسُّنة عافيةٌ وَنصر وَظهور، ساءهم ذلك وَغمهم، وَإن أصابهم ابتلاءٌ من الله وَامتحان يمحص به ذنوبهم وَيكفر به عَنْهُم سيئاتِهم أفرحهم ذلك وَسرّهم، وَهذا يحقق إرثَهم وَإرث من عداهم، وَلا يستوي مَنْ موروثه الرسول وَمَنْ موروثهم المنافقون، ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: ٥٠ ـ ٥١].

وَقَالَ تَعَالَى في شأن السَّلفين المختلفين وَالحقُ لا يندفع بمكابرةِ أهل الزيغ وَالتخليط: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٢٠].

كره الله طاعاتَهم لخبث قلوبهم وَفسادِ نياتهم فثبطهم عنها وَأقعدهم، **وَأبغض** قربهم منه وَجواره لميلهم إلى أعدائه، فطردهم عنه وَأبعدهم، **وَأعرضوا** عَنْ وَحيه فأعرض عَنْهُم، وَأشقاهم وَما أسعدهم، وَحكم عليهم بحكم عدلٍ لا مطمعَ لهم في الفلاح بعده إلا أن يكونوا من التائبين، فقَالَ تَعَالَى: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: ٤٦].

ثم ذكر حكمته في تثبيطِهم، وَإقعادِهم، وَطردِهم عَنْ بابه، وَإبعادِهم وَأن ذلك من لطفه بأوليائه وَإسعادِهم، فقال وَهو أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة: ٤٧].

ثقلت عليهم النصوصُ فكرهوها، وَأعياهم حملُها فألقوها عَنْ أكتافهم وَوَضَعُوها، وَتفلتت منهم السُّننُ أن يحفظوها فأهملوها وَصالت عليهم نصوصُ الكتابِ وَالسُّنة فوضعوا لها قوانين ردوها بها وَدَفَعُوها، وَلقد هَتك الله أستارهم، وَكشف أسرارهم، وَضرب لعباده أمثالَهم، وَأعلم أَنَّهُ كلما انقرض منهم طوائفُ خلفهم أمثالُهم، فذكر أوصافَهم لأوليائه ليكونوا منها على حذر، وَبيَّنها لهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [محمد: ٩].

هذا شأن من ثقلت عليه النصوصُ فرآها حائلة بينه وَبين بدعته وَهواه، فهي في وَجهه كالبنيان المرصوص فباعها بمحصل من الكلام الباطل، وَاستبدل منها بالفصوص فصوص الحكم لابن عربي[(١)]، فأعقبهم ذلك أن

---

(١) وابن عربي ـ هذا ـ الطّائي قال فيه العز ابن عبد السلام: شيعي سوء كذاب. وكتابه هذا من كتب الضلالة، قال الذهبي عنه: فوالله لأن يعيش المسلم جاهلًا خلف البقر لا يعرف من العلم شيئًا سوى سور من القرآن؛ يصلي بها الصلوات، ويؤمن بالله وباليوم الآخر؛ خير له بكثير من هذا العرفان وهذه الحقائق، ولو قرأ مائة كتاب أو عمل مائة خلوة. طبقات الحفاظ (١/ ١٠٧).

أفسد عليهم إعلانهم وإسرارهم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٦ ـ ٢٨].

أسروا سرائرَ النفاق فأظهرها الله على صفحاتِ الوجوه منهم وَفلتات اللسان، وَوسمهم لأجلها بسيماء لا يخفَوْن بها على أهل البصائر وَالإيمان، وَظنوا أنهم إذ كتموا كفرهم وَأظهروا إيمانهم راجوا على الصَّيارف وَالنقادِ، كيف وَالناقد البصير قد كشفها لكم: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد: ٢٩ ـ ٣٠].

عَاقِبَةُ النِّفَاقِ وَالْمُنَافِقِينَ:

فكيف إذا جمعوا ليوم التلاقِ وَتجلى الله ﷻ للعباد، وَقد كشف عَنْ سَاقٍ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٤٢ ـ ٤٣].

أم كيف بهم إذا حُشروا إلى جسر جهنم وَهو أدقُ من الشعرة وَأحدُّ من الحسام، وَهو دحض مزلة، مظلم لا يقطعه أحدٌ إلا بنور يبصر به مواطئَ الأقدامِ، فقسِّمت بين النّاس الأنوارُ وَهم على قدر تفاوتها في المرور وَالذهاب، وَأعطوا نورًا ظاهرًا مع أهل الإسلام، كما كانوا بينهم في هذه الدار يأتون بالصَّلاة، وَالزكاة، وَالحج، وَالصيام، فلما توسطوا الجسر عصفت على أنوارهم أهويةُ النفاق فأطفأت ما بأيديهم من المصابيح، فوقفوا حيارى لا يستطيعون المرور، فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ وَبين أهل الإيمان بِسُورٍ لَهُ بَابٌ، وَلكن قد حيل بين القوم وَبين المفاتيح، بَاطِنُهُ الذي يلي المؤمنين فِيهِ الرَّحْمَةُ، وَما يليهم مِنْ قِبَلِهِم الْعَذَابُ وَالنقمة، ينادون من تقدمهم من وَفد الإيمان، وَمشاعلُ الركب تلوح على بعد كالنجوم تبدو لناظر الإنسان، انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ

لنتمكن في هذا المضيق من العبور فقد طفئت أنوارُنا، وَلا جواز اليوم إلا بمصابيحَ من النور قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا، حيث قسمت الأنوار، فهيهات الوقوف لأحدٍ في مثل هذا المضمار، كيف نلتمس الوقوف في هذا المضيق، فهل يلوي اليوم أحدٌ على أحدٍ في هذا الطريق؟ وَهل يلتفت اليوم رفيق إلى رفيق؟ فذكَّروهم باجتماعهم معهم وَصحبتهم لهم في هذه الدار، كما يذكر الغريبُ صاحبَ الوطن بصحبته له في الأسفار «أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ» نصوم كما تصومون، وَنصلي كما تصلون، وَنقرأ كما تقرؤون، وَنتصدق كما تصدقون، وَنحج كما تحجون، فما الذي فرق بيننا اليوم حتى انفردتم دوننا بالمرور؟ قَالُوا: بَلَى، وَلَكِنَّكُمْ كانت ظواهركم معنا، وَبواطنكم مع كل ملحدٍ وَكل ظلوم كفورٍ، ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد: ١٤ ـ ١٥].

لا تستطل أوصافَ القوم، فالمتروك وَالله أكثر من المذكور، كاد القرآن أن يكون كلُّه في شأنهم لكثرتهم على ظهر الأرض، وَفي أجواف القبور، فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات، وَتتعطل بهم أسباب المعايش، وَتخطفهم الوحوش وَالسباع في الفلوات.

سمع حذيفة ﷺ رجلًا يقول: اللهم أهلك المنافقين، فقال: «يا ابن أخي لَو هَلَكَ المنافِقُونَ لاسْتَوْحَشْتُم في طُرُقَاتِكم مِنْ قِلَّةِ السَّالِك»[1].

خَوْفُ السَّلَفِ مِنْ النِّفَاقِ:

تالله لقد قطع خوفُ النفاق قلوبَ السابقين الأولين، لعلمهم بدقِّه وَجلِّه، وَتفاصيله وَجمله، ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ:

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣١٣ ـ ٣٢٠).

«مِنْ أَصْحَابِي مَنْ لا يَرَانِي بَعْدَ أَنْ أَمُوتَ أَبَدًا، فَجَاءَ عُمَرُ فَدَخَلَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: أَنْشُدُكِ اللهَ[1] أَنَا مِنْهُمْ؟ قَالَتْ: لا، وَلا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَكَ أَبَدًا، فَبَكَى عُمَرُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ»[2].

قَالَ عمر بن الخطاب لحذيفة رضي الله عنهما: «يا حذيفة نَشْدتك بالله هل سمَّاني لك رَسُول اللهِ منهم؟»، قَالَ: «لا، وَلا أُزَكِّي بَعْدَكَ أَحَدًا»[3].

وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: «أَدْرَكْتُ ثَلاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ»[4].

وَيُذْكَرُ عَنِ الْحَسَنِ: «مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ»[5].

وَلقد ذكر عَنْ أبي الدرداء قال: «استعيذوا بالله من خشوع النفاق، قيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أَنْ تَرَى الجسدَ خَاشِعًا؛ والقلب ليس بخاشع»[6].

تالله لقد مُلِئَتْ قلوبُ القوم إيمانًا وَيقينًا، وَخوفهم من النفاق شديد، وَهمهم لذلك ثقيل، وَسواهم كثير منهم، لا يجاوز إيمانُهم حناجرَهم، وَهم يدَّعُون أن إيمانهم كإيمان جبريل وَميكائيل، زرع النفاق ينبت على ساقيتين: ساقيةِ الكذبِ وَساقيةِ الرياءِ، وَمخرجهما من عينين: عينِ ضعف البصيرة وَعين ضعف العزيمة، فإذا تمت هذه الأركان الأربع استحكم نباتُ النفاق وَبنيانه، وَلكنه بمدارج السُّيول عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ، فإذا شاهدوا سيل الحقائق يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ، وَكشف المستور، وَبُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ، تبين حينئذ لمن كانت بضاعتُه النفاقَ أن حواصله التي حصَّلها كانت كَالسَّرَابِ

---

(١) يقال: نَشَدتُك اللهَ، وأَنْشُدُكَ اللهَ وبالله، وناشَدتُك اللهَ وباللهِ: أي سألتُك وأقسمتُ عليك. «النهاية» (٥/ ١٢٧).

(٢) رَوَاهُ الطبراني «المعجم الكبير» (٢٣/ ٣١٧).

(٣) لم أجده موصولًا ولعله أخذ من الأثر الذي قبله.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) رَوَاهُ البُخَارِيّ تعليقًا.

(٦) رَوَاهُ البيهقي «شعب الإيمان» (٥/ ٣٦٤).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٣٩﴾ [النور: ٣٩].

قلوبُهم عَنْ الخيرات لاهيةٌ، وَأجسادُهم إليها ساعيةٌ، وَالفاحشة في فجاجهم فاشية، وَإِذَا سمعوا الحقَّ كانت قلوبُهم عَنْ سماعه قاسيةٌ، وَإِذَا حضروا الباطلَ وَشهدوا الزُّور انفتحت أبصار قلوبهم، وَكانت آذانُهم وَاعيةً.

فهذه وَالله أماراتُ النفاق فاحذرها أَيُّها الرَّجلُ، قبل أن تنزل بك القاضية إذا عاهدوا لم يفوا، وَإن وَعدوا أخلفوا، وَإن قالوا لم ينصفوا، وَإن دُعُوا إلى الطاعة وَقفوا، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ صدفوا، وَإِذَا دعتهم أهواؤُهم إلى أغراضهم أسرعوا إليها وَانصرفوا، فذرهم وَما اختاروا لأنفسهم من الهوان وَالخزي وَالخسران، فلا تثقْ بعهودهم، وَلا تطمئنَّ إلى وعودهم فإنهم فيها كاذبون، وَهم لما سواها مخالفون، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝٧٧﴾ [التوبة: ٧٥ ـ ٧٧][1].

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٧).

الْكِبْرُ

الكِبر بالكسر: وَهو العظمةُ والكبرياء، وَيقال: كَبُر بالضّم يَكْبُر أي عَظُم فهو كبير[1].

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال ابن كثير: «سأمنع فهمَ الحجَجِ والأدلةِ على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوبَ المتكبرين عَنْ طَاعتي، ويتكبرون على النّاس بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل»[2].

﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي أنهم يَرَوْنَ أنهم أَفضلُ الخلق، وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم، وهذه الصفة لا تكون إلا لله خاصة.

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ ﷻ: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»[3].

وَلما كانت الكبرياءُ أعظمَ وَأوسعَ كانت أحق باسم الرداء، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ الكبير المتعال فهو سُبْحَانَهُ العلي العظيم.

ولما كان الكبرُ صفةً من صِفات الله تَعالَى لأنه سُبْحَانَهُ الكاملُ في أسمائهِ وَصفاته، وَأنه الموصوف بكلّ كمال، المنزه عَنْ كل عيب وَنقص، فالكمال كله وَالجمال وَالجلال وَالبهاء وَالعزة وَالعظمة وَالكبرياءُ كلُّه من لوازم ذاته يستحيل أن يكون على غير ذلك، فالحياةُ كُلّها له، وَالعلم كله له،

---

(١) «المصباح المنير». مادة «كبر». (٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٢٩).

(٣) صحيح: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٠٩٠)، قال الشيخ الألباني: صحيح.

وَالقدرة كُلّها له، وَالسمع وَالبصر وَالإرادة وَالمشيئة وَالرحمة وَالغنى وَالجود وَالإحسان وَالبر كله خاص له قائم به، وَما خفي على الخلق من كماله أعظمُ وَأعظمُ مما عرفوه منه، بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه فمن نازعه في شيء من ذلك كان من أظلم الظالمين.

فمن تَلبَّس بالكبر من بني البشر فقد تلبس بالدّاء الذي ليس معه دواءٌ فهو داءٌ مهلك، وَالمتكبر سقيم مريض وَهو عند الله ممقوت بغيض.

فالإنسان إذا رأى نفسه بعين الاستعظام كَبُر وَانتفخ وَتعزز، ثم هذه العزة تقتضي أعمالًا في الظاهر وَالباطن هي ثمراتُ كبرِه، وَيسمى ذلك تكبرًا، فَإِنَّهُ مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقَّر مَنْ دونه وَازدراه، وَأقصاه عَنْ نفسه وَأبعده، وَترفع عَنْ مجالسته وَمؤاكلته، وَرأى أن حقَّه أن يقوم ماثلًا بين يديه إن اشتد كبره، فَإِن كان أشد من ذلك استنكف عَنْ استخدامه وَلم يجعلْه أهلًا للقيام بين يديه، وَلا بخدمة عتبته، فَإِن كان دون ذلك فيأنفُ من مساواته، وَتقدمَ عليه في مضايق الطرق، وَارتفع عليه في المحافل، وَانتظر أن يبدأه بالسلام، وَاستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وَتعجب منه، وَإن حاجَّ أَوْ ناظر أنِف أن يرد عليه، وَإن وُعِظَ استنكف من القبول، وَإن وعظ عنف في النصح، وَإن رد عليه شيء من قوله غضب، وَإن علَّم لم يرفق بالمتعلمين وَاستذلهم وَانتهرهم وَامتن عليهم وَاستخدمهم، وَتراه ينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالًا لهم وَاستحقارًا.

فهذا هو الكبر الذي يفسد القلوبَ وَيأسر النفوسَ، فآفتُه عظيمةٌ، وَغائلته هائلة، وَفيه يهلك الخواص من الخلق، وَقلما ينفك عنه العباد وَالزهاد وَالعلماء فضلًا عَنْ عوام الخلق.

- **وقد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه، وَذم كل جبار متكبر:**

فقَالَ تَعَالَى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وَقال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [إبراهيم: ١٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

وَقَالَ تَعَالَى ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

قَالَ ابن عباس في قوله تَعَالَى: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]، قَالَ: «عظمة لم يبلغوها، ففسر الكبر بتلك العظمة».

• وذمُّ الكِبْرِ في السُّنة كثيرٌ:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرِيَاءَ»[1].

فانظر كيف جعل النبي ﷺ الكبرَ ضِدّ الإيمان، فذرةٌ من إيمان لا تجتمع مع ذرةٍ من كبر.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَعَجَزُهُمْ. قَالَ اللهُ لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي. وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا»[2].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ عِنْدَ ذِكْرِ أَهْلِ النَّارِ: «كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ[3] مُسْتَكْبِرٍ جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ»[4].

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٩١).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيّ (٤٨٥٠)، مُسْلِمٌ (٢٨٤٦).

(٣) الجَعْظَرِيّ: الفَظُّ الغليظ المُتَكَبِّر. وقيل: هو الذي يَنْتَفِخ بما ليْس عنده. «النهاية» (١/ ٢٧٧). الجوّاظ: الجَمُوع المَنُوع. وقيل: الكَثِيرُ اللَّحم المُخْتال في مِشْيَته، وقيل: القَصِير البَطِين. «النهاية» (١/ ٨٣٩).

(٤) إسناده صحيح: رَوَاهُ أحمد (٢/ ١٦٩).

وَعَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ(١) وَالْمُتَفَيْهِقُونَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: «الْمُتَكَبِّرُونَ»(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا(٣)»(٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي قَدْ أَعْجَبَتْهُ جُمَّتُهُ(٥) وَبُرْدَاهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ الْأَرْضُ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ(٦) حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»(٧).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بن عمر رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٨).

عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: «مَرَرْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفِي إِزَارِي اسْتِرْخَاءٌ فَقَالَ: «يَا عَبْدَ اللهِ ارْفَعْ إِزَارَكَ»، فَرَفَعْتُهُ، ثُمَّ قَالَ: «زِدْ»، فَزِدْتُ، فَمَا زِلْتُ أَتَحَرَّاهَا بَعْدُ فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: إِلَى أَيْنَ؟، فَقَالَ: أَنْصَافِ السَّاقَيْنِ»(٩).

---

(١) الأشدَاقُ: جوانبُ الفَم، وإنما يكونُ ذلك لرُحْب شِدْقَيه. والعَرَب تَمْتدح بذلك. الثِّرثَارُون المُتَشدِّقون: فهم المُتوَسِّعون في الكلام من غير احتياطٍ واحترازٍ. وقيل: أرادَ بالمُتَشدِّق: المُسْتَهزِىءَ بالناس يَلْوى شِدْقَة بهم وعليهم. «النهاية» (٢/ ١١٢١).

(٢) صحيح: رَوَاهُ الترمذي (٢٠١٨)، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

(٣) البَطَر: الطُّغْيان عند النّعْمة وطُولِ الْغِنَى. «النهاية» (١/ ٣٤٩).

(٤) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٥٧٨٨)، مُسْلِمٌ (٢٠٨٧).

(٥) ما سَقَط على المَنْكِبين. «النهاية» (١/ ٨١٤).

(٦) أي يَغُوص في الأرض حين يُخْسَفُ به. والجَلْجَلَة: حَركة معَ صَوْت. «النهاية» (١/ ٧٨٦).

(٧) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٠٨٨).

(٨) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٣٦٦٥)، ومسلم (٢٠٨٥).

(٩) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٠٨٦).

فكانت هذه حَالُ ابْنِ عُمَرَ؛ ما زال ينصح ويذكر حتى آخر رمق.

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: «أَرْسَلَنِي أَبِي إِلَى ابْنِ عُمَرَ فَقُلْتُ: أَأَدْخُلُ؟ فَعَرَفَ صَوْتِي فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ إِذَا أَتَيْتَ إِلَى قَوْمٍ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ فَإِنْ رَدُّوا عَلَيْكَ فَقُلْ: أَأَدْخُلُ؟ قَالَ: ثُمَّ رَأَى ابْنَهُ وَاقِدًا يَجُرُّ إِزَارَهُ فَقَالَ: ارْفَعْ إِزَارَكَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ مِنَ الْخُيَلَاءِ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ»[1].

وَمِنَ الْآثَارِ:

عَنْ أبي بكر الهذلي قَالَ: «بينما نحنُ مع الحسنِ إذ مرَّ علينا ابنُ الأهتم يريد المقصورةَ؛ وَعليه جباب خزٍّ قد نُضِّدَ بَعضُها فوق بعض على ساقه؛ وَانفرج عنها قباؤه، وَهو يمشي يتبخترُ، إذ نظر إليه الحسنُ نظرةً فقال: أفٍّ أف شامخٌ بأنفه، ثاني عطفه، مصعِّر خده، ينظر في عطفيه، أي حميقٍ أنت تنظر في عطفيك، في نعمٍ غيرِ مشكورة وَلا مذكورة، غير المأخوذ بأمر الله فيها، وَلا المؤدي حق الله منها، وَالله أن يمشي أحد طبيعته يتخلق تخلق المجنون، في كل عضوٍ من أعضائه لله نعمةٌ وَللشيطان به لفتةٌ، فسمع ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه، فقال: لا تعتذر إليَّ وَتب إلى ربك، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧]»[2].

وروي أن عمر بن عبد العزيز، حجَّ قبل أن يُستخلفَ، فنظر إليه طاووس وهو يختال في مشيته فغمز جنبه بأصبعه وقال: «ليست هذه مشية من في بطنه خُرءٌ»، فقال عمر كالمعتذر: يا عم، ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها[3].

---

(١) صحيح: رَوَاهُ أحمد (٢/ ٣٣).

(٢) ابن أبي الدنيا «التواضع والخمول» (٢٣٧)، «الورع» (١١٣).

(٣) ابن أبي الدنيا «التواضع والخمول» (٢٤١).

وَرأى محمد بن وَاسع وَلده يختال فدعاه وَقال: «أتدري من أنت؟ أمّا أمك فاشتريتها بمائتي درهم، وَأما أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثلَه»[1].

«ومرّ المهلَّب بن أبي صفرة على مالك بن دينار وهو يتبختر في مشيته، فقال له مالك: أما علمت أن هذه المشيةَ تُكره إلا بين الصّفَّين؟ فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال له: أعرفك أحسنَ المعرفة. قال: وما تعرف مني؟! قال: أما أوَّلك نطفة مذرة، وأما آخرك فجيفة قذرة، وأنت بينهما تحمل العذرة. قال: فقال المهلب: الآن عرفتني حق المعرفة»[2].

في قوله تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ٣٣﴾ [القيامة: ٣٣]. قال ابن جرير: ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ يلوي مطاه تبخترًا، والمطا: هو الظهر، ومنه الخبر عن رسول الله ﷺ: «إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي بالمُطيطَياءَ»[3] وذلك أن يلقي الرجل بيديه ويتكفأ.

وعن إسماعيل بن أمية عن مجاهد في قوله تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ٣٣﴾ قال: رأى رجلًا من قريش يمشي، فقال: هكذا كان يمشي كما يمشي هذا، كان يتبختر[4].

وَالكبر نوعان:

○ النَّوْعُ الْأَوَّلُ: اَلتَّكَبُّرُ عَلَى اَلْحَقِّ:

كبر يحيل بين العبد وَقبول الحقِّ، وهو شر أنواع الكبر وَيمنع من

---

(١) ابن أبي الدنيا «محاسبة النفس» (٣٨).

(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٨٤).

(٣) صحيح: رَوَاهُ الترمذي (٢٢٦١)، والحديث: عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي بِالْمُطَيْطِيَاءِ، وَخَدَمَهَا أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ أَبْنَاءُ فَارِسَ وَالرُّومِ سُلِّطَ شِرَارُهَا عَلَى خِيَارِهَا».
المُطيطياء: وهو الخُيَلاءُ والتَّبَخْتُر، وهي مِشْية فيها تَبَخْتُر ومَدُّ اليدين.

(٤) «تفسير الطبري» (١٢/ ٣٥٠).

استفادة العلم وَقبول الحق وَالانقياد له، وَفيه وَردت الآيات التي فيها ذم الكبر وَالمتكبرين:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣].

ثم قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: ٧٢]

ثم أخبر أن أشد أهل النار عذابًا أشدهم عتيًا على الله تَعالَى، فقال اللهُ تَعالَى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ [مريم: ٦٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

وَقَال ﷻ: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قيل في التفسير: سأرفع فهم القرآن عَنْ قلوبهم. وَفي بعض التفاسير: سأحجب قلوبهم عَنْ الملكوت.

وقال ابن جريج: سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها وَيعتبروا بها(١).

وَلذلك ذكر رَسُول اللهِ ﷺ جحود الحقّ في حد الكبر وَالكشف عَنْ حقيقته، فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ

(١) «تفسير البغوي» (١/ ٢٨٢).

فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النّاس»[(١)].

○ **الْنَّوْعُ الْثَّانِي: الْتَّكَبُّرُ عَلَى الْعِبَادِ:**

وَذلك بأن يستعظم نفسَه وَيستحقرَ غيره، فتأبى نفسه عَنْ الانقياد لهم، وَتدعوه إلى الترفع عليهم، فيزدريهم وَيستصغرهم، وَيأنف عَنْ مساواتهم، وَهذا وَإن كان دون الأول، فهو أيْضًا عظيمٌ من وَجهين:

أحدهما: أن الكبر وَالعزّ وَالعظمة وَالعلاء لا يليق إلا بالملكِ القادرِ، فأما العبدُ المملوكُ الضّعيفُ العاجزُ الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليقُ بحالِه الكبر، فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تَعَالَى في صفة لا تليق إلا بجلاله، وَمثالُه أن يأخذ الغلامُ قلنسوةَ الملك فيضعها على رأسه وَيجلسُ على سريره فما أعظم استحقاقه للمقت، وَما أعظم تَهدُّفه للخزي وَالنكال، وَما أشدَّ استجراءه على مولاه، وَما أقبحَ ما تعاطاه، وَإلى هذا المعنى الإشارة في الحديث القدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَالَ اللهُ ﷻ: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»[(٢)].

أي أَنَّهُ خاص صفتي وَلا يليق إلا بي، وَالمنازعُ فيه منازع في صفة من صفاتي، وَإِذَا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به، فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه، إذ الذي يسترذل خواصَّ غلمان الملك وَيستخدمُهم وَيترفع عليهم وَيستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازعٌ له في بعض أمره وَإن لم يبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره وَالاستبداد بملكه، فالخلق كلُّهم عباد الله، وَله العظمة والكبرياء عليهم، فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه.

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٩١).

(٢) حسن: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٠٩٠)، أحمد (٢/٢٤٨).

فمن تعاظم وَتكبر، وَدعا النّاس إلى إطرائه في المدح وَالتّعظيم وَالخضوع وَالرجاء، وَتعليق القلب به خوفًا وَرجاءً وَالتجاء وَاستعانة فقد أشرك بالله، وَنازعه في ربوبيته وَإلهيته، وَهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان، وَيذلَّه غاية الذل، وَيجعلَه تحت أقدام خلقه.

قال الهيثم بن مالك الطائي: سمعت النعمان بن بشير يقول على المنبر: «إن للشيطان فخوخًا وَمصالي[1]، وَإن من مصالي الشَّيطان وَفخوخِه البطرَ بأنعم الله، وَالفخرَ بإعطاء الله، وَالكبرياءَ على عباد الله، وَاتباعَ الهوى في غير ذات الله»[2].

قَالَ ابن القيم: «وَكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾: تدفع الرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]: تدفع الكبرياء، فإذا عوفي من مرض الرياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، وَمن مرض الكبرياء وَالعجب بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وَمن مرض الضلال وَالجهل بـ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] عوفي من أمراضه وَأسقامه، وَرفل في أثواب العافية، وَتمت عليه النعمة، وَكان من المنعم عليهم، ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾: وَهم أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق وَعدلوا عنه، وَ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] وَهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحقَّ وَلم يعرفوه»[3].

مِنْ صُوَرِ الْكِبْرِ:

خُبْثُ النَّفْسِ وفَسَادُ القَلْبِ:

أن يخوض العبدُ في العلم وَهو خبيثُ الدخلة؛ رديء النفس سيء الأخلاق، فَإِنَّهُ لم يشتغل أولًا بتهذيب نفسه وَتزكية قلبه بأنواعِ المجاهدات، وَلم يَرُضْ نفسه في عبادة ربه، فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم أيِّ

(١) المصالي: شبيهة بالشَّرَك تُنْصَبُ للطَّيْرِ وغيرها.
(٢) رواهُ البُخَارِيّ «الأدب الفرد» (٥٥٣). (٣) «مدارج السالكين» (١/ ٦٦).

علمٍ كان صادف العلمُ من قلبه منزلًا خبيثًا فلم يطب ثمره وَلم يظهر في الخير أثره.

وقد ضرب وَهب لهذا مثلًا فقال: «العِلْمُ كالغيثِ ينزل من السَّماء حُلْوًا صافيًا، فتشربه الأشجار بعروقها فتحوِّلُه على قدر طعومها، فيزداد المر مرارة، وَالحلو حلاوة، فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوِّله على قدر هممها وَأهوائها، فيزيد المتكبر كبرًا وَالمتواضع تواضعًا، وَهذا لأن من كانت همته الكبر وَهو جاهل فإذا حفظ العلم وَجد ما يتكبر به فازداد كبرًا، وَإِذَا كان الرجل خائفًا مع جهله فازداد علمًا علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفًا وَإشفاقًا وَذلًّا وَتواضعًا، فالعلم من أعظم ما يتكبر به، وَلذلك قَالَ تَعَالَى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وَقال ﷻ: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وَوصف أولياءه فقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقد صلى حذيفة بقوم فلما سلم من صلاته قَالَ: «لتلتمسنَّ إمامًا غيري أَوْ لتصلُنَّ وِحدانًا، فإني رأيت في نفسي أَنَّهُ ليس في القوم أفضل مني»(١).

فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة؟! فما أعزّ على بسيط الأرض عالمًا يستحقُّ أن يقال له عالم ثم أَنَّهُ لا يحركه عز العلم وَخيلاؤه، فَإن وَجد ذلك فهو صديق زمانه، ولكان حريًا أن نستفيد من أنفاسه وَأحواله، لو عرفنا ذلك وَلو في أقصى الأرض ولسعينا إليه رجاء أن نلتمس من هديه، وَتسري إلينا سيرته وَسجيته، وَهيهات فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم، فذلك إما معدوم وَإما عزيز.

كَثْرَةُ الْمِرَاءِ وَالِاعْتِرَاضُ عَلَى رَأْيِ الآخَرِينَ:

وَحدّ المراءِ هو كل اعتراض على كلامِ الآخرين بإظهار خلل فيه، إما

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (١/٣٥٨)، البيهقي «الكبرى» (٣/١٢٧).

في اللفظ، وَإما في المعنى، وَإما في قصد المتكلم، وَترك المراء بترك الإنكار وَالاعتراض، فكل كلام سمعته فَإن كان حقًا فصدق به، وَإن كان باطلًا أَوْ كذبًا وَلم يكن متعلقًا بأمور الدين فأسكت عنه.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ»(١).

الطَّعْنُ فِي كَلَامِ الآخرين:

تارة يكون في لفظه: بإظهار خلل فيه من جهة النّحو، أَوْ من جهة اللغة، أَوْ من جهة العربية، أَوْ من جهة النظم وَالترتيب بسوء تقديم، أَوْ تأخير وَذلك يكون تارة من قصور المعرفة، وَتارة يكون بطغيان اللسان، وَكيفما كان فلا وَجه لإظهار خلله.

وإما في المعنى: فبأن يقول ليس كما تقول، وَقد أخطأت فيه من وَجه كذا وَكذا.

وإما في قصده: فمثل أن يقول هذا الكلام حقّ وَلكن ليس قصدك منه الحق، وَإنما أنت فيه صاحب غرض وَما يجري مجراه، وَهذا الجنس إن جرى في مسألة علمية ربما خصّ باسم الجدل، وَهو أَيْضًا مذموم بل الواجب السكوت، أَوْ السؤال في معرض الاستفادة لا على وَجه العناد وَالنكارة، أَوْ التلطف في التعريف لا في معرض الطعن.

الْمُجَادَلَةُ وَقَصْدُ إِفْحَامِ الآخرين:

وَأما المجادلة فعبارة عَنْ قصد إفحام الآخر وَتعجيزه وَتنقيصه بالقدح في كلامه، وَنسبته إلى القصور وَالجهل فيه، وَآية ذلك أن يكون تنبيهه للحقّ من

---

(١) حسن: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٨٠٠) رَبَضِ الْجَنَّةِ: أَيْ حَوَالَيْ الْجَنَّة وَأَطْرَافهَا لَا فِي وَسَطهَا وَلَيْسَ الْمُرَاد خَارِجًا عَنْ الْجَنَّة.

جهة أخرى مكروهًا عند المجادل، يحب أن يكون هو المظهر له خطأ ليبين به فضل نفسه وَنقص صاحبه، وَلا نجاة من هذا إلا بالسكوت عَنْ كل ما لا يأثم به لو سكت عنه.

وأما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم وَالفضل، وَالتهجم على الآخر بإظهار نقصه، وَهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها:

إِظْهَارُ الْفَضْلِ: وَأمّا إظهار الفضل فهو من قبل تزكية النفس، وَهي من مقتضى ما في العبد من طغيان دعوى العلوّ وَالكبرياءِ وَهي من صفاتِ الرّبوبية.

وَأَمَّا تَنْقِيصُ الْآخَرِ: فهو من مقتضى طبع السّبعية فَإِنَّهُ يقتضي أن يمزق غيره وَيقصمه وَيصدمه وَيؤذيه، وَهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان، وَإنما قوتهما المراء وَالجدال، فالمواظب على المراء وَالجدال مقوٌّ لهذه الصفات المهلكة وَهذا مجاوز حد الكراهة بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الآخر.

قال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦].

قال قتادة وغير واحد: «هذه الآية منسوخة بآية السّيف[1]، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف».

وقال آخرون: «بل هي باقية أو محكمة لِمَنْ أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

---

(١) ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾﴾ [التوبة: ٥].

[طه: ٤٤]». وهذا القول اختاره ابن جرير(١).

الخَوْفُ مِنَ الكِبْرِ:

ولقد بلغ بالسّلف شدة الخوف من الكبر أيَّ مبلغ، فكانوا ينزعون ذراته من القلب.

فهذا النبي ﷺ يقوم يصلي ويناجي ربه متذللًا لربه مستغيثًا به.

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ قَالَ: «قُمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَامَ فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ لَا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ، قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ». ثُمَّ سَجَدَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ ثُمَّ قَالَ فِي سُجُودِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَامَ فَقَرَأَ بِآلِ عِمْرَانَ ثُمَّ قَرَأَ سُورَةً»(٢).

وهذا أبو ذر ـ سيد من سادات غفار ـ يقع بينه وبين بلال الحبشي خلاف فعيَّره بأمه، فما زال يربي نفسه على ذلك لآخر عمره.

عَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ: «رَأَيْتُ أَبَا ذَرٍّ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلَامِهِ مِثْلُهَا فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، قَالَ فَذَكَرَ: أَنَّهُ سَابَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَعَيَّرَهُ بِأُمِّهِ، قَالَ: فَأَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ وَخَوَلُكُمْ جَعَلَهُمْ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيْهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ عَلَيْهِ»(٣).

وهذا ابن عباس ـ ابن عم رسول الله ﷺ ـ يأخذ بركاب دابة زيد بن ثابت ويقودها تواضعًا لزيد بن ثابت رضي الله عنه.

فَعَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ «أَنَّهُ أَخَذَ بِرِكَابِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، فَقَالَ لَهُ:

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٥١).

(٢) صحيح: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٨٧٣).

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٦٦١).

«تنحَّ يا ابن عَمّ رَسُولِ الله ﷺ، فقال: إنّا هَكَذا نَفْعَلُ بِكُبَرائِنَا وَعُلَمَائِنا»»[1].

وَذَكَرَ ثَعْلَبَةُ بنُ أَبِي مَالِكٍ القُرَظِيُّ: «أَنَّ أبا هُرَيْرَةَ أَقْبَلَ فِي السُّوقِ يحمل حِزْمَةَ حَطَبٍ، وَهُو يومئذٍ خَلِيفة لمروان، فَقَالَ: أَوْسِع الطَّرِيق لِلأَمِيرِ يا ابن أبي مَالِك، فَقُلْتُ له: يَكْفِي هَذا، فَقَالَ: أَوْسِع الطَّرِيق للأمير والحزْمَة عَلَيهِ»[2].

وقد كان التابعون يهذبون أنفسهم ويؤطرونها على نزع الكبر وما يؤدي إليه.

فعن مَيْمُونِ بْنِ أَبِي حَمْزَة، قَالَ: قَالَ لِي إِبْرَاهِيمُ النّخَعِيّ: «لَقَد تَكَلّمْتُ وَلَو وَجَدْتُ بدًا ما تَكَلّمْتُ، وَإِنّ زَمَانًا أَكُونُ فيهِ فَقِيه الكُوفَةِ لَزَمَانُ سُوء»[3].

وكان عَطَاءُ السّلمي إذا سمع صوت الرّعد قام وقعد وأخذ ببطنه كأنه امرأة ماخض، ويقول: «قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَمُوت قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ الشِّتاء»[4].

وَقَالَ رَجاءُ بنُ حَيْوَةَ: «قَوّمْتُ ثِيابَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ رضي الله عنه وَهُو يخطُبُ باثني عَشَرَ دِرهَمًا، وَكَانَتْ قباء وَعِمامة وَقَمِيصًا وَسَرَاويل وَرِدَاءً وَخُفَّين وَقلنسوة»[5].

عَنْ سَعِيْدِ بنِ سُوَيْدٍ أَنَّ عُمَرَ بنَ عَبْدِ العَزِيْزِ صَلَّى بِهِمُ الجُمُعَةَ، ثُمَّ جَلَسَ وَعَلَيْهِ قَمِيْصٌ مَرْقُوْعُ الجَيْبِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ.

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ! إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَاكَ، فَلَوْ لَبِسْتَ!

فَنَكَسَ مَلِيًّا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «أَفْضَلُ القَصْدِ عِنْدَ الجِدَةِ، وَأَفْضَلُ العَفْوِ عِنْدَ المَقْدِرَةِ»[6].

عَنْ يُوْسُفَ بنِ أَسْبَاطٍ قَالَ: «يجزئُ قَلِيلُ الوَرَعِ مِنْ كثيرِ العملِ، ويجزىءُ

---

(١) رَواهُ الحاكم «المستدرك» (٣/ ٤٧٨)، صحيح الإسناد على شرط مُسْلِم، ولم يخرجاه.

(٢) «حلية الأولياء» (١/ ٣٨٥).

(٣) «حلية الأولياء» (٤/ ٢٢٣).

(٤) «حلية الأولياء» (٦/ ٢٢٥).

(٥) «تاريخ ابن عساكر» (٨/ ٢٦٣).

(٦) «حلية الأولياء» (٥/ ٢٦١). الجدة: الغنى الذي لا فقر بعده.

قَلِيلُ التّواضعِ مِنْ كثيرِ الاجتهادِ»[1].

عَنْ إِبْرَاهِيمَ بنِ الأَشْعَثِ قَالَ: «سَأَلتُ الفُضَيلَ عَنِ التَّواضعِ قال: «التّواضعُ أن تخضعَ للحقِّ وتَنْقَادَ له ولو سمعته من صبيٍ قبلته منه، ولو سمعته من أجهلِ النّاسِ قبلته منه»»[2].

«خَرَجَ الحسَنُ وَيُونُسُ وَأَيُّوبُ يَتَذَاكَرُونَ التَّوَاضُعَ؛ فَقَالَ لهما الحسَنُ: وَهَلْ تَدْرُونَ مَا التَّواضعُ؟ «التَّوَاضُعُ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ مَنْزِلِك فَلَا تَلْقَ مُسْلِمًا إِلَّا رَأَيْتَ لَهُ عَلَيْكَ فَضْلًا»»[3].

أَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ الله بِهِ الْكِبْرُ:

فكان الكبر ذنب إبليس اللعين، فآل أمره إلى ما آل إليه، فأهل الكبر وَالإصرار وَالاحتجاج بالأقدار: مع شيخهم وَقائدهم إبليس إلى النار.

قَالَ ابن القيم: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يقول: التكبر شرٌّ من الشّرك، فَإِنَّ المتكبر يتكبر عَنْ عبادة الله تَعالَى، وَالمشرك يعبد الله وَغيره.

قلت: وَلذلك جعل الله النار دار المتكبرين، كما قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿فَادْخُلُوٓا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

وأخبر أن أهل الكبر وَالتجبر هم الذين طبع الله على قلوبهم، فقَالَ تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

وقَالَ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»، وقَالَ ﷺ: «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النّاس»[4].

وَقَالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآية [النساء: ٤٨].

تنبيهًا على أَنَّهُ لا يغفر الكبر الذي هو أعظم من الشّرك، وَكما أن من

---

(١) «التواضع والخمول» (٨٧).

(٢) «التواضع والخمول» (٨٨).

(٣) «التواضع والخمول» (١١٦).

(٤) رواهما مُسْلِمٌ (٩١).

تواضع لله رفعه، فكذلك من تكبر عَنْ الانقياد للحقِّ أذلَّه الله وَوضعَه وَصغَّره وَحقَّره، وَمن تكبر عَنْ الانقياد للحقِّ وَلو جاءه على يد صغير، أَوْ من يبغضه، أَوْ يعاديه فإنما تكبره على الله، فَإِنَّ الله هو الحق، وَكلامُه حقٌّ، وَدينُه حق، وَالحق صفته وَمنه وَله، فإذا رده العبد وَتكبر عَنْ قبوله: فإنما رد على الله وَتكبر عليه، وَالله أعلم. اهـ.

وقال أيضًا: ويجب على العبد أن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له، وَالذل وَالانقياد وَالدخول تحت رِقِّه، بحيث يكون الحق متصرفًا فيه تصرف المالك في مملوكه، فبهذا يحصل للعبد خلق التواضع، وَلهذا فسر النَّبِيّ ﷺ الكبر بضده فقال: «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النّاس»، فـ «بَطَرُ الْحَقِّ»: رده وَجحده وَالدفع في صدره كدفع الصائل.

«وَغَمْطُ النّاس»: احتقارُهم وَازدراؤُهم، وَمتى احتقرهم وَازدراهم: دفع حقوقهم وَجحدها وَاستهان بها.

وَلما كان لصاحب الحق مقالٌ وَصولةٌ: كانت النفوس المتكبرة لا تقر له بالصولة على تلك الصولة التي فيها وَلا سيما النفوس المبطلة، فتصول على صولة الحق بكبرها وَباطلها، فكان حقيقة التواضع: خضوع العبد لصولة الحق وَانقياده لها فلا يقابلها بصولته عليها[1]. اهـ.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٣٤٦).

الْحِقْدُ

الحِقْدُ: هو إِمساكُ العداوةِ في القلب؛ وَالتربص لِفُرْصَتِها، ويسمى أيْضًا: الضِّغْنُ، وَالجمع: أَحقادٌ وَحُقود.

والحِقْدُ: هو إظهارُ مشاعرِ كُرْهٍ وَبغضٍ للآخرين دون سببٍ منهم، فهو غليانُ القلب بأحاسيسَ مضادةٍ نحو الآخرين، وَتجد في القلب نارًا تتأجَّجُ حتى تصل إلى درجة الانصهار فتذيب كل من يقترب منها، فالحقد يبدأ بمرضٍ نفسي ينشأ عَنْ وَسوسة النفس فتدفعُ الإنسان إلى عدم الرضا عَنْ الله ﷻ، وَقد قيل من دواعي الحقد: أن يكون في الحاقد شحٌّ بالفضائل وَبخلٌ بالنعم، فيسخط على الله في قضائه وَيحقدُ على ما منح من نعم، وَالحقودُ فيه من الهمِّ كساقي السمِّ فَإن سرى سمُّه استراح همُّه.

أَسْبَابُ الْحِقْدِ:

١ ـ ضعفٌ في الإيمان وَعدمُ الرّضا بقضاء الله ﷻ.

٢ ـ امتلاء قلب الحاقد للبغض الشديد لكل شيء حتى يخيل إليك أَنَّهُ يبغض نفسه.

فلا تحقدْ على أخيك المسلم وَلا تكرهْه، ولا تحمل في قلبك له ضغينةً أبدًا، وَحاول أن تتقرب له بالود وَالحب دائمًا، والغضب: إذا لزم كَظْمه لعجزٍ عَنْ التشفي في الحال رجع إلى الباطن وَاحتقن فيه فصار حقدًا، فأخذ يُلزمُ قلبه استثقاله وَالبغض له وَالنفار عنه وَأن يدوم ذلك وَيبقى، فالحقدُ ثمرةُ الغضب.

وَالْحِقْدُ يُثْمِرُ ثَمَانِيَةَ أُمُورٍ:

الأول: الحسدُ، وَهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه

فتغتم بنعمة إن أصابها، وَتسر بمصيبة إن نزلت به، وَهذا من فعل المنافقين.

الثاني: أن تزيد على إضمارِ الحسد في الباطن فتشمت بما أصابه من البلاء.

الثالث: أن تهجره وَتصارمه وَتنقطع عنه وَإن طلبك وَأقبل عليك.

الرابع: وَهو دونه أن تعرض عنه استصغارًا له.

الخامس: أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وَغيبة؛ وَإفشاء سر وَهتك ستر وَغيره.

السادس: أن تحاكيه استهزاءً به وَسخرية منه.

السابع: إيذاؤُه بالضرب وَما يؤلم بدنه.

الثامن: أن تمنعه حقَّه من قضاءِ دين، أَوْ صلة رحم، أَوْ ردِّ مظلمةٍ وَكلُّ ذلك حرامٌ.

وأقلُّ درجاتِ الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة وَلا تخرج بسبب الحقد إلى ما تعصي الله به، وَلكن تستثقله في الباطن، وَلا تنهي قلبك عَنْ بغضه، حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة وَالرّفق وَالعناية وَالقيام بحاجاته وَالمجالسة معه على ذكر الله تَعَالَى وَالمعاونة على المنفعة له، أَوْ بترك الدّعاء له وَالثناء عليه، أَوْ التحريض على بره وَمواساته، فهذا كلُّه مما يُنقصُ درجتك في الدين، وَيحولُ بينك وَبين فضلٍ عظيمٍ وَثوابٍ جزيل وَإن كان لا يعرضك لعقاب الله.

وفي حَدِيثِ عَائِشَةَ ـ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإِفْكِ مَا قَالُوا، فَبَرَّأَهَا اللهُ مِمَّا قَالُوا، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ [النور: ١١].

قَالَتْ: «فَأَنْزَلَ اللهُ الْعَشْرَ الْآيَاتِ كُلّها فِي بَرَاءَتِي»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ: «وَاللهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الآية [النور: ٢٢]». قَالَ أَبُو بَكْرٍ: «بَلَى وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللهِ لَا

أَنْزِعُهَا عَنْهُ أَبَدًا»[1].

والأولى أن يبقى على ما كان عليه، فَإِن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدة فيه للنفس وَإرغامًا للشيطان فذلك مقام الصدِّيقين، وَهو من فضائل أعمال المقربين.

وَلِلْمَحْقُودِ ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ عِنْدَ الْقُدْرَةِ:

أحدها: أن يستوفي حقّه الذي يستحقه من غير زيادة أَوْ نقصان وَهو العدل.

الثاني: أن يحسن إليه بالعفو وَالصِّلة وَذلك هو الفضل.

الثالث: أنِ يظلمه بما لا يستحقُّه وَذلك هو الجور وَهو اختيار الأراذِلِ.

وَالثاني هو اختيار الصديقين، وَالأول هو منتهى درجات الصالحين.

الْفَرْقُ بَيْنَ الْحِقْدِ وَالْوَجْدِ:

والحقدُ يختلفُ عَنْ الوجدِ فالفرق بينهما:

١ ـ أن الوجد الإحساسُ بالشيءِ المؤلم، وَالعلمُ به وَتحركُ النفس في رفعه.... فهو كمالٌ، وَأما الحقد فهو إضمار الشر وَتوقعه كل وَقت فيمن وَجدت عليه؛ فلا يزول عن القلب أثرُه.

٢ ـ وكذلك أن الموجدة لما ينالك منه؛ وَالحقد لما يناله منك، فالموجدة وَجد ما نالك من أذاه، وَالحقدُ توقعُ وَجودِ ما يناله من المقابلة، فالموجدةُ سريعةُ الزوالِ، وَالحقد بطيء الزوال، وَالحقد يجيء مع ضيق القلب وَاستيلاءِ ظلمةِ النفس وَدخانها عليه، بخلاف الموجدةِ فإنها تكون مع قوته وَصلابته وَقوة نوره وَإحساسه.

وأول حقد وَقع في التاريخ لأحد ابني آدم كما ذكر ذلك ﷻ: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ

(١) متفق عليه: البُخَارِيّ (٦٦٧٩)، ومُسْلِمٌ (٢٧٧٠).

لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧].

قَالَ ابن كثير رحمه الله تعالى: «يقولُ تَعَالَى مبينًا وَخيمَ عاقبةِ البغي وَالحسدِ وَالظلمِ في خبر ابني آدم لصلبِه: وَهما قابيلُ وَهابيلُ كيف عدا أحدُهما على الآخر فقتله بغيًا عليه وَحسدًا له فيما وَهبه الله من النِّعمةِ، وَتقبلِ القربان الذي أخلص فيه لله ﷻ، ففاز المقتول بوضع الآثام وَالدخول إلى الجنة، وَخاب القاتل وَرجع بالصفقة الخاسرة في الدارين، فقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ﴾، أي اقصص على هؤلاء البغاةِ الحسَدةِ إخوان الخنازير وَالقردة من اليهود وَأمثالهم وَأشباههم خبر ابني آدم وَهما هابيل وَقابيل فيما ذكره غير وَاحد من السلف وَالخلف.

وَقوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي على الجلية وَالأمر الذي لا لبس فيه وَلا كذب وَلا وَهم وَلا تبديل وَلا زيادة وَلا نقصان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢].

وَكانَ من خبرهما فيما ذكره غيرُ وَاحدٍ من السلف وَالخلف أن الله تعالى: شرع لآدم عليه السلام أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال وَلكن قالوا: كان يولد له في كل بطن ذكر وَأنثى فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وَكانت أخت هابيل دميمة وَأخت قابيل وَضيئة فأراد أن يستأثر بها على أخيه فأبى آدم ذلك إلا أن يقرِّبا قربانًا فمن تقبل منه فهي له، فتقبل من هابيل وَلم يتقبل من قابيل فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه(١).اهـ.

ولهذا نرى كثيرًا أن الحقد يقرن بالحسد وَكذلك الغضب.

فالله سُبۡحَانَهُ قد اقتضت حكمته: أن رَكَّب الإنسان بل وَسائر الحيوان على طبيعةٍ محمولةٍ على قوتين: غضبيةٍ وَشهوانيةٍ، وَهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وَصفاتها، وَهما مركوزتان في جبلة كل حيوان، فبقوة الشّهوة يجذب المنافع إلى نفسه، وَبقوة الغضب يدفع المضار عنها، فإذا

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/٥٨).

استعمل الشَّهوة في طلب ما يحتاج إليه: تولد منها الحرص، وَإِذَا استعمل الغضب في دفع المضرة عَنْ نفسه: تولد منه القوةُ وَالغيرةُ، فإذا عجز عَنْ الوصول إلى ما يحتاج إليه وَبلغه غيره أورث فيه الحقد، فَإِن تمادى فيه المرض وَكانت به قوة أورثه ذلك العدوانَ وَالبغيَ وَالظلمَ.

وعلى هذا فَإِنَّهُ ينبغي ضبطُ اللسان في الخصومة على حدّ الاعتدال، فَإِنَّ الخصومة تُوغرُ الصدورَ وَتهيجُ الغضبَ، وَإِذَا هاجَ الغضبُ حصلَ الحقدُ بينهما حتى يفرح كل وَاحد بمساءةِ الآخر وَيحزنُ بمسرّته، وَيُطلق اللسانَ في عرضه، فمن خاصمَ فقد تعرّضَ لهذه الآفات، وَأقلُّ ما فيه اشتغالُ القلب حتى أَنَّهُ يكون في صلاته وَخاطره معلقٌ بالمحاجّة وَالخصومة فلا يَبقى حالُه على الاستقامة.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو يَقُولُ: «رَبّ أَعِنِّي وَلا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لي وَلا تَمْكُرْ عليَّ، وَيَسِّرْ هُدَايَ، وَانْصُرْنِي على مَنْ بَغَى عَليَّ، رَبّ اجْعَلْنِي لَكَ شاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا، لَكَ رَاهِبًا، لَكَ مِطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُجِيبًا أوْ مُنيبًا، تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي[1]، وَأَجِبْ دَعْوَتي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِساني، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ[2] قَلْبِي»[3].

قَالَ ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي أن يكون شغل العاقلِ النظر في العواقبِ وَالتحرز مما يمكن أن يكون، وَمن الغلط الاستغراق في الحالة الحاضرة الموافقة لمعاشه وَلصحة بدنه، وَربما لا يجري له مصحوبة فينبغي أن يعمل على خوف من انقطاع ذلك فيكون مستعدًا لتغير الأحوال.

---

(١) «واغسل حَوْبتي»: أي: إثمي. «النهاية» (١/ ١٠٧٥).

(٢) الإسْلالُ: السَّرِقةُ الخَفِيَّة. يقال: سَلَّ البَعيرَ وغَيره في جَوف اللَّيل إذا انْتزَعه من بين الإبل.. وفي حديث عائشة: «فانسلَلْت من بين يَدَيه»، أي: مَضَيتُ وخرَجْتُ بِتَأَنّ وتَدْرِيج. «النهاية» (٢/ ٩٨٤). السَّخمةُ: الحقد في النفس. «النهاية» (٢/ ٨٩١).

(٣) صحيح: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١٥١٠)، وَالترمذي (٣٥٥١) قَالَ الترمذي: حديث حسن صحيح. وَرواه ابن ماجه (٣٨٣٠)، أحمد (١/ ٢٢٧).

وكذلك النظر في لذَّةٍ تفنى وَتبقى تبعتُها وَعارها، وَإيثار الكسل وَالدعة مع ما يجيء بعدهما من بقاء الجهل.

وَكذلك تحصيلُ المراداتِ التي لا تحصل إلا بالتلطف في الاحتيال خصوصًا إذا أريد من ذكيٍّ فَإِنَّهُ يفطن بأقل تلويح، فمن أراد غلبة الذكي دقق النظر وَتلطف في الاحتيال.

مثل ما روي أن رجلًا من الأشراف كان لا يقوم لأحد وَلا يخشى أحدًا، فجاز عليه بعض الوزراء وَحَيَّ فلم يرد وَلم يقم، فقال ذاك الوزير لرجل: أخبر فلانًا أني قد كلمت أمير المؤمنين في حقه، وَقد أمرَ له بمائةِ ألفٍ فليحضر ليقبضَها فأخبره ذلك الرجل.

فقال الشريف: إن كان أمر لي بشيء فلينفذْه لي، وَإنما مقصوده أن يضع مني بالتردد عليه.

فمتى وَقع الإنسان مع ذكي فينبغي أن يتحرز منه، ويسرق أغراضه بصنوف الاحتيال وينظر فيما يحوز وقوعه فليحترز منه.

وَكثير من الأذكياء لم يقدروا على أغراضهم من ذكيٍّ فأعطوه وَبالغوا في إكرامه ليصيدوه، فَإن كان قليل الفطنة وَقع في الشَّرَكِ، وَإن كان أقوى منهم ذكاء علم أن تحت هذه النية خبيئًا فزاده ذلك احترازًا.

وَأقوى ما ينبغي أن يكون الاحتراز من مَوْتُورٍ، فإنك إذا آذيت شخصًا فقد غرست في قلبه عداوةً فلا تأمن تفريع تلك الشجرة، وَلا تلتفت إلى ما يظهر من وِدٍّ وَإن حلف، فَإن قاربته فكن منه على حذر.

وَمن التغفل أن تعاقب شخصًا، أَوْ تسيء إليه إساءةً عظيمةً وَتعلم أن مثل ذلك يجدد الحقد فتراه ذليلًا لك طائعًا تائبًا مقلعًا عما فعل فتعود فتستطيبه، وَتنسى ما فعلت وَتظن أَنَّهُ قد انمحى من قلبه ما أسلفت، فربما عمل لك المحن وَنصب لك المكايد كما جرى لقصير مع الزباء وَأخباره معروفة[1].

---

(١) وكانت الزّباء ملكة وَكانت بقايا من العماليق وَالعاربة الأولى، وَكانت للزباء أخت =

= يقال لها زبيبة، فبَنت لها قصرًا حصينًا على شاطئ الفرات الغربي، وَكانت تشتو عند أختها وَتربع ببطن النجار، وَتصير إلى تدمر، فلما أن استجمع لها أمرها وَاستحكم لها ملكها أجمعت لغزو جذيمة الأبرش تطلب بثأر أبيها.

فقالت لها أختها زبيبة وَكانت ذات رأي وَدهاء وَإرب: يا زبَّاء إنك إن غزوت جذيمة فإنما هو يوم له ما بعده إن ظفرت أصبت ثأرك، وَإن قتلت ذهب ملكك، وَالحرب سجال وَعثراتها لا تستقال، وَإن كعبك لم يزل ساميًا على من ناوأك وَساماك، وَلم تري بؤسًا وَلا غيرًا، وَلا تدرين لمن تكون العاقبة وَعلى من تكون الدائرة.

فقالت لها الزباء: قد أديت النصيحة وَأحسنت الروية، وَإن الرأي ما رأيت، وَالقول ما قلت، فانصرفت عما كانت أجمعت عليه من غزو جذيمة، وَرفضت ذلك وَأتت أمرها من وجوه الختل وَالخدع وَالمكر، فكتبت إلى جذيمة تدعوه إلى نفسها وَملكها، وَأن يصل بلاده ببلادها، وَكان فيما كتبت به أنها لم تجد ملك النِّسَاء إلا إلى قبيح في السماع، وَضعف في السلطان، وَقلة ضبط المملكة، وَإنها لم تجد لملكها موضعًا وَلا لنفسها كفئًا غيرك، فأقبل إلي فاجمع ملكي إلى ملكك، وَصل بلادي ببلادك، وَتقلد أمري مع أمرك.

فلما انتهى كتاب الزباء إلى جذيمة وَقدم عليه رسلها استخفه ما دعته إليه، وَرغب فيما أطمعته فيه، وَجمع إليه أهل الحجى وَالنهى من ثقات أصحابه وَهو بالبقة من شاطئ الفرات، فعرض عليهم ما دعته إليه الزباء وَعرضته عليه، وَاستشارهم في أمره فأجمع رأيهم على أن يسير إليها وَيستولي على ملكها، وَكان فيهم رجل يقال له قصير بن سعد بن عمر بن جذيمة بن قيس بن ربي بن نمارة بن لخم وَكان سعد تزوج أمة لجذيمة فولدت له قصيرًا، وَكان أريبًا حازمًا أثيرًا عند جذيمة ناصحًا، فخالفهم فيما أشاروا به عليه، وَقال: «رأي فاتر وَغدرٌ حاضر» فذهبت مثلًا..

فرادوه الكلام وَنازعوه الرأي، فقال: «إني لأرى أمرًا ليس بالخسا وَلا الزكا» فذهبت مثلًا..

وقال لجذيمة: اكتب إليها فَإن كانت صادقة فلتقبل إليك وَإلا لم تمكنها من نفسك، وَلم تقع في حبالها وَقد وَترتها وَقتلت أباها.

فلم يوافق جذيمة ما أشار به عليه قصير، فقال قصير:

إنّي امرؤٌ لَا يُمِيلُ الْعَجْزُ تَرْوِيَتِي ... إِذَا أَتَتْ دُونَ شَيءٍ مَرَّةَ الوَذِمِ

فقال جذيمة: «لا وَلكنك امرؤ رأيك في الكن لا في الضح»... فذهبت مثلًا.

فدعا جذيمة ابن أخته عمرو بن عدي فاستشاره فشجعه على المسير، وَقال: إن نمارة =

. . . .

= قومي مع الزباء، وَلو قدروا لصاروا معك، فأطاعه وَعصى قصيرًا، فقال قصير: لا يطاع لقصير أمر.

وَفي ذلك يقول نهشل بن حري بن ضمرة بن جابر التميمي:

وَمَوْلَى عَصَانِي وَاسْتَبَدَّ بِرأيِهِ كَمَا لَمْ يُطِعْ بَالْبَقْتَينِ قَصِيرُ
فَلَمَّا رَأى مَا غَبَّ أَمْرِي وَأمْرِه وولَّتْ بِأعْجَازِ الأُمُورِ صدورُ
تَمَنى نَئِيشًا أنْ يَكُونَ أَطَاعَنِي وَقَدْ حَدَثَتْ بَعْدَ الأُمُورِ أُمُورُ

وقال العرب: ببقة أبرم الأمر... فذهبت مثلًا.

وَاستخلف جذيمة عمرو بن عدي على ملكه وَسلطانه، وَجعل عمرو بن عبد الجن الجرمي معه على خيوله، وَسار في وجوه أصحابه فأخذ على الفرات من الجانب الغربي فلما نزل الفرضة دعا قصيرًا فقال: ما الرأي؟ قَالَ: ببقة تركت الرأي فذهبت مثلًا. وَاستقبلته رسل الزباء بالهدايا وَالألطاف فقال: يا قصير كيف ترى؟.

قَالَ: خطر يسير في خطب كبير... فذهبت مثلًا، وَستلقاك الخيول، فَإن سارت أمامك فَإنَّ المرأة صادقة، وَإن أخذت جنبيك وَأحاطت بك من خلفك فَإن القوم غادرون، فاركب العصا - وَكانت فرسًا لجذيمة لا تجارى - فإني راكبها وَمسايرك عليها. فلقيته الخيول وَالكتائب فحالت بينه وَبين العصا فركبها قصير وَنظر إليه جذيمة موليًا على متنها فقال: وَيل أمه حزمًا على ظهر العصا... فذهبت مثلًا، فقال: يا ضل ما تجري به العصا وَجرت به إلى غروب الشمس ثم نفقت وَقد قطعت أرضًا بعيدة فبنى عليها برجًا يقال له برج العصا، وَقالت العرب: خير ما جاءت به العصا مثل تضربه.

وسار جذيمة وَقد أحاطت به الخيول حتى دخل على الزباء، فلما رأته تكشفت فإذا هي مضفورة الإسب - وَهي العانةُ مَنْبتُ الشَّعر من قُبُل المرأة - فقالت: يا جذيمة أدأب عروس ترى - العادة وَالشَّأن... فذهبت مثلًا.

فقال: بلغ المدى، وَجف الثرى، وَأمر غدر أرى، فقالت: أما وَإلهي ما بنا من عدم مواس - شفرة الحلاقة - وَلا قلة أواس - من يحلق - وَلكنه شيمة ما أناس - أي الوحشة من فقدها لأبيها -... فذهبت مثلًا، وَقالت: إني أنبئت أن دماء الملوك شفاء من الكلب، ثم أجلسته على نطع، وَأمرت بطست من ذهب فأعدته له وَسقته من الخمر، حتى أخذت مأخذها منه، وَأمرت بأنامله فقطعت، وَقدمت إليه الطست وَقد قيل لها: إن قطر من دمه شيء في غير الطست طلب بدمه، وَكانت الملوك لا تقتل بضرب الأعناق إلا في قتال تكرمة للملك، فلما ضعفت يداه سقطتا فقطر من دمه في =

فإياك أن تساكن من آذيته، بل إن كان وَلا بد فمن خارج، فما تؤمن الأحقاد.

وَمتى رأيتَ عدوَّك فيه غفلةٌ لا يثنيه مثل هذا فأحسن إليه، فَإِنَّهُ ينسى عداوتك؛ وَلا يظن أنك قد أضمرت له جزاءً على قبح فعله، فحينئذ تقدر على بلوغ كُلِّ غَرَضٍ منه.

وَمن الخورِ إظهارِ العداوةِ للعدو، وَمن أحسن التدبير التلطفُ بالأعداء إلى أن يمكن كسر شوكتهم، وَلو لم يمكن ذاك كان اللطف سببًا في كف أكفِّهم عَنْ الأذى، وَفيهم من يستحي لحسن فعلك فيتغير قلبه لك.

وَقد كان جماعة من السّلف إذا بلغهم أن رجلًا قد شتمهم أهدوا إليه وَأعطوه، فهم بالعاجل يكفون شره، وَيحتالون في تقليب قلبه وَيقع بذلك لهم مهلةٌ لتدبير الحِيلَ عليه إن أرادوا.

وَكفى بالذهن الناظر إلى العواقب وَالتأمل لكل ممكن مؤدبًا[1].

= غير الطست فقالت: لا تضيعوا دم الملك. فقال جذيمة: دعوا دمًا ضيعه أهله... فذهبت مثلًا، فهلك جذيمة وَاستبقت الزباء دمه فجعلته في برس قطن في ربعة لها». «تاريخ الطبري» (١/ ٣٦٥).

(١) «صيد الخاطر» (٢٥٨ ـ ٢٦٠).

اَلْحَسَدُ

تَعْرِيفُ الْحَسَدِ:

«اَلْحَسَدُ»: أَن يرى الرجلُ لأَخيه نعمةً فيتمنى أَن تزول عنه وَتكون له دونه[1].

اعلم أن الحسد من نتائج الحقد، وَالحقد من نتائج الغضب، فهو فرع فرعه، وَالغضب أصل أصله، ثم إن للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى، وَقد وَرد في ذم الحسد بخاصة أخبار كثيرة.

حَقِيقَةُ الْحَسَدِ:

فالحسد هو تمني زوال النعمة عَنِ المحسود، وَإن لم يصر للحاسد مثلها، بخلاف الغبطة فإنها تمني مثلها من غير حب زوالها عَنِ المغبوط، وَالتحقيق أن الحسد هو البغض وَالكراهة لما يراه من حسن حال المحسود، **وَهو نوعان:**

أَحَدُهُما: كراهة للنعمة عليه مطلقًا فهذا هو الحسد المذموم، وَإِذَا أبغض ذلك فَإِنَّهُ يتألم وَيتأذى بوجود ما يبغضه فيكون ذلك مرضًا في قلبه، وَيلتذ بزوال النعمة عنه وَإن لم يحصل له نفع بزوالها.

وَالنَّوعُ الثاني: أن يكره فضل ذلك الشخص عليه فيحب أن يكون مثله أَوْ أفضل منه، فهذا حسد وَهو الذي سموه الغبطة، وَقد سماه النَّبِيُّ ﷺ حسدًا كما روي من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي

(١) «لسان العرب» باب: «حسد».

اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ. وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ»[(١)].

فهذا الحسد الذي نهى عنه النَّبِيُّ ﷺ إلا في موضعين هو الذي سمَّاه أولئك الغبطة، وَهو أن يحب مثل حال الآخرين وَيكره أن يفضل عليه. وَقد يشكل هنا تسميته حسدًا ما دام همه أن ينعم الله عليه بمثل ما أنعم على صاحبه؟ فيقال: مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامه على الغير وَكراهيته أن يفضل عليه. ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك، فذلك كان حسدًا لأنه كراهةٌ تتبعها محبةٌ، وَأما من أحب أن ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى أحوال النّاس فهذا ليس عنده من الحسد شيء، وَلهذا يبتلى غالب النّاس بهذا القسم الثاني.

وقال النووي: قَالَ العلماء في الحسد:

هو حقيقي: تمني زوال النعمة عَنْ صاحبها وَهذا حرامٌ بإجماع الأمة مع النصوص الصريحة.

وَمجازي: هو الغبطة وَهو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره من غير زوالها عَنْ صاحبها، فإذا كانت من أمور الدنيا كانت مباحة، وَإِذَا كانت طاعة فهي مستحبةٌ[(٢)].

وقيل: «الحسد تمني زوال النعمة عَنْ صاحبها سواءً كانت نعمة دين أَوْ دنيا».

وقيل: «أن تكره النّعم على أخيك وَتحب زوالها».

فحد الحسد: كراهة النعمة وَإرادة زوالها عَنْ المنعم عليه.

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٥٠٢٦).

(٢) النووي «شرح مُسْلِم» (٦/ ٩٧).

وَالغبطة: ألّا تحب زوالها، وَلا تكره وَجودها وَدوامها، وَلكن تشتهي لنفسك مثلها.

والمنافسة: هو أن يرى بغيره نعمةً في دين أَوْ دنيا، فيغتم ألا يكون أنعم الله عليه بمثل تلك النعمة، فيحب أن يلحق به وَيكون مثله، لا يغتم من أجل المنعم عليه نفاسة منه عليه، وَلكن غمًّا ألا يكون مثله.

والحسد في الحقيقة نوعٌ من معاداة الله، فَإِنَّهُ يكره نعمة الله على عبده وَقد أحبها الله، وَيحب زوالها وَالله يكره ذلك، فهو مضادٌّ لله في قضائه وَقدره وَمحبته، وَلذلك كان إبليس عدوه حقيقة لأن ذنبه كان عَنْ كبرٍ وَحسدٍ.

وللحسد حد وَهو المنافسة في طلب الكمال وَالأَنَفَةُ أن يتقدم عليه نظيره، فمتى تعدى صار بغيًا وَظلمًا يتمنى معه زوال النعمة عَنْ المحسود وَيحرص على إيذائه، وَمن نقص عَنْ ذلك كان دناءةً وَضعفَ همة وَصغرَ نفسٍ.

وقد ابُتلِي يوسف بحسد إخوته له حيث قالوا: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ [يوسف: ٨]، فحسدوه على تفضيل الأب له، وَلهذا قَالَ يعقوبُ ليوسف: ﴿قَالَ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف: ٥]، ثم إنهم ظلموه بتكلمهم في قتله، وَإلقائه في الجبّ، وَبيعه رقيقًا لمن ذهب به إلى بلاد الكفر فصار مملوكًا لقومٍ كفار.

وَقد قيل للحسنِ البصري: «أيحسِد المؤمن؟ فقال: ما أنساك إخوة يوسف لا أبا لك؟! وَلكن غُمَّه في صدرك، فَإِنَّهُ لا يضرُّك ما لم تعد به يدًا وَلسانًا».

وَقَالَ تَعالَى في حقِّ اليهود: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

يودون: أي يتمنون ارتدادكم حسدًا، فجعل الحسد هو الموجب لذلك الودّ، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ لأنهم لمّا رأوا أنكم قد حصل لكم من النعمة ما حصل - بل ما لم يحصل لهم مثله حسدوكم.

وَكذلك في الآية الأخرى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥٤ - ٥٥].

وَقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق: ١ - ٥].

وَقد ذكر طائفة من المفسرين أنها نزلت بسبب حسد اليهود للنبي ﷺ حتى سحروه، سحره لبيدُ بن الأعصم اليهودي.

وَقَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

أي مما أُوتي إخوانهم المهاجرون، قَالَ المفسرون: لا يجدون في صدورهم حاجة أي حسدًا وَغيظًا مما أُوتي المهاجرون، ثم قَالَ بعضهم: من مال الفيء، وَقيل: من الفضل وَالتقدم، فهم لا يجدون حاجة مما أُوتوا من المال وَلا من الجاه، وَالحسد يقع على هذا.

وَكان بين الأوس وَالخزرج منافسةٌ على الدين، فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله وَرسوله؛ أحب الآخرون أن يفعلوا نظير ذلك، فهي منافسة فيما يقربهم إِلَى اللهِ كما قَالَ تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وَالحسد يبقى إلى لحظة نزول عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان قبيل قيام الساعة، وَهذا ما أخبر به النَّبِيُّ ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «وَاللهِ لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَادِلًا،

فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الْخِنْزِيرَ، وَلَيَضَعَنَّ الْجِزْيَةَ، وَلَتُتْرَكَنَّ الْقِلَاصُ فَلَا يُسْعَى عَلَيْهَا[1]، وَلَتَذْهَبَنَّ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ، وَلَيَدْعُوَنَّ إِلَى الْمَالِ فَلَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ»[2].

مَرَاتِبُ الْحَسَدِ:

ومراتبه:

الأولى: يتمنى زوال النعمةِ عَنْ الآخرين، وَيعمل وَيسعى في الوسائل المحرمة الظالمة، وَيسعى في إساءته بكلِّ ما يستطيع، وَهذا الغاية في الخبث وَالخساسة وَالنذالة، وَهذه الحالة هي الغالبة في الحسّاد خصوصًا المتزاحمين في صفةٍ وَاحدةٍ، وَيكثر ذلك في طلابِ المناصبِ وَالجاهِ.

الثانية: يتمنى زوال النِّعمة وَيحب ذلك وَإن كانت لا تنتقل إليه، وَهذا في غاية الخبث، وَلكنها دون الأولى.

الثالثة: أن يجد من نفسه الرغبة في زوال النعمة عَنْ المحسود، وَتمني عدم استصحاب النعمة سواء انتقلت إليه أَوْ إلى غيره وَلكنه في جهاد مع نفسه وَكفِّها عَنْ ما يؤذي خوفًا من الله تَعَالَى وَكراهية في ظلم عباد الله، وَمن يفعل هذا يكون قد كفي شر غائلة الحسد، وَدفع عَنْ نفسه العقوبة الأخروية، وَلكن ينبغي له أن يعالج نفسه من هذا الوباء حتى يبرأ منه.

الرابعة: أن يتمنى زوال النعمة عَنْ الغير، بغضًا لذلك الشخص لسبب شرعي، كأن يكون ظالمًا يستعين على مظالمه بهذه النعمة؛ فيتمنى زوالها ليرتاح النّاس من شره، وَمثل أن يكون فاسقًا يستعين بهذه النعمة على فسقه وَفجوره فيتمنى زوال المغل هذا عنه ليرتاح العباد وَالبلاد من شرِّه القاصر وَالمتعدي، فهذا لايسمى حسدًا مذمومًا وَإن كان تعريف الحسد يشمله، وَلكنه

---

(١) «لَتُتْرَكَنّ القِلاصُ فلا يُسْعى عليها»: أي لا يَخرج ساعٍ إلى زكاة لِقلَّة حاجة الناس إلى المال واسْتِغْنائهم عنه. «النهاية» (٤/ ١٥٦).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٥٥).

في هذه الحالة يكون ممدوحًا لا سيما إذا كان يترتب عليه عمل يرفع هذا الظلم وَالعدوان وَيردع هذا الظالم.

الخامسة: ألّا يتمنى الشخص زوال النعمة عَنْ غيره وَلكن يتمنى لنفسه مثلها، فَإِنَّ حصل له مثلها سكن وَاستراح، وَإن لم يحصلْ له مثلُها تمنى زوال النعمة عَنْ المحسود حتى يتساويا وَلا يفضله صاحبه.

السّادسة: أن يحب وَيتمنى لنفسه مثلها، فَإِنْ لم يحصلْ له مثلُها فلا يحب زوالها عَنْ مثله فهذا لا بأس به، إن كان من النعم الدنيوية كالمال المباح وَالجاه المباح، وَإن كان من النعم الدينية كالعلم الشرعي وَالعبادة الشرعية كان محمودًا، كأن يغبط من عنده مال حلال ثم سلطه على هلكته في الحق من وَاجب وَمستحب، فَإِنَّ هذا من أعظم الأدلة على الإيمان، وَمن أعظم أنواع الإحسان، وَكذا من آتاه الله الحكمة وَالعلم فوفق لنشره كما في حديثٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ. وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»(١).

فهذان النوعان من الإحسان لا يعادلهما شيء؛ إلا إن ترتب عليه وَساوسُ شيطانيةٌ وَخواطرُ نفسانيةٌ تجر الإنسان إلى مواضع الخطر التي تفسد عمله كأن يقول في نفسه: أنا أحق منه بهذا، فهذا اعتراض على حكمة الله وَقسمته وَلا يجوز ذلك.

وإذا لم ينظر إلى أحوال النّاس فهذه منافسةٌ في الخير لا شيء فيها، فيتنافس الاثنان في الأمر المطلوب المحبوب كلاهما يطلب أن يأخذه وَذلك لكراهية أحدهما أن يتفضل عليه الآخر، كما يكره المستبقان كل منهما أن يسبقه الآخر. وَالتنافس ليس مذمومًا مطلقًا، بل هو محمودٌ في الخير، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٧٣)، ومُسْلِمٌ (٨١٦).

ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٢ ـ ٢٦].

وَهذا موافق لحديث النَّبِيّ ﷺ، فَإِنَّهُ نهى عَنِ الحسد إلا فيمن أُوتي العلم فهو يعمل به وَيُعَلِّمُهُ، وَمن أوتي المال فهو ينفقه، فأما من أوتي علمًا وَلم يعمل به وَلم يعلمه، أَوْ أوتي مالًا وَلم ينفقْه في طاعة الله فهذا لا يحسد وَلا يتمنى مثل حاله، فَإِنَّهُ ليس فيه خير يرغب فيه، بل هو معرّض للعذاب، وَحال أبي بكر الصديق ﷺ أفضل فهو خال من المنافسة مطلقًا لا ينظر إلى حال غيره، وَكذلك موسى ﷺ في حديث المعراج حصل له منافسة وَغبطة للنبي ﷺ حتى بكى لما تجاوزه النَّبِيّ ﷺ «فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي»(١).

فائدة: إنّ من عنده همَّة الخير وَليست لديه منافسة وَغبطة أفضل ممن لديه تلك المنافسة وَالغبطة، مثل أبي بكر الصِّديق ﷺ وأبو عبيدة بن الجراح ﷺ وَنحوهما فقد كانوا سالمين من الغبطةِ وَالمنافسة، وَإن كان ذلك مباحًا، وَلهذا استحقَّ أبو بكرٍ أن يكون صدِّيقًا وأبو عبيدة ﷺ أن يكون أمين هذه الأمة؛ فَإِنَّ المؤتمن إذا لم يكن في نفسه مزاحمة مما ائتمن عليه كان أحقَّ بالأمانة ممن يخاف مزاحمته، والرَّجل الذي في الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وَضُوئِهِ...».

فالشاهد من الحديث: قَالَ: «مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا، وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ». فَقَالَ عَبْدُ اللهِ ـ أي عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ـ: «هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ وَهِيَ الَّتِي لَا نُطِيقُ»(٢).

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيّ (٣٨٨٧)، وَمُسْلِمٌ (١٦٤) بطوله من حديث أنس.

(٢) حسن: رَوَاهُ أحمد (٣/ ١٦٦).

فالحاسدُ المبغضُ للنعمة على من أنعم الله عليه بها ظالمٌ معتدٍ، وَالكاره لتفضيله، المحب لمماثلته منهي عَنْ ذلك إلا فيما يقربه إلى الله، فإذا أحب أن يُعطى مثل ما أعطى مما يقربه إِلَى اللهِ فهذا لا بأس به، وَإعراض قلبه عَنْ هذا بحيث لا ينظر إلى حال غيره أفضل، وَربما غلط قوم فظنوا أن المنافسة في الخير هي الحسد، وَليس الأمر على ما ظنوا لأن المنافسة طلب التشبه بالأفاضل من غير إدخال الضرر عليهم، وَالحسد مصروف إلى الضرر لأن غايته أن يعدم الأفاضل فضلهم من غير أن يصير الفضل إليه، فهذا الفرق بين المنافسة وَالحسد.

قَالَ إِبْرَاهِيْمُ بنُ الأَشْعَثِ: سَمِعْتُ الفُضَيْلَ يَقُوْلُ: «الغِبْطَةُ مِنْ الإِيمانِ، والحَسَدُ مِنْ النِّفاقِ، والمؤمِنُ يَغْبِطُ ولا يحسِدُ، والمنافِقُ يَحْسِدُ وَلَا يَغْبِطُ، والمؤمِنُ يَسْتُرُ وَيَعِظُ وَيَنْصَحُ، وَالفاجِرُ يَهْتِكُ وَيُعَيِّرُ وَيُفْشِي»[1].

بَعْضُ الأَسْبَابِ الَّتِي تُؤَدِي إِلَى الاتِّصَافِ بِالْحَسَدِ:

هناك بعض الأسباب التي قد يقع فيها العبد تؤدي إلى الوقوع في هذا الجرم العظيم ـ الحسد، ومن هذه الأسباب:

١ ـ **الْعَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ**: وَهذا من أشد أسباب الحسد بل هو أصلها وبدايتها ومنه ينشأ الحسد، فأصلُ المحاسداتِ العداوةُ، وَأصل العداوة التزاحم على غرضٍ واحدٍ يقع لفرد ولا يقع لآخر أو يقع لجماعة دون آخرين، فلذلك يقع الحقد بينهما، والحسد نتيجة من نتائج الحقد، وَثمرة من ثمراته المترتبة عليه، فَإِنَّ من يحقد على إنسان يتمنى زوال نعمته، وَيغتابه، وَينمّ عليه، وَيعتدي على عرضه، وَيشمت به لما يصيبه من البلاء، وَيغتّم بنعمة إن أصابها، وَيسر بمصيبة إن نزلت به، وَهذا من فعل المنافقين وَالعياذ بالله.

٢ ـ **التَّعَزُّزُ وَالتَّرَفُّعُ**: فإذا أصاب أحدٌ نعمةً أوَ ولاية أَوْ مالًا خاف أن يتكبر عليه؛ وَهو لا يطيق تكبره وَافتخاره عليه، وَمن التكبرِ وَالتعززِ كان حسدُ

---

(١) «حلية الأولياء» (٨/ ٩٥).

أكثر الكفار لرسول الله ﷺ إذ قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

٣ ـ **الْكِبْرُ**: وَهو أن يكون في طبعه أن يتكبر على الحاسد، وَيستحقره وَيستصغره وَيستخدمه، فإذا نال ولايةً خاف ألّا يحتمل تكبره.

٤ ـ **التَّعَجُّبُ**: وهو رؤية من أنعم الله عليه بنعمة يعجز الحاسد أن يحصلها، كما أخبر الله عَنْ الأمم الماضية إذ قالوا: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] فتعجبوا أن يفوز برتبة الرسل وَالوحي وَالقرب من الله بشر مثلهم فحسدوهم وَأحبوا زوال النعمة عَنْهُم.

٥ ـ **الخَوْفُ مِنْ الْمُزَاحَمَةِ بَيْنَ النُّظَرَاءِ فِي الْمَنَاصِبِ وَالأَمْوَالِ**: وَذلك يختص بمتزاحمين على مقصود وَاحدٍ، وَذلك مثل الضرَّات عند زوجهن، وَالتلاميذ عند الأستاذ، وَالإخوة في التزاحم على نيل المنزلة في قلوب الأبوين ليتوصل بها إلى مقاصد الكرامة وَالمال، وَخدّام الملك في نيل المنزلة من قلبه، وَالتاجر يحسد التاجر، وَالصانع يحسد الصانع، وَالنجّار يحسد النجار، وَالفلاح يحسد الفلاح، وَأرباب الجاه يحسدون أرباب الجاه، وَالمناصب الحكومية يحسد بعضهم بعضًا، وَمن الأمثال المتداولة قولهم: «عدوُّ المرء من يعمل عمله». وَالحسد يقع كثيرًا بين المتشاركين في رئاسةٍ أَوْ مالٍ إذا أخذ بعضهم قسطًا من ذلك وَفات الآخر.

ويكون بين النظراء لكراهة أحدهم أن يفضل عليه الآخر، كحسد إخوة يوسف وَكحسد ابني آدم أحدهما لأخيه، فَإِنَّهُ حسده لكون الله تقبل من قربانه وَلم يتقبل قربان هذا، فحسده على ما فضله الله به من الإيمان وَالتقوى، وَقتله على ذلك، وكحسد اليهود للمسلمين.

وَلهذا قيل: «أول ذنبٍ عُصي الله به ثلاثة: الحرْصُ وَالكِبْرُ وَالحسَدُ. فالحرص من آدم، وَالكبر من إبليس، وَالحسد من قابيل حيث قتل هابيل».

وَالحسد يكثر في المناصبِ وَالأموالِ، وَيقعُ لما يحصل للآخرين من

السؤددِ وَالرياسةِ، فالحسد هنا في العادةِ عظيم ويكون صاحبه متمنيًا لزوال نعمة صاحب المنصب والجاه لما يرى من ظلمه وبغيه وعدم إنفاقه، بخلاف نوعي العلم وَالمال فَإِنَّ صاحبيهما يُحسدان كثيرًا؛ ولكنه حسد غبطه وتمني الوصول لما عليه صحبها، وَلهذا يوجد بين أهل العلم الذين لهم أتباع من الحسد ما لا يوجد فيمن ليس كذلك، وَكذلك فيمن له أتباع بسبب إنفاق ماله، فذلك ينفع النّاس بالعلم وهذا بالمال والنّاس يحتاجون إلى هذا وذاك.

«دَخَلَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاح عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَان؛ وَهُو جَالِسٌ عَلَى السَّرِيرِ وَحوْلَهُ الأَشْرَافُ، وَذَلِكَ بِمَكَّةَ فِي وَقْتِ حَجِّهِ فِي خِلَافَتِهِ، فَلَمّا بَصُرَ بِهِ عَبْدُ الْمَلِكِ قَامَ إِلَيْهِ؛ وَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى السَّرِيرِ، وَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّد حَاجَتُك؟ قَالَ: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِين! اتَّقِ الله فِي حَرَمِ الله، وَحَرَم رَسُولِهِ، فَتَعَاهَدَهُ بِالعِمَارَةِ، واتّقِ الله في أَوْلَادِ الْمُهَاجِرين والأَنْصَارِ، فَإِنَّك بِهِمْ جَلَسْتَ هَذَا الْمَجْلِس، واتق الله في أَهْلِ الثُّغُورِ، فَإِنَّهُم حِصْنُ المسلِمِين، وتَفَقَّد أُمُورَ المسلِمِين؛ فَإِنَّك وَحْدَكَ المسْؤُولُ عَنْهم، واتق الله فيمَنْ عَلَى بَابِك فَلا تَغْفَل عَنْهُم، ولا تُغْلِق دُونَهُم بَابَك، فقال له: أَفْعَلُ، ثم نهض وقام، فَقَبَضَ عَلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ، وقَالَ: يا أَبا مُحَمَّد!! إِنَّمَا سَأَلْتَنَا حَوَائِجَ غَيْرِك، وَقَدْ قَضَيْنَاها، فَمَا حَاجَتُك؟ قَالَ: مَا لي إِلَى مَخْلُوقٍ حَاجَة، ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِك: هَذَا وَأَبِيكَ الشَّرَف، هَذَا وَأَبِيكَ السُّؤدُد»(١).

وَكما جَرَى لزينب بنتِ جحش رضي الله عنها فإنها كانت هي التي تُسامي عائشة رضي الله عنها من أزواج النَّبيِّ ﷺ، وَحسد النِّساء بعضهن لبعض كثير غالب لا سيما المتزوجات بزوج وَاحد، فَإِنَّ المرأة تغار على زوجها لحظِّها منه، فَإِنَّهُ بسبب المشاركة يفوت بعض حظِّها.

٦ ـ حُبُّ الرِّيَاسَةِ وَطَلَبُ الْجَاهِ لِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ شَرْعِي صَحِيحٍ: وَذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون إذا غلب

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٨٤).

عليه حب الثناء وَالمدح، وَاستفزه الفرح بما يُمدح به، فَإِنَّهُ لو سمع بنظير له **في أقصى** أقطار الأرض لساءه **ذلك وَأحبَّ موته** أَوْ زوال تلك النعمة التي عند **الذي** يشاركه بها في المنزلة من شجاعة، **أَوْ** علم، أَوْ صناعة، أَوْ جمال، أَوْ ثروة، أَوْ نحو ذلك.

٧ ـ **خُبْثُ النَّفْسِ وَحُبُّهَا للشَّرِّ وَشُحُّها بالْخَيرِ لِعِبَادِ اللهِ:** فتجد المتصف بذلك شَحِيحًا بالفضائلِ، بخيلًا بالنعم وَليست إليه فيمنع منها؛ وَلا بيده فيدفع عنها؛ لأنها مواهب قد منحها الله من شاء، **فيسخطه على الله ﷻ في قضائه، وَيحسد على ما منح من عطائه**، وَإن كانت نعم الله ﷻ عنده أكثر وَمنحه عليه أظهر، وَإِذَا ذكر له اضطراب وَنكبات تصيب النّاس، وَكذلك إدبارهم وَفوت مقاصدهم وَتنغيص عيشهم؛ استنار وَجهه وَفرح به وَصار يبثّه، وَربما أتى بإشاعةٍ في صورة الترحُّمِ وَالتوجُّعِ، فهو أبدًا يحب المصائب والوجائع لغيره، وَيبخل بنعمة الله على عباده، كأن ما أعطاهم الله يؤخذ من ماله وَخزانته على أَنَّهُ ليس بينه وَبينهم عداوة، وَهذا ليس له سبب إلا التعمق في الخبث وَالرذالة وَالنذالة وَالخساسة في الطبع اللئيم، وَلذلك يعسر معالجة هذا السبب لِأَنَّهُ ظلومٌ جهولٌ، وَليس يشفي صدره وَيزيل حزازة الحسد الكامن في قلبه إلا زوال النعمة، فحينئذ يتعذر الدواء أَوْ يعزّ، وَمن هذا قول بعضهم:

وَكُلٌّ أُدَاوِيهِ عَلَى قَدْرِ دَائِهِ … سِوَى حَاسِدِي فَهْيَ التي لَا أَنَالُها
وَكَيْفَ يُداوي المرءُ حَاسِدَ نِعْمَةٍ … إِذَا كَانَ لَا يُرْضِيهِ إِلَّا زَوَالُها

وهذا النوع من الحسد أعمُّها وَأخبثُها، إذ ليس لصاحبه راحةٌ وَلا لرضاه غاية. فَإن اقترن بِشَرٍّ وَقدرة كان بورًا وَانتقامًا، وَإن صادف عجزًا وَمهانة كان جهدًا وَسقامًا.

أما الأسباب الأخرى فيتصور إزالتها في المعالجة.

٨ ـ **ظهورُ الفضلِ وَالنعمةِ على المحسودِ:** بحيث يعجز عنه الحاسد فيكره تقدمه فيه وَاختصاصه به، فيثير ذلك حسدًا لولاه لكفّ عنه، ولو كان الرجل أقوم من القدح لما عدم غامزًا.

وقد قَالَ الشاعر:

إنْ يَحْسِدُونِي فَإِنِّي غَيْرُ لَائِمهم ... قَبْلِي مِنَ النَّاسِ أَهْلِ الْفَضْلِ قَدْ حُسِدوا

فَدَام لي وَلَهُمْ مَا بِي وَمَا بِهِم ... وَمَاتَ أَكْثَرُنَا غيظًا بِمَا يَجِدُ

٩ ـ حُبُّ الدُّنْيَا: فمنشأ التزاحم حب الدنيا، فَإِنَّ الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين؛ أما الآخرة فلا ضيق فيها.

آثارُ الحسدِ وَأضرَارُه:

وللحسد أضرارٌ جسيمة ومحنٌ عظيمة وغاياتٌ من الشَّر لا تنتهي، ومن هذه الأضرار:

١ ـ حَلْقُ الدِّينِ:

عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّام ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَاكُمْ لَكُمْ، أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»[(١)].

٢ ـ رَفْعُ الْخَيْرِ وَعِظَمُ الْقَطِيعَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ:

عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَقَاطَعُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا»[(٢)].

٣ ـ ضِيقُ الصَّدْرِ وَتَرَبُّصُ الْوَقِيعَةِ بِالآخَرِينَ:

قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: ٥٤].

والقصد من النّاس هنا كما قال ابن عباس: عنى الله بذلك محمدًا ﷺ خاصةً[(٣)].

---

(١) حسن: رَوَاهُ الترمذي (٢٥١٠)، رَوَاهُ أحمدُ (١/ ١٦٤).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٥٩).

وقد قيل:

اِصْبِرْ عَلَى كَيْدِ الْحَسُودِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ
يَكْفِيكَ مِنْهُ أَنَّهُ حَيٌّ تَذُوبُ مَفَاصِلُهْ
كَالنَّارِ تَأْكُلُ بَعْضَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

وقد قيل:

نَافِسْ عَلَى الْخَيْرَاتِ أَهْلَ الْعُلَا فَإِنَّمَا الدُّنْيَا أَحَادِيثْ
كُلُّ امْرِئٍ فِي شَانه كَادِحٌ فَوَارِثٌ مِنْهُمْ وَمَوْرُوثْ

واعلم أن من موانع حبك لأخيك أن تحسده على ما رزقه الله ﷻ، وَلِمَ الحسد وَأنت تعلم أن الله هو الذي رزقه وَأعطاه هذه النعمة التي تحسده عليها؟ وَلو شاء لأنعم عليك بها أَوْ بمثلها، فتوكل على الله الذي رزقك وَاجعله هو حسبُك.

أَلَا قُلْ لِمَنْ كَانَ لِي حَاسِدًا أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الْأَدَبْ
أَسَأْتَ عَلَى اللهِ فِي فِعْلِهِ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبْ

وقال آخر:

يَعْمَى الحسُودُ عَنْ لقاءِ رَبِّهِ جهلًا فَقُلْتُ لَهُ مَقَالَةَ حَازِمِ
اللهُ يَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ فَضْلَهُ مِنِّي وَمِنْكَ وَمِنْ جَمِيعِ العَالَمِ

وقال آخر:

أَعْطَيْتَ لِكل اِمْرِئٍ مِنْ نَفْسِي الرِّضا إلا الحسودَ فَإِنَّهُ أَعْيَانِي
يَطْوِي عَلَى حِنْقٍ حَشَاهُ إِذَا رَأَى عِنْدَي جَمَالَ غِنَى وَفَضْلَ بَيَانِ
وَأَبَى فَمَا تَرْضِيه إِلَا ذِلَّتِي وَهَلَاكُ أَعْضَائِي وَقَطْعُ لِسَانِي

٤ ـ الحسَدُ يمنعُ دخولَ الجنةِ:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَطْلُعُ

---

(١) تفسير ابن جرير عند ذكر الآية.

عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وَضُوئِهِ قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ تَبِعَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فَقَالَ: إِنِّي لَاحَيْتُ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا؛ فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ أَنَسٌ: وَكَانَ عَبْدُ اللهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثَ، فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئًا؛ غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللهَ ﷻ وَكَبَّرَ حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا. فَلَمَّا مَضَتِ الثَّلَاثُ لَيَالٍ وَكِدْتُ أَنْ أَحْتَقِرَ عَمَلَهُ، قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللهِ إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ ثَمَّ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مِرَارٍ: يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَطَلَعْتَ أنت الثَّلَاثَ مِرَارٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ فَأَقْتَدِيَ بِهِ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ. قَالَ: فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لَا نُطِيقُ»(١).

قَالَ الغزّالي: «اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب وَلا تُداوى أمراض القلوب إلا بالعلم وَالعمل، وَالعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقًا أن الحسدَ ضررٌ عليك في الدنيا وَالدين، وَأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا وَالدين بل ينتفع به فيهما، وَمهما عرفت هذا عَنْ بصيرة وَلم تكن عدو نفسك وَصديق عدوك، فارقت الحسد لا محالة.

أَمّا كَوْنُهُ ضَرَرًا عَلَيْكَ في الدِّين: فهو أنك بالحسدِ سخطت قضاء الله

---

(١) صحيح: رَوَاهُ أحمد (٣/ ١٦٦).

تَعَالَى، وَكرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وَعدله الذي أقامه في ملكه يخفي حكمته، فاستنكرت ذلك وَاستبشعته وَهذه جناية على حدقة التوحيد، وَقذى في عين الإيمان، وَناهيك بهما جناية على الدين، وَقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلًا من المؤمنين وَتركت نصيحته، وَفارقت أولياء الله وَأنبياءه في حبهم الخير لعباده تَعَالَى، وَشاركت إبليس وَسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وَزوال النعم، وَهذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب، وَتمحوها كما يمحو الليل النهار.

أَمَّا كَوْنُهُ ضَرَرًا عَلَيْكَ فِي الدُّنيا: فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا أَوْ تتعذب به وَلا تزال في كمدٍ وَغمٍّ إذ أعداؤُك لا يخلِّيهم الله تَعَالَى عَنْ نعمٍ يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكلِّ نعمة تراها، وَتتألم بكل بلية تنصرف عَنْهُم، فتبقى مغمومًا محرومًا متشعب القلب ضيق الصدر؛ قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك وَتشتهيه لأعدائك، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزت في الحال محنتك وَغمك نقدًا، وَمع هذا فلا تزول النعمة عَنْ المحسود بحسدك، وَلو لم تكن تؤمن بالبعث وَالحساب لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلًا أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب وَمساءته مع عدم النفع، فكيف وَأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة، فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله تَعَالَى من غير نفع يناله بل مع ضرر يحتمله وَألم يقاسيه فيهلك دينه وَدنياه من غير جدوى وَلا فائدة.

وَأما أَنَّهُ لا ضَرَر على المحسودِ في دينه وَدنياه فواضحٌ؛ لأنّ النِّعمة لا تزولُ عنه بحسدِك، بل ما قدّره الله تَعَالَى من إقبالٍ وَنعمةٍ فلا بد أن يدوم إلى أجل غير معلوم قدره الله سُبْحَانَهُ، فلا حيلة في دفعه بل كُلُّ شيءٍ عنده بمقدار، وَلكل أجلٍ كتاب»[1].

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٩٦).

الْعِشْقُ

العِشْقُ: فَرْطُ الحبّ، وَقيل: هو عُجْب المحبِّ بالمحبوبِ يكون في عَفافِ الحُبِّ، وَدَعارته(١).

قال ابن الجوزي: «العِشْق طمعٌ يتولد في القلب؛ وَيتحرك وَينمى ثم يتربى، وَيجتمع إليه مواد من الحرص، فكلما قوي ازداد صاحبه في الاهتياج وَاللجاج وَالتمادي في الطمع، وَالفكر في الأماني، وَالحرص على الطّلبِ حتى يؤديه ذلك إلى الغمّ المقلق.

وفي هذا المعنى قَالَ المتنبي:

وَمَا الْعِشْقُ إِلَا غِرَّةٌ وَطَمَاعَةٌ ... يَعْرِضُ قَلْبَ نَفْسِهِ فَيُصَابُ(٢)

وعن أبي العالية الشّامي قَالَ: سَأَلَ أميرُ المؤمنين يحيى بن أكثم عَنْ العِشْقِ ما هو؟ فقال: هو سوانح تسنح(٣) للمرء فيهتم بها قلبه وَتؤثرها نفسه.

قَالَ: فقال له ثمامة: اسكت يا يحيى إنما عليك أن تجيب في مسألة طلاق، أَوْ مُحْرِمٍ صاد ظبيًا، أَوْ قتل نملة، فأما هذه فمسائلنا نحن.

فقال له المأمون: قل يا ثمامة ما العِشْق؟

فقال له ثمامة: العِشْقُ جليسٌ ممتعٌ، وَأليفٌ مؤنسٌ، وَصاحبُ ملك، مسالكُه لطيفة، وَمذاهبه غامضة، وَأحكامه جائرة، ملك الأبدان وَأرواحها، وَالقلوب وَخواطرها، وَالعيون وَنواظرها، وَالعقول وَآراءها، وَأعطى عنان طاعتها، وَقود تصرفها، توارى عَنْ الأبصار مدخله، وَعمِي في القلوب

---

(١) «لسان العرب» باب: «عشق». (٢) «ذم الهوى» (٢٢٨).

(٣) سَنَحَ لي رأي في كذا: ظهر. وسَنَحَ الخاطر به جاد. «المصباح المنير» (١/ ٢٩١).

مسلكه، فقال له المأمون: أحسنت وَالله يا ثمامة! وَأمر له بألف دينار[1].

وعن الأصمعي قَالَ: دخلت على هارون الرشيد فقال لي: يا أصمعي إني أرقت ليلتي هذه، فقلت: مم؟ أنام الله عين أمير المؤمنين.

فقال: فكرت في العشق مم هو؟ فلم أقف عليه؛ فصفه لي حتى أخاله جسمًا مجسمًا.

قَالَ الأَصْمَعِيّ: لا وَالله ما كان عندي قبل ذلك فيه شيء، فأطرقت مليا؛ ثم قلت: نعم يا سيدي إذا تقادحت الأخلاقُ المتشاكلةُ، وَتمازجت الأرواحُ المتشابهةُ، ألهبت لمح نور ساطع يستضيء به العقلُ، وَتهتز لإشراقه طباعُ الحياة، وَيتصور من ذلك النور خُلُقٌ خاصٌّ بالنفس متصل بجوهريتها يسمى العشق.

فقال: أحسنت وَالله، يا غلام أعطه وَأعطه وَأعطه، فأعطيت ثلاثين ألف درهم»[2].

قَالَ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وَالعِشْقُ داءٌ أعيا الأطباءَ دواؤُه، وَعز عليهم شفاؤه، وَهو لعمر الله الداء العضال وَالسّم القتال الذي ما علق بقلب إلا وَعزّ على الورى خلاصه من إساره، وَلاشتعلت ناره في مهجة إلا وَصعب على الخلق تخليصها من ناره، وَهو أقسام:

تارة يكون كفرًا لمن اتخذ معشوقه نِدًّا يحبه كما يحب الله، فكيف إذا كانت محبتُه أعظم من محبة الله في قلبه؟! فهذا عشق لا يُغفر لصاحبه، فَإِنَّهُ من أعظم الشِّرك؛ وَالله لا يغفر أن يشرك به وَإنما يغفر بالتوبة الماحية ما دون ذلك، وَعلامة هذا العشق الشِّركي الكفري أن يقدم العاشق رضاء معشوقه على ربه، وَإِذَا تعارض عنده حق معشوقه وحظه وَحق ربه وَطاعته قدم حق معشوقه على حق ربه، وَآثر رضاه على رضاه، وَبذل له أنفس ما يقدر عليه، وَبذل لربه

---

(١) «ذم الهوى» (٢٢٩).

(٢) «ذم الهوى» (٢٣١).

إن بذل أردأ ما عنده، وَاستفرغ وُسعه في مرضاة معشوقه وَطاعته وَالتقربِ إليه، وَجعل لربه إن أطاعه الفضلة التي تفضل معشوقه من ساعاته، فتأمل حال أكثرِ عُشّاقِ الصُّور تجدها مطابقة لذلك، ثم ضع حالهم في كفة وَتوحيدهم وَإيمانهم في كِفَّة؛ ثم زن وَزنًا يرضي الله وَرسوله وَيطابق العدل، وَربما صرح العاشق منهم بأن وَصل معشوقه أحب إليه من توحيد ربه، كما قَالَ العاشق الخبيث:

يَـرْتَـشِـفْـنَ مِـنْ فَـمِـي رَشَـفَـاتٍ ... هُـنَّ أَحْـلَـى فِـيـهِ مِـنْ الْـتَّـوْحِـيـدِ

وكما صرح الخبيث الآخر أن وَصله أشهى إليه من رحمةِ ربه! فعياذًا بك اللهم من هذا الخذلان، وَمن هذا الحال قَالَ الشاعر:

وَصْـلُـكِ أَشْـهَـى إِلَـى فُـؤَادِي ... مِـنْ رَحْـمَـةِ الْـخَـالِـقِ الْـجَـلِـيـلِ

ولا ريب أن هذا العشق من أعظم الشِّرك، وَكثيرٌ منهم يصرح بأنه لم يبق في قلبه موضع لغير معشوقه البتة، بل قد ملك عليه قلبه كله فصار عبدًا محضًا من كل وَجه لمعشوقه، فقد رضي هذا من عبودية الخالق ﷻ بعبودية مخلوقٍ مثله، فَإِنَّ العبودية هي كمال الحب وَالخضوع، وَهذا قد استغرق قوة حبه وَخضوعه وَذله لمعشوقه، فقد أعطاه حقيقة العبودية، وَلا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم وَمفسدة الفاحشة، فَإِنَّ تلك ذنب كبير لفاعله حكمه حكم أمثاله، وَمفسدة هذا العشق مفسدة الشِّرك، وَكان بعض الشيوخ من العارفين يقول: لئن أبتلى بالفاحشة مع تلك الصورة أحب إليَّ من أن أبتلى فيها بعشقٍ يتعبدُ لها قلبي وَيشغله عَن الله»[1].

وقد انقسم النّاس في أمر العشق:

فمنهم من قَالَ: إنّ هناك من العشق ما يأتي رغمًا عَنْ العبد وَلا يقدر على دفعه، وَلكنه لا يحول بينه وَبين طاعة؛ وَلا يدفعه إلى محرم.

(١) «الجواب الكافي» (٣١٧ ـ ٣١٨).

وَمنهم قَالَ: بل هو بإرادة العبد، فَإِن تمكن من البداية تحكم في النهاية.

ومن ذلك ما وقع لعشق امرأة العزيز ليوسف عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: ٢٣ ـ ٣٢].

فتأمل حال هذه المرأة كيف وقعت في عشق يوسف عليه السلام حتى فقدت عقلها، وفضحت أمرها، وهتكت ستر زوجها ونزلت إلى مولى لها.

يقول ابن القيم رحمه الله: «عِشْقُ الصُّور وَما فيه من المفاسد العاجلة وَالآجلة وَإن كانت أضعاف ما ذكره ذاكر، فَإِنَّهُ يفسد القلب بالذات، وَإِذَا فسد القلب فسدت الإرادات وَالأقوال وَالأعمال، وَفسد ثغر التوحيد، وَالله سبحانه إنما حكى هذا المرض عَنْ طائفتين من النّاس وَهم اللوطيةُ وَالنساءُ، فأخبر عَنْ عشق امرأة العزيز ليوسف وَما راودته وَكادته به، وَأخبر عَنْ الحال التي صار إليها يوسف بصبره وَعفته وَتقواه، مع أَنَّ الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا

من صبَّره الله عليه، فَإِنَّ مواقعة الفعل بحسب قوة الداعي وَزوال المانع، **وَكان الداعي ها هنا في غاية القوة وَذلك من وجوه:**

أحدها: ما ركَّبه الله سُبْحَانَهُ في طبع الرجل من ميله إلى المرأة، كما يميل العطشان إلى الماء، وَالجائع إلى الطَّعام، حتى إن كثيرًا من النّاس يصبر عَنْ الطَّعام وَالشَّراب وَلا يصبر عَنْ النساء، وَهذا لا يذم إذا صادف حلالًا، بل يحمد كما في كتاب الزهد للإمام أحمد من حديث يوسف بن عطية الصَّفار عن ثابتٍ البناني عن أنس عن النبي ﷺ: «حُبّبَ إِلَيّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النّسَاءُ وَالطّيبُ، أَصْبِرُ عَنْ الطّعَامِ وَالشّرَابِ وَلَا أَصْبِرُ عَنْهُنّ»(١).

الثاني: أن يوسف ﷺ كان شابًا وَشهوة الشباب وَحدَّته أقوى.

الثالث: أَنَّهُ كان عزبًا لا زوجة له وَلا سُرِّيَّة تكسر قوة الشَّهوة.

الرابع: أَنَّهُ كان في بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وَطنه وَبين أهله وَمعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصبٍ وَجمال؛ بحيث أن كل وَاحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس: أنها غير ممتنعة وَلا آبية، فَإِنَّ كثيرًا من النّاس يزيل رغبته في المرأةِ إباؤها وَامتناعها لما يجد في نفسه من ذُلّ الخضوع وَالسؤال لها، وَكثير من النّاس يزيده الإباء وَالامتناع إرادة وحبًا كما قَالَ الشاعر:

وَزَادَنِي كَلَفًا فِي الْحُبِّ أَنْ مَنعَتْ ... أَحَبَّ شيءٍ إِلَى الإِنْسَانِ مَا مَنعَا

---

(١) الشطر الأول: رَوَاهُ النسائي (٧/ ٦١)، وفي السنن الكبرى له (٥/ ٢٨٠)، أحمد (٣/ ١٢٨) الحاكم (٢/ ١٧٤)، البيهقي (٧/ ٧٨)، أبو يعلى (٦/ ١٩٩)، أبو عوانة (٤٠٢٠ ـ ٤٠٢١)، الطبراني «الأوسط» (٥/ ٢٤١)، ابن أبي حاتم «التفسير» (٢/ ١٠٥)، مؤمل بن إيهاب الرملي «جزء حديثي» (١/ ٨٣)، أبو الشيخ «أخلاق النبي» (٢٢١)، ابن أبي عاصم «الزهد» (١/ ١١٩)، أما زيادة: «أَصْبِرُ عَنْ الطّعَامِ وَالشّرَابِ...»، فلم أجدها في كتاب «الزهد» ولا غيره، فلعل ابن القيم رواها بالمعنى من حديث آخر، والله أعلم.

فَطِبَاعُ النَّاسِ مُخْتَلِفَةٌ:

فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة وَرغبتها، وَيضمحل عند إبائها وَامتناعها، وَأخبرني بعض القضاة أن إرادته وَشهوته تضمحل عند امتناع امرأته، أَوْ سريته وَإبائها بحيث لا يعاودها.

وَمنهم من يتضاعف حبه وَإرادته بالمنع وَيشتد شوقه كلما منع، وَيحصل له من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه وَنفاره، وَاللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها وَشدة الحرص على إدراكها.

السابع: أنها طلبت وَأرادت وراودت وَبذلت الجهد، فكفته مؤنة الطلب وَذل الرغبة إليها، بل كانت هي الرّاغبة الذليلة؛ وَهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أَنَّهُ في دارها وَتحت سلطانها وَقهرها بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له، فاجتمع داعي الرغبة وَالرهبة.

التاسع: أَنَّهُ لا يخشى أن تنم عليه هي وَلا أحد من جهتها، فإنها هي الطالبة الراغبة، وَقد غلقت الأبواب وَغيبت الرقباء.

العاشر: أَنَّهُ كان في الظاهر مملوكًا لها في الدار بحيث يدخل وَيخرج وَيحضر معها ولا ينكر عليه، وَكان الأنس سابقًا على الطلب، وَهو من أقوى الدواعي كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب: ما حملك على الزنا؟ قَالَت: قرب الوساد وَطول السَّواد، تعني قرب وَساد الرجل من وسادتي، وَطول السواد بيننا.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر وَالاحتيال، فأَرَتْه إياهن وَشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه، فاستعان هو بالله عليهن، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

الثاني عشر: أنها تواعدتْه بالسِّجن وَالصَّغَار، وَهذا نوع إكراه، إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وَقوع ما هدد به، فيجتمع داعي الشَّهوة وَداعي السلامة من ضيق السجن وَالصغار.

الثالث عشر: أن الزّوج لم يُظهر من الغيرةِ وَالنخوةِ ما يفرِّق به بينهما وَيُبعد كلًّا منهما عَنْ صاحبه، بل كان غاية ما قابلها به أن قَالَ ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾. وللمرأة: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

وَشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع، وَهذا لم يظهر منه غيرة، وَمع هذه الدواعي كلها فآثر مرضاة الله وَخوفه، وَحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنا، فقال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

وَعلم أَنَّهُ لا يطيق صرف ذلك عَنْ نفسه، وَأن ربه تَعَالَى إن لم يعصمه وَيصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه وَكان من الجاهلين، وَهذا من كمال معرفته بربه وَبنفسه(١).

اَلْعِشْقُ يَأْتِي بِلَا شُرُوطٍ أَوْ مَوَانِعَ:

قد يتصور العبد أن العاشق عنده اختيار فيمن يهوى أو يحب بل يجمع بين متناقضين مختلفين تمامًا.

فالعشق لا يحول بينه صورة دون صورة، أَوْ هيئة دون هيئة، وَلذلك قد يقع القلب في العشق بين متحابين لا يوجد بينهما تقارب في هيئة، أَوْ صورة.

كان إسماعيل بن جامع ـ وكان قد قرأ القرآن وسمع الحديث، ثم ترك ذلك واشتغل بالغناء ـ قد تزوج بالحجاز جاريةً سوداء مولاة لقوم يقال لها مريم، فلما صار من الرشيد بالموضع الذي صار به اشتاق إلى السَّوداء، فقال يذكرها وَيذكر الموضع الذي كان يألفها فيه وَيجتمعان فيه:

هَلْ لَيْلَتِي بِقَفَا الْحصْحَاصِ عَائِدَةٌ ... فِي قُبَّةٍ ذَاتِ أَشْرَاجٍ وَأَزْرَارِ
تَسْمُو مَجَامِرُهَا بِالْمَنْدَلِي كَمَا ... تَسْمُو بِحَنَّانَةٍ أَفْوَاجُ إِعْصَارِ
الْمِسْكُ يَبْدُو إِلَيْنَا مِنْ غَلَائِلِهَا ... وَالْعَنْبَرُ الْوَرْدُ يُذْكِيهُ عَلَى النَّارِ

(١) «الجواب الكافي» (٣١٣ ـ ٣١٦).

وَمَـرْيَـمُ بَـيْـنَ أَثْـوَابٍ مُـنَـعَّـمَـةٌ طَـورًا، وَطَـورًا تُـغْـنِـينِـي بِـأَوْتَـارِ

فقال له الرشيد ـ وَقد سمع بشعره ـ: وَيلك من مريمك هذه التي قد وَصفتها صفة حور العين؟ قَالَ: زوجتي، فوصفها كلامًا أضعاف ما وَصفها شعرًا، فأرسل الرشيد إلى الحجاز حتى حُملت فإذا هي سوداءُ طُمْطُمانِيَّة[1] ذات مشافر[2]، فقال له: وَيلك هذه مريم التي ملأتَ الدنيا بذكرها، عليك وَعليها لعنة الله؟ فقال: يا سيدي إن عمر بن أبي ربيعة يقول:

فَـتَـضَـاحَـكْـنَ وَقَـدْ قُـلْـنَ لَـهَـا حَـسَـنٌ فِـي كُـلِّ عَـيْـنٍ مَـا تَـوَدُّ

وعن أبي بكر محمد بن داود الفقيه:

حَمَلْتُ جِبَالَ الْحُبِّ فِيكَ وَإِنَّنِي لَأَعْجَزُ عَنْ حَمْلِ الْقَمِيصِ وَأَضْعَفُ
وَمَا الْحُبُّ مِنْ حُسْنٍ وَلَا مِنْ سَمَاحَةٍ وَلَكِنَّه شَيءٌ بِهِ الْنَّفْسُ تَكْلَفُ

وقد يتعرض الإنسان بأسباب العشق فيعشق، فَإِنَّهُ قد يرى الشخص فلا توجب رؤيته محبته فيديم النظر وَالمخالطة فيقع فيما لم يكن في حسابه، كما قَالَ الشاعر[3]:

تَـوَلَّـعَ بِـالْـعِـشْـقِ حَـتَـى عَـشِـقَ فَـلَـمَّـا اسْـتَـقَـلَّ بِـهِ لَـمْ يَـطِـق
رَأَى لُـجَّـةً ظَـنَّـهَـا مَـوْجَـةً فَـلَـمَّـا تَـمَـكَّـنَ مِـنْـهَـا غَـرِق

ومما قيل في العشق[4]:

قال أبو عبد الله ابن الحجاج:

وَيَـحَـكَ يَـا قَـلْـبُ مَـا أَغْـفَـلَـكْ تَـعْـشِـقُ مَـنْ يَـعْـشِـقُ أَنْ يَـقْـتُـلَـك
وَأَنْـتَ يَـا طَـرْفِـي أَوْقَـعْـتَـنِـي وَيْـحَـكْ يَـا طَـرْفُ مَـا لِـي وَلَـكْ
قَـدْ كَـانَ مِـنْ حَـقِّ بُـكَـايَ عَـلَـى مَـنْ يُـبْـتَـلَـى بِـالْـحُـبِّ أَنْ يَـشْـغَـلَـكْ
حَـتَّـى تَـوَصَّـلَـتْ لِـقَـلْـبِـي فَـلَا كُـنْـتَ وَلَا كَـانَ الَّـذِي أَرْسَـلَـكْ

---

(١) لا يفهم كلامها، وطُمْطُمانِيَّة: الألفاظ المُنْكَرة بكلام العُجْم.
(٢) المشافر: عظم الشفتين عند البعير، ويشبه بها عظيم الشفتين.
(٣) «ذم الهوى» (٢٣٧).
(٤) «ذم الهوى» (٢٥٢ ـ ٢٥٥).

وقال عبد المحسن بن غالب الصّوري:

وَكَانَ اِبْتِدَاءُ الْهَوَى بِي مُجُونَا ... فَلَمَّا تَمَكَّنَ أمسَى جُنُونَا
وَكُنْتُ أَظُنُّ الْهَوَى هَيِّنَا ... فَلَاقَيتُ مِنْهُ عَذَابًا مُهِينَا

ولأبي بكر محمد بن عمر العنبري:

يَا صَاحِ إِنِّي مُذْ عَرَفْتُ الْهَوَى ... غَرِقْتُ فِي بَحْرٍ بِلَا سَاحِلِ
عَيْنِي لِحَيْنِي نَظَرَتْ نَظْرَةً ... رحْتُ لَهَا فِي شُغْلٍ شَاغِلِ
عَلِقْتُه فِي الْبَيْتِ مِنْ فَارِسٍ ... لَكِنَّه فِي السِّحْرِ مِنْ بَابِلِ
يَظْلِمُنِي وَالْعَدْلُ مِنْ شأْنِهِ ... مَا أَوْجَعَ الظُّلْمَ مِنَ الْعَادِلِ

وقال شَيْخُنا أبو عبد الله البارع:

يَا قَلْبُ صَبْرًا لِنُبْلِ غُنْجٍ ... مِنْ مُقْلَةِ الشَّادِنِ الْمَلِيحَهْ
هَذَا الذي كُنْتُ فِي مَسَاءٍ ... أَنْهَاكَ عَنْهُ وَفِي صَبِيحَهْ
حَتَّى إِذَا مَا وَقَعْتَ فِيهِ ... وَصِرْتَ فِي حَالَةٍ قَبِيحَهْ
جِئْتَ مِنَ الحُبِّ مُسْتَغِيثًا ... تَسْأَلُنِي سَلْوَةً مُرِيحَهْ
كَطَالِبِ الرُّشْدِ عِنْدَ أَعْمَى ... وَقَابِسِ النَّارِ فِي الْبَطِيحَهْ
سَوْف أُنَادِي عَلَيْكَ حَتَّى ... تَصِيرَ بَيْنَ المَلَا فَضِيحَهْ
هَذَا جَزَاء مَنْ نَصَحْتُ جَهْدِي ... لَهُ فَلَمْ يَقْبَلِ النَّصِيحَهْ

وَله أَيْضًا:

أَبَتْ نَارُ قَلْبِكَ إِلَا اِسْتِعَارَا ... وَمَاءُ شُؤونك إِلَّا اِنْهِمَارَا
وَكُنْتَ صَبُوًا قُبَيْلَ الْفِرَاقِ ... فَهَلَا أَطَقْتَ عَلَيْهِ اصْطِبَارَا
أَهَابَ بِقَلْبِكَ دَاعِي النَّوَى ... غَدَاةَ الوَدَاعِ أَلَّا لا فِرَارَا
فَأَزْمِعْ إِذْ أَزْمَعُوا نِيَّةً ... فِرَاقَ حَشَاكَ وَسَارُوا فَسَارَا
فَلَسْتَ تَرَاكَ ضَنًى بَعْدَهَا ... عُيونُ الْعَوَائِدِ حَتَّى تَمَارَى
كَأَنْ لَمْ يَطُفْ بِسِوَاكَ الْهَوَى ... وَلَا احْتَلَّ غَيْرَ سوَيْدَاك دَارَا
وَقَدْ مَاتَ قَيْسٌ بِهِ هَائِمًا ... فَمَا أَدْرَكَتْ عَامِرٌ مِنْهُ ثَارَا

وَأَوْدَى بِعُرْوَةَ مِنْ قَبْلِهِ ... فَلَمْ تَغْزُ عذرةُ عَنْهُ انْتِصَارَا
وَمَاتَ بِدَائِهِمَا تَوْبَة ... أَحَبُّوا كِرَامًا وَمَاتُوا حِرَارَا
وَأَنْتَ عَلَى إِثْرِهِم سَالِكٌ ... سَبِيلَهُمْ فَالْفِرَارَ الْفِرَارَا
وَكُنْتَ وَلَيْلَى رَضِيعَي هَوَى ... وَجَارِي صَفًا مَا تَذُمُّ الْجِوَارَا
فَأَصْبَحَ قَدْ جَدَّ حَبْلُ الْوِصَالِ ... وَجَدَّ الْفِرَاقُ فَشَطَّتْ مَزَارَا
وَقَدْ خَلَّفْتَنِي أَرْعَى النُّجُومَ ... أَيْنَ بَدَا ذَا وَذَا أَيْنَ غَارَا

الْآفَاتُ التي تَجْرِي عَلَى الْعَاشِقِ:

وضرر العشق لا يقع على القلب فحسب بل يصل ألمُه إلى كل ذرةٍ من ذرات البدن، حتى إنَّهُ يُذهب العقلَ فلا يتراءىٰ فيه إلا من أحب، وَيُعمي البصر فلا يرى إلا من أحب، وَيسد الآذان فلا يسمع إلا من أحب، وَيشل الأعضاء فلا تتحرك إلا لمن أحب.

وَالداخل في الشيء لا يرى عيوبه وَلكن يراها من هو خارج عنه، وَمن ثم كانت صحبة الأخيار وَالصالحين من أعظم أسباب صحة البصر وَالبصيرة.

ومن أعظم أسباب العشق صحبةُ الفُسَّاق وسماعُ الغزل وَالغناء والتعلقُ بالصُّور ومداومةُ النظر إليها، فَإِنَّ ذلك يصور في النفوس نقوشَ صور تعلقُ بالقلب ثم يصادف النظر مستحسنًا فتتعلق النفس بما كانت تطلبه حالة الوصف.

قَالَ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن المعلوم أَنَّهُ ليس في عشق الصُّور مصلحةٌ دينية ولا دنيوية، بل مفسدتُه الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة وذلك من وجوه:

أحدها: الاشتغال بحب المخلوق وَذكرِه عَنْ حب الرَّب تَعَالَى وَذكرِه، فلا يجتمع في القلب هذا وَهذا إلا وَيقهر أحدُهما الآخر؛ وَيكون السُّلطان وَالغلبة له.

الثاني: عذاب قلبه به، فَإِنَّ من أحبَّ شيئًا غير الله عُذب به وَلا بد كما قيل:

فَمَا فِي الْأَرْضِ أَشْقَى مِنْ مُحِبٍّ وَإِنْ وَجَدَ الْهَوَى حُلْوَ الْمَذَاقِ
تَرَاهُ بَاكِيًا فِي كُلِّ حِينٍ مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أَوْ لِاشْتِيَاقِ
فَيَبْكِي إِنْ نَأَوْا شَوْقًا إِلَيْهِمْ وَيَبْكِي إِنْ دَنَوا خَوْفَ الْفِرَاقِ
فَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ الْفِرَاقِ وَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّلَاقِ

والعشق وَإن استعذبه صاحبُه فهو من أعظم عذاب القلب.

الثالث: أن قلبه أسيرٌ في قبضة غيره يسومُه الهوان، وَلكن لسكرتِه لا يشعر بمصابه، فقلبه كعصفورة في كف طفلٍ يسومُها حياضَ الردى، وَالطفل يلهو وَيلعب، كما قال بعض هؤلاء:

مَلَكْت فُؤَادِي بِالْقَطِيعَةِ وَالْجَفَا وَأَنْت خَلِيّ البَالِ تَلْهُو وَتَلْعَبُ

فيعيش العاشق عيش الأسير الموثق، وَيعيشُ الخلي عيش المسَيَّبِ المطلق.

طَلِيقٌ بِرَأْيِ الْعَيْنِ وَهْوَ أَسِيرٌ عَلِيلٌ عَلَى قُطْبِ الْهَلَاكِ يَدُورُ
وَمَيْتٌ يُرَى فِي صُورَةِ الْحيِّ غَادِيًا وَلَيْسَ لَهُ حَتى النُّشُورِ نُشُورُ
أَخُو غَمَرَاتٍ ضَاعَ فِيهِنَّ قَلْبُهُ فَلَيْسَ لَهُ حَتى الْمَمَاتِ حُضُورُ

الرابع: أَنَّهُ يشتغل به عَنْ مصالحُ دينه وَدنياه، فليس شيءٌ أضيع لمصالحِ الدّين وَالدنيا من عشق الصور، أما مصالحُ الدين فإنها منوطةٌ بلَمِّ شعث القلب وَإقباله على الله، وَعشق الصور أعظم شيءَ تشعيثًا وَتشتيتًا له، وَأما مصالح الدنيا فهي تابعةٌ في الحقيقة لمصالح الدين؛ فمن انفرطت عليه مصالح دينه وَضاعت عليه؛ فمصالح دنياه أضيع وَأضيع.

الخامس: أن آفات الدنيا وَالآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار في يابس الحطب.

وَسبب ذلك: أن القلب كلما قرب من العشق وقوي اتصاله به بَعُدَ من الله، فأبعد القلوب من الله قلوبُ عشاق الصور، وَإِذَا بعُد القلب من الله طرقته الآفات، وتولاه الشَّيطان من كل ناحية، وَاستولى عليه لم يدع أذى

يمكنُه إيصالُه إليه إلا أوصله، فما الظن بقلب تمكن منه عدوُّه وَأحرص الخلق على غيه وَفساده، وَبعد منه وَليه وَمن لا سعادة له وَلا فلاح وَلا سرور إلا بقربه وَولايته.

السادس: أَنَّهُ إذا تمكن من القلب وَاستحكم وَقوى سلطانُه أفسدَ الذهن، وَأحدث الوسواس؛ وَربما ألحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها.

وَأخبار العشاق في ذلك موجودة في مواضعها، بل بعضها مشاهَدٌ بالعيان وَأشرف ما في الإنسان عقله، وَبه يتميز عَنْ سائر الحيوانات، فإذا عدم عقلَه التحق بالحيوان البهيم، بل ربما كان حالُ الحيوان أصلحَ من حاله، وَهل أذهبَ عقلَ مجنون ليلى وَأضرابِه إلا ذلك؟ وَربما زاد جنونُه على جنون غيره كما قيل:

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَىٰ فَقُلْتُ لَهُمْ ... الْعِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ
اَلْعِشْقُ لَا يَسْتَفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُه ... وَإِنَّمَا يُصْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحِينِ

السابع: أَنَّهُ ربما أفسد الحواسَّ أَوْ بعضَها إما إفسادًا معنويًا أَوْ صوريًا.

أما **الفساد المعنوي** فهو تابع لفساد القلب، فَإِنَّ القلب إذا فسد فسدت العين وَالأذن وَاللسان فيرى القبيح حسنًا منه وَمن معشوقه كما في المسند مرفوعًا: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ»(١).

فهو يعمي عين القلب عَنْ رؤية مساوئ المحبوبِ وَعيوبِه؛ فلا ترى العينُ ذلك، وَيُصم أذنه عَنْ الإصغاء إلى العذل فيه؛ فلا تسمع الأذن ذلك، وَالرغبات تستر العيوب؛ فالراغب في الشيء لا يرى عيوبه حتى إذا زالت

---

(١) الراجح موقوف: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٥١٣٠)، أحمدُ (٥/ ١٩٤)، الطبراني «الأوسط» (٤/ ٣٣٤) وقال تفرد به: أبو بكر بن أبي مريم وهو ضعيف، ورواه البيهقي «شعب الإيمان» (١/ ٤١١) وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد روي هذا موقوفًا. ورواه البيهقي أيضًا «الآداب» (١٧٢)، وقال: هكذا روي بهذا الإسناد مرفوعًا. ورواه جرير بن عثمان وغيره، عن بلال بن أبي الدرداء، عن أبيه موقوفًا.

رغبتُه فيه أبصر عيوبه، فشدة الرغبة غشاوة على العين تمنع من رؤية الشيء على ما هو به كما قيل:

هَويتُكِ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَة فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسِي أَلُومُهَا

والدّاخل في الشيء لا يرى عيوبه، والخارج منه الذي لم يدخل فيه لا يرى عيوبه ولا يرى عيوبه إلا من دخل فيه ثم خرج منه، ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر خيرًا من الذين ولدوا في الإسلام.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «إِنَّمَا تُنْقَضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً؛ إِذَا وُلِدَ فِي الإِسْلامِ مَنْ لا يَعرِفُ الجاهِلِيّةِ»(١).

وأمَّا **فَسَاد الحواس** ظاهرًا فإنه يمرض البدن وينهكه، وربما أدى إلى تلفه كما هو المعروف في أخبار من قتلهم العشق.

وقد رُفع إلى ابن عباس وهو بعرفة شابٌّ قد انتحل حتى عاد جلدًا على عظم فقال: ما شأن هذا؟ قالوا: به العشق. فجعل ابن عباس يستعيذ بالله من العشق عامة يومه.

الثامن: أن العشق هو الإفراط في المحبة بحيث يستولي المعشوق على القلب من العاشق، حتى لا يخلو من تخيُّله، وَذكره، وَالفكر فيه، بحيث لا يغيب عَنْ خاطرِهِ وَذهنه، فعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام القوة الحيوانية والنفسانية، فتتعطل تلك القوة فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن وَالروح ما يعز دواؤه وَيتعذر. فتتغير أفعاله وَصفاته وَمقاصده، وَيختلُ جميع ذلك فتعجز البشر عَنْ صلاحه، كما قيل:

اَلْحُبُّ أَوَّلُ مَا يَكُونُ لُجَاجَةً يَأْتِي بِهَا وَتَسُوقُه الْأَقْدَارُ
حَتَّى إِذَا خَاضَ الْفَتَى لُجَجَ الْهَوَى جَاءَتْ أُمُورٌ لَا تُطَاقُ كِبَارُ

وَالعشق مبادئه سهلةٌ حِلْوةٌ، وَأوسطه هم وَشغلُ قلبٍ وَسقمٌ، وَآخره عطب وَقتل إن لم تتداركه عنايةٌ من الله تعالى كما قيل:

---

(١) سبق.

وَعِشْ خَالِيًا فَالْحُبُّ أَوَّلُهُ عَنَا وَأَوْسَطُهُ سَقَمٌ وَآخِرُه قَتْلُ

وَقال الآخر:

تَوَلَّعَ بِالْعِشْقِ حَتَّى عَشِقْ فَلَمَّا اسْتَقَلَّ بِهِ لَمْ يَطِقْ
رَأى لُجَّةً ظَنَّهَا مَوْجَةً فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهَا غَرِقْ

والذنب له فهو الجاني على نفسه وَقد قعد تحت المثل السائر: «يَدَاكَ أَوْكَتَا وَفُوكَ نَفَخ»(١)(٢).

وقَالَ ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأما ضرر العشق في الدنيا فَإِنَّهُ يورث الهم الدائم، وَالفكر اللازم، والوسواس وَالأرق، وَقلة المطعم وَكثرة السهر، ثم يتسلط على الجوارح فتنشأ الصفرة في البدن، وَالرعدة في الأطراف، وَاللجلجة في اللسان، وَالنحول في الجسد، فالرأي عاطل، وَالقلب غائب عَنْ تدبير مصلحته، وَالدموع هواطل، وَالحسرات تتابع، وَالزفرات تتوالى، وَالأنفاس لا تمتد، وَالأحشاء تضطرم، فإذا غشى على القلب إغشاء تامًا أخرجت إلى الجنون وَما أقربه حينئذ من التلف، هذا وَكم يجني من جناية على العرض، وَوهن الجاه بين الخلق، وَربما أوقع في عقوبات البدن وَإقامة الحد وَقد أنشدوا:

وَمَا عَاقِلٌ فِي النَّاسِ يُحْمَدُ أَمْرُهُ وَيُذْكَرُ إِلا وَهْوَ فِي الْحُبِّ أَحْمَقُ
وَمَا مِنْ فَتًى ذَاقَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ مِن النَّاسِ إِلَا ذَاقَهَا حِيْنَ يَعْشَقُ

قَالَ جالينوس: العشق من فعل النفس، وَهي كامنة في الدماغ وَالقلب وَالكبد، وَفي الدماغ ثلاثة مساكن:

---

(١) وهو مثل يضرب لرجل نفخ زقًا (قربة كبش سلخت من رأسه إلى رجله) وأوكأه (سد الفتحات وربط فم القربة) وركب البحر فجعل الوكاء (الخَيْط الذي شده به) يسترخي، وجعل الرجل يستغيث فقال الزق: «يدك أوكت وفوك نفخ». الرامهرمزي «المحدث الفاصل» (٥٨١).

(٢) «الجواب الكافي» (٣١٩).

وَعِشْ خَالِيًا فَالْحُبُّ أَوَّلُهُ عَنَا وَأَوْسَطُهُ سَقَمٌ وَآخِرَه قَتْلُ

وَقال الآخر:

تَوَلَّعَ بِالْعِشْقِ حَتَّى عَشِقْ فَلَمَّا اسْتَقَلَّ بِهِ لَمْ يَطِقْ
رَأَى لُجَّةً ظَنَّهَا مَوْجَةً فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهَا غَرِقْ

والذنب له فهو الجاني على نفسه وَقد قعد تحت المثل السائر: «يَدَاكَ أَوْكَتَا وَفُوكَ نَفَخَ»(١)(٢).

وقَالَ ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأما ضرر العشق في الدنيا فَإِنَّهُ يورث الهم الدائم، وَالفكر اللازم، والوسواس وَالأرق، وَقلة المطعم وَكثرة السهر، ثم يتسلط على الجوارح فتنشأ الصفرة في البدن، وَالرعدة في الأطراف، وَاللجلجة في اللسان، وَالنحول في الجسد، فالرأي عاطل، وَالقلب غائب عَنْ تدبير مصلحته، وَالدموع هواطل، وَالحسرات تتابع، وَالزفرات تتوالى، وَالأنفاس لا تمتد، وَالأحشاء تضطرم، فإذا غشى على القلب إغشاء تامًا أخرجت إلى الجنون وَما أقربه حينئذ من التلف، هذا وَكم يجني من جناية على العرض، ووهن الجاه بين الخلق، وَربما أوقع في عقوبات البدن وَإقامة الحد وَقد أنشدوا:

وَمَا عَاقِلٌ فِي النَّاسِ يُحْمَدُ أَمْرُهُ وَيُذْكَرُ إلا وَهْوَ فِي الْحُبِّ أَحْمَقُ
وَمَا مِنْ فَتًى ذَاقَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ مِن النَّاسِ إِلَا ذَاقَهَا حِيْنَ يَعْشَقُ

قَالَ جالينوس: العشق من فعل النفس، وَهي كامنة في الدماغ وَالقلب وَالكبد، وَفي الدماغ ثلاثة مساكن:

---

(١) وهو مثل يضرب لرجل نفخ زقًا (قربة كبش سلخت من رأسه إلى رجله) وأوكاه (سد الفتحات وربط فم القربة) وركب البحر فجعل الوكاء (الخَيْط الذي شده به) يسترخي، وجعل الرجل يستغيث فقال الزق: «يدك أوكت وفوك نفخ». الرامهرمزي «المحدث الفاصل» (٥٨١).

(٢) «الجواب الكافي» (٣١٩).

يوجبان تحصيل المصالح وَتكميلها وَإعدام المفاسد وَتقليلها، فإذا عُرِض للعاقل أمر يرى فيه مصلحةً وَمفسدة وَجب عليه أمران: أمر علمي، وَأمر عملي، فالعلمي: طلب معرفة الرّاجح من طرفي المصلحة وَالمفسدة، فإذا تبين له الرّجحان وَجب عليه إيثار الأصلح له.

وَمن المعلوم أَنَّهُ ليس في عشق الصور مصلحةٌ دينية وَلا دنيوية، بل مفسدته الدينية وَالدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة»[١].

بَعْضُ صوَرِ الْعُشَّاقِ:

وهذه بعض صور العشاق وما أحدث بهم العشق من إفساد للقلب، وتخريب للعقل وهدم لبنيان البدن.

كامل بن الوضين:

قال الضبي[٢]: عشق كامل بن الوضين أسماء بنت عبد الله بن هشام ابنة عمه، فلم يزل به العِشق حتى صار كالشيء البالي، فشكا أبوه إلى أبيها ما نزل به ليزوجها منه، ولم يعلم كامل بن الوضين، قال: وإذًا أسماءُ لتسمع كلامي؟ قيل: نعم، فشهق شهقة وقضي مكانه، فقيل لها: مات بغصة شجنه، قالت: والله لأموتن بمثلها، ولقد كنت على زيارته قادرة، فمنعني منها قبح ذكر الريبة، ومَرِضت، فلما اشتد بها المرض قالت لأشفق نسائها عليها: صوري لي مثاله؛ فإني أحب أن أزوره قبل موتي، ففعلت، فلما وصلت الصُّورة اعتنقتها وشهقت فقضيت، فطلب أبو الفتى إلى أبيها أن يدفنها بالقرب من قبر ابنه ففعل، وكتب على قبريهما:

بِنَفْسِي هُمَا لَمْ يُمَتَّعَا بِهَوَاهِمَا ... عَلَى الدَّهْرِ حَتَّى غُيِّبَا فِي الْمَقَابِرِ
أَقَامَا عَلَى غَيْرِ التَّزَاوِرِ بُرْهَةً ... فَلَمَّا أُصِيبَا قُرِّبَا بِالتَّزَاوُرِ
فَيَا حُسْنَ قَبْرٍ زَارَ قَبْرًا يُحِبُّه ... وَيَا زَوْرَةً جَاءَتْ بِرَيْبِ الْمَقَادِرِ

(١) «الجواب الكافي» (٣١٩).

(٢) ابن الجوزي «ذم الهوى» (٣٨٣).

عمرو الخزاعي:

قيل: مَرّ عمرو بن مناة الخزاعي بليلى الخزاعية وَهي تحت أراكةٍ وَمعها نسوة من قومها، ـ وَكان عمرو معروفًا بحسن الحديث وَرقة الشعر ـ فقال له النسوة: هل تحدثنا؟ فجلس يحدثهن فرأى ليلى بنت عيينة فعلقها، وَتزايد الأمر به، فهام حتى كان لا ينام إلا حيث يرى بيوت أهلها وَإلا لم ينم، وَأخذته الوسوسة وَفقد عقله، وَكان لا يهدى إلا بذكرها، وَقال فيها أشعارًا كثيرة، فمن قوله فيها:

تَوَسَّدَ أَحْجَارًا وَدَقْعَاءَ بَائِتًا مَبِيْتَ عَسِيفِ الْحَيِّ غَيْرَ المكرمِ
أَرَى بَيْتَ لَيْلَى حِينَ أُغْلِقَ بَابُهُ أَلَذَّ وَأَشْهَى مِنْ مِهَادٍ مقدمِ

ابن أبي مالك:

عَنْ عبد الله بن همام قَالَ: خرجت أريد بعض الحوائج فإذا أنا بابن أبي مالك وَهو قاعد في الصحراء بين الحيرة وَالكوفة، فقلت: ما تصنع ههنا؟ فقال: أصنع ما كان صاحبنا يصنع. فقلت: وَمن صاحبكم؟ قَالَ: مجنون بني عامر صاحب ليلى. قَالَ: وَإلى جانبه حجر فتناوله وَعدا خلفي فتجاوزني الحجر، وَعدت فقعدت بعيدًا منه، قَالَ: فقال لي: وَالله ما أحسَنَ وَلا أجمل حيث يقول:

علقْتُك إِذْ عَيْني عَلَيْها غِشَاوَةٌ فَلَمّا انْجَلَتْ قَطَّعَتُ نَفْسِي أَلُومُها

ما له لم يقل كما قلت:

رَمَانِي الْهَوَى مِنْهُ بِأَعْظَم شَجْوَةٍ وَعَسْكَرَ حَوْلِي الْهَجْرُ دُونَ حَبِيبِ
فَصَبْرًا لَعَلَّ الدَّهْرَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا بِإِلْفِ حَبِيبٍ أَوْ بِمَوْتِ رَقِيبِ

قَالَ: ثم قَالَ: ألا تقول ما هو أحسن من هذا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، الواحد الأحد، خلق فقدر، وَحكم فعدل»(١).

---

(١) «ذم الهوى» (٣٣٢).

جارية جنت من فرط العشق(١):

وعن عباس بن عبيدة قَالَ: كان بالمدينة جارية ظريفة حاذقة بالغناء، فهوِيت فتى من قريش فكانت لا تفارقه وَلا يفارقها، فملّها الفتى وَتزايدت هي في محبته وَأسِفت وَغارت وَولهت، وَجعل مولاها لا يعبأ بذلك وَلا يرق لشكواها، فتفاقم الأمرُ بها حتى هامت على وَجهها وَمزقت ثيابها وَضربت من لقيها، فلما رأى مولاها ذلك عالجها فلم ينجح فيها العلاج، وَكانت تدور بالليل في السكك بعد الطوف، فلقيها مولاها ذات يوم في الطريق وَمعه أصحاب له فجعلت تبكي وَتقول:

اَلْـحُـبُّ أَوَّلُ مَـا يَـكُـونُ لَـجَـاجَـةً ... تَـأْتِـي بِـهِ وَتَـسُـوقُـهُ الْأَقْـدَارُ
حَتَّى إِذَا اقْتَحَمَ الْفَتَى لُجَجَ الْهَوَى ... جَـاءَتْ أُمُـورٌ لَا تُـطَـاقُ كِـبَـارُ

قَالَ: فما بقي أحد إلا رحمها.

فقال لها مولاها: يا فلانة امضي معنا إلى البيت. فأبت وَقالت: شغل الحلي أهله أن يعارا.

قَالَ: وَذكر بعض من رآها ليلة وَقد لقيتها مجنونة أخرى فقالت لها: يا فلانة كيف أنت؟ فقالت: كما لا أحب، فكيف أنت من وَلهك وَحبك؟ فقالت: على ما لم يزل يتزايد على مر الأيام.

قَالَت لها: فغني بصوت من أصواتك فإني قريبة الشبه بك، فأخذت قصبة توقع بها وَغنت:

يَـا مَـنْ شَـكَـا أَلَـمًـا لِـلْـحُـبِّ شَـبَّـهَـهُ ... بِالنَّارِ فِي الْقَلْبِ مِنْ حُزْنٍ وَتَذْكَارِ
إِنـي لَأُعْـظِـمُ مَـا بِـي أَنْ أُشَـبِّـهَـهُ ... شَـيْـئًـا يُـقَـاسُ إِلَـى مِـثْـلٍ وَمِـقْـدَارِ
لَـوْ أَنْ قَـلْـبِـي فِـي نَـارٍ لَأَحْـرَقَـهَـا ... لِأَنَّ أَحْـزَانَـه أَذْكَـى مِـنَ الْـنَّـارِ

قَالَ: ثم مضت.

---

(١) «ذم الهوى» (٣٣٥).

واقفٌ أمام بابه:

وقيل: إن رجلًا كان وَاقفًا بإزاء داره وَكان بابها يشبه باب حمام منجاب، فمرت به جارية لها منظر فقالت: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال: هذا حمام منجاب. فدخلت الدار وَدخل وَراءها، فلما رأت نفسها فى داره وَعلمت أَنَّهُ قد خدعها أظهرت له البشر وَالفرح باجتماعها معه، وَقالت خدعةً منها له وَتحيلًا لتتخلص مما أوقعها فيه وَخوفًا من فعل الفاحشة: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وَتقر به عيوننا. فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وَتشتهين. وَخرج وَتركها في الدار وَلم يغلقها، فأخذ ما يصلح وَرجع فوجدها قد خرجت وَذهبت وَلم تخنه في شيء، فهام الرجل وَأكثر الذكر لها وَجعل يمشي فى الطرق وَالأزقة وَيقول:

يَا رُبَّ قَائِلَةٍ يَوْمًا وَقَدْ تَعِبَتْ   أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَّامِ مِنْجَابِ؟

فبينا يقول ذلك وَإِذَا بجاريته أجابته من طاق قرنان:

هَل لَا جَعَلْتَ سَرِيعًا إِذْ ظَفِرْتَ بِهَا   حِرْزًا عَلَى الدَّارِ أَوْ قِفْلًا عَلَى الْبَابَ

فازداد هَيمانُه وَاشتد هيجانه، وَلم يزل كذلك حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا(١).

دَرَجَاتُ العِشْقِ:

قَالَ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالعاشق له ثلاث مقامات: مقام ابتداء، وَمقام توسط، وَمقام انتهاء.

فأما مقام ابتدائه، قالوا: يجب عليه فيه مدافعته بكل ما يقدر عليه إذا كان الوصول إلى معشوقه متعذرًا قدرًا وَشرعًا، فَإِن عجز عَنْ ذلك وَأبى قلبُه إلا السفرَ إلى محبوبه؛ وَهذا مقام التوسط وَالانتهاء: فعليه كتمان ذلك وَأن لا يفشيه إلى الخلق، وَلا يشمت بمحبوبه وَلا يهتكه بين النّاس، فيجمع بين

---

(١) «الجواب الكافي» (١١٧).

الشّرك وَالظلم، فَإِنَّ الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم، وَربما كان أعظم ضررًا على المعشوق وَأهله من ظلمه في ماله، فَإِنَّهُ يعرض المعشوق بهتكه في عشقه إلى وقوع النّاس فيه، وَانقسامهم إلى مصدق وَمكذب، وَأكثر النّاس يصدق في هذا الباب بأدنى شبهة، وَإِذَا قيل: فلان فعل بفلان أَوْ بفلانة، كذبه وَاحد وَصدقه تسعمائة وَتسعة وَتسعون.

وَخبر العاشق المتهتِّكِ عند النّاس في هذا الباب يفيد القطع اليقين، بل إذا أخبرهم المفعول به عَنْ نفسه كذبًا وَافتراء على غيره جزموا بصدقه جزمًا لا يحتمل النقيض، بل لو جمعهما مكان وَاحد من غير اتفاق، لجزموا أن ذلك عَنْ وَعد وَاتفاق بينهما، وَجزمهم في هذا الباب على الظنون وَالتخيل وَالشبه وَالأوهام وَالأخبار الكاذبة كجزمهم بالحسيات المشاهدة، وَبذلك وَقع أهل الإفك في الطيبة المطيبة حبيبة رَسُول اللهِ ﷺ، المبرأة من فوق سبع سموات بشبهة مجيء صفوان بن المعطل بها وَحده خلف العسكر حتى هلك من هلك، وَلولا أن تولى الله ﷻ براءتها وَالذب عنها، وَتكذيب قاذفها لكان أمرًا آخر.

وَالمقصود: أن في إظهار المبتلى عشق من لا يحل له الاتصال به من ظلمه وَأذاه؛ ما هو عدوان عليه وَعلى أهله وَتعرض لتصديق كثير من النّاس ظنونهم فيه.

فَإِن استعان عليه بمن يستميله إليه إما برغبة أَوْ رهبة، تعدى الظلم وَانتشر وَصار ذلك الواسطة ديوثًا ظالمًا، وَإِذَا كان النَّبِيّ ﷺ قد لعن الرائش ـ وَهو الواسطة بين الراشي والمرتشي في إيصال الرشوة ـ فما ظنك بالديوث الواسطة بين العاشق وَالمعشوق في الوصل، فيتساعد العاشق والديوث على ظلم المعشوق وظلم غيره ممن يتوقف حصول غرضه على ظلمه في نفس أو مال أَوْ عرض، فَإِنَّه كثيرًا ما يتوقف حصول المطلوب فيه على قتل نفس يكون حياتها مانعة من غرضه، وَكم قتيل حلَّ دمه بهذا السبب من زوج وَسيد وقريب، وَكم خُبِّبَتِ امرأة على بعلها وَجارية وَعبد على سيدهما، وَقد لعن رَسُول اللهِ ﷺ من فعل ذلك وَتبرأ منه وَهو من أكبر الكبائر.

وَإِذَا كان النَّبِيّ ﷺ قد نهى أن يخطب الرجل على خِطبة أخيه أو أن يستام على سوم أخيه، فكيف بمن يسعى بالتفريق بين رجل وبين امرأته وَأمته حتى يتصل بهما؟.

وَعشاق الصور وَمساعدوهم من الدِّيَاَيثة لا يرون ذلك ذنبًا، فَإِنَّ طلب العاشق وَصل معشوقه وَمشاركة الزوج وَالسيد، ففي ذلك من إثم ظلم الآخرين ما لعله لا يقصر عَنْ إثم الفاحشة إن لم يَرْبُ عليها، وَلا يسقط حق الآخرين بالتوبة من الفاحشة، فَإِنَّ التوبة وَإن أسقطت حق الله فحق العبد باقٍ له المطالبة به يوم القيامة، فَإِنَّ من ظلم الوالد إفساد وَلده وَفلذة كبده وَمن هو أعز عليه من نفسه، فظلم الزوج بإفساد حبيبته وَالجناية على فراشه أعظم من ظلمه بأخذ ماله كله، وَلهذا يؤذيه ذلك أعظم مما يؤذيه أخذ ماله، وَلا يعدل ذلك عنده إلا سفك دمه، فيا له من ظلم أعظم إثمًا من فعل الفاحشة، فَإِن كان ذلك حقًا لغاز في سبيل الله وَقف له الجاني الفاعل يوم القيامة، وَقيل له: «خذ من حسناته ما شئت» كما أخبر بذلك النَّبِيُّ ﷺ.

ثـم قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَمَا ظَنُّكُم؟»(١)، أَيْ فَمَا تَظُنُّون يَبْقى لَه مِنْ حَسَنَاتِه؟.

فَإِن انضاف إلى ذلك أن يكون المظلوم جارًا أَوْ ذا رحم محرم؛ تعدد الظلم وَصار ظلمًا مؤكدًا لقطيعة الرحم وَإيذاء الجار، وَلا يدخل الجنة قاطع رحم وَلا من لا يأمن جاره بوائقه(٢).

---

(١) صحيح: لفظ مسلم، عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيَخُونُهُ فِيهِمْ إِلَّا وُقِفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ، فَمَا ظَنُّكُمْ». رواه مسلم (١٨٩٧)، النسائي «الكبرى» (٣/ ٣٤)، أبو عوانة «المستخرج» (٧٤١٥).

(٢) قال الكسائي وغيره: بوائقُه: غَوائلُه وشرُّه أو ظُلْمه وغَشَمُه. «لسان العرب» (١٠/ ٣٠).

ما يقع من ظُلْمٍ بين العاشقِ والمعشوق:

فَإن استعان العاشقُ على وَصال معشوقه بشياطين من الجن إما بسحر، أَوْ استخدام، أَوْ نحو ذلك ضم إلى الشِّرك وَالظلم كفر السحر، فَإِنَّ لم يفعله هو وَرضي به كان راضيًا بالكفر غير كاره لحصول مقصده وَهذا ليس ببعيد من الكفر.

وَالمقصود: أن التعاون في هذا الباب تعاونٌ على الإثم وَالعدوان.

وَأما ما يقترن بحصول غرضِ العاشق من الظلم المنتشر المتعدي ضرره فأمر لا يخفى، فَإِنَّهُ إذا حصل له مقصوده من المعشوق فللمعشوقِ أغراض أخر يريد من العاشق إعانته عليها فلا يجد من إعانته بدًا؛ فبقي كل منهما يعين الآخر على الظلم وَالعدوان، فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من يتصل به من أهله وَأقاربه وَسيده وَزوجه، وَالعاشق يعين المعشوق على ظلم من يكون غرض المعشوق متوقفًا على ظلمه، فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التي فيها ظلم النّاس، فيحصل العدوان وَالظلم بسبب اشتراكهما في القبح لتعاونهما بذلك على الظلم، كما جُرت به العادة بين العشاق وَالمعشوقين من إعانة العاشق لمعشوقه على ما فيه ظلم وَعدوان وَبغي، حتى ربما يسعى له في منصب لا يليق به وَلا يصلح لمثله، وفي تحصيل مال من غير حله وَفي استطالته على غيره، فإذا اختصم معشوقه وَغيره أَوْ تشاكيا لم يكن إلا في جانب المعشوق ظالمًا كان أَوْ مظلومًا، هذا إلى ما ينضم إلى ذاك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم وَالتوصل بها إلى معشوقه بسرقة، أَوْ غصب، أَوْ خيانة، أَوْ يمين كاذبة، أَوْ قطع طريق وَنحو ذلك، وَربما أدى ذلك إلى قتل النفس التي حرم الله ليأخذ ماله ليتوصل به إلى معشوقه.

فكل هذه الآفاتِ وَأضعافها وَأضعاف أضعافها تنشأ من عشق الصور.

وَربما حمل على الكفر الصريح، وَقد تنصر جماعةٌ ممن نُشِّئوا في الإسلام بسبب العشق، كما جرى لبعض المؤذنين حين أبصر امرأة جميلة على

سطح ففتن بها ونزل وَدخل عليها وَسألها نفسها، فقالت: هي نصرانية فَإِن دخلت في ديني تزوجت بك. ففعل فرقي في ذلك اليوم على درجة عندهم فسقط منها فمات. ذكر هذا عبد الحق في كتاب «العاقبة» له.

وَإِذَا أراد النصارى أن يُنَصِّروا الأسير أروه امرأةً جميلة؛ وَأمروها أن تطمعه في نفسها حتى إذا تمكن حبها من قلبه بذلت له نفسها إن دخل في دينها، فهنالك: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وَفي العشق من ظلم كل وَاحد من العاشق وَالمعشوق لصاحبه بمعاونته على الفاحشة وَظلمه لنفسه ما فيه.

وكلٌّ منهما ظالم لنفسه وَصاحبه، وَظلمهما متعدٍّ إلى الآخرين كما تقدم، وَأعظم من ذلك ظلمهما بالشِّرك فقد تضمن العشق أنواع الظلم كلها.

وَالمعشوق إذا لم يتقِ الله فَإِنَّهُ يعرض العاشق للتلف، وَذلك ظلم منه بأن يطمعه في نفسه وَيتزين له، وَيستميله بكل طريق حتى يستخرج منه مالهُ وَنفعه، وَلا يمكنه من نفسه لئلا يزول غرضه بقضاء وَطره منه؛ فهو يسومه سوء العذاب، وَالعاشق ربما قتل معشوقه ليشفي نفسه منه، وَلا سيما إذا جاد بالوصال لغيره، وَكم للعشق من قتيل من الجانبين، وَكم قد أزال من نعمة وَأفقر من غني، وَأسقط من مرتبة، وَشتت من شمل، وَكم أفسد من أهلٍ للرجلِ وَولدٍ، فَإِنَّ المرأة إذا رأت بعلها عاشقًا لغيرها اتخذت هي معشوقًا لنفسها، فيصير الرجل مترددًا بين خراب بيته بالطلاق وَبين القيادة، فمن النّاس من يؤثر هذا، وَمنهم من يؤثر هذا.

فعلى العاقلِ أن يحكم على نفسه سد عشق الصور لئلا يؤذِيَهُ ويؤديَه ذلك إلى الهلاك وإلى هذه المفاسد أَوْ أكثرها أَوْ بعضها، فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه وَالمغرر بها، فإذا هلكت فهو الذي أهلكها، فلولا تكراره النظر إلى وَجه معشوقه وَطمعه في وصاله لم يتمكنْ عشقُه من قلبه، فَإِنَّ أول أسباب

العشق الاستحسان سواء تولد عَنْ نظر أَوْ سماع، فَإن لم يقارنه طمع في الوصال وَقارنه الإياس من ذلك لم يحدث له العشق، فَإن اقترن به الطمع فصرفه عَنْ فكره وَلم يشتغل قلبه به لم يحدث له ذلك، فَإن أطال مع ذلك الفكرَ في محاسن المعشوق، وَقارنه خوفُ ما هو أكبر عنده من لذة وَصاله؛ إما خوف ديني كدخول النار وَغضب الجبار واحتقاب الأوزار[1] وَغلب هذا الخوف على ذلك الطمع وَالفكر لم يحدث له ذلك العشق، فَإن فاته هذا الخوف فقارنهِ خوف دنيوي كخوف إتلاف نفسِه أو مالِه أو ذهابِ جاهِه وَسقوطِ مرتبتِه عند النّاس، وَسقوطه من عين من يعز عليه، وَغلب هذا الخوفُ لداعي العشق دفعه، وَكذلك إذا خاف من فوات محبوب هو أحب إليه وَأنفع من ذلك المعشوق وَقدم محبته على محبة ذلك المعشوق اندفع عنه العشق، فإن انتفى ذلك كلُّه وغلبت محبةُ المعشوق لذلك انجذب إليه القلب بكليته وَمالت إليه النفس كل الميل[2].

«مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فَكَتَمَ فَمَاتَ، مَاتَ شَهِيدًا»:

وقال ابن القيم أيضًا: وأما حديث: «مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ»، فهذا يرويه سويد بن سعيد[3] وَقد أنكره حفاظ الإسلام عليه.

قَالَ ابن عدي في كامله: هذا الحديث أحد ما أنكر على سويد.

وَكذا ذكره البيهقي وَابن طاهر في «الذخيرة» وَ «التذكرة» وَأبو الفرج ابن الجوزي وَعده في الموضوعات، وَأنكره أبو عبد الله الحاكم على تساهله وَقال: أنا أتعجب منه.

قلت: وَالصواب في الحديث أَنَّهُ من كلام ابن عباس ﷺ موقوفًا عليه

---

(١) احتقبَ فلان خيرًا أو شرًا: إذا ادّخره.

(٢) «الجواب الكافي» (٣٢٣ ـ ٣٢٩).

(٣) قال الذهبي في «الميزان»: وكان صاحب حديث وحفظ، لكنه عمر وعمى، فربما لقن مما ليس من حديثه، قال البخاري: حديثه منكر.
وقال النسائي: ضعيف. وأما ابن معين فكذبه وسبه.

فغلط سويد في رفعه.

قَالَ محمد بن خلف بن المرزبان: حدثنا أبو بكر الأزرق عَنْ سويد به، فعاتبه على ذلك، فأسقط ذكر النَّبِيّ ﷺ، وَكان بعد ذلك يسأل عنه فلا يرفعه، وَلا يشبه هذا كلام النبوة.

وَأما رواية الخطيب له عَنْ الزهري: حدثنا المعافى بن زكريا، حدثنا قطبة بن الفضل، حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق، حدثنا سويد بن مسهر، عَنْ هشام بن عروة، عَنْ أبيه، عَنْ عائشة مرفوعًا، فمن أبينِ الخطإِ وَلا يحمل هشام عَنْ أبيه، عَنْ عائشة مثل هذا عند من شم أدنى رائحة من الحديث، وَنحن نشهد الله أن عائشة ما حدثت بهذا عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ قط، وَلا حدث به عروة عنها، وَلا حدث به هشام قط.

وَأما حديث ابن الماجشون، عَنْ عبد العزيز بن أبي حازم، عَنْ ابن أبي نجيح، عَنْ مجاهد، عَنْ ابن عباس مرفوعًا، فكذب على ابن الماجشون، فإنه لم يُحدّث بهذا وَلم يحدث به عنه الزبير بن بكار وَإنما هذا من تركيب بعض الوضاعين، وَيا سبحان الله! كيف يحتمل هذا الإسناد مثل هذا المتن؟ فقبح الله الواضعين[١].

(١) «الجواب الكافي» (٣٦٦ ـ ٣٦٧).

الْوِقَايَةُ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ

فكما يقال: «الوقايةُ خير من العلاج»؛ بل ربما العلاجُ مع عللِ وآفاتِ القلوبِ قد يكون عسيرًا إلا أن يتغمد الله عبدَه برحمة منه.

فالأصل الذي يجب أن يكون عليه العبد الحذرُ من هذه الآفات وَأن يتّقيَها، فَإِنَّ الدّاء إذا استحكم في القلب قد يكون به موتُ القلب.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾ [الحشر: ١٨ ـ ١٩].

قالَ ابن كثير: «أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وَانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصّالحة ليوم معادكم وَعرضكم على ربكم»[١].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ عند هذه الآية: «يأمر تَعَالَى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان وَيقتضيه من لزوم تقواه سرًّا وَعلانية في جميع الأحوال، وَأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وَشرائعه وَحدوده، وَينظروا ما لهم وَما عليهم، وَماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أَوْ تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وَقبلة قلوبهم، وَاهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وَتصفيتها من القواطع وَالعوائق التي توقفهم عَنْ السير، أَوْ تعوقهم، أَوْ تصرفهم، وَإِذَا علموا أيْضًا أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، وَلا تضيع لديه، وَلا يهملها، أوجب لهم الجدَّ وَالاجتهاد.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/٤٣٨).

وهذه الآية الكريمة أصلٌ في محاسبة العبد نفسه، وَأنه ينبغي له أن يتفقدها، فَإن رأى زللًا تداركه بالإقلاع عنه، وَالتوبة النصوح، وَالإعراض عَنْ الأسباب الموصلة إليه، وَإن رأى نفسه مقصرًا في أمر من أوامر الله، بذل جهده وَاستعان بربه في تكميله وَتتميمه، وَإتقانه، وَيقايس بين مننِ الله عليه وَإحسانِه وَبين تقصيرِه، فَإنَّ ذلك يوجب له الحياءَ بلا محالة.

والحرمانُ كلُّ الحرمانِ، أن يغفل العبدُ عَنْ هذا الأمر، وَيشابه قومًا نسوا الله وَغفلوا عَنْ ذكره وَالقيامِ بحقه، وَأقبلوا على حظوظ أنفسهم وَشهواتِها، فلم ينجحوا، وَلم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وَأغفلهم عَنْ منافعها وَفوائدها، فصار أمرهم فرطًا، فرجعوا بخسارة الدّارين، وَغبنوا غبنًا لا يمكنهم تداركُه، وَلا يجبر كسره؛ لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عَنْ طاعة ربهم وَأوضعوا في معاصيه.

فهل يستوي من حافظ على تقوى الله وَنظر لما قدم لغده، فاستحق جناتِ النعيم، وَالعيش السّليم ـ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين وَالصديقين وَالشهداءِ وَالصالحين ـ وَمن غفل عَنْ ذِكْرِ الله، وَنسي حقوقه، فشقي في الدنيا، وَاستحقَّ العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، وَالآخرون هم الخاسرون». اهـ(١).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فإذًا ينبغي على العبدِ أن ينظر في حاله، وَيحاسبَ نفسه وَيتوبَ من التقصير، فالمحاسبة تقود إلى التوبة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ولذلك يجب عند كُلِّ تفريط أو تقصير أو ذنب من استحضار أمرين هما:

---

(١) «تفسير السعدي» (١/ ٨٥٣).

أ ـ اَلْبَصَرُ فِي الْعَوَاقِبِ:

فمن أهم الأمور وأعظمِها للوقاية من مقدمات هذه الآفاتِ هو النظر في العواقب والخذلان، فإن العبد إذا انطلق من منطلق تحقيق اللذة الحاضرة دون النظر في العواقب عاش عيشة البهيمة بل إن البهائم لا تحاسب على هذه اللذات.

فتأمل حال جميع الخلائق يوم القيامة في ساحة الحسابِ ثم يقتصُّ الله ﷻ من البهائم ثم يقول لها كوني ترابًا.

عندها يتمنى هذا العاصي المفرطُ أن يكون بهيمةً وينجو من العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ: ٤٠].

فمن عاين بعين بصيرته تناهِي الأمور في بداياتها نال خيرَها وَنجا من شرها، وَمن لم ير العواقبَ غلب عليه الحسنُ فعاد عليه بالألم ما طلب منه السلامةَ وَبالنصب ما رجا منه الرّاحةَ.

وَبيان هذا في المستقبل يتبين بذكر الماضي وَهو أنك لا تخلو أن تكون عصيت الله في عمرك أَوْ أطعته، فأين لذةُ معصيتِك؟ وَأين تعب طاعتِك؟ هيهات رحل كلٌّ بما فيه!

فليت الذنوبَ إذ تخلت خلت!

وَأزيدك في هذا بيانًا: مثِّلْ ساعة الموت، وَانظر إلى مرارة الحسرات على التفريط، وَلا أقول كيف تغلبُ حلاوةُ اللذات؛ لأن حلاوة اللذات استحالت حنظلًا فبقيت مرارةُ الأسى بلا مقاوم، أتُراك ما علمت أن الأمر بعواقبه؟ فراقب العواقب تسلم؛ وَلا تمل مع هوى الحسن فتندم.

ب ـ الإِحْسَاسُ بِالذَّنْبِ:

مما يجب استحضارُه أن تشعر بمرارة الذنب وحرقةِ المعصية، فآلام المعاصي أعظمُ وأشد من أي ألم؛ ولكن لا يشعر به إلا من كان بقلبه حياةٌ أو

بعضُ حياة، أما عدم إحساس الكثير بحرقة إنما ذلك لموت القلب.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أعظم المعاقبة ألا يحس المعاقب بالعقوبة، وَأشد من ذلك أن يقع السّرورُ بما هو عقوبةٌ كالفرح بالمال الحرام، وَالتمكنِ من الذنوب، وَمَنْ هذه حاله لا يفوز بطاعة، وَإني تدبرت أحوالَ أكثرِ العلماء والمتزهدين فرأيتُهم في عقوبات لا يحسون بها؛ وَمعظمها من قبل طلبهم للرياسة.

فالعالم منهم يغضب إن رد عليه خطؤه، وَالواعظ متصنع بوعظه وَالمتزهد منافق، أَوْ مراءٍ، فأول عقوباتِهم إعراضهم عَنْ الحق شغلًا بالخلق وَمن خفي عقوباتِهم سلب حلاوة المناجاة، وَلذةِ التعبدِ إلا رجالًا مؤمنين وَنساء مؤمنات يحفظ الله بهم الأرض، بواطنهم كظواهرهم بل أجلى؛ وَسرائرهم كعلانيتهم بل أحلى، وَهممهم عند الثريا بل أعلى، إن عُرفوا تنكَّروا، وَإن رُئيت لهم كرامة أنكروا، فالنّاس في غفلاتهم وَهم في قطع فلاتهم، تحبهم بقاع الأرض وَتفرح بهم أملاك السّماء، نسأل الله عَجَّلَ التوفيقَ لاتباعهم وَأن يجعلنا من أتباعهم»(١).

---

(١) «صيد الخاطر» (١٤).

أسباب الوقاية من الآفات

وللوقاية من الآفات والعلل التي تهجم على القلب لا بد من وجود هذه الأمورِ:

أَوَّلًا: مِعْرِفَةُ عُيُوبِ النَّفْسِ:

اعلم أن الله ﷻ إذا أراد بعبدٍ خيرًا بصَّره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبُه، فإذا عرف العيوبَ أمكنه العلاج، وَلكن أكثرَ الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، يرى أحدهم القذى في عين أخيه وَلا يرى الجذع في عين نفسه، **فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق:**

الطَّرِيقُ الْأَوَّلُ: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطَّلع على خفايا ودقائق أمراض القلوب، فيعرفه أستاذه وَشيخه عيوبَ نفسه وَيعرفه طريقَ علاجه، وَهذا قد عزّ في الزمان وَجودُه.

الطَّرِيقُ الثَّانِي: أن يطلب صديقًا صدوقًا بصيرًا متدينًا فينصبه رقيبًا على نفسه؛ ليلاحظ أحواله وَأفعاله، فما كره من أخلاقه وَأفعاله وَعيوبه الباطنة وَالظاهرة ينبهه عليه، فهكذا كان يفعل الأكياسُ وَالأكابرُ من أئمة الدين، فكل من كان أوفر عقلًا وَأعلى منصبًا كان أقل إعجابًا وَأعظم اتهامًا لنفسه إلا أن هذا أيْضًا قد عز، فقلَّ في الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب أَوْ يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب فلا تخلو في أصدقائك عَنْ حسود، أَوْ صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيبًا، أَوْ عَنْ مداهن يخفي عنك بعض عيوبك.

فكانت شهوة ذوي الدين أن يتنبهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم، وَقد آل الأمر

في أمثالنا إلى أن أبغضَ الخلقِ إلينا من ينصحنا وَيعرفنا عيوبنا، وَيكاد هذا أن يكون مفصحًا عَنْ ضعف الإيمان، فَإِنَّ الأخلاقَ السيئةَ حياتٌ وَعقارب لداغة، فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقربًا لتقلدنا منه منة وَفرحنا به؛ وَاشتغلنا بإزالة العقرب وَإبعادها وَقتلها، وَإنما نكايتها على البدن وَيدوم ألمُها يومًا فما دونه، وَنكايةُ الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم بعد الموت أبدًا وَآلافًا من السنين، ثم إنا لا نفرح بمن ينبهنا عليها وَلا نشتغل بإزالتها بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته فنقول له: وَأنت أيْضًا تصنع كيت وَكيت. وَتشغلنا العداوة معه عَنْ الانتفاع بنصحه، وَيشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرةُ الذنوب، وَأصل كل ذلك ضعف الإيمان، فنسأل الله ﷻ أن يلهمنا رشدنا وَيبصرنا بعيوبنا، وَيشغلنا بمداواتها وَيوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وَفضله.

الْطَّرِيقُ الْثَّالِثُ: عيوبه من ألسنة أعدائه:

وذلك بأن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه؛ فَإِنَّ عين السخط تبدي المساويا، وَلعل انتفاع الإنسان بعدوٍّ مشاحنٍ يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه وَيمدحه وَيخفي عنه عيوبه، إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وَحمل ما يقوله على الحسد، وَلكن البصيرَ لا يخلو عَنْ الانتفاع بقول أعدائه فَإِنَّ مساويه لا بد وَأن تنتشر على ألسنتهم وهذا الطريق قلَّ من يستبصر به.

الْطَّرِيقُ الْرَّابِعُ: معرفة ما عليه النّاس:

وذلك بأن يخالط النّاس، فكل ما رآه مذمومًا فيما بين الخلق فليطالبْ نفسه به وَينسبها إليه، فَإِنَّ المؤمن مرآةُ المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوبَ نفسه، وَيعلم أن الطِّباع متقاربةٌ في اتباع الهوى فما يتصف به وَاحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عَنْ أصله، أَوْ عَنْ أعظم منه، أَوْ عَنْ شيء منه فليتفقد نفسه وَيطهرها من كل ما يذمه من غيره؛ وَناهيك بهذا تأديبًا، فلو ترك النّاس كلُّهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عَنْ المؤدب.

وَخرجت معه حتى دخل حائطًا فسمعته يقول ـ بيني وَبينه جدار ـ: «يَا أَمِيرَ المؤمِنِين! بخٍ! بخٍ! والله لتتقِين الله، أَوْ لَيعذِّبنّك!»[1].

فهو يذكِّر نفسه بأن هذا اللقبَ أميرَ المؤمنين لا يغني عنه من الله شيئًا.

قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]: «لا يلْقَى المؤمن إلا وَهو يعاتبُ نَفْسَه، ماذا أردتُّ بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجِرُ يمضي قدمًا لا يعاتبُ نَفْسَه»[2].

وَقَالَ مَالِكُ بنُ دِيْنَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَحِم الله عبدًا قَالَ لنفسه: ألستِ صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمّها ثم خَطَمَها ثم ألزمها كتابَ الله تَعَالَى فَكَانَ لها قائدًا»، وَهذا مِنْ حِسابِ النَّفس[3].

وَقَالَ مَيْمُوْنُ بنُ مِهْرَانَ: «التَّقيّ أَشَدُّ محاسبةً لنفسِهِ مِنْ سُلْطانٍ غاشمٍ وَمنْ شَرِيك شَحِيح»[4].

وَقَالَ إِبْرَاهِيْمُ التَّمِيْمِيّ: «مثّلتُ نفسي في الجنة آكلُ من ثمارها وَأشربُ من أنهارها وَأعانق أبكارها، ثم مثّلت نفسي في النار آكل من زقومها؛ وَأشرب من صديدها؛ وَأعالج سلاسلها وَأغلالها، فقلت لنفسي: يا نفسُ أيّ شيء تريدين؟ قَالَت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعملَ صالحًا، قَالَ: فأنتِ في الأمنية فاعملي إذًا لتكوني في الجنة في ذلك النعيم»[5].

والذي يتأمل حقيقة النفس يجد أن غالب العلل والأمراض تأتي من جانبها، فالمواد الفاسدة كلُّها إليها تنصبُّ ثم تنبعث منها إلى الأعضاء، وَأول ما يناله منها القلب.

وقد كان رَسُول اللهِ ﷺ يقول فِي خطبة الْحَاجَةِ: «إِنَّ الْحَمْدَ للهِ نَسْتَعِينُهُ

---

(١) الإمام مالك «الموطأ» (١٨٠٠). (٢) الزهد لابن حنبل (٢٨١).
(٣) «محاسبة النفس» لابن أبي الدنيا (٢٦). (٤) «محاسبة النفس» (٢٦).
(٥) «محاسبة النفس» (٢٦).

وخرجت معه حتى دخل حائطًا فسمعته يقول - بيني وَبينه جدار -: «يَا أَمِيرَ المؤمِنِين! بخٍ! بخٍ! والله لتتقِين الله، أَوْ لَيعذِّبنّك!»[1].

فهو يذكِّر نفسه بأن هذا اللقبَ أميرَ المؤمنين لا يغني عنه من الله شيئًا.

قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]: «لا يلْقَى المؤمن إلا وَهو يعاتبُ نَفْسَه، ماذا أردتُّ بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجِرُ يمضي قدمًا لا يعاتبُ نَفْسَه»[2].

وَقَالَ مَالِكُ بنُ دِيْنَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَحِم الله عبدًا قَالَ لنفسه: ألستِ صاحبةَ كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمّها ثم خَطَمَها ثم ألزمها كتابَ الله تَعَالَى فَكَانَ لها قائدًا»، وَهذا مِنْ حِسابِ النَّفس[3].

وَقَالَ مَيْمُوْنُ بنُ مِهْرَانَ: «التَّقيّ أَشَدُّ محاسبةً لنفسِهِ مِنْ سُلْطانٍ غاشمٍ وَمنْ شَرِيك شَحِيح»[4].

وَقَالَ إِبْرَاهِيْمُ التَّمِيْمِيّ: «مثّلتُ نفسي في الجنة آكلُ من ثمارها وَأشربُ من أنهارها وَأعانق أبكارها، ثم مثّلت نفسي في النار آكل من زقومها؛ وَأشرب من صديدها؛ وَأعالج سلاسلها وَأغلالها، فقلت لنفسي: يا نفسُ أيّ شيء تريدين؟ قَالَت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعملَ صالحًا، قَالَ: فأنتِ في الأمنية فاعملي إذًا لتكوني في الجنة في ذلك النعيم»[5].

والذي يتأمل حقيقة النفس يجد أن غالب العلل والأمراض تأتي من جانبها، فالمواد الفاسدة كلُّها إليها تنصبُّ ثم تنبعث منها إلى الأعضاء، وَأول ما يناله منها القلب.

وقد كان رَسُول اللهِ ﷺ يقول فِي خطبة الْحَاجَةِ: «إِنَّ الْحَمْدَ للهِ نَسْتَعِينُهُ

(١) الإمام مالك «الموطأ» (١٨٠٠).
(٢) الزهد لابن حنبل (٢٨١).
(٣) «محاسبة النفس» لابن أبي الدنيا (٢٦).
(٤) «محاسبة النفس» (٢٦).
(٥) «محاسبة النفس» (٢٦).

وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا»[1].

وقد استعاذ ﷺ من شرِّها عمومًا، وَمن شر ما يتولد منها من الأعمال، وَمن شر ما يترتب على ذلك من المكاره وَالعقوبات، وَجمع الاستعاذة من سيئات النفس وَسيئات الأعمال.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١].

ومن لم يحاسبْ نفسَه فاته من الخير بقدر ما فاته من المحاسبة، وَلذلك على المسلم أن يصون نفسه عَنِ المحرمات، وَيبتعد عَنِ الشُّبهات؛ وَلا سيما أهل العلم، فمن لم يصنْ نفسه بهذا لم ينفعْه علمه؛ لأن العلم للعمل كالسلاح للمجاهد؛ فإذا لم يستعمله ماذا يفيده؟! وَكالأطعمة المدّخرة للجائع؛ إذا لم يأكل منها فبماذا تنفعه؟!

يُحَاوِلُ نَيْلَ الْمَجْدِ وَالسَّيْفُ مُغْمَدٌ ... وَيَـأْمَـلُ إِدْرَاكَ الـعُـلا وَهُـوَ نَـائِـمُ!

فصيانة النَّفس أصل الفضائل لأن من أهمل نفسه اتكالًا على العلم الذي عنده ـ (وَهذه آفة ينزلق إليها بعض طلبة العلم، ربما لا يحاسبون أنفسَهم اتكالًا إلى العلم الذي عندهم) ـ فربما يكون هنا الجاهلُ، أَوْ العامي أفضلَ من هذه الجهة! لأنهم يحسبون أن أنفسهم قاصرة مقصرة فيحاسبون وَيفتشون، أما بعض النّاس الذين يطغيهم العلم فلا يحاسبون أنفسهم، وَيتكلون على العلم الذي معهم؛ لأنهم يرون به رفعةً ودرجة؛ فلماذا يحاسبون!! فيتركون الحساب وَالمحاسبة، فتظهرُ القبائحُ وَالعورات فيكون الحسد منهم واتباع الهوى وَالتنازلات في الفتاوى وَالأخطاء.

فلذلك محاسبة العلماء لأنفسهم وَطلبة العلم؛ ينبغي أن تكون أشد ما

---

(١) صحيح: رَوَاهُ النسائي (١٤٠٤)، وأَبُو دَاوُدَ (٢١١٨)، قال الشيخ الألباني: صحيح. ورواه الترمذي (١١٠٥)، ابن ماجه (١٨٩٢)، أحمد (١/ ٣٩٢).

تكون؛ لأنه إن حاسب نفسه انتفع وَنفع النّاسَ، وَإِذَا ترك محاسبة نفسه ضلّ وَأضلّ، فالجاهل لا يقتدي به أحد، لكن هذا الذي يُنَصِّبُ نفسه قدوة في الدّعوةِ وَالعلمِ ثم لا يحاسب نفسه يهلك..!

أَيُّـهَـا الْـعَـالِـمُ إِيَـاكَ الـزَّلَـلْ وَاحْذَرْ الْهَفْوَةَ وَالْخَطْبَ الْجَلَلْ!
هَـفْـوَةُ الـعَـالـم مُـسْـتَـعْـظَـمَـهْ إِذْ بِـهَـا أَصْبَحَ فِي الْخَلْقِ مَثَلْ!
وَعَـلَـى زلّـتـه عُـمْـدَتُـهـم فـبِـهَـا يَـحْـتَـجُّ مَـنْ أَخْـطَـأَ وَزلّ
لاَ تَـقُـلْ يَـسْـتُـرُ الْـعِـلْـمُ زلّـتـي بَـلْ بِـهَـا يَـحْـصُـلُ فِي الْعِلْمِ خَلَلْ
إِنْ تَـكُـنْ عِـنْـدِك مُـسْـتَـحْـقَـرَةٌ فَـهْـيَ عِـنْـدَ اللهِ وَالـنّـاسِ جَـبَـلْ
لَـيْـسَ مَـنْ يَـتْـبَـعُـه الـعـلـمُ فـي كُـلِّ مَـا دقّ مِـنْ الأَمْـرِ وَجَـلّ
مِـثْـلُ مَـنْ يَـدْفَـعُ عَـنْـهُ جَـهْـلَـهُ إِنْ أَتَـى فَـاحِـشَـةً قِـيـلَ قَـدْ جَـهِـلْ
انْـظُـرْ الأنـجـمَ مَـهْـمَـا سَـقَـطَـتْ مَـنْ رَآهَـا وَهْـيَ تَـهْـوِي لَـمْ يُـبَـلِ
فَـإِذَا الـشَّـمْـسُ بَـدَتْ كَـاسِـفَـةً وَجِـلَ الْـخَـلْـقُ لَـهَـا كُـلَّ الْـوَجَـلْ
وَتَـرَاءَتْ نَـحْـوَهَـا أَبْـصَـارُهُـمْ فِـي انْـزِعَـاجِ وَاضْـطِـرابِ وَوَجَـلْ
وَسَرى النَّقْصُ لِهُمْ مِنْ نَقْصِهَا فَـغَـدَتْ مُـظْـلِـمَـةً مِـنْـهَـا الـسُّـبُـلْ
وَكَـذَا الْـعَـالِـمُ فـي زَلّـتِـه يَـفْـتِـنُ الْـعَـالَـمَ طُـرًّا وَيُـضِـلّ!

قَالَ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وَالتفتيش عما يشوب الأعمال من حظوظ النفس؛ وَتمييز حق الربِّ منها من حظ النفس، وَلعل أكثرَها أَوْ كلَّها أن تكون حظًا لنفسك وَأنت لا تشعر! فلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كم في النفوس من عللٍ وَأغراض وَحظوظ تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة وَأن تصل إليه، وَإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشرٌ البتة وَهو غير خالص لله، وَيعمل العمل وَالعيون قد استدارت عليه نطاقًا وَهو خالص لوجه الله، وَلا يميز هذا إلا أهل البصائر وَأطباء القلوب العالمون بأدوائها وَعِلَلِها، فبين العمل وَبين القلب مسافة، وَفي تلك المسافة قُطّاع تمنع وَصول العمل إلى القلب، فيكون الرجلُ كثيرَ العملِ؛ وَما وَصل منه إلى قلبه محبةٌ وَلا خوف وَلا رجاء؛ وَلا زهد في الدنيا وَلا رغبة في الآخرة؛ وَلا نور يفرق به بين أولياء الله وَأعدائه، وَبين الحقِّ

وَالباطل، وَلا قوة في أمره، فلو وَصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وَأشرق، وَرأى الحقَّ وَالباطلَ، وَميَّز بين أولياء الله وَأعدائه، وَأوجب له ذلك المزيدَ من الأحوال.

ثم بين القلب وَبين الرَّبّ مسافةٌ وَعليها قُطَّاعٌ تمنع وَصول العمل إليه، من كبر وَإعجاب وَإدلال، وَرؤية العمل وَنسيان المنَّة، وَعللٌ خفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب». اهـ[١].

أخي الحبيب: من عَوَّدَ نفسه العمل لله لم يكن أشقَّ عليه من العمل لغيره، وَمن عوَّد نفسه العمل لهواه وَحظّه لم يكن عليه أشق من الإخلاص وَالعمل لله، وَهذا في جميع أبواب الأعمال، فليس شيء أشقَّ على المنفق لله من الإنفاق لغيره، وَكذا بالعكس.

قَالَ عمر بن عبد العزيز: «يا معشر المستترين! اعلموا أن عِنْدَ الله مَسْأَلَةً فَاضِحَةً، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣][٢].

قَالَ الربيع بن خُثَيْم لولده المنذر: «يا منذر! لا يغرَّنَّك كثرةُ ثناءِ النّاسِ من نفسك؛ فإِنَّه خالصٌ إليك عملُك»[٣].

فالإخلاص من أصول أعمال القلب؛ والنفسُ لا ترضاه لأنه ليس لها فيه نصيبٌ، فتحبب للعبد أجلَّ الطاعاتِ وتقربه من أعظم القربات؛ على أن يكون لها فيه حظٌّ ونصيب، وربما يكون الحظّ كله لها. وَلذلك يجب أن يخلص لله في أفعاله، وَأقواله، وَإرادته، وَنيته، وَهذه هي الحنيفية مِلَّةُ إبراهيم، التي أمر الله بها عبادَهُ كُلَّهم، وَلا يقبل من أحدٍ غيرها؛ وَهي حقيقة الإسلام كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٩).
(٢) «حلية الأولياء» (٥/ ٢٨٨).
(٣) «حلية الأولياء» (٢/ ١١٢).

فمن رغب عنها فهو من أسْفَهِ السُّفهاء، فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ: «أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ الْتَقى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ؛ فَاقْتَتَلُوا، فَلَمَّا مَالَ رَسُول اللهِ ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الْآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُول اللهِ ﷺ رَجُلٌ لَا يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً وَلَا فَاذَّةً إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقَالَ: مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ.

قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا؛ فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ؛ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟»، قَالَ الرَّجُلُ: الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النّاس ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الْأَرْضِ، وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»(١).

فقد يُظْهِرُ العبدُ أجلّ الطّاعات ويأتي بأعظم العبادات؛ ولكن للنفس منها نصيب من مدحٍ وثناءٍ ومكانةٍ عند النّاس، فلا يكون للعبد من نفسه إلا التعبُ والنصبُ؛ ثم الجزاء في الآخرة على نقيضِ ما أراد.

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ الشَّامِ(٢): أَيُّهَا الشَّيْخُ حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: نَعَمْ

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٨٩٨)، مُسْلِمٌ (١١٢).

(٢) ناتل بن قيس بن زيد الشامي الفلسطيني أحد الأمراء لمعاوية وولده، أبوه قيس صحابي.

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النّاس يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كلهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[١].

ثالثًا: التَّقْوَى:

فالتقوى هي وصية الله تعالى للأولين والآخرين.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

قال الحافظ ابن رجب: «وَأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وَبين ما يخافه وَيحذره وَقايةً تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وَبين ما يخشاه من ربه من غضبه وَسخطه وَعقابه وَقايةً تقيه من ذلك، وَهو فعل طاعته وَاجتنابُ معاصيه، وَتارة تضاف التقوى إلى اسم الله ﷻ كقوله تعالَى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر: ١٨].

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٩٠٥).

فإذا أضيفت التقوى إليه سُبْحَانَهُ فالمعنى اتقوا سخطه وَغضبه؛ وَهو أعظم ما يُتَّقى، وَعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي وَالأخروي، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦].

فهو سُبْحَانَهُ أهل أن يُخشى وَيُهابَ وَيُجلّ وَيُعظمَ في صدور عباده حتى يعبدوه وَيطيعوه؛ لما يستحقه من الإجلال وَالإكرام، وَصفات الكبرياء وَالعظمة، وَقوة البطش، وَشدة البأس.

وَتارة تضاف التقوى إلى عقاب الله، وَإلى مكانه كالنار، أَوْ إلى زمانه كيوم القيامة كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وَيدخل في التقوى الكاملة فعلُ الواجبات وَترك المحرمات وَالشُّبهات، وَربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات وَترك المكروهات، وَهي أعلى درجات التقوى، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة: ١ ـ ٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قَالَ معاذ بن جبل: «يُنَادَى يوم القِيامةِ: أين المتَّقون؟ فيقُومُون في كَنَفٍ مِنْ الرّحمن لا يحتَجِبُ مِنْهُم وَلا يستتر، قالوا له: مَنِ المتقون؟ قَالَ: قَوْمٌ

اتقوا الشِّرك وَعبادَةَ الأوثانِ وَأَخْلَصُوا لله بالعِبادَةِ»[١].

وَقال ابن عباس: «المتَّقون الذين يحذَرُون من الله عُقُوبته في تَرْكِ ما يعرفون مِنَ الهدي، وَيرْجُون رَحَمَتَهُ في التَّصْدِيقِ بما جَاء بِهِ»[٢].

وَقال الحسنُ: «المتَّقون اتقوا ما حرّم الله عليهم، وَأَدُّوا ما افترض الله عَلَيْهِم»[٣].

وَقَالَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيْزِ: «ليس تقوى الله بصيامِ النّهار وَلا بقيامِ الليلِ وَالتَّخلِيط فيما بين ذلك، وَلكن تقوى الله تركُ ما حرّم الله وَأداءُ ما افترض الله، فمن رُزِق بعد ذلك خيرًا فهو خير إلى خير»[٤].

وَقَالَ طَلْقُ بنُ حَبِيْبٍ: «التقوى أن تعمل بطاعةِ الله على نُورٍ من الله ترجو ثواب الله، وَأن تترك معصية الله على نور من الله تخافُ عقاب الله»[٥].

وَعن أبي الدَّرْدَاءِ قَالَ: «تمام التقوى أن يتقي الله العَبْدُ؛ حتى يتقيه من مثقال ذرة، وَحتى يترك بعض ما يرى أَنَّهُ حلال خشية أن يكون حرامًا؛ يكون حجابًا بينه وَبين الحرام، فَإِنَّ الله قد بيَّن للعباد الذي يصيِّرهم إليه فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

فلا تحقرن شيئًا من الخير أن تفعله وَلا شيئًا من الشّر أن تتقيه»[٦].

وَقال الحسن: «ما زَالت التَّقْوى بالمتقين حَتَّى تَرَكُوا كَثيرًا مِنْ الحلالِ مخافة الحرام».

وَقال الثّوري: «إِنَّمَا سُمُّوا مُتَّقِين لأنهم اتقوا ما لا يُتّقى»[٧].

---

(١) ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٥).

(٢) الطبري في «تفسيره» (١/ ٧٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٥).

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٤٠).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا كما في «الدر المنثور» (١/ ٥٨).

(٥) «حلية الأولياء» (٣/ ٦٤). (٦) «حلية الأولياء» (١/ ٢١٢).

(٧) أخرجهما ابن أبي الدنيا كما في «الدر المنثور» (١/ ٥٨).

وَقالَ مُوْسَى بنُ أَعْيَنَ: «المتَّقون تَنزَّهُوا عَنْ أشياءَ من الحلالِ مخافةَ أنْ يَقَعُوا في الحرَامِ فَسَمّاهم الله مُتَّقِين».

وَحديث: «فَمَنِ اتَّقَى الشُّبهات اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ»(١).

وَقَالَ مَيْمُوْنُ بنُ مِهْرَانَ: «المتقي أشَدّ محاسبةً لنفسهِ من الشَّرِيك الشَّحيحِ لشَرِيكه»(٢).

وَقالَ ابن مسعود في قوله تَعَالَى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قَالَ: «أن يُطاع فلا يُعصى، وَيُذكرَ فلا يُنسى، وَأن يُشْكَرَ فلا يُكفر»(٣).

وَشكره يدخل فيه جميع فعل الطّاعات، وَمعنى ذكره فلا ينسى ذكر العبد بقلبه لأوامرِ الله في حركاته وَسكناته وَكلماته فيمتثلُها، وَلنواهيه في ذلك كله فيجتنبها.

وَقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرَّماتِ كما قَالَ أبو هريرة وَسُئل عَنْ التقوى فقال: «هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قَالَ: نعم، قَالَ: فكيف صنعت؟ قَالَ: إذا رأيت الشّوك عزلت عنه، أَوْ جاوزته، أَوْ قصَّرت عنه. قَالَ: ذاك التقوى»(٤).

وَأخذ هذا المعنى ابن المعتمر فقال:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا ... وَكَبِيرَهَا فَهُوَ التُّقَى
وَاصْنَعْ كَمَاشٍ فَوْقَ ... أَرْضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً ... إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى

وَأصل التَّقوى أن يعلم العبد ما يُتقى ثم يَتقي.

قَالَ عَوْنُ بنُ عَبْدِ اللهِ: «تمام التقوى أن تبتغي علمَ ما لم تعلمْ منها؛ إلى

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٢)، مُسْلِمٌ (١٥٩٩).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا كما في «الدر المنثور» (١/ ٥٧).
(٣) رَوَاهُ الحاكم (٢/ ٣٢٣) موقوفًا على ابن مسعود.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا «كتاب التقوى» كما في «الدر المنثور» (١/ ٥٧).

ما علمت منها»[1].

وَذكر معروفُ الكَرْخي عَنْ بَكْرِ بنِ خُنَيْسٍ قَالَ: «كيف يكون متقيًا من لا يدري ما يتقي؟!».

ثم قَالَ معروفُ الكَرْخِي:

إذا كنت لا تحسن تتقي أكلت الربا.

وَإذَا كنت لا تحسن تتقي لقيتك امرأةٌ وَلم تغض بصرك.

وَإذَا كنت لا تحسن تتقي وَضعت سيفك على عاتقك، وَقد قَالَ النَّبِيّ ﷺ لمحمد بن مسلمة: إذا رأيت أمتي قد اختلفت فاعمد إلى سيفك فاضرب به أحدًا.

ثم قَالَ معروف: وَمجلسي هذا لعله كان ينبغي لنا أن نتقيه.

ثم قَالَ: مجيئكم معي من المسجد إلى ها هنا كان ينبغي لنا أن نتقيه، أليس جاء في الحديث: «أن فتنة المتبوع مذلة التابع»[2] يعني مشي النّاس خلف الرجل[3].

وَفي الجملة فالتقوى هي وَصيةُ الله لجميع خلقه، وَوصية رَسُول اللهِ ﷺ لأمته»[4].

رَابِعًا: انْشِرَاحُ الْصَّدْرِ:

معنى انْشِرَاح الْصَّدْرِ: شرح الصّدر، أي: اتساعه وَانبساطه وَانفتاحه.

وانْشِرَاحُ الْصَّدْرِ منَّة من الله ﷻ لمن شاء من خلقه، وقد امتن بها

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٩٥٩)، وابن أبي الدنيا كما في «الدر المنثور» (١/ ٥٨).

(٢) رواه الدارمي (٥٢٣). والحديث: عَنْ سُلَيْم بْنِ حَنْظَلَةَ قَالَ: «أَتَيْنَا أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ لِنَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ قُمْنَا وَنَحْنُ نَمْشِي خَلْفَهُ، فَرَهَقَنَا عُمَرُ فَتَبِعَهُ فَضَرَبَهُ عُمَرُ بِالدِّرَّةِ ـ قَالَ ـ فَاتَّقَاهُ بِذِرَاعِهِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا تَصْنَعُ؟ قَالَ: أَوَمَا تَرَى فِتْنَةً لِلْمَتْبُوعِ مَذَلَّةً لِلتَّابِعِ».

(٣) «حلية الأولياء» (٨/ ٣٦٥). (٤) «جامع العلوم وَالحكم» (١٦٠).

على نبيه محمد ﷺ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١].

ولما أرسل الله موسى إلى فرعون طلب موسى من ربه أن يشرحَ صدرَه.

قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦﴾ [طه: ٢٤ ـ ٢٦].

فانشراحُ الصدرِ علامةٌ على الهدايةِ، وضيقُه علامةٌ على الضّلالِ والغوايةِ.

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢٥﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٢﴾ [الزمر: ٢٢].

أسباب انْشِرَاح الْصَّدْرِ:

وأسباب انْشِرَاح الْصَّدْرِ كثيرة، وتحتاج إلى مزيد بيان وتفصيل، وأسوق منها جملًا على سبيل الإجمال منها:

- الإخلاص.
- تحقيق العبودية لله.
- المحافظة على صلاة الجماعة.
- الالتزام بالكتاب وَالسنة.
- الاستعانة بالله وَاللجؤ إليه.
- كثرة الطّاعات.
- المحافظة على الذكر.
- محاسبة النفس.
- العلم.
- التقوى.
- الدعاء.
- إطابة المطعم.
- الصدقة.
- غض البصر.
- تحقيق الولاء وَالبراء.
- محبة المرء لأخيه ما يحب لنفسه.
- عدم التطلع لزينة الحياة الدنيا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأعظمُ أسباب شرح الصّدر:

التوحيدُ: وعلى حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشِّرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه.

ومنها: النّورُ الذي يقذفه الله في قلبِ العبد وهو نور الإيمان، فإنه يشرح الصدر ويوسعه، ويُفرح القلب، فإذا فُقد هذا النور من قلب العبد ضاق وحرج، وصار في أضيق سجن وأصعبه.

فيصيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبِه من هذا النورِ، وكذلك النورُ الحسي والظلمة الحسية هذه تشرح الصدر وهذه تضيقه.

ومنها: العلمُ فإنه يشرح الصدرَ ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس فكلما اتسع علم العبد انشرح صدره واتسع وليس هذا لكل عالم بل للعلم الموروث عن الرسول ﷺ وهو العلم النافع فأهله أشرح النّاس صدرًا وأوسعهم قلوبًا وأحسنهم أخلاقًا وأطيبهم عيشًا.

ومنها: الإنابة إلى الله ﷻ ومحبته بكُلِّ القلب، والإقبال عليه والتنعم بعبادته، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك؛ حتى إِنَّهُ ليقول أحيانًا: «إن كنت في الجنة في مثل هذه الحالة فإني إذًا في عيشٍ طيب».

وللمحبة تأثيرٌ عجيب في انشراحِ الصَّدر وطيب النفس ونعيم القلب لا يعرفه إلا من له حِسٌّ به، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد كان الصدرُ أفسحَ وأشرح، ولا يضيق إلا عند رؤيةِ البطّالين الفارغين من هذا الشأنِ؛ فرؤيتهم قذى عينه ومخالطتهم حمى روحه.

ومن أعظم أسباب ضيق الصدر الإعراضُ عن الله تعالى وتعلق القلب بغيره والغفلة عن ذكره ومحبة سواه، فإن من أحب شيئًا غير الله عُذِّب به، وسَجَنَ قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه ولا أكسفُ بالًا ولا أنكدُ عيشًا ولا أتعب قلبًا، فهما محبتان:

محبة هي جنةُ الدنيا وسرورُ النفس ولذة القلب ونعيمُ الروح وغذاؤها ودواؤها بل حياتها وقرة عينها، وهي محبة الله وحده بكل القلب، وانجذاب قوى الميل والإرادة والمحبة كلها إليه.

ومحبةٌ هي عذابُ الرّوح؛ وغمّ النفس وسجن القلب وضيق الصدر، وهي سبب الألم والنكد والعناء، وهي محبة ما سواه ﷻ.

ومن أسباب شرح الصدر:

دوام ذكره على كلِّ حال وفي كل موطن، فللذكر تأثيرٌ عجيب في انشراح الصدر ونعيم القلب، وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه.

ومنها: الإحسانُ إلى الخلق ونفعُهم بما يمكنه من المال والجاه، والنفع بالبدن وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسن أشرح النّاس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق النّاس صدرًا، وأنكدهم عيشًا، وأعظمهم همًّا وغمًّا.

وقد ضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ في الصَّحِيح مثلًا للبخيلِ والمتصدّق كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَثَلُ الْبَخِيلِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا. فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ، وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ. وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلَا تَتَّسِعُ»[١].

فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق، وانفساحِ قلبه، ومثل ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه.

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٤٤٣)، مُسْلِمٌ (١٠٢١).

ومنها الشّجاعة: فإن الشُّجاع: منشرح الصدر واسع البطن متسع القلب.

والجبان: أضيقُ النّاس صدرًا، وأحصرهم قلبًا، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذّة له ولا نعيم؛ إلا من جنس ما للحيوان البهيمي، وأما سرورُ الرُّوح ولذتها ونعيمها وابتهاجها فمحرمٌ على كل جبان، كما هو محرمٌ على كلِّ بخيل وعلى كل معرضٍ عن الله سبحانه، غافل عن ذكره، جاهل به وبأسمائه تعالى وصفاته ودينه، متعلق القلب بغيره، وإن هذا النّعيم والسرور يصير في القبر رياضًا وجنة، وذلك الضِّيق والحصر ينقلب في القبر عذابًا وسجنًا، فحال العبد في القبر كحال القلب في الصدر نعيمًا وعذابًا وسجنًا وانطلاقًا، ولا عبرة بانشراح صدر هذا لعارضٍ ولا بضيق صدر هذا لعارضٍ، فإن العوارض تزول بزوال أسبابها، وإنما المعوَّل على الصِّفة التي قامت بالقلب توجب انشراحه وحبسه فهي الميزان. والله المستعان.

ومنها بل من أعظمها: إخراجُ دَغَلِ القلب من الصّفات المذمومةِ التي توجب ضيقه وعذابه، وتحول بينه وبين حصول البرء، فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرح صدره ولم يخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه لم يحظ من انشراح صدره بطائل، وغايته أن يكون له مادتان تعتوران(١) على قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما.

ومنها: ترك فضول النَّظر والكلام والاستماع والمخالطة والأكل والنوم فإن هذه الفضول تستحيل آلامًا وغمومًا وهمومًا في القلب، تحصره وتحبسه وتضيقه ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها، فلا إله إلا الله ما أضيق صدر من ضرب في كل آفة من هذه الآفات بسهم، وما أنكد عيشه، وما أسوأ حاله، وما أشد حصر قلبه، ولا إله إلا الله ما أنعم عيش من ضرب في كل خصلة من تلك الخصال المحمودة بسهم، وكانت همتُه دائرةً عليها حائمة حولها، فلهذا نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار: ١٣].

---

(١) التبادل في الشيء يأخذ أحدهما من الآخر.

ولـذلـك نـصـيـب وافـر مـن قـولـه تـعـالـى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار: ١٤].

وبينهما مراتب متفاوتة لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى.

لقد كان رسول الله ﷺ أكمل الخلق في كل صفة يحصل بها انشراح الصدر، واتساع القلب، وقرة العين، وحياة الروح، فهو أكمل الخلق في هذا الشرح والحياة وقرة العين؛ مع ما خُصَّ به من الشرح الحسي، وأكمل متابعة له أكملهم انشراحًا ولذة وقرة عين وعلى حسب متابعته ينال العبد انشراح صدره وقرة عينه ولذة روحه ما ينال؛ فهو ﷺ في ذروة الكمال من شرح الصدر، ورفع الذكر، ووضع الوزر، ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتباعه ـ والله المستعان.

وهكذا لأتباعه نصيبٌ من حفظ الله لهم، وعصمته إياهم، ودفاعه عنهم، وإعزازه لهم ونصره لهم، بحسب نصيبهم من المتابعة، فمستقلٌّ ومستكثرٌ، «فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»[1].

---

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٢٢).

أَخْذُ الأَسْبَابِ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ

وليس القعود عن أخذ الأسباب بمنجي العبد من هذه الآفات أو بمخرجه منه، فإن من أهم الأمور والمسالك على العبد أن يسارع في أخذ أسباب الطاعات ولا يقعد؛ فإن العجز ضعف وخور.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيطان»[1].

فإذا بذل العبد جميع الأسباب لفعل الطَّاعات؛ واستعان عليها برب البريات؛ يسَّر له أمره، ووفِّق إلى كلِّ رشد، فإن حيل بينه وبين ما أراد، فليعلم أن ذلك خيرة الله له؛ وأن ما أراد الله خيرٌ مما أراد لنفسه، ولقد كان السّلف يستخيرون الله في الأمور كلِّها صغيرها وكبيرها.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كلها كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنْ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٦٤)

وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، ـ أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ ـ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي». قَالَ: «وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ»[(١)].

قَالَ ابْن عُيَيْنَةَ: لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدًا الدُّعَاء مَا يَعْلَمُ فِي نَفْسه ـ يَعْنِي مِنْ التَّقْصِير ـ فَإِنَّ الله قَدْ أَجَابَ دُعَاءَ شَرّ خَلْقه وَهُوَ إِبْلِيس حِين قَالَ: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: ٧٩][(٢)].

فالعجز أن يقعد العبد دون أخذ بسبب؛ ويقول: قُدِّر لي!! فابذل الأسباب حتى لا تضعف نفسك، ولن يكون إلا ما قدر الله، فإن وقع الأمر على خلاف ما تتمنى فلن تلوم نفسك.

قَالَ ابن الجوزي: «ينبغي للعاقل أن يحترز غاية ما يمكنه فإذا جرى القدر مع احترازه لم يلم، وَالاحتراز ينبغي من كل شيء يمكن وقوعه وَأخذ العدة لذلك وَاجبٌ وَهذا يكون في كلِّ حال.

فقد قص رجلٌ ظفرَه فجار عليه فخبثت يده فمات.

وَمر شيخنا أحمد الحربي هو راكب بمكان ضيق فتطأطأ على السَّرج فانعصر فؤاده فمرض فمات.

وَكان يحيى بن نزار شيخًا يحضر مجلسي قد طرق عليه ثقل الأذن، فاستدعى طرقيًا فمص أذنه فجرى شيء من مخه فمات.

وانْظُر إِلى احتِرَازِ رَسُولِ الله ﷺ حِينَ مَرّ عَلَى حَائِطٍ مَائِلٍ فَأَسْرَعَ[(٣)].

وينبغي أن يحترز بالكسب في زمن شبابه ادخارًا لزمن شيبه.

ولا ينبغي أن يثق بمعامل إلا بوثيقة، وليبادر بالوصية مخافة أن يطرقه الموت، ويحترز من صديقه فضلًا عن عدوه.

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١١٦٢). (٢) «فتح الباري» (١١/ ١٤٠).

(٣) يشير لما رواه أحمد (٢/ ٣٥٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِجِدَارٍ أَوْ حَائِطٍ مَائِلٍ فَأَسْرَعَ الْمَشْيَ، فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أَكْرَهُ مَوْتَ الْفَوَاتِ». وإسناده ضعيف.

وَلا يثق بمودة من قد آذاه هو، فَإِنَّ الحقد في القلوب قلّما يزول.

وَليحترزْ من زوجته فربما أطلعها على سره ثم طلقها فيتأذى بما تفعل به.

وَقد كان ابن أفلح الشّاعر يكاتب رئيسًا في زمن المسترشد، فعلم بذلك بوابه، وَاتفق أَنَّهُ صرف بوابه فنمَّ عليه وَنقضت داره.

فهذه المذاكرات أمثلةٌ تنبه على ما لم يذكرْ، وَأهم الكل أن يحترز بأخذ العدة، وَتحقيق التوبة قبل أن يهجم ما لا يؤمن هجومه، وَليحذر من لصِّ الكسل فَإِنَّهُ محتال على سرقة الزمان[١].

---

(١) «صيد الخاطر» (٣٧١ ـ ٣٧٢).

انقياد القلب لأمر الله

فإن من أوجب الواجبات وأعزِّ المطالب والغايات؛ أن يوجهَ القلب للانقياد لأمر الله تعالى، فكلما صحّ القلب وسلم من الآفات؛ كلما عظم سيره إلى الله ﷻ، فانظر إلى ثناء ربنا تبارك وتعالى على نبيه إبراهيم لسلامة قلبه وسرعة سيره إلى ربه.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ
إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟
إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا
فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى
سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ
قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ
﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾
وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات: ٨٣ - ١١١].

فتأملْ حال أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام في ثناء ربه عليه من سلامة قلبه وطهارة نفسه، حيث إنّه بهذا القلب السليم، استنكر ما عليه قومه واستبشعه، استنكار الحس السليم لكل ما تنبو عنه الفطرة الصادقة من تصورٍ ومن سلوكٍ، وهو يراهم يعبدون أصنامًا وأوثانًا، فيهتف بهم هتاف الفطرة السليمة في

استنكار شديد ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ فإن ما تعبدون ليس من شأنه أن يعبد، ولا أن يكون له عابدون!.

ثم تأمل حال آلهتهم التي تعبد وما فيه من سفه قومه فأسرع إلى آلهتهم المدَّعاة. وأمامها أطايب الطَّعام وبواكير الثمار، فقال في تهكم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.. ولم تجبه الأصنام بطبيعة الحال، فاستطرد في تهكمه وعليه طابع الغيظ والسُّخرية: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ولم تجبه الآلهة مرة أخرى!! وهنا أفرغ شحنة الغيظ المكتوم حركة لا قولًا: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾.. وشفى نفسه من السّقم والهم والضيق..!

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾..

لقد تسامعوا بالخبر، وعرفوا من الفاعل، فأقبلوا إليه يسرعون الخطى، ويحدثون حوله زفيفًا.. وهم جمعٌ كثيرٌ غاضبٌ هائجٌ، وهو فردٌ واحد. ولكنه فرد مؤمن فهو أقوى من هذه الكثرة الهائجة المائجة.

فهو يجابههم بالحقِّ الفطريِّ لا يبالي كثرتهم وهياجهم وزيفهم!

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾..

عند ذلك شرعوا في الانتقام منه، ولكن سبق وعد الله لعباده المخلصين، ووعيده لأعدائهم المكذبين: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾..

ثم استقبل إبراهيم مرحلة أخرى وطوى صفحة لينشر أخرى.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾..

إنها الهجرة.. هجرة يترك وراءه فيها كلَّ شيء من ماضي حياته.. يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه، وكل ما يربطه بهذه الأرض، وبهؤلاء النّاس، ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل، ويهاجر إلى ربه متخففًا من كلّ شيء، طارحًا وراءه كل شيء، مسلمًا نفسه لربه لا يستبقي منها شيئًا، موقن أن ربه سيهديه.

إنها الهجرة الكاملة من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع، ومن

أواصرَ شتى إلى آصرةٍ واحدة لا يزحمها في النفس شيء. إنَّهُ التعبير عن التجردِ والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين.

وكان إبراهيم حتى هذه اللحظة وحيدًا لا عقب له؛ وهو يترك وراءه أواصر الأهل والقربى، والصّحبة والمعرفة، وكل مألوف له في ماضي حياته، وكل ما يشده إلى الأرض التي نشأ فيها، والتي انحسم ما بينه وبين أهلها الذين ألقوه في الجحيم! فاتجه إلى ربه الذي أعلن أَنَّهُ ذاهب إليه، اتجه إليه يسأله الذّرية المؤمنة والخلف الصالح: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾..

واستجاب الله دعاء عبده الصالح المتجرد، الذي ترك وراءه كل شيء، وجاء إليه بقلب سليم..

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾..

فمما يستحضر في هذا الموطن أن نتصور فرحة إبراهيم الوحيد المفرد المهاجر المقطوع من أهله وقرابته. لنا أن نتصور فرحته بهذا الغلام، الذي يصفه ربه بأنه حليم.

والآن آن أن نطلع على الموقف العظيم الكريم الفريد في حياة إبراهيم. بل في حياة البشر جميعًا.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾..

فهذا إبراهيم الشيخ الكبير المقطوع من الأهل والقرابة، المهاجر من الأرض والوطن، ها هو ذا يرزق في كبرته وهرمه بغلام، طالما تطلع إليه، فلما جاءه جاء غلامًا مميزًا يشهد له ربه بأنه حليم، وها هو ذا ما يكاد يأنس به، ويبلغ معه السعي، ويرافقه في الحياة، حتى يرى في منامه أَنَّهُ يذبحه، ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية، فماذا؟ إِنَّهُ لا يتردد، ولا يخالجه إلا شعور الطّاعة، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم.. نعم إنها إشارة، مجرد إشارة. وليست وحيًا صريحًا، ولا أمرًا مباشرًا. ولكنها إشارة من ربه.. وهذا يكفي..

هذا يكفي ليلبي ويستجيب. ودون أن يعترض. ودون أن يسأل ربه.. لماذا؟

إنما هو القبول والرّضا والطمأنينة والهدوء. ويبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾..

فهي كلمات النفس المطمئنة للأمر الذي يواجهه، والقلب الواثق بأنه يؤدي ما أمره الله به.

ونرى أَنَّهُ يعرض الأمر على ولده كالذي يعرض المألوف من الأمر. فالأمر في حسّه هكذا. ربه يريد، فليكن ما يريد.

إِنَّهُ يحب لابنه أن يتذوق لذَّة الطَّاعة التي ذاقها؛ وأن ينال الخير الذي يراه.

فماذا يكون من أمر الغلام، الذي يعرض عليه الذّبح، تصديقًا لرؤيا رآها أبوه؟

إِنَّهُ يرتقي إلى الطَّاعة التي ارتقى إليها من قبل أبوه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾..

إِنَّهُ يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب. ولكن في رضا كذلك وفي يقين: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾﴾..

قد صدّقت الرؤيا وحققتها فعلًا، فالله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام؛ بحيث لا يبقى في النفس إلا الله، ولو كان هو الابن فلذة الكبد، ولو كانت هي النفس ذاتها، وقد فعل إبراهيم عليه السلام وجاد بنفسه وولده، ولم يبق إلا اللحم والدم، وهذا ينوب عنه ذبح، ويفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدَّت ما أمرها ربها، يفديها بذبح عظيم.

الْأَسْبَابُ الَّتِي تُؤَدِّي لِانْقِيَادِ الْقَلْبِ:

ولا بد لانقياد القلب إلى الله تعالى من أسباب إن أتى بها العبد استقام

قلبه وارتقى إلى قبول جميع أمر الله تعالى وسعى في ترك جميع نهيه.

وهناك أسباب كثيرة لانقياد القلب إلى الله تعالى منها:

أولًا: تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ:

وَهَذَا التَّوحِيدُ مِنْ أَجْلِهِ قَامَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ، وَخُلِقَتْ لِأَجْلِه جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَبِه أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ وَشَرَعَ شَرَائِعَهُ، وَلِأَجْلِه نُصِبَتْ الْمَوَازِينُ وَوُضِعَتْ الدَّوَاوِينُ، وَقَامَ سُوقُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَبِه انْقَسَمَتْ الْخَلِيقَةُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفّارِ وَالْأَبْرَارِ وَالْفُجّارِ، فَهُو مَنْشَأُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَهُو الْحَقُّ الَّذِي خُلِقَتْ لَهُ الْخَلِيقَةُ، وَعَنْه وَعَنْ حُقُوقِه السُّؤَالُ وَالْحِسَابُ، وَعَلَيْه يَقَعُ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَعَلَيْه نُصِبَتِ الْقِبْلَةُ، وَعَلَيْه أُسِّسَتِ الْمِلَّةُ، وَلِأَجْلِه جُرِّدَتْ سُيُوفُ الْجِهَادِ، وَهو حَقّ اللهِ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ، فَهو كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ وَمِفْتَاحُ دَارِ السَّلَامِ، وَعَنْه يُسْأَلُ الْأَوّلُونَ وَالْآخِرُونَ، فَلَا تَزُولُ قَدَمَا الْعَبْدِ بَيْنَ يَدَيْ اللهِ حَتّى يُسْأَلَ عَنْ مَسْأَلَتَيْنِ: مَاذَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ وَمَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ؟ فَجَوَابُ الْأُولَى بِتَحْقِيقِ «لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ» مَعْرِفَةً وَإِقْرَارًا وَعَمَلًا. وَجَوَابُ الثّانِيَةِ بِتَحْقِيقِ «أَنّ مُحَمّدًا رَسُولُ اللهِ» مَعْرِفَةً وَإِقْرَارًا وَانْقِيَادًا وَطَاعَةً.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وتحقيقُ التوحيدِ هو أن يشهد انفرادَ الرَّب تبارك وَتَعَالَى بالخلق وَالحكم، وَأنه ما شاء كان وَما لم يشأ لم يكن، وَأنه لا تتحرك ذرّة إلا بإذنه، وَأن الخلق مقهورون تحت قبضته، وَأنه ما من قلب إلا وَهو بين إصبعين من أصابعه؛ إن شاء أن يقيمه أقامه وَإن شاء أن يُزيغَه أزاغه، فالقلوب بيده وَهو مقلبها وَمصرفها كيف شاء وَكيف أراد، وَأنه هو الذي آتى نفوس المؤمنين تقواها، وَهو الذي هداها وَزكّاها، وَألهم نفوس الفجار فجورها وَأشقاها، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٧٨﴾ [الأعراف: ١٧٨]، يهدي من يشاء بفضله وَرحمته، وَيضلُّ من يشاء بعدله وَحكمته، هذا فضله وَعطاؤه وَما فضل الكريم بممنون، وَهذا

أي فأين يصرفون عَنْ شهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَعن عبادته وَحده وَهم يشهدون أَنَّهُ لا رب غيره وَلا خالق سواه، وَكذلك قوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٥].

فتعلمون أَنَّهُ إذا كان هو وَحده مالك الأرض ومن فيها وَخالقهم وَربهم وَمليكهم فهو وَحده إلههم وَمعبودهم، فكما لا رب لهم غيره فهكذا لا إله لهم سواه: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦ ـ ٨٨].

وَهكذا قوله في سورة النمل: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٠].

يحتج عليهم بأنّ مَنْ فعل لهم هذا وَحده فهو الإله لهم وَحده، فَإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه، وَإن لم يكن معه رب فعل هذا فكيف تجعلون معه إلهًا آخر؟!.

ولهذا كان الصَّحيح من القولين في تقدير الآية: «أإله مع الله فعل هذا؟» حتى يتم الدليل، فلا بد من الجواب بلا، فإذا لم يكن معه إله فعل كفعله فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟! فعلم أن إلهية ما سواه باطلة، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وَشهادتكم.

ومن قال: المعنى «هل مع الله إله آخر؟» من غير أن يكون المعنى «فعل هذا» قوله ضعيف لوجهين:

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: مع الله آلهة أخرى ولا ينكرون ذلك.

الثاني: أَنَّهُ لا يتم الدليل ولا يحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير؛ أي فإذا كنتم تقولون: إِنَّهُ ليس معه إله آخر فعل مثل فعله فكيف

أي فأين يصرفون عَنْ شهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَعن عبادته وَحده وَهم يشهدون أَنَّهُ لا رب غيره وَلا خالق سواه، وَكذلك قوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٥].

فتعلمون أَنَّهُ إذا كان هو وَحده مالك الأرض ومن فيها وَخالقهم وَربهم وَمليكهم فهو وَحده إلههم وَمعبودهم، فكما لا رب لهم غيره فهكذا لا إله لهم سواه: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦ ـ ٨٨].

وَهكذا قوله في سورة النمل: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٠].

يحتج عليهم بأنّ مَنْ فعل لهم هذا وَحده فهو الإله لهم وَحده، فَإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه، وَإن لم يكن معه رب فعل هذا فكيف تجعلون معه إلهًا آخر؟!.

ولهذا كان الصَّحِيح من القولين في تقدير الآية: «أإله مع الله فعل هذا؟» حتى يتم الدليل، فلا بد من الجواب بلا، فإذا لم يكن معه إله فعل كفعله فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟! فعلم أن إلهية ما سواه باطلة، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وَشهادتكم.

ومن قال: المعنى «هل مع الله إله آخر؟» من غير أن يكون المعنى «فعل هذا» قوله ضعيف لوجهين:

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: مع الله آلهة أخرى ولا ينكرون ذلك.

الثاني: أَنَّهُ لا يتم الدليل ولا يحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير؛ أي فإذا كنتم تقولون: إِنَّهُ ليس معه إله آخر فعل مثل فعله فكيف

تجعلون معه إلها آخر لا يخلق شيئًا وهو عاجز، وَهذا كقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

وَقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١].

وَقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

وَقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [النحل: ٢٠].

وَقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣].

وَهو كثير في القرآن وَبه تتم الحجة كما تبين.

والمقصود: أن العبد يحصل له هذا في المشهد من مطالعة الجنايات وَالذنوب وَجريانها عليه وَعلى الخليقة بتقدير العزيز الحكيم، وَأنه لا عاصم من غضبه وَأسباب سخطه إلا هو، وَلا سبيل إلى طاعته إلا بمعونته، وَلا وصول إلى مرضاته إلا بتوفيقه، فموارد الأمور كلها منه وَمصادرها إليه، وَأزمة التوفيق جميعها بيديه، فلا مستعان للعباد إلا به، وَلا متّكل إلا عليه، كما قَالَ شعيب ـ خطيب الأنبياء ـ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]»[١].

ثانيًا: تَزْكِيَةُ الْقَلْبِ:

فإن من أجل النعم على العبد أن يسعى في تزكية قلبه وتنقيته؛ والبلوغ إلى سلامته، ومن أعظم وأجلِّ هذه الأسبابِ.

الْقُرْآنُ:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: ٤٤].

قال الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: ١٦ ـ ١٧].

ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أَنَّهُ تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها، كذلك يلِيِّنُ القلوب بالإيمان بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي.

يقول الله تعالى: أما آن للمؤمنين ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمُه وتنقادُ له وتسمع له وتطيعه.

قال ابن كثير: «نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى، لمَّا تطاول عليهم الأمدُ بدَّلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشترَوْا به ثمنًا قليلًا ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة، وقلّدوا الرّجال في دين الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: في الأعمال، فقلوبهم فاسدة، وأعمالهم باطلة، كما قال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

أي: فسدت قلوبهم فقست وصار من سجيتهم تحريفُ الكلم عن مواضعه، وتركوا الأعمال التي أُمروا بها، وارتكبوا ما نهوا عنه؛ ولهذا نهى الله

المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية»[1].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

فالقرآن شفاءٌ لما في الصّدور، وَمن في قلبه أمراض الشُّبهات وَالشهوات ففيه من البينات ما يزيل الحقَّ من الباطل ويميزه، فيزيل أمراض الشّبهة المفسدة للعلم وَالتصور وَالإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وَفيه من الحكمة وَالموعظة الحسنة بالترغيب وَالترهيب وَالقصص التي فيها عبرةٌ ما يوجب صلاح القلب، فيرغب القلب فيما ينفعه وَيرغب عما يضره، فيبقى القلب محبًّا للرشاد مبغضًا للغي بعد أن كان مريدًا للغي مبغضًا للرشاد.

فالقرآن مزيلٌ للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة؛ حتى يصلح القلب فتصلح إرادته وَيعود إلى فطرته التي فطر عليها؛ كما يعود البدن إلى الحال الطبيعية، وَيغتذي القلب من الإيمان وَالقرآن بما يزكيه وَيؤيده كما يغتذي البدن بما ينميه وَيقومه، فَإِنَّ زكاة القلب مثل نماء البدن.

وَالزكاة في اللغة: النَّماء وَالزيادة في الصلاح. يقال: زكا الشيءُ إذا نما في الصّلاح، فالقلب يحتاج أن يتربَّى فينمو وَيزيد حتى يكمل وَيصلح كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المُصْلحة له، وَلا بد مع ذلك من منع ما يضرُّه، فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه وَمنع ما يضره، كذلك القلب لا يزكو فينمو وَيتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه وَدفع ما يضره، وَكذلك الزّرع لا يزكو إلا بهذا.

فقال ﷻ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/٣٩٧).

وقال ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، أي: فلا يضل في الدنيا عن طريق الحقِّ ولا يشقى في الآخرة في النار.

وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وقال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

فالاعتصامُ به: التمسكُ بآياته وأحكامه، واتباعه: العمل بما فيه، وتدبره: التفكر فيما أريد به، والتذكر: الاتعاظ بما فيه، فلما طولبوا بذلك لزم حفظه على الأعيان إمّا وجوبًا، وإما ندبًا إلا عن عجز ظاهر.

فَضْلُ الْقُرْآنِ وَأَهْلِهِ:

فالذي يحفظ القرآن ويتعلَّمه ويعلِّمه هو خير النّاس، فَعَنْ عُثْمَانَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»(١).

بل يترتب على قراءته من الفضل الشيء الكثير فمن ذلك:

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ(٢) فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ(٣) فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ ﷻ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنْ الْإِبِلِ»(٤).

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠٢٧).

(٢) بُطْحَانَ: بِضَمِّ أَوَّلِهِ وَسُكُونِ ثَانِيه، وَادٍ بِالْمَدِينَةِ. الْعَقِيق: وَادِي، وَهُوَ بِقُرْبِ الْبَقِيع، بَيْنه وَبَيْنَ الْمَدِينَة أَرْبَعَة أَمْيَال.

(٣) كَوْمَاوَيْنِ: تَثْنِيَة كَوْمَاء قُلِبَتْ الْهَمْزَة وَاوًا، وَأَصْلُ الْكَوْم: الْعُلُوُّ، أَيْ: فَيَحْصُل نَاقَتَيْنِ عَظِيمَتَيْ السَّنَام، وَهِيَ مِنْ خِيَار مَال الْعَرَب.

(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٨٠٣).

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ[1]: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ».

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ[2]، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ»[3].

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ[4] أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ[5]، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَؤُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ[6]»[7].

عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ». قَالَ: ثُمَّ مَكَثَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ، يُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ. وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ،

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧٥٦٠)، ومسلم (٧٩٧).

(٢) السَّفَرة الكِرام البَرَرة: أي الملائكة. «النهاية» (١/ ٢٩٤).

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧٩٨).

(٤) كل شيء أظلك فوق رأسك كالسّحابة. «مختار الصحاح» (١/ ٤٨٨).

(٥) فُرْقان من طَيْرٍ صوافّ: أي قطْعَتان. «تاج العروس» (١/ ٦٥٤٧)، من طَيرٍ صَوافّ: أي بَاسِطَاتٍ أَجْنِحَتَهَا في الطَّيران. «النهاية» (٣/ ٧٠).

(٦) البَطَلَةُ: السَّحَرَةُ. «القاموس المحيط» (١/ ١٢٤٩).

(٧) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٨٠٤).

فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فيَقولُ: مَا أَعْرِفُكَ. فيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ. فيَقولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كل تِجَارَةٍ، فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يُقَوَّمُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا، فَيَقُولَانِ: بِمَ كُسِينَا هَذِهِ؟! فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ. ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجَةِ الْجَنَّةِ وَغُرَفِهَا، فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ هَذًّا كَانَ أَوْ تَرْتِيلًا»(١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: «أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص: ١] يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»(٣).

بل هو عصمة من الفتن وخصوصًا فتنة الدجال، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنْ الدَّجَّالِ»(٤).

حَالُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ الْقُرْآنِ:

لقد كان القرآن هو منهجَ النبي ﷺ وسيرته؛ فقد ذكر له القرآن سير الأنبياء واختصر له دعوتهم حتى يبدأ النبي ﷺ من حيث انتهوا.

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ③﴾ [يوسف: ٣].

---

(١) حسن بشواهده: رَوَاهُ أحمد (٥/٣٤٨).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠١٣).

(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٨٠٩).

وَهَذِه بعضُ أحوالِ النَّبي ﷺ مَعَ القُرْآنِ:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النّاس، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كل لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنْ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»[1].

عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: «قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ. قَالَ: فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي. فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]، قَالَ: أَمْسِكْ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ»[2].

عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ، قُلْنَا: وَمَا هَمَمْتَ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَقْعُدَ وَأَذَرَ النَّبِيَّ ﷺ»[3].

عَنْ كُرَيْبٍ؛ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ: «أَنَّهُ بَاتَ عِنْدَ مَيْمُونَةَ ـ وَهِيَ خَالَتُهُ ـ فَاضْطَجَعْتُ فِي عَرْضِ وِسَادَةٍ، وَاضْطَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَهْلُهُ فِي طُولِهَا، فَنَامَ حَتَّى انْتَصَفَ اللَّيْلُ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ، فَاسْتَيْقَظَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ، ثُمَّ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ آلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى شَنٍّ مُعَلَّقَةٍ فَتَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي»[4].

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ قَالَ: «قُمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَامَ فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، لَا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ، قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ»، ثُمَّ سَجَدَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ فِي سُجُودِهِ: مِثْلَ

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦)، مُسْلِمٌ (٢٣٠٨).
(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠٥٥)، مُسْلِمٌ (٨٠٠).
(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١١٣٥)، مُسْلِمٌ (٧٧٣).
(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٥٧١).

ذَلِكَ، ثُمَّ قَامَ فَقَرَأَ بِآلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ قَرَأَ سورة»[1].

عَنْ أَبِي ذَرٍّ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ بِآيَةٍ لَيْلَةً يُرَدِّدُهَا»[2].

وَعَنْ عَطاءٍ قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وعُبَيد بْنُ عُمَيرٍ عَلَى عَائِشَةَ فَقَالَ ابْنُ عُمَيرٍ: أَخْبِرِينا بأعْجَبِ شَيءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالت: لَمَّا كَانَ لَيْلَة مِنَ اللّيالي، قَالَ: «يا عَائِشَةُ ذَرِيني أَتَعبَّدُ اللّيلَةَ لِرَبِّي»، قُلْتُ: والله إِنِّي لأُحِبُّ قُرْبَك، وأُحِبُّ مَا يَسُرّك. قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّر، ثم قَامَ يُصَلِّي. قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَى بَلَّ حجره. قَالَتْ: ثم بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتّى بَلَّ لحيته. قَالَتْ: ثم بكى فلم يزل يبكي حَتى بَلَّ الأَرْضَ. فَجاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلاة، فَلَمَّا رَآه يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ الله، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّر؟ قَالَ: «أَفلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَي اللّيلة آية، وَيْلٌ لِمَنْ قَرأَهَا وَلَمْ يَتَفكَّر فِيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] الآية كُلّها»[3].

لَقَدْ كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ:

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: «أَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَوْلَ اللهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، قُلْتُ: فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتبَتَّلَ، قَالَتْ: لَا تَفْعَلْ، أَمَا تَقْرَأُ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]»[4].

رُقْيَتُهُ ﷺ لِنَفْسِهِ بِالْقُرْآنِ:

عَنْ عَائِشَةَ ﵂: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا»[5].

---

(١) حسن: رَوَاهُ أَبو دَاوُدَ (٨٧٣)، النسائي (٢/ ١٩١)، أحمد (٦/ ٢٤).

(٢) حسن: رَوَاهُ أحمد (٥/ ١٧٧).

(٣) حسن: رَوَاهُ ابن حبان (٦٢٠).

(٤) صحيح: رَوَاهُ أحمد (٦/ ٩١).

(٥) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢).

هَجْرُ الْقُرْآنِ:

هجر القرآن من أعظم البلايا وأشد الرَّزايا، وقد عظُم إثم من هجر القرآن وأعرض عنه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦].

فالمؤمنُ لا يمل من سماع كلام الله تعالى، وأمّا المنافق فيضيق صدره ولا يصبر على سماعه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٧].

فالمؤمن يجب عليه تعاهدُ القرآنِ فهو حياةُ قلبه وجلاؤه.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ(١)»(٢).

عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي

---

(١) «الْمُقَنْطِرِينَ»: بكسر الطاء من المالكين مالًا كثيرًا، والمراد كثرة الأجر، وقيل: أي ممن أعطى من الأجر أي أجرًا عظيمًا. قاله السندي. «عون المعبود» (٤/ ١٩٢).

(٢) حسن: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١٣٩٨)، ابن خزيمة (١١٤٤)، ابن حبان (٦/ ٣١٠).

فَأَخَذَا بِيَدِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ أَوْ صَخْرَةٍ فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الْحَجَرُ فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ فَلَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ فَانْطَلَقْنَا...» ـ وذكر الحديث، ثم فسره ـ «وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١).

اَلْعَمَلُ بِالْقُرْآنِ:

فإن الله بحكمته ورحمته أنزل كتابه تبيانًا لكل شيء، وجعله هدى وبرهانًا لهذه الأمة، ويسَّره للذكر والتلاوة والهداية بجميع أنواعها: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧].

أنزله بلسان عربي مبين، وتكفل بحفظه وإبلاغه لجميع البشر، وقيض له من العلماء من يفسرونه، ويبلغونه للناس ألفاظه ومعانيه، لتتم بذلك الهداية وتقوم به الحجة.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤].

والاستفادة الحقة من هذا الكتاب المبارك تكون بدوام الصِّلة به علمًا وعملًا، تلاوة وتدبرًا، وفهمًا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

ومن سبل ذلك التدبرِ والفهمِ: النظر فيما كتب أهل العلم في تفسير القرآن العظيم واستنباط أحكامه واستخراج فوائده ومعانيه؛ فإن من كمال

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٣٨٦).

حفظ الله ﷻ لهذا الذكر الحكيم أن قيَّض له جهابذةً فهموا مراد الله عن الله وعن رسوله ﷺ.

فالوقوف أمام معاني القرآن لا يتعدى أن نقف عند الأحكام فقط بل كل كلماتِه وأمثاله ومعانيه، فمن عَقل عن الله وفهم الأمثال وعلم منها المراد فهو من العلماء.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

إن الأمثال التي يضربها الله في القرآن، إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها، لاعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها.

وأما من لم يعقلها، مع أهميتها، فإن ذلك دليلٌ على أَنَّهُ ليس من أهل العلم؛ لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة، فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى. ولهذا، أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها.

عن عمرو بن مرة قال: «ما مَرَرْتُ بآيةٍ مِنْ كِتَابِ الله لا أَعْرِفها إلا أحْزَنَني، لأنِّي سمعتُ الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]»(١).

الْأَمْثَالُ فِي الْقُرْآنِ:

وفي ضَرْبِ الأمثالِ في القُرْآنِ يستفادُ مِنْه أُمُور:

التذكير، والوعظ، والحث، والزّجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل، كنسبة المحسوس إلى الحس.

---

(١) «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٤).

وتأتي أمثال القرآن مشتملةً على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر.

فتدبر القرآن والوقوف على معانيه آيةً آيةً والوصول إلى معانيها واستخراج أحكامها والعمل بها كان هدي السلف ﵃.

عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: «حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ»[1].

الْصَّدَقَةُ:

الصّدقة تعبر عن جُود النفس وسخاوتها، وعن يقين القلب بما عند الرّب، وذلك أن الصدقة محببة للرب ﷻ.

قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٧١].

وَالصدقة لمَّا كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النارَ صار القلب يزكو بها؛ وَزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب. قَالَ اللهُ تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

عَنْ مُعاذٍ ﵁ قال: قُلتُ: يا رَسولَ الله أَخبِرني بِعَمَلٍ يُدخِلُني الجَنَّةَ ويُباعِدُني مِنَ النَّارِ. قال: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظيمٍ، وإنَّهُ لَيَسيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ الله عليه: تَعْبُدُ الله لا تُشْرِكُ بهِ شيئًا، وتُقيمُ الصَّلاة، وتُؤتِي الزَّكاةَ، وتَصُومُ رَمضَانَ، وتَحُجُّ البيتَ». ثمَّ قالَ: «ألا أَدُلُّكَ على أبوابِ الخير؟ الصَّومُ جُنَّةٌ،

---

(١) حسن: رَوَاهُ أحمد (٥/ ٤١٠).

والصَّدقةُ تُطْفِئُ الخطيئَةَ كما يُطفئُ الماءُ النارَ»[١].

فالصَّدقة تشمل جميع الطّاعات وشتى القربات إذ لا تقف عند معنى الأموال والعروض.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ: «أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ[٢] بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: «أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ، إِنَّ بِكل تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكل تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكل تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكل تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»[٣].

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يُصْبِحُ عَلَى كل سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنْ الضُّحَى»[٤].

فتصدق العبد على نفسه بفعل الطّاعات، وترك المحرمات، وإتيان المستحبات، وهجر المكروهات؛ من أعظم أسباب صلاح القلوب.

فترك المعاصي وبخاصة الفواحش يزكو بها القلب، فإنها بمنزلة الأخلاط الرّديئة في البدن وَمثل الدَّغل في الزّرع، فإذا استفرغ البدنُ من الأخلاطِ الرّديئة كاستخراج الدّم الزّائد تخلصت القوة الطبيعية وَاستراحت فينمو البدن،

---

(١) حسن: رَوَاهُ الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي «الكبرى» (١١٣٩٤)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١).

(٢) الدُّثور: جمع دَثْرٍ وهو المالُ الكثيرُ. «النهاية» (٢/ ٢١٤).

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٠٠٦).

(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧٢٠).

وَكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب كان استفراغًا من تخليطاته حيث خلط عملًا صالحًا وَآخر سيئًا، فإذا تاب من الذُّنوب تخلصت قوة القلب وَإراداته للأعمال الصّالحة وَاستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه، فزكاة القلب بحيث ينمو وَيكمل. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

وَقَال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [عبس: ٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٨ ـ ١٩].

فالتزكية وَإن كان أصلها النّماء وَالبركة وَزيادة الخير فإنما تحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكي يجمع هذا وَهذا. وَقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦ ـ ٧].

وَهي التوحيد وَالإيمان الذي به يزكو القلب، فَإِنَّهُ يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وَإثبات إلهية الحق في القلب وَهو حقيقة لا إله إلا الله، وَهذا أصل ما تزكو به القلوب.

وَالتزكية: جعل الشيءِ زكيًا: إما في ذاته وَإما في الاعتقاد وَالخبر؛ كما يقال: عدَّلته إذا جعلته عدلًا في نفسه، أَوْ في اعتقاد النّاس، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

أي تخبروا بزكاتها، وَهذا غير قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩].

وَلهذا قَالَ: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

وَكان اسم زينب بُرة، فقيل: تزكِّي نفسها. فسمَّاها رَسُول اللهِ ﷺ زينب.

وَأما قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٩] أي يجعله زاكيًا وَيخبر بزكاته كما يزكّي المزكي الشهود فيخبر بعدلهم.

الْعَدْلُ:

وَالعدل: هو الاعتدال، وَالاعتدال هو صلاح القلب، كما أن الظلم فسادُه، وَلهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالمًا لنفسه، وَالظُّلم خلاف العدل، فلم يعدل على نفسه؛ بل ظلمها؛ فصلاح القلب في العدل وَفساده في الظُّلم، وَإِذَا ظلم العبد نفسه فهو الظّالم وَهو المظلوم، كذلك إذا عدل فهو العادل وَالمعدول عليه، فمنه العمل وَعليه تعود ثمرة العمل من خير وَشرّ. قَالَ تَعالَى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وَالعمل له أثرٌ في القلب من نفعٍ وَضرٍّ وَصلاحٍ قبل أثره في الخارج فصلاحها عدل لها وَفسادها ظلم لها، قَالَ تَعالَى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصلت: ٤٦].

وَقَالَ تَعالَى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء: ٧].

وَقَالَ تَعالَى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١].

وَقَالَ تَعالَى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [المدثر: ٣٨].

وَقال: ﴿وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾ [الأنعام: ٧٠].

وَ﴿تُبۡسَلَ﴾: أي ترتهن وَتحبس وَتؤسر؛ كما أنَّ الجسد إذا صح من

مرضه قيل: قد اعتدل مزاجه، وَالمرض إنما هو بإخراج المزاج، مع أن الاعتدال المحض السّالم من الأخلاط لا سبيل إليه لكن الأمثل؛ فالأمثل.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

ففي هذه الآيات منهج رباني للارتقاء بالنفس إلى العدل في الأقوال والأفعال، مما يدفع العبد إلى أن يكون العدل له سجيةً وطبعًا حتى مع الخصوم والأعداء.

والمنهج التربوي الحكيم يقدر ما في هذا المرتقى من صعوبة، فيقدم له بما يعين عليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ [المائدة: ٨]، ويعقب عليه بما يعين عليه أيضًا: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

فإن النفس البشرية لا ترتقي هذا المرتقى قط، إلا حين تتعامل في هذا الأمر مباشرة مع الله حين تقوم لله، متجردةً عن كلِّ ما عداه، وحين تستشعر تقواه، وتحس أن عينه على خائنة الأعينِ وخفايا الصُّدور.

فصحةُ القلب وَصلاحه في العدل وَمرضه من الزّيغ وَالظلم وَالانحراف. وَالعدل المحض في كل شيء متعذر علمًا وَعملًا؛ وَلكن الأمثل فالأمثل؛ وَلهذا يقال: هذا أمثل، وَيقال للطريقة السلفية: الطريقة المثلى. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقد يحدث هناك خلط بين العدل والتسوية، فالعدل هو وصول الحقِّ إلى مستحقه أو القسمة، وقد يحدث عند التساوي ظلم كما في الميراث، فإن التساوي بين الذكر والأنثى في الميراث ظلم لأن الذي يُنْفِقُ الذكر؛ والأنثى

يُنْفق عليها، فكان العدل كما شرع ربنا تبارك: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ [النساء: ١١].

والذي يتأمل قسم النبي ﷺ في الأموال يرى أَنَّهُ كان يراعي العدل، فيعطي من المال على قدر إيمان العبد؛ كما فعل مع المؤلفةِ قلوبهم، وربما ترك أقوامًا اتكالًا على إيمانهم.

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْطَى رَهْطًا وَسَعْدٌ جَالِسٌ، فَتَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ، فَوَاللهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا. فَقَالَ: أَوْ مُسْلِمًا؟ فَسَكَتُّ قَلِيلًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ؛ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي فَقُلْتُ: مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ، فَوَاللهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا؟ فَقَالَ: أَوْ مُسْلِمًا؟ ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، وَعَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: يَا سَعْدُ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ»(١).

وهذا ما وقع للأنصار حينما أعطى النبي ﷺ مشيخة قريش وأقوامًا يتألفهم على الإسلام، فوَجَدَتْ الأنصارُ في أنفسها شيئًا، فبين لهم النبي ﷺ الأمر وأوضح لهم الطريق.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ قَالَ: «لَمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، قَسَمَ فِي النَّاس فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَلَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ شَيْئًا، فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا إِذْ لَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاس، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ اللهُ بِي؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللهُ بِي؟ كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ. قَالَ: مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ. قَالَ: لَوْ شِئْتُمْ، قُلْتُمْ: جِئْتَنَا كَذَا وَكَذَا، أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ؟ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٧)، مُسْلِمٌ (١٥٠).

سَلَكَ النّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنّاس دِثَارٌ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ»[١].

ولقد ضرب النبي ﷺ العدل مع أعدائه ومخالفيه، فها هو النبي ﷺ قسم قسمًا فيعترض بعض ضعافِ النُّفوس ويتهم النبي ﷺ بعدم العدل، حتى همَّ عمرُ بقتله، ولكن تركه النبي ﷺ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ ـ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ ـ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ اعْدِلْ، فَقَالَ: «وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ». فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ: «دَعْهُ؛ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَمَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ[٢] ـ وَهُوَ قِدْحُهُ ـ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ[٣] فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ[٤]، وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النّاس».

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ، فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ فَأُتِيَ

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

(٢) النَّضيُّ: نَصْلُ السَّهم. وقيل: هو السهم قبل أن يُنْحت إذا كان قِدْحًا.. وقيل: هو من السهم ما بين الرِيش والنَّصْل. قالوا: سُمِّي نَضيًّا لكثرة البَرْي والنَّحْتِ فكأنه جُعِل نِضْوًا، أي: هَزيلًا. «النهاية» (٥/ ١٦٠).

(٣) القُذَذ: ريش السَّهم، واحِدتُها: قُذَّة. «النهاية» (٤/ ٤٦).

(٤) تَدَرْدَرُ: أي تَرَجْرَجُ تَجِيء وتذهب. والأصل تَتَدَرْدَرُ فحذف إحدى التاءَين تَخْفِيفًا. «النهاية» (٢/ ٢٤٨).

بِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي نَعَتَهُ»[١].

وهذا رجل مشرك يهم بقتل النبي ﷺ فيمكنه الله منه، فلا يعامله بفعله بل يأخذ النبي ﷺ بالعفو.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما: «أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكَتْهُمْ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ[٢]، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَفَرَّقَ النّاس فِي الْعِضَاهِ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، قَالَ جَابِرٌ: فَنِمْنَا نَوْمَةً، ثُمَّ إِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُونَا فَجِئْنَاهُ فَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ سَيْفِي[٣] وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا[٤]، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللهُ. فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ، ثُمَّ لَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ»[٥].

وعند فتح مكة لم يتشف النبي ﷺ من أعدائه الذين آذوه وأخرجوه وحاربوه؛ بل عفا عنهم ﷺ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ سَرَّحَ الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ، وَأَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ، وَخَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ عَلَى الْخَيْلِ، وَقَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ اهْتِفْ بِالْأَنْصَارِ. قَالَ: اسْلُكُوا هَذَا الطَّرِيقَ فَلَا يَشْرُفَنَّ لَكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَنَمْتُمُوهُ. فَنَادَى مُنَادٍ: لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ دَخَلَ دَارًا فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَعَمَدَ صَنَادِيدُ قُرَيْشٍ فَدَخَلُوا الْكَعْبَةَ فَغَصَّ بِهِمْ، وَطَافَ النَّبِيُّ ﷺ وَصَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ، ثُمَّ أَخَذَ بِجَنْبَتَيِ الْبَابِ فَخَرَجُوا فَبَايَعُوا النَّبِيَّ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ»[٦].

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٦١٠)، مُسْلِمٌ (١٠٦٤).

(٢) كل شجر له شوك صغر أو كبر.

(٣) اخْتَرَطَ سَيْفِي: أي سَلَّه من غمده. «النهاية» (٢/ ٦٣).

(٤) وهو في يَدِه صَلْتًا: أي مُجَرَّدًا. يُقَال: أصلَتَ السَّيفَ إذا جَرَّدَه من غِمْدِه. وضَرَبَهُ بالسَّيف صَلْتًا وصُلْتًا. «النهاية» (٣/ ٨٣).

(٥) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٩١٠)، مُسْلِمٌ (٨٤٣). (٦) صحيح: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٣٠٢٤).

ثالثًا: مُلازَمَةُ التَّوْبَةِ:

فاستحضار التَّوبة واستجماعُ القلب عليها وملازمتها من أعظم أسباب انقياد القلب ولينه واستجابته لأمر الله، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبارَكَ وَتَعَالَى: «أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ»، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبارَكَ وَتَعَالَى: «عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ»، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ؛ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبارَكَ وَتَعَالَى: «أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»[1].

فهذه حال العبد حينما يلازم التوبة وتكون له سجية؛ كلما أحدث ذنبًا فزع إلى الله ﷻ واستغاث به ولجأ إليه.

فَإِنَّ التّوبة الكاملة متضمنة للملازمة، ومندرجةٌ فيها، إذ ملازمة التوبة تتدرج بالعبد إلى درجة أعلى وهي الإنابة، وَقد أمر الله تَعَالَى بها في كتابه وَأثنى على خليله بها فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤].

وَقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود: ٧٥].

وَأخبر أن آياتِه إنما يتبصر بها وَيتذكرُها أهل الإنابة فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ [ق: ٦]، إلى أن قَالَ: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾ [غافر: ١٣].

---

(١) رَوَاهُ البخاري (٧٥٠٧)، ومُسْلِمٌ (٢٧٥٨).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الروم: ٣١].

فالإنابة هي: فطرة الله التي فطر عليها عباده، فلا حياة لقلب العبد ولا فلاح إلا برجوعه الدّائم إلى ربه ﷻ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ[1] الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ»[2].

فهذه صفة من استقامت فطرتُه وعدلت سيرته كالأنبياء والصالحين.

قال تعالى عَنْ نبيه داود: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

وَأخبر أن ثوابه وَجنته لأهل الخشية وَالإنابة فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [ق: ٣١ ـ ٣٤].

وَأخبر سُبْحَانَهُ أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [الزمر: ١٧].

وبعد التوبة لا بد من الإنابة؛ وهي رجوعُ العبد بكليته إلى الله ﷻ.

وَالْإِنَابَةُ إِنَابَتَان:

١ ـ إنابة لربوبيته: وَهي إنابة المخلوقات كلّها يشترك فيها المؤمن وَالكافر وَالبر وَالفاجر؛ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عام في حقِّ كل داع أصابه ضر كما هو الواقع، وَهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام بل تجامع الشِّرك وَالكفر؛ كما قَالَ تَعَالَى في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [الروم: ٣٣ ـ ٣٤] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

---

(١) تُنْتَجُ: أي تَلِدُ. «النهاية» (٥/ ٢٧).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٣٥٨)، مُسْلِمٌ (٢٦٥٨).

٢ ـ وإنابة أوليائه: وَهي إنابة لإلهيته:

وهي إنابة عبودية وَمحبة، وَهي تتضمن أربعة أمور: محبته، وَالخضوع له، وَالإقبال عليه، وَالإعراض عما سواه، **فلا يستحق** اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربعة، وَتفسير السّلف لهذه **اللفظة** يدور على ذلك، وَفي اللفظةِ معنى الإسراع، وَالرّجوع، وَالتقدم، وَالمنيب **إلى الله**: المسرع إلى مرضاته الرّاجع إليه كل وَقت، المتقدم إلى محابه.

وَلا يستحق العبد اسم التائب حتى يتخلص منها، وهي اثنا عشر جنسًا مذكورةٌ في كتاب الله ﷻ هي أجناس المحرمات:

- الكفر.
- وَالشِّرك.
- وَالنفاق.
- وَالفسوق.
- وَالعصيان.
- وَالإثم.
- وَالعدوان.
- وَالفحشاء.
- وَالمنكر.
- وَالبغي.
- وَالقول على الله بلا علم.
- واتباع غير سبيل المؤمنين.

فهذه الاثنا عشر جنسًا عليها مدار كل ما حرّم الله، وَإليها انتهاء العالم بأسرهم إلا أتباع الرسل صلوات الله وَسلامه عليهم، وَقد يكون في الرجل أكثرها وَأقلها أوْ وَاحدة منها، وَقد يعلم ذلك وَقد لا يعلم.

فالتوبة النصوح: هي بالتخلص منها وَالتحصّن وَالتحرّز من مواقعتها وَإنما يمكن التخلص منها لمن عرفها.

رابعًا: اليَقَظَةُ وَالانْتِبَاهُ الدَّائِمُ:

وأعني باليقظة يقظة القلب وانتباهه لأمر الله ﷻ وأن يقرعه نداء الله ﷻ فيُفرغ قلبه إلا من سماع هذا النداء.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ

حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١ ـ ٢].

بل اقرأ وتأمل معي هذه الآيات.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ١٨ ـ ٢٤].

فأي قلب لا تمر عليه هذه الآيات، ولا يتأثر بها، ولا ينتبه من غفلته يكون قلبًا منكوسًا.

بل بعض الكفار حينما سمع بعض القرآن كاد قلبه أن يطير، بل كان ذلك سببًا لهدايته وإسلامه.

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ﷺ قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٧]، قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ»[(١)].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «فأول منازل العبودية اليقظة وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين.

ولله ما أنفع هذه الروعة، وما أعظم قدرها، وما أشد إعانتها على

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٨٥٤).

السلوك، فمن أحس بها فقد أحسّ وَالله بالفلاح، وَإلا فهو في سكرات الغفلة، فإذا انتبه شمَّر لله بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى وَأوطانه التي سُبي منها.

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا مَنَازِلُكَ الأُولَى وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ
وَلَكِنَّنَا سَبْيُ الْعَدوِّ فَهَلْ تُرَى نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلَّم؟

فأخذ في أهبة السفر فانتقل إلى منزلة العزم، وَهو العقد الجازم على المسير وَمفارقة كل قاطع وَمعوق، وَمرافقة كل معين وَموصل، وَبحسب كمال انتباهه وَيقظته يكون عزمه، وَبحسب قوة عزمه يكون استعداده.

فإذا استيقظ أوجبت له اليقظة الفكرة وَهِي تحديق القلب نحو المطلوب الذي قد استعد له مجملًا وَلمَّا يهتد إلى تفصيله وَطريق الوصول إليه.

فإذا صحَّت فكرته أوجبت له البصيرة فهي نور في القلب يبصر به الوعد وَالوعيد وَالجنة وَالنار، وَما أعد الله في هذه لأوليائه وَفي هذه لأعدائه، فأبصر النّاس وَقد خرجوا من قبورهم مهطعين لدعوة الحقّ، وَقد نزلت ملائكة السموات فأحاطت بهم، وَقد جاء الله وَقد نصب كرسيه لفصل القضاء، وَقد أشرقت الأرض بنوره، وَوضع الكتاب وَجيء بالنبيين وَالشّهداء، وَقد نصب الميزان، وَتطايرت الصحف، وَاجتمعت الخصوم، وَتعلق كل غريم بغريمه، وَلاح الحوض وَأكوابه عَنْ كثب، وَكثر العطاش، وَقلَّ الوارد، وَنصب الجسر للعبور وَلُزّ النّاس إليه، وَقسمت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه، وَالنّارُ يحطم بعضها بعضًا تحته، وَالمتساقطون فيها أضعاف أضعاف الناجين.

فينفتح في قلبه عين يرى بها ذلك، وَيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة وَدوامها وَالدنيا وَسرعة انقضائها.

فالبصيرة نور يقذفه الله في قلب يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل كأنه يشاهده رأى عين، فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه الرّسل وَتضرره بمخالفتهم، وَهذا معنى قول بعض العارفين: البصيرة تحقق الانتفاع بالشيء وَالتضرر به.

وَقال بعضهم: البصيرة ما خَلَّصك من الحيرة إما بإيمان وَإما بعيان»[1].

فبلوغ الغاية من دوام الانتباه واستمرار اليقظة يحتاج إلى مجاهدة لبلوغ الغاية، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وعقد هذا: أن يشهد قلبك الرّب تبارك وَتَعَالَى مستويًا على عرشه، متكلمًا بأمره وَنهيه، بصيرًا بحركات العالم عُلْوِيّه وَسُفْلِيّه وَأشخاصه وَذواته، سميعًا لأصواتهم، رقيبًا على ضمائرهم وَأسرارهم، وَأمر الممالك تحت تدبيره نازل من عنده وَصاعد إليه، وَأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممالك، موصوفًا بصفات الكمال، منعوتًا بنعوت الجلال، منزهًا عَنْ العيوب وَالنقائصِ وَالمثال، هو كما وَصف نفسه في كتابه وَفوق ما يصفه به خلقه، حي لا يموت، قيوم لا ينام، عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السّموات وَلا في الأرض، بصير يرى دبيب النملة السّوداء على الصخرة الصّماء في الليلة الظلماء، سميع يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، تمت كلماته صدقًا وَعَدْلًا، وَجلت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبهًا وَمثلًا، وَتعالت ذاته أن تشبه شيئًا من الذّوات أصلًا، وَوسعت الخليقة أفعاله عدلًا وَحكمة وَرحمة وَإحسانًا وَفضلًا، له الخلق وَالأمر، وَله النعمة وَالفضل، وَله الملك وَالحمد، وَله الثناء وَالمجد، أولٌ ليس قبله شيء، وَآخر ليس بعده شيء، ظاهر ليس فوقه شيء، باطنٌ ليس دونه شيء، أسماؤه كلّها مدْح وَحمد وَثناء وَتمجيد وَلذلك كانت حسنى، وَصفاته كلها صفات كمال، وَنعوته كلها نعوت جلال، وَأفعاله كلّها حكمة وَرحمة وَمصلحة وَعدل، كل شيء من مخلوقاته دال عليه، وَمرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه، لم يخلق السموات وَالأرض وَما بينهما باطلًا، وَلا ترك الإنسان سدى عاطلًا، بل خلق الخلق لقيام توحيده وَعبادته، وَأسبغ عليهم نعمه

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٣٨).

ليتوسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته، تعرّف إلى عباده بأنواع التعرفات، وَصرَّف لهم الآيات، وَنوَّع لهم الدلالات، وَدعاهم إلى محبته من جميع الأبواب، وَمدَّ بينه وَبينهم من عهده أقوى الأسباب، فأتمَّ عليهم نعمه السّابغة، وَأقام عليهم حجته البالغة، أفاض عليهم النعمة، وَكتب على نفسه الرحمة، وَضمَّن الكتاب الذي كتبه: «أن رحمته تغلب غضبه».

وتفاوتُ النّاس في هذه البصيرة بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وَفهمها، وَالعلم بفساد الشُّبَه المخالفة لحقائقها»[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٤٠).

مُخَاطَبَةُ الْقُلُوبِ

اعلم أن مخاطبة القلوب علم لا يجيده إلا الأنبياء وأتباعهم، وكلما عظمت مكانة النبي والولي كلما عظم قدر أهل الاستقامة معه، ونرى أن نبينا محمدًا ﷺ أكثر الأنبياء أتباعًا وأعظمهم أثرًا ومكانة، وذلك لعظيم قدره عند ربه وما حباه الله به من قبول عند الخلق.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

فهذه بعض صفات النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، ولذلك نرى أن نبينا ﷺ أكثر الأنبياء أتباعًا.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ(١)، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي، فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ. ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ. فَرَأَيْتُ سَوَادًا

---

(١) الرهط من الرجال ما دُون العَشَرَةِ. «النهاية» (٢/ ٦٧٥).

كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا. فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ، فَقِيلَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ»(١).

لقد صبر النبي ﷺ على إيذاء قومه له رغم ما وقع له منهم من أصناف الأذى وعظيم البلاء.

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ»(٢).

ولقد وقع للنبي ﷺ في يوم أُحُدٍ أمرٌ عظيم، وخطب جسيم، وبلاء تنوء الجبال بحمله فكيف بالصّدور، فقد قتل سبعون من أصحاب النبي ﷺ وكان منهم حمزة بن عبد المطلب حيث وَجَدَ عليه النبي ﷺ وجدًا شديدًا، وجُرِح النبي ﷺ جراحًا في وجنته(٣)، وسال منه الدم ـ فداه آباؤنا وأمهاتنا ـ، حتى أشيع أن النبي ﷺ قد قتل.

ورغم هذا البلاء الذي لاقاه النبي ﷺ من قريش إلا أَنَّ الأمر كان يزيد ويستفحل وكل ذلك والنبي ﷺ صابر محتسب.

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٧٥٢).

(٢) صحيح: رَوَاهُ الترمذي (٢٤٧٢)، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ: «حِينَ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ هَارِبًا مِنْ مَكَّةَ وَمَعَهُ بِلَالٌ، إِنَّمَا كَانَ مَعَ بِلَالٍ مِنَ الطَّعَامِ مَا يَحْمِلُهُ تَحْتَ إِبْطِهِ».

(٣) الوجنة: هي أعلى الخدِّ. «النهاية» (٥/ ٣٤٢).

بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ[1]، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ[2]. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[3].

وهذا بخلاف ما وقع ليونس عليه السلام حينما استعصى عليه قومه، وخرج يبحث عن مكان آخر ينشر فيه دعوته يكون أقل عناء وأخف وطأة، فذكر الله تعالى من أمره، ونذكرها على سبيل الاستشهاد، وكيف أَنَّهُ لما أبق من قومه وقع له من الضّر ما أعاده إلى قومه نبيًا معلمًا هاديًا مهديًا.

قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨].

فهذه قصة يونس عليه السلام وهو ذو النون.

لقد سُمِّي ذا النون ـ أي صاحب الحوت ـ لأن الحوت التقمه ثم نبذه، وذلك أَنَّهُ أُرسل إلى قرية فدعا أهلها إلى الله فاستعصوا عليه، فضاق بهم صدرًا، وغادرهم مغاضبًا، ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم، ظانًّا أن الله لن يضيق عليه الأرض، فهي فسيحة، والقُرى كثيرة، والأقوام متعددون. وما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة، فسيوجهه الله إلى قوم آخرين يكونون أخفّ وطأةً وأقل مشقة.

---

(١) قرن الثعالب: موضع تلقاء مكة. «معجم ما استعجم» (٣/ ١٠٦٧).

(٢) الأَخْشَبَانِ: الجَبَلَانِ المُطِيفَان بمكة، وهُمَا أبو قُبَيْس والأَحْمَرُ وهو جبل مُشْرِفٌ وجهه على قُعَيْقِعَان. والأخشبُ كُلُّ جبل خَشِنٍ غليظ الحجارة. «النهاية» (٢/ ٨٦).

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٢٣١)، مُسْلِمٌ (١٧٩٥).

ذلك معنى ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: أن لن نضيق عليه.

فخرج مغاضبًا لقومه إلى شاطئ البحر، فوجد سفينة مشحونة فركب فيها، حتى إذا كانت في اللجة ثقلت، وقال ربانها: إِنَّهُ لا بد من إلقاء أحد ركابها في البحر لينجو سائر من فيها من الغرق، فساهموا فجاء السّهم على يونس، فألقوه أو ألقى هو بنفسه، فالتقمه الحوت، مضيقًا عليه أشد الضيق! فلما كان في الظلمات: ظلمة جوف الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل نادى: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فاستجاب الله دعاءه، ونجاه من الغم الذي هو فيه، ولفظه الحوت على الساحل.

إن في قصة يونس عليه السلام لفتات ولمسات منها:

لقد خرج يونس عليه السلام، وذهب مغاضبًا، ضيق الصدر، حرج النفس من قومه الذين لم يؤمنوا بالله؛ فوقع في أعظم المضايق. ولولا أن ثاب إلى ربه! واعترف بما وقع منه لنفسه ودعوته، لما فرّج الله عنه هذا الضِّيق. ولكن الله تعالى حفظه ونجاه من الغمِّ الذي يعانيه، بل عاد إليهم وقد وجدهم آمنوا جميعًا.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

وأصحاب الدّعوات لا بد أن يحتملوا تكاليفها، وأن يصبروا على التكذيب بها، والإيذاء من أجلها، وتكذيبُ الصادق الواثق مريرٌ على النفس حقًّا، ولكنه بعض تكاليف الرسالة، فلا بد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا، ولا بد أن يثابروا ويثبتوا، ولا بد أن يكرروا الدعوة ويبدءوا فيها ويعيدوا.

إنهم لا يجوز لهم أن ييأسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب، مهما واجهوا من إنكار وتكذيب، ومن عتو وجحود، فإذا كانت المرة المائة لم تصل إلى القلوب، فقد تصل المرة الواحدة بعد المائة، وقد تصل المرة

الواحدة بعد الألف. . ! ولو صبروا هذه المرة وحاولوا ولم يقنطوا لتفتحت لهم أرصاد القلوب!.

إن طريق الدعوات ليس هينًا لينًا، واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة، فهناك ركام من الباطل والضلال والتقاليد والعادات، والنظم والأوضاع يجثم على القلوب، ولا بد من إزالة هذا الركام، ولا بد من استجلاء القلوب بكل وسيلة.

إِنَّهُ من السَّهل على صاحبِ الدّعوة أن يغضب لأن النّاس لا يستجيبون لدعوته، فيهجر النّاس. . إِنَّهُ عمل مريح، قد يفثأ الغضب، ويهدئ الأعصاب. . ولكن أين هي الدعوة؟ وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين وعدم بلاغهم ونذارتهم؟!.

إن الدّعوة هي الأصل لا شخص الداعية! فليضق صدره. ولكن ليكظم ويمضي. وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون!.

وإن في قصة ذي النون لدرسًا لأصحاب الدّعوات ينبغي أن يتأملوه، وإن في رجعة ذي النون إلى ربه؛ واعترافه بما وقع منه لعبرة لأصحاب الدّعوات ينبغي أن يتدبروها، وإن رحمة الله لذي النون واستجابة دعائه المنيب في الظلمات لبشرى للمؤمنين ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

مَشَاهِدُ يَجِبُ اسْتِحْضَارُهَا

هناك مشاهد يجب على العبد أن يستحضرها؛ حتى يتهيأ القلب لاستفراغ العلل والآفات التي تقعده وتحيل بينه وبين سيره إلى الرّب ﷻ.

وهذه المشاهد يجب أن تكون له رأي العين، وأن يكون منها على بصيرة دائمة، ولذلك كان ينزل القرآن منجمًا الآية أو الآيات أو السورة أو بعض السورة للوقوف على بعض العبر والعظات.

قَصَصُ الْقُرْآنِ:

والذي يتأمل قصص القرآن يرى فيها من المشاهد التي أراها الله ﷻ لتثبيت قلب نبيه ﷺ وقلوب عباده.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].

فيذكر ﷻ عباده بحال الأمم الماضية من إيمان وكفر، وثبات وخذلان، وما أكرم الله به رسله وأولياءه، وما عاقب وأهلك به أعداءه.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

فحينما يقص القرآن عن حوارات ومجادلات الأمم مع رسلهم وينظر العبد إلى العاقبة؛ يثبت فؤاده ويقوي جنانه، ويعلم أن العاقبة للمتقين.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

فقف أمام هذا المشهد لنبي من الأنبياء وهو هود ﷺ، وهو يقف أمام قومه ليس معه أحد، وقومه من أشد النّاس قوة ومن أعظمهم بأسًا، ورغم ذلك ما لان لقومه ولا استكان.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود: ٥٠ ـ ٥٣].

مَشَاهِدُ اسْتِحْضَارِ عَظَمَةِ اللهِ:

بل تنظر إلى مشاهد من استحضار عظمة الله ﷻ وقوته، وأنت تسمع نداء الله لعباده وهو يعرفهم به.

قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٦].

مَشْهَدُ خُرُوجِ الرُّوحِ:

بل استحضر مشهدَ السَّوقِ وخروج الروح، ترى قلبك يرتاع وجوارحك

ترتعد، كأنك ترى الموت رأي العين، وإذا بالآيات ترعد قلوب الصدِّيقين فكيف بالغافلين الغاوين؟

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٢٦ ـ ٤٠].

مَشْهَدُ اسْتِقْبَالِ الظَّلَمَةِ يَوْمَ القِيامَةِ:

بل تأمل هذا المشهد لهؤلاء الذين تنعموا بكل لذيذة، واستغرقوا في كلّ متعة، وجحدوا نعم الله وكفروا، تأمل حالهم يوم القيامة في مشهد مروِّع، يفتت الأكباد، ويعصر القلوب.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٥ ـ ١٨].

مَشْهَدُ السُّعَدَاءِ وَالأَشْقِيَاءِ:

ثم تأمل حال السُّعداءِ والأشقياء في المشهد العجيب.

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ

مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ [الزمر: ٧١ ـ ٧٤].

والذي يتأمل القرآن يرى المشاهد كثيرة، وهذه المشاهد يجب استحضارها وغيرها من المشاهد التي تهيء القلب للاستفراغ من كل منقصة، والبعد عن كل معوق يحيل بينه وبين سيره إلى الله.

هَدْيُ السَّلَفِ مَعَ الْقَلْبِ

لقد كان شأن السّلف مع القلب عجيباً، فقد عقِلوا عَنْ الله وَعنْ رسوله ﷺ «أنَّهُ لا صلاح للعبد في الدّنيا وَالآخرةِ إلا بقلبه»، وَقد ورد من الآيات وَالأحاديث ما يحثُّ على ذلك.

قَالَ تَعالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: ١٦ ـ ١٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

وقَالَ تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المعارج: ٣٢ ـ ٣٣].

وَقَالَ تَعالَى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

قَالَ ابن كثير: «أي هذا الجزاءُ حاصِلٌ لمنْ خَشِي الله، وَاتقاه حَقَّ تَقْواه، وَعَبَدَهُ كَأنَّهُ يَراهُ، وَعَلِمَ أنَّهُ إنْ لم يَره فإنَّهُ يَراه»(١).

وَقد سأل جبريل ﷺ عَنْ الْإِحْسَانِ فقَالَ: «أنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَراهُ فَإِنْ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/٦٩٦).

لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1].

لقد كان للقلب مع السلف وقفاتٌ وعناية بسيره ورغباته، فكان أحدهم يترجم كل حركة وسكنة، وكل قول وفعل، فيرون أثر القلب مع ذلك كله، ولذلك استطاعوا أن يتابعوا كل حركات القلب وتقلباته وتغيراته، فكان لهم مع القلب هذه الوقفات.

أَوَّلًا: الْمُرَاقَبَةُ:

أما المراقبة فهي مراعاة القلب للرّقيب وَاشتغاله به وَالتفاته إليه وَملاحظته إياه وَانصرافه إليه.

ولقد كانت مراقبة القلب عند السلف رضي الله تعالى عنهم هي شُغْلَهُم، وَالبحث عَنْ علته وَآفته هي عملهم، وَاستقامته وَرجوعه لخالقه هي بغيتهم.

قال الغزّالي: وقد سئل بعضهم عَنْ المراقبة فقال: «أَوَّلُها عِلْمُ القَلْبِ بِقُرْبِ الرّبِّ تَعالى».

وَقال آخر: «المراقَبَةُ مُراعاة السِّر بملاحظةِ الغَيْبِ مَعَ كُلِّ لحظَة وَلفْظَة».

ويروى أن الله تَعَالَى قَالَ لملائكته: «أَنْتُم مُوَكَّلُونَ بِالظَاهِرِ وَأَنا الرَّقِيبُ عَلَى البَاطِنِ».

وقال محمد بن علي التّرمذي: «اجْعَلْ مُرَاقَبَتَكَ لمن لا تغيبُ عَنْ نَظَرِهِ إليك، وَاجْعَل شُكرك لمن لا تنقطع نِعَمُه عَنْكَ، وَاجْعَلْ طَاعَتَك لمنْ لا تَسْتَغْنِي عَنْهُ، وَاجْعَلْ خُضُوعَكَ لمنْ لا تخرج عَنْ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ»[2].

وقال سَهْلُ التُّسْتَرِيُّ: «لم يَتَزَيَّن القَلْبُ بِشَيءٍ أَفْضَلَ وَلا أَشْرَفَ مِنْ عِلْمِ العَبْدِ بأنَّ الله شَاهِده حَيْثُ كَان».

---

(١) متفق عليه، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠)، وَمُسْلِمٌ (٩).

(٢) «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٣٥).

وقد قيل:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفَلُ سَاعَةً وَلَا أَنَّ مَا تُخْفِيه عَنْهُ يَغِيبُ
أَلَمْ تَرَ أَنّ الْيَوْمَ أَسْرَعُ ذَاهِبٍ وَأَنّ غَدًا لِلنَّاظِرِينَ قَرِيبُ

وَقَالَ حُميد الطّويلُ لسليمان بن علي: عِظْني. فقال: «لئنْ كُنْت إذا عَصَيت الله خَالِيًا ظَنَنْت أَنَّهُ يَرَاك لَقَدْ اجترأت على أمرٍ عَظِيم، وَلَئن كُنْت تظنُّ أَنَّهُ لا يراك فلقد كَفَرْت».

وَقَال سفيان الثوري: «عَلَيْكَ بالمراقَبَةِ ممن لا تخفى عليه خَافِية، وَعَلَيك بالرَّجاء ممنْ يملكُ الوفاء، وَعَلَيك بالحذَرِ ممن يملكُ العُقُوبة».

وقال فرقد السّبخي: «إنَّ المنافِقَ ينظرُ فَإذا لم ير أحدًا دَخلَ مَدْخلَ السُّوء وَإنما يراقبُ النّاس وَلا يراقبُ الله تعالى».

وقَالَ عبد الله بن دينار: «خَرَجْتُ مع ابنِ عمر رضي الله تعالى عنه إلى مكةَ فعرّسنا في بعضِ الطّريق، فخرج ابن عمر لحاجة وَخرجتُ معه، فانحدر عليه راعٍ من الجبل فقال له ابن عمر: أراعي؟ قَالَ: نَعَم، قَالَ: بِعْني شاةً مِنْ الغنم، قَالَ: إني مملوك، قَالَ: قل لسَيِّدك أكلها الذِّئبُ، قَالَ: فأين الله عز وجلّ؟ قَالَ عبد الله: فأين الله! ثم بكى، ثم قَالَ للرّاعي: أقريبٌ سيدك؟ قَالَ: لا، قَالَ: فاذهبْ معنا إلى المنزل، قَالَ: فذَهَبَ فأعطاه في ثوبه طعامًا، ثم قَالَ: ائتني أنت وَسيدُك غدًا على الماء، ثم ذَهَب، ثم غَدَا هو وَسيده على عبد الله فقال: بِعْني غُلامَك، فَقَالَ: نعم، فاشتراه مِنه فأعْتَقَهُ»(١).

فالعلم بالله وَأسمائه وَصفاته إذا صار يقينًا وَخلا عَنْ الشك ثم استولى على القلب محبة الله ﷻ وَعظمته؛ قهرته قوة هذا العلم وَدفعه إلى مراعاة جانب الرقيب، وَصرفت همه إليه.

---

(١) «تاريخ دمشق» (٣١/ ١٣٤).

وَالموقنون بهذا العلم وهذه المعرفة هم المقربون وَهم ينقسمون إلى الصديقين وَإلى أصحاب اليمين، **فَمُرَاقَبَتُهُمْ عَلَى دَرَجَتَيْنِ**:

الْدَّرَجَةُ الأُولَى: مُرَاقَبَةُ الْمُقَرَّبِينَ مِنْ الْصِّدِّيقِينَ:

وَهي مراقبة التعظيم وَالإجلال، وَهو أن يصير القلب مستغرقًا بملاحظة ذلك الجلال، وَمنكسرًا تحت الهيبة، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلًا.

أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات؛ فضلًا عَنْ المحظورات، وَإِذَا تحركت بالطّاعات كانت كالمستعملة بها؛ فلا تحتاج إلى تدبير وَتثبيت في حفظها على سنن السّداد، بل يسدد الرّعية من ملك كلية الرّاعي والقلب هو الرّاعي، فإذا صار مستغرقًا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السّداد وَالاستقامة من غير تكلف، وَهذا هو الذي صار همه همًا وَاحدًا فكفاه الله سائر الهموم.

وقد قيل لعبد الواحد بن زيد: «هَلْ تَعْرِفُ في زَمَانِك هذا رجلًا قد اشْتَغَلَ بحالِه عَنْ الخلق؟ فقال: ما أعرف إلا رَجُلًا سيدخل عليكم السّاعة.

فما كان إلا سريعًا حتى دخل عتبة الغلام، فقال له عبد الواحد بن زيد: من أين جئت يا عتبة؟ فقال: من موضع كذا. وَكان طريقه على السّوق فقال: من لقيت في الطريق؟ فقال: ما رأيت أحدًا».

فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وَجوارحه، فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه لأن القلب قد أثمرت فيه المراقبة.

ودخل رجلٌ على آخر وَهو معتكفٌ فوجده ساكنًا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شيء، فقال له: من أين أخذت هذه المراقبة وَالسُّكون؟

فقال: من سِنَّور كانت لنا، فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر لا تتحرك لها شعرة».

الْدَّرَجَةُ الْثَّانِيَةُ: مُرَاقَبَةُ الْوَرِعِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ:

وَهم قومٌ غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وَباطنهم وعلى قلوبهم، وَلكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال؛ بل بقيت قلوبهم على حدِّ الاعتدال متسعة للتلفت إلى الأحوال وَالأعمال، إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عَنْ المراقبة.

نعم قد غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون وَلا يحجمون إلا بعد التثبت فيه، وَيمتنعون عَنْ كل ما يفتضحون به في القيامة، وَإن وَقعت منهم هفوات وَتلبسوا بسقطات، وَلكن سرعان ما ينيبون وَيستغفرون وَيتوبون وَيعودون إلى الله.

ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وَسكناته وَخطراته وَلحظاته، وَبالجملة جميع اختياراته، **وَله فيها نظران:**

- نظر قبل العمل.
- وَنظرٌ في العمل.

أما قبل العمل: فلينظر أن ما ظهر له وَتحرك بفعله وخاطره أهو لله خاصة، أَوْ هو في هوى النفس وَمتابعة الشَّيطان؟ فيتوقف فيه وَيتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحقِّ، فَإن كان لله تَعَالَى أمضاه؛ وَإن كان لغير الله استحيا من الله وَانكف عنه، ثم لام نفسه على رغبته فيه وَهمِّه به وَميله إليه، وَعرفها سوء فعلها وَسعيها في فضيحتها، وَأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته.

فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة، وَلا يخلِّص منها إلا العلم المتين وَالمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وَأغوار النفس وَمكايد الشَّيطان، فمتى لم يعرف نفسه وَربَّه وَعدوه إبليس وَلم يعرف ما يوافق هواه، وَلم يميز بينه وَبين ما يحبه الله وَيرضاه في نيته وَهمته وَفكرته وَسكونه وَحركته فلا يسلم في هذه المراقبة، بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تَعَالَى وَهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وَلا تظنن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر هيهات بل طلب العلم فريضة على كل مسلم، ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من

ألف ركعة من غير عالم؛. لأنه يعلم آفات النفوس وَمكايد الشَّيطان وَمواضع الغرور فيتقي ذلك، وَالجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه، فلا يزال الجاهل في تعب وَالشَّيطان منه في فرح وَشماتة، فنعوذ بالله من الجهل وَالغفلة فهو رأس كل شقاوة وَأساس كل خسران.

فحكم الله تَعَالَى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همِّه بالفعل وَسعيه بالجارحة فيتوقف عَنْ الهم وَعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أَنَّهُ لله تَعَالَى فيمضيه، أَوْ هو لهوى النفس فيتقيه، وَيزجر القلب عَنْ الفكر فيه وَعن الهم به، فَإِنَّ الخطرة الأولى في الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة، وَالرغبة تورث الهم، وَالهم يورث جزم القصد، وَالقصد يورث الفعل، وَالفعل يورث البوار وَالمقت، فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وَهو الخاطر، فَإِنَّ جميع ما وَراءه يتبعه[١].

قال الغزالي: «**وأما في العمل**: وذلك بتفقد كيفية العمل؛ ليقضي حق الله فيه، ويحسن النية في إتمامه، ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه، وهذا ملازم له في جميع أحواله، فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون، فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب»[٢].

قيل: «إنّ خالد بن صفوان دخل على عمر، فقال له عمر بن عبد العزيز: عظني يا خالد، فقال: «إن الله ﷻ لم يرض أن يكون أحدٌ فوقك، فلا يرضى أن يكون أحدٌ أولى بالشّكر منك». قال: فبكى عمر حتى غُشي عليه ثم أفاق فقال: هيه يا خالد! لم يرض أن يكون فوقي فوالله لأخافنه خوفًا، ولأحذرنه حذرًا، ولأرجونه رجاءً، ولأحبنه محبةً، ولأشكرنه شكرًا، ولأحمدنه حمدًا، يكون ذلك كله أشد مجهودي وغاية طاقتي، ولأجتهدن في العدل والنّصفة والزهد في فاني الدنيا لزوالها، والرغبة في بقاء الآخرة لدوامها حتى

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٩٨).
(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٠٣).

ألقى الله ﷻ، فلعلي أنجو مع الناجين وأفوز مع الفائزين. وبكى حتى غشي عليه قال: وتركته مغشيًا عليه وانصرفت»[1].

وروي أيضًا «أن عمر بن عبد العزيز قال لخالد بن صفوان: عظني وأوجز. فقال خالد: «يا أمير المؤمنين إن أقوامًا غرّهم ستر الله وفتنهم حسن الثناء، فلا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك، أعاذنا الله وإياك أن نكون بالستر مغرورين، وبثناء النّاس مسرورين، وعما افترض الله علينا متخلفين ومقصرين، وإلى الأهواء مائلين». قال: فبكى. ثم قال: «أعاذنا الله وإياك من اتباع الهوى»[2].

ثَانِيًا: الْمُحَاسَبَةُ:

المحاسبة من أعظم الفضائل وَأجلِّ المحاسن فبها ينال العبد تقوى الله، وَينقى قلبه وَيستقيم أمره، فقد قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [الحشر: ١٨].

وَهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال، وَلذلك قَالَ عمر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزنوها قبل أن توزنوا»[3].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وَالتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه، وَقد قَالَ ﷺ: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[4].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١].

---

(١) «شعب الإيمان» (٦/ ٣٩).
(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٧).
(٣) «مصنف ابن أبي شيبة» (٧/ ٩٦).
(٤) صحيح: رَوَاهُ ابن ماجه (٣٨١٥)، قال الشيخ الألباني: حسن صحيح.

وَعن عمر ﷺ: «أَنَّهُ كان يضرِب قدميه بالدِّرة إذا جنَّهُ الليل وَيقول لنفسه: ماذا عملت اليوم».

وَعَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَكُونُ الْعَبْدُ تَقِيًّا حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ كَمَا يُحَاسِبُ شَرِيكَهُ»[1].

وَروي عَنْ عائشة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا: «أن أبا بكر رضوان الله عليه قَالَ لها عند الموت: ما أحد من النّاس أحبّ إلي من عمر. ثم قَالَ لها: كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قَالَ، فقال: لا أحد أعزّ علي من عمر»[2].

فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وَأبدلها بكلمة غيرها.

وَحديث أبى طلحة: «حين شغله الطائر في صلاته فتدبر ذلك، فجعل حائطه صدقة لله تَعَالَى ندمًا وَرجاء للعوض مما فاته»[3].

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْقَاسِمِ، قَالَ: «زَعَمَ عَبْدُ اللهِ بْنُ حَنْظَلَةَ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلَامٍ مَرَّ فِي السُّوقِ، عَلَيْهِ حُزْمَةٌ مِنْ حَطَبٍ، فَقِيلَ لَهُ: أَلَيْسَ أَغْنَاكَ اللهُ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْمَعَ الْكِبْرَ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ»[4]».

وَقال الحسَنُ: «المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله، وَإنما خفّ الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وَإنما شقّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، ثم فسَّر المحاسبة فقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: وَالله إنك لتعجبني وَإنك من حاجتي وَلكن هيهات حيل بيني وَبينك وَهذا حساب قبل العمل. ثم قَالَ: وَيفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ماذا أردت بهذا، وَالله لا أعذر بهذا، وَالله لا أعود

---

(١) ذكره الترمذي في سننه عقب حديث: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ...» حديث رقم (٢٤٥٩).

(٢) حسن: «الأدب المفرد» (١/ ٤٣). قال الشيخ الألباني: حسن.

(٣) «تاريخ دمشق» (١٩/ ١٤٦).

(٤) رواه مسلم (٩١)، أبو داود (٤٠٩١).

لهذا أبدًا إن شاء الله»[1].

وقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَخَرَجْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ حَائِطًا فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ جِدَارٌ وَهُوَ فِي جَوْفِ الْحَائِطِ: «عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بَخٍ بَخٍ، وَاللهِ لَتَتَّقِيَنَّ اللهَ أَوْ لَيُعَذِّبَنَّكَ»[2].

وَقال الحسن في قوله تَعَالَى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة: ٢] قَالَ: «لا تلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه؛ ماذا أردت بكلمتي، ماذا أردت بأكلتي، ماذا أردت بشربتي، وَالفاجر يمضي قدمًا لا يعاتب نفسه»[3].

وَقال مَالِكُ بنُ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «رحم الله عبدًا قَالَ لنفسه: ألست صاحبة كذا، ألست صاحبة كذا، ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تَعَالَى فكان له قائدًا»[4].

وَهذا من معاتبة النفس.

وَقال ميمون بن مهران: «التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم وَمن شريك شحيح»[5].

وَقال إِبْرَاهِيْمُ التَّيْمِيُّ: «مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها، وَأشرب من أنهارها وَأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقُّومها، وَأشرب من صديدها، وَأعالج سلاسلها وَأغلالها، فقلت لنفسي: يا نفس أي شيء تريدين؟ فقالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحًا، قلت: فأنت في الأمنية فاعملي»[6].

وَقال مَالِكُ بنُ دِينَارٍ: سمعت الحجاج يخطب وَهو يقول: «امرؤ وزن نفسه، امرؤ اتخذ نفسه عدوًا، امرؤ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٧).
(٢) «الموطأ»، رواية يحيى الليثي (١٨٠٠). (٣) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٧٥).
(٤) الخرائطي «اعتلال القلوب» (٣٧). (٥) «تاريخ دمشق» (٦١/ ٣٥٣)
(٦) ابن أبي الدنيا «محاسبة النفس» (١٠).

غيره، امرؤ أخذ بعنان عمله فنظر أين تريد، امرؤ نظر في مكياله، امرؤ نظر في ميزانه. . . . .» فما زال يقول: امرؤ امرؤ حتى أبكاني»[(١)].

عن أبي حازم قال: قال عمر بن عبد العزيز: عظني يا أبا حازم. قال: قلت: «اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تحب أن تكون فيه تلك الساعة، فخذ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن»[(٢)].

كتب رجل من إخوان سفيان الثوري إليه: أن عظني فأوجز. فكتب إليه: «عافانا الله وإياك من السّوء كله يا أخي، إن الدنيا غمّها لا يفنى، وفرحها لا يدوم، وفكرها لا ينقضي، فاعمل لنفسك حتى تنجو، ولا تتوان فتعطب، والسلام»[(٣)].

وعن يحيى بن يمان قال: كان سفيان الثوري يتمثل بهذا البيت:

بَاعُوا جَدِيدًا جَمِيلًا بَاقِيًا أَبَدًا ... بِدَارِسٍ خَلِقٍ يَا بِئس مَا اتَّجَرُوا[(٤)]

الْمُحَاسَبَةُ بَعْدَ الْعَمَلِ:

قال الغزّالي: «اعلم أن العبد كما يكون له وَقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق؛ فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس وَيحاسبها على جميع حركاتها وَسكناتها، كما يفعل التّجار في الدنيا مع الشُّركاء في آخر كل سنة، أَوْ شهر، أَوْ يوم حرصًا منهم على الدنيا، وَخوفًا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته، وَلو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أيامًا قلائل، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة وَالسعادة أبد الآباد، ما هذه المساهلة إلا عَنْ الغفلة وَالخذلان وَقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك.

وَمعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وَفي الرِّبح

---

(١) «تاريخ دمشق» (١٢/ ١٤١)
(٢) «حلية الأولياء» (٥/ ٣١٧).
(٣) «حلية الأولياء» (٧/ ٥).
(٤) «حلية الأولياء» (٧/ ٥).

وَالخسران ليتبين له الزيادة من النقصان، فَإن كان من فضلٍ حاصل استوفاه وَشكره، وَإن كان من خسران طالبه بضمانه وَكلفه تداركه في المستقبل، فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض، وَربحه النوافل وَالفضائل، وَخسرانه المعاصي، وَموسم هذه التجارة جملة النهار، ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولًا، فَإن أدّاها على وَجهها شكر الله تَعَالَى عليه وَرغبها في مثلها، وَإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء، وَإن أداها ناقصة كلَّفها الجبران بالنوافل، وَإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وَتعذيبها وَمعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط؛ كما يصنع التاجر بشريكه، وَكما أَنَّهُ يفتش في حساب الدنيا عَنْ الحبة وَالقيراط؛ فيحفظ مداخل الزيادة وَالنقصان حتى لا يغبن في شيء منها، فينبغي أن يتقي غبينة النفس وَمكرِها، فإنها خداعة ملبسة مكارة، فليطالبها أولًا بتصحيح الجواب عَنْ جميع ما تكلم به طول نهاره، وَليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة، وَهكذا عَنْ نظره بل عَنْ خواطره وَأفكاره وَقيامه وَقعوده وَأكله وَشربه وَنومه، حتى عَنْ سكوته أَنَّهُ لم سكت، وَعن سكونه لم سكن، فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وَصحّ عنده قدر أدى الواجب فيه؛ كان ذلك القدر محسوبًا له، فيظهر له الباقي على نفسه فليثبته عليها، وَليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وَفي جريدة حسابه.

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الديون، أما بعضها فبالغرامة وَالضّمان، وَبعضها برد عينه، وَبعضها بالعقوبة لها على ذلك، وَلا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب، وَتمييز الباقي من الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة وَالاستيفاء.

ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يومًا يومًا وَساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة وَالباطنة.

كما نقل في توبة ابن الصمة وَكان بالرّقة وَكان محاسبًا لنفسه، فحسب يومًا فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وَعِشرون ألف يوم

وَخمسمائة يوم فصرخ، وَقال: «يا وَيلتي ألقى الملك بأحد وَعِشرين ألف ذنب فكيف وَفي كل يوم عشرة آلاف ذنب». ثم خر مغشيًا عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلًا يقول: «يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى»(١).

فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وَعلى معصيته بالقلب وَالجوارح في كل ساعة، وَلو رمى العبد بكل معصية حجرًا في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة قريبة من عمره، وَلكنه يتساهل في حفظ المعاصي وَالملكان يحفظان عليه ذلك ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: ٦]»(٢).

مُعَاقَبَةُ ٱلنَّفْسِ عَلَى تَقْصِيرِهَا:

مهما حاسب العبد نفسه فلن تسلم عَنْ مقارفة معصية، وَارتكاب تقصير في حق الله تَعَالَى، فلا ينبغي أن يهملها، فَإِنَّهُ إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وَأنست بها نفسه وَعسر عليه فطامها وَكان ذلك بسبب هلاكها، بل ينبغي أن يعاقبها، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وَإِذَا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر، وَكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عَنْ شهواته، هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة.

عن عبد الجبار بن النصر السلمي قال: «مر حسان بن أبي سنان بغرفة فقال: متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعنيك، لأعاقبنك بصوم سنة فصامها»(٣).

قال مالك بن ضيغم: «جاءنا رياح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر فقلنا: هو نائم. فقال: أنوم بعد العصر هذه الساعة هذا وقت نوم. ثم ولى فأتبعناه رجلًا فقلنا: الحقه فقل: نوقظه لك؟ قال: فجاء بعد المغرب فقلنا: أبلغته؟ قال: هو كان أشغل من أن يفهم عني، أدركته وهو يدخل المقابر وهو

(١) «شعب الإيمان» (١/ ٥٣٣).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٢/ ٤٠٥).

(٣) «شعب الإيمان» (٤/ ٢٧٥).

يوبخ نفسه أقلت أي نوم هذا؟ لينم الرجل متى شاء، تسألين عما لا يعنيك، أما إن لله ﷻ علي عهدًا لا أنقضه فيما بيني وبينه أبدًا أن لا أوسدك النوم حولًا. قال: فلما سمعت منه هذا تركته وانصرفت»[1].

عن منكدر بن محمد عن أبيه: «أن تميمًا الداري نام ليلة لم يقم يتهجد فيها حتى أصبح، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع»[2].

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بن قيس: «كنا في غزاة لنا فحضر العدو فصيح في النّاس فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح، وَإِذَا رجل أمامي وَهو يخاطب نفسه وَيقول: «أي نفسي ألم أشهد مشهد كذا فقلت لي: أهلك وَعيالك. فأطعتك وَرجعت، ألم أشهد مشهد كذا وَكذا فقلت لي: أهلك وَعيالك. فأطعتك وَرجعت، وَالله لأعرضنك اليوم على الله أخذك، أَوْ تركك». فقلت: لأرمقنه اليوم فرمقته فحمل النّاس على عدوهم فكان في أوائلهم، ثم إن العدو حمل على النّاس فانكشفوا فكان في موضعه حتى انكشفوا مرات وَهو ثابت يقاتل، فوالله ما زال ذاك دأبه حتى رأيته صريعًا فعددت به وَبدابته ستين، أَوْ أكثر من ستين طعنة»[3].

عن سلمة بن منصور عن مولى لهم كان يصحب الأحنف بن قيس قال: كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه ثم يقول: حس، ثم يقول: «يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا، ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟»[4].

فكذا كانت عقوبة أولي الحزم لأنفسهم وَالعجب أنك تعاقب عبدك وَأمتك وَأهلك وَولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وَتقصير في أمر، وَتخاف أنك لو تجاوزت عَنْهُم لخرج أمرهم عَنْ الاختيار وَبغوا عليك ثم تهمل نفسك وَهي أعظم عدو لك، وَأشد طغيانًا عليك، وَضررك من طغيانها

(١) «حلية الأولياء» (٦/ ١٩٢).
(٢) «شعب الإيمان» (٣/ ١٥٩).
(٣) «صفة الصفوة» (٤/ ٤٢١).
(٤) «صفة الصفوة» (٣/ ١٩٩).

أعظم من ضررك من طغيان أهلك، فَإِنَّ غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا وَلو عقلت لعلمت: أن العيش عيش الآخرة، وَأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له، وَنفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة، فهي بالمعاقبة أولى من غيرها.

قَالَ مبارك أبو حماد: سمعت سفيان الثوري يقرأ على علي بن الحسن: «يا أخي اطلب العلم لتعمل به وَلا تطلبه لتباهي به العلماء، وَتماري به السفهاء، وَتأكل به الأغنياء، وَتستخدم به الفقراء، فَإِنَّ لك من علمك ما عملت به وَعليك ما ضيعت منه، فقد بلغنا وَالله أعلم: أَنَّهُ من طلب الخير صار غريبًا في زماننا، وَلا تستوحش وَاستقم على سبيل ربك، فإنك إن فعلت ذلك كان مولاك الله تَعَالَى وَجبريل وَصالحو المؤمنين، وَاشتغل بذكر عيوب نفسك عَنْ ذكر عيوب غيرك، وَاحزن على ما قد مضى من عمرك في غير طلب آخرتك، وَأكثر من البكاء على ما قد أوقرت به ظهرك لعلك تتخلص منها، وَلا تمل من الخير وَأهله وَلا تباعد عَنْهُم فإنهم خير لك ممن سواهم، وَمل الجهال وَباطلهم وَتباعد عَنْهُم، فإنه لن ينجو من جاورهم إلا من عصم الله، وَإن أردت اللحاق بالصالحين فاعمل بأعمال الصالحين، وَاكتف بما أصبت من الدنيا، وَلا تنس من لا ينساك وَلا تغفل عمن قد وكل بك، يحصي أثرك، وَيكتب عملك، راقب الله في سريرتك وَعلانيتك وَهو رقيب عليك، وَاستح ممن هو معك وَهو أقرب إليك من حبل الوريد، اعرف فاقة نفسك وَحقارة منزلتها فإنك حقير فقير إلى ربك، وَابك على نفسك وَارحمها فإنك إن لم ترحمها لم ترحم وَلا تغشها وَلا توردها، وَخذ منها لك فإنك بيومك وَلست بغدك، وَكأن الموت قد نزل بك وَلا تغفل غفلة الغافلين وَالجاهلين، وَأكثر من البكاء على نفسك فلست من الضحك بسبيل، إن عقلت فقد بلغنا ـ وَالله أعلم ـ: أن الله تَعَالَى عير أقوامًا في كتابه بالضحك وَترك البكاء، فقال: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النجم: ٥٩ ـ ٦١].

وَمدح أقوامًا في كتابه فقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝١٠٩﴾ [الإسراء: ١٠٩](١).

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»(٢).

قَالَ أحمد بن غَسانَ: حملت أنا وَأحمد بن حنبل في محملٍ على جمل يراد بنا المأمون، فلما صرنا قريب عانة، قَالَ لي أحمد: قلبي يحسُّ أن رجاء الحصّار يأتي في هذه الليلة، فَإن أتى وَأنا نائمٌ فأيقظني وَإن أتى وَأنت نائم أيقظتك. فبينا نحن نسير إذ قرع المحمل قارع فأشرف أحمد فإذا برجل يعرفه بالصّفة وَكان لا يأوي المدائن وَالقرى وَعليه عباءة قد شدها على عنقه فقال: «يا أبا عبد الله إن الله قد رضيك له وَافدًا، فانظر لا يكون وفودك على المسلمين وفودًا مشؤمًا، وَاعلم أن النّاس إنما ينتظرونك لأن تقول فيقولوا، وَاعلم إنما هو الموت وَالجنة». فلما أشرفنا على البذيذون قَالَ لي: يا أحمد بن غسان إني موصيك بوصية فاحفظها عني: «راقب الله في السراء وَالضراء، وَاشكره على الشدة وَالرخاء، وَإن دعانا هذا الرجل أن نقول القرآن مخلوق فلا تقل، وَإن أنا قلت فلا تركن إلي وَتأول قول الله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣]». فتعجبت من حداثة سنه وَثبات قلبه، فلم يكن بأسرع أن خرج خادم وَهو يمسح عَنْ وَجهه بكمه وَهو يقول: عزّ علي يا أبا عبد الله أن جرد أمير المؤمنين سيفًا لم يجرده قط وَبسط نطعًا لم يبسطه قط. ثم قَالَ: وَقرابتي من رَسُول اللهِ ﷺ لا رفعت عَنْ أحمد وَصاحبه حتى يقولا القرآن مخلوق. قَالَ: فنظرت إلى أحمد وَقد برك على ركبتيه وَلحظ السماء بعينيه، ثم قَالَ: سيدي غرّ هذا الفاجر حلمك حتى يتجرأ على أوليائك بالقتل وَالضرب، اللهم فَإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته؟ قَالَ: فوالله ما مضى الثلث الأول من الليل إلا وَنحن بصيحة

---

(١) «حلية الأولياء» (٧/ ١١).

(٢) حسن: رَوَاهُ الترمذي (٢٣٩٦).

وَضجة، وَإِذَا رجاء الحصار قد أقبل علينا فقال: صدقت يا أبا عبد الله القرآن كلام الله غير مخلوق، قد مات وَالله أمير المؤمنين»(١).

قَالَ ابن الجوزي: «الحقُّ ﷻ أقرب إلى عبده من حبل الوريد لكنه عامل العبد معاملة الغائب عنه البعيد منه، فأمر بقصد نيته، وَرفع اليدين إليه وَالسؤال له، فقلوب الجهال تستشعر البعد؛ وَلذلك تقع منهم المعاصي، إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر لكفوا الكف عَنِ الخطايا، وَالمتيقظون علموا قربه فحضرهم المراقبة وَكفتهم عَنْ الانبساط، وَلولا نوع تغطية على عين المراقبة الحقيقية لما انبسطت كف بأكل، وَلا قدرت عين على نظر، وَمن هذا الجنس «أَنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي»(٢).

وَمتى تحققت المراقبة حصل الأنس وَإنما يقع الأنس بتحقيق الطّاعة لأن المخالفة توجب الوحشة وَالموافقة مبسطة المستأنسين، فيا لذة عيش المستأنسين، وَيا خسار المستوحشين.

وَليست الطاعة كما يظن أكثر الجهال أنها في مجرد الصَّلاة وَالصيام إنما الطاعة الموافقة بامتثال الأمر وَاجتناب النهي، هذا هو الأصل وَالقاعدة الكلية فكم من متعبد بعيد لأنه مضيع الأصل وَهادم للقواعد بمخالفة الأمر وَارتكاب النهي، وَإنما المحقق من أمسك ذؤابة ميزان المحاسبة للنفس فأدى ما عليه وَاجتنب ما نهي عنه، فَإِن رُزق زيادة تنقل وَإلا لم يضره وَالسلام»(٣).

ثَالِثًا: الْمُرَابَطَةُ:

والمرابطة هي الثبات في مواطن الطّاعات وعند القربات.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

---

(١) «حلية الأولياء» (٩/ ١٩٥).
(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٧٠٢).
(٣) «صيد الخاطر» (٢٠٠).

والمرابطة في هذه الآية هي لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم، ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم، لعلَّهم يفلحون: يفوزون بالمحبوب الديني والدنيوي والأخروي، وينجون من المكروه كذلك.

وإن كانت الآية ذكرها المفسرون فيما يتعلق بالجهاد إلا أنها أعمُّ في جميع الطاعات.

فعلم من هذا أَنَّهُ لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يفلح من أفلح إلا بها، ولم يفت أحدًا الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ»(١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى، ثُمَّ أَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، وَرَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ، ثُمَّ أَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَصَلَّى، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ»(٢).

ومن أَجَلِّ وأنفعِ أسباب العلاج لحصول المرابطة؛ طلب صحبة الأخيار من عباد الله الذين يجتهدون في طلب العلم والعبادة، فيتأسى بأقوالهم وَيقتدي بفعالهم.

إلا أنَّ هذا العلاج قد تعذر، إذ قد فقد في هذا الزَّمان من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين، فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السَّماع، فلا شيء أنفع من سماعِ أحوالهم وَمطالعةِ أخبارهم وَما كانوا فيه من الجهد والجد في

---

(١) صحيح: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١٣٩٨)، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) حسن: رَوَاهُ النسائي (١٦١٠)، قال الشيخ الألباني: حسن صحيح.

الطاعات والقربات، وَقد انقضى تعبهم وَبقي ثوابهم وَنعيمهم أبد الآباد لا ينقطع، فما أعظم ملكهم، وَما أشد حسرة من لا يقتدي بهم، فيمتع نفسه أيامًا قلائل بشهوات مكدّرة ثم يأتيه الموت وَيحال بينه وَبين كلّ ما يشتهيه أبد الآباد ـ نعوذ بالله تَعَالَى من ذلك ـ.

اِجْتِهَادُ السَّلَفِ فِي إِصْلَاحِ الْقُلُوبِ

لقد بلغ اجتهادُ السَّلفِ لإصلاحِ قلوبِهم مبلغًا عظيمًا، فلا ترى بابًا من أبوابِ الخيرِ إلا دخلوه، ولا عملًا صالحًا إلا ويتسابقون عليه، ولا ترى قربة يتقربُ بها إلى اللهِ ﷻ إلا وهم أولى النّاسِ بها.

وانظرْ وتأملْ عسى أن تتعلمَ من مخلد بن الحسين[1] كان إذا ذَكَرَ خُلقًا من أخلاق السّلفِ قال[2]:

لا تَـعْـرِضَـنَّ بِـذِكْـرِنَـا مع ذِكْـرِهِـم ... لَيْسِ الصَّحِيحُ إِذَا مَشَى كَالْمُقْعَدِ

وهذه بعض صور من المجتهدين وَفضائلهم؛ ما يحرك رغبة العبد في الاجتهادِ لإصلاحِ قلْبِهِ اقتداء بهم.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

قَالَ الحسن: «يعملون ما عملوا من أعمال البر؛ وَيخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب ربهم»[3].

ويكفي ما شهد به النبي ﷺ للشيخين من إيمان بالغيب.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى بَقَرَةٍ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ: لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا، خُلِقْتُ لِلْحِرَاثَةِ، قَالَ: آمَنْتُ بِهِ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَأَخَذَ الذِّئْبُ شَاةً، فَتَبِعَهَا الرَّاعِي، فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ: مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي؟! قَالَ: آمَنْتُ بِهِ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: وَمَا هُمَا يَوْمَئِذٍ فِي الْقَوْمِ[4].

---

(١) انظر: «التقريب» (٦٥٣٠).
(٢) أبو نعيم «الحلية» (٨/٢٦٦).
(٣) تفسير ابن جرير عند ذكر الآية.
(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٣٢٤)، مُسْلِمٌ (٢٣٨٨).

فالذي يتأمل شخصية كشخصية أبي بكر ﷺ يراه واقفًا على كُلِّ بابٍ من أبواب الخير، مشمِّرًا لكلِّ بر وطاعة، كانت دمعته تسبق قراءته.

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ طَرَفَيِ النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَقِفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً لَا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»(١).

وبينما النبي ﷺ يجلس مع أصحابه في يوم أظنه ليس كباقي الأيام، في الحرِّ والشّدَّة والضّيق فيجري عليهم اختبارًا في فعل الطَّاعات، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ تبعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟»، قَالَ: أَبُو بَكْرٍ ﷺ: أَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»(٢).

وهذا عبد الله بن عمرو بلغ به الاجتهادُ مبلغه في العبادة، حتى خاف عليه النبي ﷺ أن تسأم نفسه، فيكون ذلك سببًا في ترك العبادة.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا عَبْدَ اللهِ لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»(٣).

فدعاه النبي ﷺ ونظَّم له سيره إلى الله ﷻ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنَ عَمْرٍو ﷺ قَالَ: «بَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ أَنِّي أَسْرُدُ الصَّوْمَ وَأُصَلِّي اللَّيْلَ، فَإِمَّا أَرْسَلَ إِلَيَّ، وَإِمَّا لَقِيتُهُ، فَقَالَ: «أَلَمْ أُخبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ وَلَا تُفْطِرُ

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٧٦). (٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٠٢٨).

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١١٥٢)، ومسلم (١١٥٩).

وَتُصَلِّي، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَظًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ وَأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَظًّا»، قَالَ: إِنِّي لَأَقْوَى لِذَلِكَ، قَالَ: «فَصُمْ صِيَامَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»، قَالَ: وَكَيْفَ؟، قَالَ: «كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا»[1].

وهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنه الذي ضرب به المثل في شِدَّة الاتباع، كان وقافًا عند أمر الله تعالى، تؤثر فيه الموعظة؛ بل وتلازمه إلى آخر رمق.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ». وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»[2].

بل نرى أن معية الله كانت لهذا الجيل محفوظة، فكان ابن عمر رضي الله عنه في أول الشباب ربما تثقل رأسه عن قيام الليل، فرأى رؤيا غيرت مجرى حياته.

عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا رَأَى رُؤْيَا قَصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَرَى رُؤْيَا فَأَقُصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكُنْتُ غُلَامًا شَابًّا، وَكُنْتُ أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي فَذَهَبَا بِي إِلَى النَّارِ، فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبِئْرِ، وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ، وَإِذَا فِيهَا أُنَاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ النَّارِ. قَالَ: فَلَقِيَنَا مَلَكٌ آخَرُ فَقَالَ لِي: لَمْ تُرَعْ». فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ، فَقَصَّتْهَا حَفْصَةُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ». فَكَانَ بَعْدُ لَا يَنَامُ مِنْ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا»[3].

وعن نافع «كان ابن عمر إذا قرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٩٧٧)، مُسْلِمٌ (١١٥٩).
(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٤١٦).
(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١١٢٢)، مُسْلِمٌ (٢٤٧٩).

﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] بكى حتى يغلبه البكاء»[1].

وقيل لنافع: «ما كان يصنع ابن عمر في منزلِه؟»، قال: «لا تطيقونه! الوضوء لكلِّ صلاةٍ، والمصحف فيما بينهما»[2].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «تلوت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] فذكرت ما أعطاني الله تعالى، فما وجدت شيئًا أحب إلي من جاريتي رضية، فقلت: هي حُرّة لوجه الله عز وجل؛ فلولا أني لا أعود في شيءٍ جعلته لله عز وجل لنكحتها؛ فأنكحها نافع فهي أمّ ولده»[3].

وهذا أبو الدرداء الذي هجر التجارة وأقبل على العبادة، وتاقت نفسه للآخرة، ونسي الدنيا حتى حُرمت زوجته مما تشتهي النساء.

عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ قَالَ: «آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا. فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ. فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ: قُمْ الْآنَ. فَصَلَّيَا فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: صَدَقَ سَلْمَانُ»[4].

وكان أبو الدَّرْدَاء رضي الله تعالى عنه يقول: «لَوْلَا ثَلَاث مَا أَحْبَبْتُ أَنْ أَعِيش يومًا واحِدًا:

- الظّمأ لله بالهواجِرِ[5].
- والسُّجُود في جوفِ الليل.

(١) «حلية الأولياء» (١/ ٣٠٥).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢١٥).
(٣) رَوَاهُ الحاكم (٣/ ٥٦١).
(٤) «رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ» (١٩٦٨).
(٥) الهواجر: مفردها الهاجِرة وهي اشتدادُ الحَرِّ نصفَ النهار.

ـ ومجالسةُ قومٍ ينتقون مِنْ خِيارِ الكَلامِ، كما ينتقى أطائب التمر»[1].

وقال أيضًا: وتمام التقوى أن يتقي الله ﷻ العبد حتى يتقيه في مثل مثقال ذرة، حتى يترك بعض ما يرى أَنَّهُ حلال خشية أن يكون حرامًا يكون حاجزًا بينه وبين الحرام، إن الله تعالى قد بين لعباده الذي هو يصيرهم إليه، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فلا تحقرن شيئًا من الشر أن تتقيه، ولا شيئًا من الخير أن تفعله»[2].

وهذه بعض صور الأتباع في الاجتهاد في الطَّاعات والمسارعة إلى الخيرات وإصلاح القلوب لسيرها لربِّ البريات؛ أسوق منها جملًا[3]، إذ النفس لا تمل من سماع ذكر وتكرار أخبارهم، فهم الذين جمعوا القرآن والإيمان، وأخلصوا في الاتباع؛ فحفظ الله ذكرهم، ونشر من أخبارهم، حتى أن البعض ينتفع بمجرد النظر إليهم دون سماع كلامهم.

قال جعفر بن سليمان: «كُنْتُ إِذَا وَجَدْتُ مِنْ قَلْبِي قَسْوَةً، غَدَوتُ فَنَظَرْتُ إِلى وَجْهِ مُحَمْدِ بْنِ وَاسِعٍ، كانَ كَأَنَّهُ ثَكْلَى»[4].

فنسأل الله أن يجعلنا من زمرتهم؛ وأن يميتنا على طريقتهم ـ اللهم آمين.

وربما يقول قائل: هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ رأوه وعاشوا في كنفه واهتدوا بهديه؛ فأسوق جملًا ممن بعدهم ممن فطنوا للطريق، وساروا على هدي من سبقهم، منهم:

سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ:

هو سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ بْنِ حَزْنِ بْنِ أَبِي وَهْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَائِذِ بْنِ

---

(١) ابن المبارك «الزهد» (٩٤).
(٢) «حلية الأولياء» (١/ ٢١٢).
(٣) وقد فصلت المقام في كتابي «العبادة واجتهاد السلف فيها» فليراجع، طبعة دار ابن رجب.
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٢٠).

عِمْرَانَ بْنِ مَخْزُومِ بْنِ يَقَظَةَ، الْإِمَامُ الْعَلَمُ، أَبُو مُحَمَّدٍ الْقُرَشِيُّ الْمَخْزُومِيُّ، عَالِمُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَسَيِّدُ التَّابِعِينَ فِي زَمَانِهِ، وَكَانَ رَحِمَهُ الله قَدْ افْتَرَشَ المسْجِدَ مَوْطِنًا، فَمَا عُهِد لَهُ مَنْهُ خُرُوج إلا ما كان مِنْ ضَرُورَةٍ.

عن عِمران بن عبد الله قال: قال سعيد بن المسيّب: «مَا أَظَلَّنِي بَيْتٌ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ مَنْزِلي؛ إِلّا أَنّي آتي ابنةً لي فَأُسَلِّمُ عَلَيْها أَحْيانًا»[1].

عن ابن حرملة، عن سعيد بن المسيب أَنَّهُ اشْتَكى عينيه، فقيل له: يا أبا محمد لو خَرَجْتَ إلى العَقِيقِ فَنَظَرْتَ إلى الخضْرَةِ، فوجدت رِيحَ البرية لنفع ذلك بَصَرَك.

فقال سعيد: «فَكَيْفَ أَصْنَعُ بِشُهُودِ العَتَمَةِ والصُّبْح».

وقَالَ أيضًا: «مَا دَخَلَ عَلَيَّ وَقْتُ صَلَاةٍ إِلّا وَقَدْ أَخَذْتُ أُهْبَتها، ولا دَخَلَ عَلَيّ قَضاءُ فَرْضٍ إِلّا وأَنَا إِلَيه مُشْتَاقٌ».

عن قتادة قال: قال سعيد بن المسيب ذات يوم: «مَا نَظَرْتُ فِي أَقْفَاءِ قَوْمٍ سَبَقُوني بالصَّلاة مُنْذُ عِشْرين سَنَةً».

عن ميمون بن مهران: «أَنَّ سَعِيد بن المسيَّب مَكَثَ أَرْبَعين سنة، لم يلق القَوْمَ قد خرجوا من المسْجِدِ وفَرَغُوا مِنْ الصَّلاة»[2].

وقال أيضًا: «بَلَغَنِي أَنَّ سَعِيد بْنَ المسيّب بَقِي أربعين سنة لم يأتِ المسجِدَ فَيَجِد أَهْلَهُ قَدْ اسْتَقْبَلُوه خارِجين مِنْ الصَّلاة»[3].

أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ:

أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ الدَّارَانِيُّ، سَيِّدُ التَّابِعِينَ وَزَاهِدُ الْعَصْرِ، اسْمُهُ عَلَى الْأَصَحِّ: عَبْدُ اللهِ بْنُ ثَوْبٍ، قَدِمَ مِنَ الْيَمَنِ، وَقَدْ أَسْلَمَ فِي أَيَّامِ النَّبِيِّ ﷺ فَدَخَلَ الْمَدِينَةَ فِي خِلَافَةِ الصِّدِّيقِ.

(١) «طبقات ابن سعد» (٥/ ١٣١).

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (٢/ ١٦٢ ـ ١٦٣).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٢٤).

عن علقمة بن مرثد، قال: «انتهى الزّهْدُ إلى ثمانيةٍ من التّابعين منهم أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ، وكان لا يجالس أحدًا قط، ولا يتكلم في شيءٍ من أمر الدنيا إلا تحول عنه، فدخل ذات يوم المسجد فنظر إلى نفر قد اجتمعوا، فَرَجَا أن يكونوا على ذِكْرِ خيرٍ؛ فجلس إليهم، فإذا بعضهم يقول: قَدِم غُلامي فأصاب كذا وكذا.

وقال آخر: جهَّزْتُ غُلامِي.

فنظر إليهم، فقال: «سُبْحَان الله أتدرون ما مَثَلِي ومثلكم؟ كَرَجُلٍ أصابه مطرٌ غزيرٌ وابلٌ فالتفت فإذا هو بمصراعين عظيمين، فقال: لو دَخَلْتُ هذا البيت حتى يذهب عني هذا المطر، فدخل فإذا البيت لا سقف له! جلست إليكم وأنا أرجو أن تكونوا على ذكرٍ وخيرٍ فإذا أنتم أصْحَابُ الدُّنيا».

عن عثمان بن أبي العاتكة قال: «كان من أمرِ أبي مسلم الخولاني أَنْ عَلَّقَ سَوطًا في مَسْجِدِه ويقول: «أَنَا أَوْلى بالسَّوطِ من الدواب».

فإذا دخلته فترة مَشَقَ سَاقَهُ سَوْطًا أو سَوْطَين[(١)].

وكان يقول: «لو رأيتُ الجنة عيانًا ما كان عندي مُسْتَزاد، ولو رأيتُ النار عيانًا ما كان عندي مُسْتَزاد»[(٢)].

وَكان أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ قَدْ عَلَّقَ سَوْطًا في مَسْجِدِ بيته يخوِّف به نفسه، وَكان يقول لنفسه: «قُومِي فوالله لأَزْحَفَنَّ بِكِ زَحْفًا حتَّى يكون الكَلَلُ مِنْكِ لا مِنِّي».

فإذا دَخَلَتِ الفترةُ تناولَ سوْطَهُ وَضَرَبَ بِهِ سَاقه، وَيقول: «أَنْتِ أَوْلَى بالضَّرْبِ مِنْ دَابَّتي».

وَكان يقول: «أيظن أصْحابُ محمد ﷺ أن يستأثروا به دُوننا، كَلَّا وَالله لنزاحمهم عليه زِحَامًا، حَتَّى يعلموا أنهم قد خَلَّفُوا وَرَاءَهم رِجَالًا».

---

(١) والمشْق: الطعن الخفيف السريع. «لسان العرب» باب: «مشق».

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (٢/ ١٢٣ ـ ١٢٧).

قال عثمان بن أبي العاتكة: «عَلَّق أبو مُسْلِم سَوْطًا في المسجِدِ، فكان يقول: «أنا أَوْلَى بالسَّوط مِنْ البَهائِم»، فإذا فَتَر، مَشَقَ سَاقَيْهِ سَوطًا أو سَوْطِين».

عن عطية بن قيس، قال: «دَخَلَ ناسٌ مِنْ أَهْلِ دِمَشْق على أبي مسلم وهو غَازٍ في أرضِ الرُّوم، وقد احتفر جورة في فسطاطه، وجعل فيها نطعًا وأفرغ فيه الماء وهو يتصلق فيه[1]، فقالوا: ما حملك على الصيام وأنت مسافر؟ قال: «لَو حَضَرَ قِتَالٌ لأفطَرْتُ، ولتهيأتُ له وتقويْتُ، إنّ الخيل لا تجري الغَايات وهنَّ بُدْن، إنما تجري وهن ضُمْر، ألا وإنّ أيامنا باقيةٌ جائيةٌ لها نعمل»»[2].

الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ:

الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمِ بْنِ عَائِذٍ، الْإِمَامُ الْقُدْوَةُ الْعَابِدُ، أَبُو يَزِيدَ الثَّوْرِيُّ الْكُوفِيُّ، أَحَدُ الْأَعْلَامِ. أَدْرَكَ زَمَانَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَرْسَلَ عَنْهُ، المخبتُ الورِعُ، المتثبتُ القنعُ، الحافظُ لسِرِّه، الضّابط لجهره، المعترف بذنبه، المفتقر إلى ربه، أبو يزيد الرّبيع بن خثيم.

جَاء ابن الكَوَّاءِ إلى الرّبيع بن خُثَيْم، قال: دُلَّنِي عَلَى مَنْ هُو خَيرٌ مِنْكَ. قال: «نَعَم مَنْ كان مَنْطِقه ذِكرًا، وصَمْته تفكرًا، وسيره تدبرًا، فهو خير مني».

عن نسير بن ذعلوق، قال: «كان الرّبيع بن خُثَيم يبكي حتى تَبُلّ لِحْيَتَهُ دُمُوعُهُ» فيقول: «أَدْرَكنا أقوامًا كنا في جنبهم لصوصًا».

قال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود: «كان الرّبيع بن خثيم إذا دَخَلَ على عبد الله بن مسعود لم يكن عليه إِذْنٌ لأحدٍ؛ حَتّى يَفْرُغَ كُلُّ واحدٍ مِنْ صَاحِبِهِ».

---

(١) تصلق: تقلب وتلوى على جنبه.

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٩ ـ ١٠).

قال: فقال عبد الله: «يا أبا يزيد لو رآك رسولُ الله ﷺ لأحبّك، وما رَأَيْتُك حَتّى رأيتُ المخبِتين».

قيل للربيعِ بن خثيم: ألا نَدْعُو لكَ طبيبًا؟ قال: أنظروني. فتفكر ثم قال: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨﴾ [الفرقان: ٣٨]، قال: فَذَكَر حِرْصَهُم على الدّنيا ورغبتهم وما كانوا، وقال: «قَدْ كانت فيهم أطباءُ وكان فيهم مَرْضَى فلا أرى المداوى بقي ولا أرى المداوي، وأهلك الناعت والمنعوت، لا حاجة لي فيه».

قال سفيان: أخبرتني سُرِّية الربيع بن خثيم، قالت: «كان عمل الربيع كله سِرًا، إن كان ليجيء الرّجل وقد نشر المصْحف فيغطيه بثوبه».

يقول الفضيل بن عياض: كان الرّبيع بن خثيم يقول في دعائه: «أشكو إليك حاجة لا يحسن بثها إلا إليك، وأستغفر منها وأتوب إليك».

عن ابن سيرين، عن الربيع بن خثيم، قال: «أقلُّوا الكلام إلا بتسع:

- تسبيح.
- وتكبير.
- وتهليل.
- وسؤالك الخير.
- وتعوذك من الشر.
- وأمرك بالمعروف.
- ونهيك عن المنكر.
- وقراءة القرآن.

عن بكرِ بن ماعز، قال: «انطلق الربيع بن خثيم وعبد الله بن مسعود إلى شاطئ الفرات فمر بالحدادين، فلما رأى تلك النيران خر مغشيًا عليه، فرجع إليه فقال: يا ربيع، فلم يجبه. فانطلق فصلى بالناس العصر ثم رجع إليه، فقال: يا ربيع يا ربيع، فلم يجبه. ثم انطلق فصلى بالنّاس المغرب ثم رجع، فقال: يا ربيع يا ربيع، فلم يجبه، حتى ضَرَبه برد السحر»[(١)].

وكان الرّبيع بعدما سَقَطَ شِقُّه يهادى بين رَجُلين إلى مَسْجِدِ قومه، وكان أصحاب عبد الله يقولون: يا أبا يزيد لقد رخّص الله لك لو صليت في بيتك.

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» (٢/١٠٦ ـ ١١٠).

فيقول: «أَنَّهُ كَمَا تقولون، ولكني سمعته ينادي «حَيّ عَلَى الفَلاح»، فَمَنْ سمعَ مِنْكم ينادى «حَيّ عَلَى الفَلاح» فليجبه ولو زحفًا، ولو حبوًا».

قال مالك بن دينار: قالت ابنة الربيع بن خثيم: «يا أبتاه إني أرى النّاس ينامون وأنت لا تنام»، قال: «يا بنية! إن أباك يخافُ البيات»[1].

عن سفيان قال: بلغنا أن أمّ الربيع بن خثيم كانت تنادي ابنها الربيع فتقول: «يا بني يا ربيع ألا تنام؟»، فيقول: «يا أمّه! من جنّ عليه الليل وهو يخاف البيات حق له أن لا ينام». قال: فلما بلغ ورأت ما يلقى من البكاء والسَّهر نادته فقالت: «يا بني لعلك قتلت قتيلًا؟»، فقال: «نعم يا والدة قد قتلت قتيلًا»، قالت: ومن هذا القتيل يا بني حتى يتحمّل على أهله فيعفون؟ والله لو يعلمون ما تلقى من البُكاءِ والسَّهر بعد؛ لقد رَحِمُوك»، فيقول: «يا والدة هِي نَفْسِي»[2].

صِلَةُ بْنُ أَشْيَم:

صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ الزَّاهِدُ، الْعَابِدُ، الْقُدْوَةُ أَبُو الصَّهْبَاءِ الْعَدَوِيُّ الْبَصْرِيُّ، زَوْجُ الْعَالِمَةِ مُعَاذَةَ الْعَدَوِيَّةِ.

عَنْ مُعَاذَة قالت: «كان أبو الصّهباء ـ صلة ابن أشيم ـ يُصَلِّي حتى ما يستطيع أن يأتي فِراشَه إلا زَحْفًا».

وقال ثابت: جاء رجل إلى صلة بنعي أخيه، فقال له: «ادن فَكُلْ، فقد نُعِي إلي أخي منذ حين، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠]».

قال ثابت البناني: كان صِلة بن أشيم يخرج إلى الجبّانة فيتعبد فيها، فكان يمر على شباب يلهون ويلعبون فقال لهم: «أخبروني عن قومٍ أرادوا سفرًا فحادوا النهار عن الطّريق وناموا بالليل متى يقطعون سفرهم؟».

---

(١) «شعب الإيمان» (١/ ٥٤٣).
(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ١١٤).

قال: فكان كذلك يمر بهم ويعظهم، فمر بهم ذات يوم فقال لهم هذه المقالة، فانتبه شابٌ منهم فقال: يا قوم إنَّهُ لا يعني بهذا غيرنا نحن بالنَّهار نلهو، وبالليل ننام، ثم اتبع صلة فلم يزل يختلف معه إلى الجبّانة[1] فيتعبد معه حتى مات.

قال ثابت البناني: إن صِلة بن أشيم كان في مغزى له ومعه ابن له، فقال: «أي بُنَيّ تَقَدَّمْ فقَاتِل حتّى أحْتَسِبك». فَحَمَلَ فَقَاتَل حَتّى قُتِل، فاجتمعت النّساء عند امرأته معاذة العدوية فقالت: «مرحبًا، إن كنتن جئتن لتهنئتي فمرحبًا بكن، وإنْ كُنْتُنّ جِئْتُن لِغَيرِ ذَلِك فَارْجِعْنَ»[2].

عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ:

عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ الْقُدْوَةُ الْوَلِيُّ الزَّاهِدُ أَبُو عَبْدِ اللهِ، وَيُقَالُ: أَبُو عَمْرٍو التَّمِيمِيُّ، الْعَنْبَرِيُّ، الْبَصْرِيُّ.

عَنِ الْحَسَنِ: «أَنَّ عَامِرًا كَانَ يَقُولُ: مَنْ أُقْرِئُ؟ فَيَأْتِيهِ نَاسٌ، فَيُقْرِئُهُمُ الْقُرْآنَ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي إِلَى الظُّهْرِ، ثُمَّ يُصَلِّي إِلَى الْعَصْرِ، ثُمَّ يُقْرِئُ النَّاسَ إِلَى الْمَغْرِبِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَيَأْكُلُ رَغِيفًا، وَيَنَامُ نَوْمَةً خَفِيفَةً، ثُمَّ يَقُومُ لِصَلَاتِهِ، ثُمَّ يَتَسَحَّرُ رَغِيفًا وَيَخْرُجُ».

قَالَ بِلَالُ بْنُ سَعْدٍ: «وُشِيَ بِعَامِرِ بْنِ عَبْدِ قَيْسٍ إِلَى زِيَادٍ، فَقَالُوا: هَاهُنَا رَجُلٌ قِيلَ لَهُ: مَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام خَيْرًا مِنْكَ فَسَكَتَ، وَقَدْ تَرَكَ النِّسَاءَ. فَكَتَبَ فِيهِ إِلَى عُثْمَانَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: انْفِهِ إِلَى الشَّامِ عَلَى قَتَبٍ. فَلَمَّا جَاءَهُ الْكِتَابُ، أَرْسَلَ إِلَى عَامِرٍ، فَقَالَ: أَنْتَ قِيلَ لَكَ: مَا إِبْرَاهِيمُ خَيْرًا مِنْكَ فَسَكَتَّ للهِ؟ قَالَ: أَمَا وَاللهِ، مَا سُكُوتِي إِلَّا تَعَجُّبٌ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي غُبَارُ قَدَمَيْهِ، قَالَ: وَتَرَكْتَ النِّسَاءَ؟

---

(١) الجَبَّانة بالتشديد الصحراء. وقيل: ما استوى من الأرض ومَلُس ولا شجر فيه. «لسان العرب».

(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٣٩).

قَالَ: وَاللهِ مَا تَرَكْتُهُنَّ إِلَّا أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ يَجِيءُ الْوَلَدُ وَتَشَعَّبُ فِيَّ الدُّنْيَا، فَأَحْبَبْتُ التَّخَلِّيَ. فَأَجْلَاهُ عَلَى قَتَبٍ إِلَى الشَّام، فَأَنْزَلَهُ مُعَاوِيَةُ مَعَهُ فِي الْخَضْرَاءِ وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِجَارِيَةٍ، وَأَمَرَهَا أَنْ تُعْلِمَهُ مَا حَالُهُ. فَكَانَ يَخْرُجُ مِنَ السَّحَرِ، فَلَا تَرَاهُ إِلَّا بَعْدَ الْعَتَمَةِ فَيَبْعَثُ مُعَاوِيَةُ إِلَيْهِ بِطَعَام، فَلَا يَعْرِضُ لَهُ، وَيَجِيءُ مَعَهُ بِكِسَرٍ، فَيَبُلُّهَا وَيَأْكُلُ، ثُمَّ يَقُومُ إِلَى أَنْ يَسْمَعَ النِّدَاءَ فَيَخْرُجُ. فَكَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عُثْمَانَ يَذْكُرُ حَالَهُ. فَكَتَبَ: اجْعَلْهُ أَوَّلَ دَاخِلٍ وَآخِرَ خَارِجٍ، وَمُرْ لَهُ بِعَشَرَةٍ مِنَ الرَّقِيقِ، وَعَشَرَةٍ مِنَ الظَّهْرِ، فَأَحْضَرَهُ وَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: إِنَّ عَلَيَّ شَيْطَانًا قَدْ غَلَبَنِي؛ فَكَيْفَ أَجْمَعُ عَلَيَّ عَشَرَةً. وَكَانَتْ لَهُ بَغْلَةٌ. وَأَخْبَرَ مَنْ رَآهُ بِأَرْضِ الرُّومِ عَلَيْهَا، يَرْكَبُهَا عُقْبَةً، وَيَحْمِلُ الْمُهَاجِرِينَ عُقْبَةً».

قَالَ بِلَالٌ: «كَانَ إِذَا فَصَلَ غَازِيًا يَتَوَسَّمُ مَنْ يُرَافِقُهُ، فَإِذَا رَأَى رُفْقَةً تُعْجِبُهُ، اشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْدِمَهُمْ، وَأَنْ يُؤَذِّنَ، وَأَنْ يُنْفِقَ عَلَيْهِمْ طَاقَتَهُ».

عَنْ أَبِي الْحُسَيْنِ الْمُجَاشِعِيِّ، قَالَ: «قِيلَ لِعَامِرِ بْنِ عَبْدِ قَيْسٍ: أَتُحَدِّثُ نَفْسَكَ فِي الصَّلَاةِ؟ قَالَ: «أُحَدِّثُهَا بِالْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ، وَمُنْصَرَفِي».

وَعَنْ كَعْبٍ، «أَنَّهُ رَأَى بِالشَّامِ عَامِرَ بْنَ عَبْدِ قَيْسٍ، فَقَالَ: «هَذَا رَاهِبُ هَذِهِ الْأُمَّةِ».

قَالَ أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ: «قِيلَ لِعَامِرِ بْنِ عَبْدِ قَيْسٍ: إِنَّكَ تَبِيتُ خَارِجًا، أَمَا تَخَافُ الْأَسَدَ!؟ قَالَ: «إِنِّي لَأَسْتَحْيِي مِنْ رَبِّي أَنْ أَخَافَ شَيْئًا دُونَهُ».

عَنْ أَبِي قِلَابَةَ: «لَقِيَ رَجُلٌ عَامِرَ بْنَ عَبْدِ قَيْسٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]؟ قَالَ: أَفَلَمْ يَقُلِ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]».

وَقِيلَ: «كَانَ عَامِرٌ لَا يَزَالُ يُصَلِّي مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى الْعَصْرِ، فَيَنْصَرِفُ وَقَدِ انْتَفَخَتْ سَاقَاهُ فَيَقُولُ: «يَا أَمَّارَةً بِالسُّوءِ؛ إِنَّمَا خُلِقْتِ لِلْعِبَادَةِ».

«وَهَبَطَ وَادِيًا بِهِ عَابِدٌ حَبَشِيٌّ، فَانْفَرَدَ يُصَلِّي فِي نَاحِيَةٍ، وَالْحَبَشِيُّ فِي نَاحِيَةٍ، أَرْبَعِينَ يَوْمًا لَا يَجْتَمِعَانِ إِلَّا فِي فَرِيضَةٍ».

وعن مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ، «أَنَّ عَامِرَ بْنَ عَبْدِ قَيْسٍ بَعَثَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْبَصْرَةِ: مَا لَكَ لَا تَزَوَّجُ النِّسَاءَ؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُهُنَّ وَإِنِّي لَدَائِبٌ فِي الْخِطْبَةِ. قَالَ: وَمَا لَكَ لَا تَأْكُلُ الْجُبْنَ؟ قَالَ: إِنَّا بِأَرْضٍ فِيهَا مَجُوسٌ، فَمَا شَهِدَ مُسْلِمَانِ أَنْ لَيْسَ فِيهِ مَيْتَةٌ أَكَلْتُهُ. قَالَ: وَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَأْتِيَ الْأُمَرَاءَ؟ قَالَ: إِنْ لَدَى أَبْوَابِكُمْ طُلَّابَ الْحَاجَاتِ، فَادْعُوهُمْ وَاقْضُوا حَاجَاتِهِمْ، وَدَعُوا مَنْ لَا حَاجَةَ لَهُ إِلَيْكُمْ»(١).

قال عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ: «إلهي خَلَقْتَنِي ولم تُؤَامِرْنِي في خَلْقِي، وخَلَقْتَ مَعِي عَدوًا وَجَعَلْتَهُ يجري مِنِّي مَجْرَى الدَّمِ، وجَعَلْتَهُ يَرَانِي ولا أَرَاه، ثم قلتَ لي: «اسْتَمْسِكْ». «إلهي كيف أَسْتَمْسِكُ إن لم تمسكني، إلهي في الدّنيا الغموم والأحزان، وفي الآخرةِ العِقَاب والحساب، فأين الرّاحة والفرح؟»»(٢).

كان عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ يقول: «ما رَأَيْتُ مثلَ الجنّةِ نَامَ طَالبها، وما رَأَيْتُ مثل النّارِ نام هارِبُها».

وكان إذا جاء النهار قال: «أَذْهَبَ حَرّ النّارِ النّوم». فما ينام حتى يمسي. وإذا جاء الليل قال: «من خَافَ أدلج، وَعِنْد الصَّباحِ يحمدُ القوم السّرى»(٣).

صَفْوَانُ بْنُ سُلَيْمٍ:

صَفْوَانُ بْنُ سُلَيْمٍ الْإِمَامُ الثِّقَةُ الْحَافِظُ الْفَقِيهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ، الْقُرَشِيُّ الزُّهْرِيُّ الْمَدَنِيُّ مَوْلَى حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ.

قَالَ ابْنُ سَعْدٍ: «كَانَ ثِقَةً، كَثِيرَ الْحَدِيثِ، عَابِدًا».

وَعَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ قَالَ: «مِنَ الثِّقَاتِ، يُسْتَشْفَى بِحَدِيثِهِ، وَيَنْزِلُ الْقَطْرُ مِنَ السَّمَاءِ بِذِكْرِهِ، ثِقَةٌ مِنْ خِيَارِ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ».

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/١٧). (٢) ابن أبي الدنيا «الهم والحزن» (٩٥).
(٣) «صفة الصفوة» (٣/٢٠٥).

لقد تعقدتْ ساقاهُ من طولِ القيامِ، وَبلغ مِنَ الاجْتِهَادِ ما لَوْ قِيْلَ لَهُ: القِيَامَة غَدًا القيامة غدًا ما وَجد متزايدًا.

وكان إذا جاء الشِّتاء اضطجع على السّطح ليضُرَّ به البرد. وَإِذَا كان في الصّيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام. وَأنه مات وَهو ساجد.

وَأنه كان يقول: «اللهم إني أُحِبُّ لِقَاءَكَ فَأَحِبّ لِقَائِي».

عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ صَفْوَانُ بْنُ سُلَيْم يُصَلِّي فِي الشِّتَاءِ فِي السَّطْحِ، وَفِي الصَّيْفِ فِي بَطْنِ الْبَيْتِ، يَتَيَقَّظُ بِالْحَرِّ وَالْبَرْدِ، حَتَّى يُصْبِحَ، ثُمَّ يَقُولُ: «هَذَا الْجَهْدُ مِنْ صَفْوَانَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ». وَإِنَّهُ لَتَرِمُ رِجْلَاهُ حَتَّى يَعُودَ كَالسَّقْطِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَيَظْهَرَ فِيهِ عُرُوقٌ خُضْرٌ[1].

عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: «عَادَلَنِي[2] صَفْوَانُ بْنُ سُلَيْمٍ إِلَى مَكَّةَ، فَمَا وَضَعَ جَنْبَهُ فِي الْمَحْمَلِ حَتَّى رَجَعَ».

وَرَوَى كَثِيرُ بْنُ يَحْيَى، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «قَدِمَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْمَدِينَةَ، وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَامِلٌ عَلَيْهَا، قَالَ: فَصَلَّى بِالنَّاسِ بِالظُّهْرِ، ثُمَّ فَتَحَ بَابَ الْمَقْصُورَةِ، وَاسْتَنَدَ إِلَى الْمِحْرَابِ، وَاسْتَقْبَلَ النَّاسَ بِوَجْهِهِ، فَنَظَرَ إِلَى صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ، فَقَالَ لِعُمَرَ: مَنْ هَذَا؟ مَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ سَمْتًا مِنْهُ. قَالَ: صَفْوَانُ. قَالَ: يَا غُلَامُ كِيسٌ فِيهِ خَمْسُمِائَةِ دِينَارٍ. فَأَتَاهُ بِهِ، فَقَالَ لِخَادِمِهِ: اذْهَبْ بِهَا إِلَى ذَلِكَ الْقَائِمِ. فَأَتَى حَتَّى جَلَسَ إِلَى صَفْوَانَ وَهُوَ يُصَلِّي، ثُمَّ سَلَّمَ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا حَاجَتُكَ؟ قَالَ: يَقُولُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: اسْتَعِنْ بِهَذِهِ عَلَى زَمَانِكَ وَعِيَالِكَ. فَقَالَ صَفْوَانُ: لَسْتُ الَّذِي أُرْسِلْتَ إِلَيْهِ. قَالَ: أَلَسْتَ صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْمٍ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَإِلَيْكَ أُرْسِلْتُ. قَالَ: اذْهَبْ فَاسْتَثْبِتْ. فَوَلَّى الْغُلَامُ، وَأَخَذَ صَفْوَانُ نَعْلَيْهِ وَخَرَجَ، فَلَمْ يُرَ بِهَا حَتَّى خَرَجَ سُلَيْمَانُ مِنَ الْمَدِينَةِ».

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٦٥).

(٢) عادَلَني: زامَلني، وهو الرفيق في السَّفر الذي يعينك على أُمورك.

قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: «حجَّ صَفْوَانُ، فذَهَبْتُ بِمِنًى فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيلَ لِي: إِذَا دَخَلْتَ مَسْجِدَ الْخَيْفِ[1] فَأْتِ الْمَنَارَةَ، فَانْظُرْ أَمَامَهَا قَلِيلًا شَيْخًا، إِذَا رَأَيْتَهُ عَلِمْتَ أَنَّهُ يَخْشَى اللهَ ـ تَعَالَى ـ فَهُوَ صَفْوَانُ بْنُ سُلَيْم، فَمَا سَأَلْتُ عَنْهُ أَحَدًا حَتَّى جِئْتُ كَمَا قَالُوا، فَإِذَا أَنَا بِشَيْخٍ كَمَا رَأَيْتُهُ عَلِمْتُ أَنَّهُ يَخْشَى اللهَ، فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ؛ فَقُلْتُ: أَنْتَ صَفْوَانُ بْنُ سُلَيْمٍ؟. قَالَ: نَعَمْ».

قَالَ: «وَحجَّ صَفْوَانُ بْنُ سُلَيْمٍ وَلَيْسَ مَعَهُ إِلَّا سَبْعَةُ دَنَانِيرَ فَاشْتَرَى بِهَا بِدَنَةً، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج: ٣٦]».

عَنْ أَبِي زُهْرَةَ مَوْلَى بَنِي أُمَيَّةَ، سَمِعْتُ صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْمٍ يَقُولُ: «فِي الْمَوْتِ رَاحَةٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ شَدَائِدِ الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ ذَا غُصَصٍ وَكُرَبٍ، ثُمَّ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ»[2].

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ التَّمَّارِ قَالَ: «كَانَ صَفْوَانُ بْنُ سُلَيْمٍ يَأْتِي الْبَقِيعَ فِي الْأَيَّامِ فَيَمُرُّ بِي، فَاتَّبَعْتُهُ ذَاتَ يَوْمٍ، وَقُلْتُ: لَأَنْظُرَنَّ مَا يَصْنَعُ، فَقَنَّعَ رَأْسَهُ، وَجلَسَ إِلَى قَبْرٍ مِنْهَا، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى رَحِمْتُهُ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُ قَبْرُ بَعْضِ أَهْلِهِ.

وَمَرَّ بِي مَرَّةً أُخْرَى، فَاتَّبَعْتُهُ، فَقَعَدَ إِلَى جَنْبِ قَبْرِ غَيْرِهِ، فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ. فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِمُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ، وَقُلْتُ: إِنَّمَا ظَنَنْتُ أَنَّهُ قَبْرُ بَعْضِ أَهْلِهِ.

فَقَالَ مُحَمَّدٌ: «كُلُّهُمْ أَهْلُهُ وَإِخْوَتُهُ، إِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ يُحَرِّكُ قَلْبَهُ بِذِكْرِ الْأَمْوَاتِ كُلَّمَا عَرَضَتْ لَهُ قَسْوَةٌ».

قَالَ: «ثُمَّ جَعَلَ مُحَمَّدٌ يَمُرُّ بِي، فَيَأْتِي الْبَقِيعَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ: أَمَا نَفَعَكَ مَوْعِظَةُ صَفْوَانَ؟ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ انْتَفَعَ بِمَا أَلْقَيْتُ إِلَيْهِ مِنْهَا».

---

(١) الخَيْفُ: ما ارْتفَع عن مَجْرى السَّيل وانْحدرَ عن غِلَظِ الجبلِ. ومسجدُ مِنَى يُسَمى مَسجد الخَيْفِ لأنه في سَفْحِ جَبلها. «النهاية» (٢/ ١٩٤).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٦٦).

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: «حَلَفَ صَفْوَانُ أَلَّا يَضَعَ جَنْبَهُ بِالْأَرْضِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ. فَمَكَثَ عَلَى ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ عَامًا، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، وَاشْتَدَّ بِهِ النَّزْعُ وَالْعَلَزُ[1] وَهُوَ جَالِسٌ، فَقَالَتِ ابْنَتُهُ: يَا أَبَةِ لَوْ وَضَعْتَ جَنْبَكَ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ إِذًا مَا وَفَيْتُ للهِ بِالنَّذْرِ وَالْحَلِفِ، فَمَاتَ، وَإِنَّهُ لَجَالِسٌ»[2].

عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ:

عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ، الْإِمَامُ الرَّبَّانِيُّ أَبُو الْحَارِثِ الْأَسَدِيُّ الْمَدَنِيُّ، أَحَدُ الْعُبَّادِ، الدَّاعِي الْعَامِلُ، الخافي العَاقِلُ ابْنُ الصَّحَابِي الجليلِ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ.

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: «أَنَّ عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ اشْتَرَى نَفْسَهُ مِنَ اللهِ سِتَّ مَرَّاتٍ، يَعْنِي يَتَصَدَّقُ كُلَّ مَرَّةٍ بِدِيَتِهِ»[3].

عن مالك بن أنس قال: «رُبَّما خَرَجَ عَامِر بن عبد الله بن الزّبير مُنْصَرِفًا من العتمة من مسجِدِ رسول الله ﷺ فيعرض له الدّعاء قبل أن يصل إلى منزله فيرفع يديه، فما يزال كذلك حتى ينادي بالصُّبحِ فيرجعُ إلى المسْجِدِ يصلي الصُّبح بوضوء العتمة».

عن معن بن عيسى قال: «سمعت أن عامر بن عبد الله ربما خرج بالبدرة فيها عشرة آلاف درهم يقسمها، فما يصلي العتمة ومعه منها درهم».

عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: جئت أبي فقال: أين كنت؟ فقلت: وجدت أقوامًا ما رأيت خيرًا منهم يذكرون الله تعالى، فيرعد أحدهم حتى يغشى عليه من خشية الله تعالى فقعدت معهم. قال: لا تقعد معهم بعدها. فرأى كأنه لم يأخذ ذلك في؛ فقال: «رأيت رسول الله ﷺ يتلو القرآن، ورأيت

---

(١) القلق والكرب عند الموت. (٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٦٩).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢١٩).

أبا بكر وعمر يتلوان القرآن فلا يصيبهم هذا، أفتراهم أخشع لله تعالى من أبي بكر وعمر؟»، فرأيت أنَّ ذلك كذلك فتركتهم.

قال عامر بن عبد الله بن الزبير: «ما سألتُ الله تعالى حاجة سنة بعد موت أبي إلا له»(١).

مَسْرُوْقُ بنُ الأَجْدَعِ:

الْإِمَامُ، الْقُدْوَةُ، الْعَلَمُ، أَبُو عَائِشَةَ الْوَادِعِيُّ، الْهَمْدَانِيُّ، الْكُوفِيُّ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْخَطِيبُ: يُقَالُ: «أَنَّهُ سُرِقَ وَهُوَ صَغِيرٌ، ثُمَّ وُجِدَ فَسُمِّيَ مَسْرُوقًا. وَأَسْلَمَ أَبُوهُ الْأَجْدَعُ».

وَرَوَى أَنَسُ بْنُ سِيرِينَ، عَنِ امْرَأَةِ مَسْرُوقٍ قَالَتْ: «كَانَ مَسْرُوقٌ يُصَلِّي حَتَّى تَوَرَّمَ قَدَمَاهُ، فَرُبَّمَا جَلَسْتُ أَبْكِي مِمَّا أَرَاهُ يَصْنَعُ بِنَفْسِهِ».

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْتَشِرِ: «أَهْدَى خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُسَيْدٍ عَامِلُ الْبَصْرَةِ إِلَى عَمِّي مَسْرُوقٍ ثَلاثِينَ أَلْفًا، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُحْتَاجٌ فَلَمْ يَقْبَلْهَا».

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ السَّبِيعِيُّ: «زَوَّجَ مَسْرُوقٌ بِنْتَهُ بِالسَّائِبِ بْنِ الْأَقْرَعِ عَلَى عَشَرَةِ آلَافٍ لِنَفْسِهِ يَجْعَلُهَا فِي الْمُجَاهِدِينَ وَالْمَسَاكِينِ».

عَنْ أَبِي الضُّحَى قَالَ: «غَابَ مَسْرُوقٌ عَامِلًا عَلَى السِّلْسِلَةِ بِوَاسِطٍ سَنَتَيْنِ، ثُمَّ قَدِمَ، فَنَظَرَ أَهْلُهُ فِي خُرْجِهِ فَأَصَابُوا فَأْسًا، فَقَالُوا: غِبْتَ ثُمَّ جِئْتَنَا بِفَأْسٍ بِلَا عُودٍ، قَالَ: إِنَّا لِلهِ، اسْتَعَرْنَاهَا، نَسِينَا نَرُدُّهَا».

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، قَالَ لِي مَسْرُوقٌ: «مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُرْغَبُ فِيهِ إِلَّا أَنْ نُعَفِّرَ وُجُوهَنَا فِي التُّرَابِ، وَمَا آسَى عَلَى شَيْءٍ إِلَّا السُّجُود لِلهِ تَعَالَى».

عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْتَشِرِ، عَنْ أَبِيهِ: «أَنَّ مَسْرُوقًا كَانَ لَا يَأْخُذُ عَلَى الْقَضَاءِ أَجْرًا، وَيَتَأَوَّلُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١] الْآيَةَ».

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» (٣/١٦٦ ـ ١٦٧).

عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ: «حَجَّ مَسْرُوقٌ فَلَمْ يَنَمْ إِلَّا سَاجِدًا عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى رَجَعَ»[1].

الْأَسْوَدُ بْنُ يزيد:

الْإِمَامُ، الْقُدْوَةُ أَبُو عَمْرٍو النَّخَعِيُّ الْكُوفِيُّ، وَقِيلَ: يُكَنَّى أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَهُوَ أَخُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، وَوَالِدُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَسْوَدِ، وَابْنُ أَخِي عَلْقَمَةَ بْنِ قَيْسٍ، وَخَالُ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ. فَهَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ رُؤُوسِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَهُوَ نَظِيرُ مَسْرُوقٍ فِي الْجَلَالَةِ وَالْعِلْمِ وَالثِّقَةِ وَالسِّنِّ يُضْرَبُ بِعِبَادَتِهِمَا الْمَثَلُ.

عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: «كَانَ الْأَسْوَدُ يَخْتِمُ الْقُرْآنَ فِي رَمَضَانَ فِي كل لَيْلَتَيْنِ، وَكَانَ يَنَامُ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، وَكَانَ يَخْتِمُ الْقُرْآنَ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ فِي كل سِتِّ لَيَالٍ».

عَنْ إِبْرَاهِيمَ: «كَانَ الْأَسْوَدُ يَصُومُ حَتَّى يَسْوَدَّ لِسَانُهُ مِنَ الْحَرِّ».

قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: «كَانَ الْأَسْوَدُ إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، أَنَاخَ بِعِيرَهُ وَلَوْ عَلَى حَجَرٍ».

عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: «حَجَّ الْأَسْوَدُ ثَمَانِينَ، مِنْ بَيْنِ حَجٍّ وَعُمْرَةٍ».

قال عبد الله بن بشر: أن علقمة والأسود بن يزيد حجَّا، وكان الأسود صاحب عبادة، وصام يومًا فكان الناس بالهجير وقد تربَّد وجهه، فأتاه علقمة فضربَ على فخذه، فقال: «ألا تتقي الله يا أبا عمرو في هذا الجسد، علام تعذِّب هذا الجسد؟»، فقال الأسود: يا أبا شبل الجِدّ الجِدّ.

عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ مَرْثَدٍ قَالَ: «كَانَ الْأَسْوَدُ يَجْتَهِدُ فِي الْعِبَادَةِ، وَيَصُومُ حَتَّى يَخْضَرَّ وَيَصْفَرَّ، فَلَمَّا احْتُضِرَ بَكَى، فَقِيلَ لَهُ: «مَا هَذَا الْجَزَعُ؟»، فَقَالَ: «مَا لِي لَا أَجْزَعُ، وَاللهِ لَوْ أَتَيْتُ بِالْمَغْفِرَةِ مِنَ اللهِ لَأَهَمَّنِي الْحَيَاءُ مِنْهُ مِمَّا قَدْ صَنَعْتُ، إِنَّ

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦٥).

الرَّجُلَ لَيَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آخَرَ الذَّنْبُ الصَّغِيرُ فَيَعْفُو عَنْهُ، فَلَا يَزَالُ مُسْتَحيِيًا مِنْهُ»[1].

ثابت البناني:

الْإِمَامُ الْقُدْوَةُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو مُحَمَّدٍ الْبُنَانِيُّ، مَوْلَاهُمُ الْبَصْرِيُّ، كَانَ مِنْ أَئِمَّةِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

قَالَ أَنَسٌ: «إِنَّ لِلْخَيْرِ أَهْلًا، وَإِنَّ ثَابِتًا هَذَا مِنْ مَفَاتِيحِ الْخَيْرِ».

قَالَ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ: «قَرَأَ ثَابِتٌ: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧] وَهُوَ يُصَلِّي صَلَاةَ اللَّيْلِ يَنْتَحِبُ وَيُرَدِّدُهَا».

عن سليمان بن المغيرة، قال: سمعت ثابتًا البناني، يقول: «لا يسمى عابد أبدًا وإن كان فيه كل خصلة خير، حتى تكون فيه هاتان الخصلتان، الصوم والصلاة؛ لأنهما من لحمه ودمه».

قال: حدثنا شيبان بن جسر عن أبيه، قال: «أنا والله الذي لا إله إلا هو أدخلت ثابتًا البناني لحده ومعي حميد الطويل أو رجل غيره، فلما سوينا عليه اللبن سقطت لبنة، فإذا به يصلي في قبره، فقلت للذي معي: ألا ترى؟ قال: اسكت.

فلما سوينا عليه وفرغنا أتينا ابنته فقلنا لها: ما كان عمل أبيك ثابت؟.

فقالت: وما رأيتم؟ فأخبرناها فقالت: كان يقوم الليل خمسين سنة فإذا كان السّحر، قال في دعائه: «اللهم إن كنت أعطيت أحدًا من خلقك الصّلاة في قبره فأعطنيها»، فما كان الله ليرد ذلك الدعاء.

قال ثابت البناني: «كابدت الصّلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة».

قال شعبة: «كان ثابت البناني يقرأ القرآن في يوم وليلة، ويصوم الدهر».

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٢).

قال جعفر بن سليمان: سمعت ثابتًا البناني، يقول: «ما تركت في مسجدِ الجامع سارية إلا وقد ختمت القرآن عندها وبكيت عندها».

قال حرمي: «استعان رجل بثابت البناني على القاضي في حاجة، فجعل لا يمر بمسجد إلا نزل فصلى حتى انتهى إلى القاضي وقد ختمت القماطر[1]، فكلَّمه في حاجة رجل فقضاها؛ فأقبل ثابت على الرجل، فقال: لعله شق عليك ما رأيت. قال: نعم، قال: ما صليت صلاة إلا طلبت إلى الله تعالى في حاجتك».

عن جعفر بن سليمان، قال: «بكى ثابت حتى كادت عينه تذهب فجاؤوا برجل يعالجها، فقال: أعالجها على أن تطيعني»، قال: وأي شيء؟ قال: على ألا تبكي. قال: «فما خيرهما إن لم تبكيا». وأبى أن يتعالج.

قالت جميلة مولاة أنس: «كان ثابت إذا جاء قال أنس: يا جميلة ناوليني طيبًا أمس به يدي، فإن ابن أم ثابت لا يرضى حتى يقبل يدي، ويقول: قد مسَّت يد الرسول ﷺ»[2].

أَيُّوب السَّخْتِيَانِيُّ:

الْإِمَامُ الْحَافِظُ، سَيِّدُ الْعُلَمَاءِ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي تَمِيمَةَ كَيْسَانَ، الْعَنَزِيُّ.

قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ مُحَمَّدٍ: سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُولُ: «كُنَّا نَدْخُلُ عَلَى أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ، فَإِذَا ذَكَرْنَا لَهُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَكَى حَتَّى نَرْحَمَهُ».

وَعَنْ سَلَّامٍ، قَالَ: «كَانَ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ، يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ، فَيُخْفِي ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ، رَفَعَ صَوْتَهُ، كَأَنَّهُ قَامَ تِلْكَ السَّاعَةَ».

قَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ: «مَا رَأَيْتُ رَجُلًا قَطُّ أَشَدَّ تَبَسُّمًا فِي وُجُوهِ الرِّجَالِ مِنْ أَيُّوبَ».

---

(١) أي: انفض القاضي من حاجات الناس، وغلق باب الطلب.

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (٢/٣١٨ ـ ٣٢٣).

قَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ: رَأَيْتُ أَيُّوبَ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَقَالَ: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي مِنَ الشِّرك، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَبُو تَمِيمَةَ - يعني أباه -».

عَنْ أَيُّوبَ قَالَ: «أَدْرَكْتُ النّاسَ هَاهُنَا وَكَلَامُهُمْ: إِنْ قُضِيَ وَإِنْ قُدِّرَ».

وَكَانَ يَقُولُ: «لِيَتَّقِ اللهَ رَجُلٌ: فَإِنْ زَهَدَ، فَلَا يَجْعَلَنَّ زُهْدَهُ عَذَابًا عَلَى النّاس، فَلَأَنْ يُخْفِي الرَّجُلُ زُهْدَهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُعْلِنَهُ».

وَ«كَانَ أَيُّوبُ مِمَّنْ يُخْفِي زُهْدَهُ، دَخَلْنَا عَلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ عَلَى فِرَاشٍ مُخَمَّسٍ أَحْمَرَ، فَرَفَعْتُهُ، أَوْ رَفَعَهُ بَعْضُ أَصْحَابِنَا، فَإِذَا خَصَفَةٌ مَحْشُوَّةٌ بِلِيفٍ».

عَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: «كَانَ أَيُّوبُ فِي مَجْلِسٍ، فَجَاءَتْهُ عَبْرَةٌ، فَجَعَلَ يَمْتَخِطُ وَيَقُولُ: مَا أَشَدَّ الزُّكَامَ».

قَالَ شُعْبَةُ: «مَا وَاعَدْتُ أَيُّوبَ مَوْعِدًا قَطُّ، إِلَّا قَالَ حِينَ يُفَارِقُنِي: لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مَوْعِدٌ، فَإِذَا جِئْتُ، وَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي».

عَنِ ابْنِ شَوْذَبٍ، قَالَ: «كَانَ أَيُّوبُ يَؤُمُّ أَهْلَ مَسْجِدِهِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَيُصَلِّي بِهِمْ فِي الرَّكْعَةِ قَدْرَ ثَلَاثِينَ آيَةً، وَيُصَلِّي لِنَفْسِهِ فِيمَا بَيْنَ التَّرْوِيحَتَيْنِ بِقَدْرِ ثَلَاثِينَ آيَةً. وَكَانَ يَقُولُ هُوَ بِنَفْسِهِ لِلنَّاسِ: الصَّلاة، وَيُوتِرُ بِهِمْ، وَيَدْعُو بِدُعَاءِ الْقُرْآنِ، وَيُؤَمِّنُ مَنْ خَلْفَهُ، وَآخِرُ ذَلِكَ، يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اسْتَعْمِلْنَا بِسُنَّتِهِ، وَأَوْزِعْنَا بِهَدْيِهِ، وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا»، ثُمَّ يَسْجُدُ. وَإِذَا فَرَغَ مِنَ الصَّلاة دَعَا بِدَعَوَاتٍ.

قَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ: «أَيُّوبُ عِنْدِي أَفْضَلُ مَنْ جَالَسْتُهُ، وَأَشَدُّهُ اتِّبَاعًا لِلسُّنَّةِ»(١).

قال عبيد الله بن شميط: سمعت أيوب السَّختياني وهو يقول: «لا يسود العبد حتَّى يكون فيه خصلتان: اليأس مما في أيدي الناس، والتغافل عما يكون منهم».

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٧ ـ ٢٠).

قال حماد بن زيد: «كان أيوب صديقًا ليزيد بن الوليد فلما ولي الخلافة، قال: اللهم أنسه ذِكْري».

قال: حدثنا حماد بن زيد، قال: «سئل أيوب، عن شيء، فقال: لم يبلغني فيه شيء. فقيل له: قل فيه برأيك، فقال: لا يبلغه رأيي».

قال بشر بن منصور: «كنا عند أيوب فغلطنا وتكلمنا، فقال لنا: كفوا، لو أردت أن أخبركم بكل شيء تكلمت به اليوم لفعلت».

قال حماد: «رأيت أيوب لا ينصرف من سوقه إلا معه شيء يحمله لعياله، حتى رأيت قارورة الدُّهن بيده يحملها، فقلت له في ذلك، فقال: إني سمعت الحسن يقول: «إنّ المؤمنَ أَخَذَ عَنْ الله ﷻ أدبًا حسنًا، فإذا أَوْسَع عَلِيه أَوْسَعَ، وإذا أَمْسَك عليه أمسك».

عن سلام بن أبي مطيع، قال: قال رجل من أهل الأهواء: أكلمك. قال: «لا، ولا نصف كلمة».

قال حماد بن زيد: «قال لي أيوب: الزم سوقك فإنك لا تزال كريمًا على إخوانك ما لم تحتج إليهم»[1].

سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ:

سُلَيْمَانُ بْنُ طَرْخَانَ الْإِمَامُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو الْمُعْتَمِرِ التَّيْمِيُّ الْبَصْرِيُّ، كَانَ مُقَدَّمًا فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ: «مِنَ الْعُبَّادِ الْمُجْتَهِدِينَ، كَثِيرُ الْحَدِيثِ، ثِقَةٌ، يُصَلِّي اللَّيْلَ كُلَّهُ بِوُضُوءِ عِشَاءِ الْآخِرَةِ، وَكَانَ هُوَ وَابْنُهُ يَدُورَانِ بِاللَّيْلِ فِي الْمَسَاجِدِ، فَيُصَلِّيَانِ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ مَرَّةً، وَفِي هَذَا الْمَسْجِدِ مَرَّةً، حَتَّى يُصْبِحَا».

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى: قَالَ لِي مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ: «لَوْلَا أَنَّكَ مِنْ أَهْلِي مَا حَدَّثْتُكَ بِذَا عَنْ أَبِي. مَكَثَ أَبِي أَرْبَعِينَ سَنَةً يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا،

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» (٣/ ٥ ـ ١٢).

وَيُصَلِّي صَلاةَ الْفَجْرِ بِوُضُوءِ عِشَاءِ الآخِرَةِ»(1).

قَالَ سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ: «لَوْ أَخَذْتَ بِرُخْصَةِ كُلِّ عَالِمٍ اجْتَمَعَ فِيكَ الشَّرُّ كُلُّهُ».

عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ قَالَ: «مَا أَتَيْنَا سُلَيْمَانَ التَّيْمِيَّ فِي سَاعَةٍ يُطَاعُ اللهُ ﷻ فِيهَا إِلَّا وَجَدْنَاهُ مُطِيعًا، إن كان في ساعة صلاة وجدناه مصليًا، وإن لم تكن ساعة صلاة وجدناه متوضئًا، أو عائدًا مريضًا، أو مشيعًا لجنازة، أو قاعدًا في المسجد، قال: فَكُنَّا نَرَى أَنَّهُ لَا يُحْسِنُ يَعْصِي اللهَ ﷻ».

قال سفيان الثوري: «كانت الخشبية قد أفسدوني حتى استنقذني الله تعالى بأربعة لم أر مثلهم: أيوب السختياني، ويونس بن يزيد، وعبد الله بن عون، وسُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ. الذي يرون أَنَّهُ لَا يُحْسِنُ يَعْصِي اللهَ ﷻ».

عن معمر مؤذن التيمي، قال: «صلى إلى جنبي سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ بعد العشاء الآخرة وسمعته يقرأ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، قال: فلمّا أتى على هذه الآية: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧]، جعل يرددها حتى خَفّ أهل المسجد فانصرفوا، قال: فخرجت وتركته.

قال: وغدوت لأذان الفجر فنظرت فإذا هو مقامه، قال: فسمعت فإذا هو فيها لم يجزها، وهو يقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧].

عن فضيل بن عياض، قال: قيل لِسُلَيْمَانَ التَّيْمِيِّ: أنت أنت ومن مثلك؟ قال: «لا تقولوا هكذا، لا أدري ما يبدو لي من ربي ﷻ، سمعت الله ﷻ يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]».

قال سعيد بن عامر: «مَرِض سُلَيْمَان التَّيْمِيُّ فبكى في مرضه بكاءً شديدًا، فقيل له: ما يبكيك؟ أتجزع من الموت؟ قال: «لا، ولكن مررت على قدري فسلمت عليه فأخاف أن يحاسبني ربي ﷻ عليه»».

---

(1) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٩٨).

خلافٍ مربوع قصير، لو أن غلامًا وثب سقط إلى الدار، وجاء صديق له، فقال: يَا أَبَا سُلَيْمَانَ، لو أعطيتني هذه فبعتها لك، لعلنا نستفضل لك فيها شيئًا تنتفع به، فما زال به حتى دفعها إليه ثم فكر فيها فلقيه بعد العشاء الآخرة فقال: ارددها علي. قال: ولم يا أخي؟ قال: «أخاف أن يدخل فيها شيء غير طيب»، فأخذها.

عن ابن السّماك قال: كلمت داود الطائي، قلت: لو جالست الناس، قال: «إنما أنت بين اثنين: بين صَغِيرٍ لا يوقِّرُك، وبين كبيرٍ يحصي عليك عُيوبك».

قال إسماعيل بن الريان: قالت داية داود الطائي: يَا أَبَا سُلَيْمَانَ أما تشتهي الخبز؟.

قال: «يا داية بين مضْغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية»(١).

كَهْمَسُ بْنُ الْحَسَنِ:

هو: كَهْمَسُ بْنُ الْحَسَنِ التَّمِيمِيُّ، الْحَنَفِيُّ، الْبَصْرِيُّ، الْعَابِدُ أَبُو الْحَسَنِ، مِنْ كِبَارِ الثِّقَاتِ، وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ بَرًّا بِأُمِّهِ، فَلَمَّا مَاتَتْ حَجَّ وَأَقَامَ بِمَكَّةَ حَتَّى مَاتَ.

كَانَ كَهْمَسٌ يُصَلِّي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَ رَكْعَةٍ، فَإِذَا مَلَّ، قَالَ: «قُومِي يَا مَأْوَى كل سُوءٍ، فَوَاللهِ مَا رَضِيتُكِ للهِ سَاعَةً».

وَقِيلَ: «إِنْ كَهْمَسًا سَقَطَ مِنْهُ دِينَارٌ فَفَتَّشَ، فَلَقِيَهُ فَلَمْ يَأْخُذْهُ، وَقَالَ: لَعَلَّهُ غَيْرُهُ».

قَالَ أَبُو عَطَاءٍ الرَّمْلِيُّ: كَانَ كَهْمَسٌ يَقُولُ فِي اللَّيْلِ: «أَتُرَاكَ مُعَذِّبِي وَأَنْتَ قُرَّةُ عَيْنِي، يَا حَبِيبَ قَلْبَاهُ!».

وَقِيلَ: أَنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ عَقْرَبٍ، فَدَخَلَتْ فِي جُحْرٍ فَأَدْخَلَ أَصَابِعَهُ خَلْفَهَا فَضَرَبَتْهُ. فَقِيلَ لَهُ، قَالَ: «خِفْتُ أَنْ تَخْرُجَ فَتَجِيءَ إِلَى أُمِّي تَلْدَغُهَا»(٢).

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» (٧/ ٣٤٤ ـ ٣٥٠). (٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣١٧).

فإني أُحِبّ أن أتعلمه؟ قال: «إن الرّمي لحسن، ولكن هي أيامك فانظر بم تقطعها».

عن سعيد الطّحان، قال: «كان داود شَديد الانقباضِ يعالج نفسه بالصّمت، وكان قبل ذلك كثير الكلام، وكانت معالجته نفسه في ترك الكلام، فأخرجته تلك المعالجة إلى التفكر، فبالتفكر ملك نفسه، ولقد جئته يومًا في وقت الصّلاة فانتظرته حتى خرج فمشيت معه والمسجد منه قريب، فسلك به غير طريقه، فقلت: أين تريد؟ فسلك بي سككًا خالية حتى خرج على المسجد، فقلت: الطّريق ثمة أقرب عليك. فقال: «يا سعيد فرّ من الناسِ فرارك من السّبع، إنَّهُ ما خالط الناس أحد إلا نسي العهد»[1].

عن محمد بن الحسن قال: أتيت داود الطائي لأسلم عليه فأذن لي فقعدت على باب الحجرة فقلت: أنت وحدك ههنا رحمك الله.

قال: «رحمك الله وهل الأنس اليوم إلا في الوحدة والانفراد؟ إما يتجمل لك أو متجمل له؛ ففي أي ذلك خير؟».

عن عبد الله بن إدريس قال: قلت لداود الطّائي: أوصني، قال: «أقلل معرفة الناس».

قلت: زدني. قال: «ارضَ باليسير من الدّنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدُّنيا بالدنيا مع فساد الدّين». قلت: زدني، قال: «اجعل الدنيا كيوم صمته ثم افطر على الموت».

قال حفص بن عمر الجعفي: «كان داود الطّائي قد ورث عن أمّه أربعمائة درهم، فمكث يتقوتها ثلاثين عامًا، فلما نفدت جعل ينقض سقوف الدويرة فيبيعها حتى باع الخشب والبواري واللبن حتى بقي في نصف سقف، وكان حائطُ دارهِ من هذا اللبن العرزمي الذي يجعل منه الكناسات، وبابُ

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» (٧/ ٣٣٦ ـ ٣٤٢).

خلافٍ مربوع قصير، لو أن غلامًا وثب سقط إلى الدار، وجاء صديق له، فقال: يَا أَبَا سُلَيْمَانَ، لو أعطيتني هذه فبعتها لك، لعلنا نستفضل لك فيها شيئًا تنتفع به، فما زال به حتى دفعها إليه ثم فكر فيها فلقيه بعد العشاء الآخرة فقال: ارددها علي. قال: ولم يا أخي؟ قال: «أخاف أن يدخل فيها شيء غير طيب»، فأخذها.

عن ابن السّماك قال: كلمت داود الطائي، قلت: لو جالست الناس، قال: «إنما أنت بين اثنين: بين صَغِيرٍ لا يوقِّرُك، وبين كبيرٍ يحصي عليك عُيوبك».

قال إسماعيل بن الريان: قالت داية داود الطائي: يَا أَبَا سُلَيْمَانَ أما تشتهي الخبز؟.

قال: «يا داية بين مضْغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية»[1].

كَهْمَسُ بْنُ الْحَسَنِ:

هو: كَهْمَسُ بْنُ الْحَسَنِ التَّمِيمِيُّ، الْحَنَفِيُّ، الْبَصْرِيُّ، الْعَابِدُ أَبُو الْحَسَنِ، مِنْ كِبَارِ الثِّقَاتِ، وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ بَرًّا بِأُمِّهِ، فَلَمَّا مَاتَتْ حَجَّ وَأَقَامَ بِمَكَّةَ حَتَّى مَاتَ.

كَانَ كَهْمَسٌ يُصَلِّي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَ رَكْعَةٍ، فَإِذَا مَلَّ، قَالَ: «قُومِي يَا مَأْوَى كل سُوءٍ، فَوَاللهِ مَا رَضِيتُكِ للهِ سَاعَةً».

وَقِيلَ: «إِنْ كَهْمَسًا سَقَطَ مِنْهُ دِينَارٌ فَفَتَّشَ، فَلَقِيَهُ فَلَمْ يَأْخُذْهُ، وَقَالَ: لَعَلَّهُ غَيْرُهُ».

قَالَ أَبُو عَطَاءٍ الرَّمْلِيُّ: كَانَ كَهْمَسٌ يَقُولُ فِي اللَّيْلِ: «أَتُرَاكَ مُعَذِّبِي وَأَنْتَ قُرَّةُ عَيْنِي، يَا حَبِيبَ قَلْبَاهُ!».

وَقِيلَ: أَنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ عَقْرَبٍ، فَدَخَلَتْ فِي جُحْرٍ فَأَدْخَلَ أَصَابِعَهُ خَلْفَهَا فَضَرَبَتْهُ. فَقِيلَ لَهُ، قَالَ: «خِفْتُ أَنْ تَخْرُجَ فَتَجِيءَ إِلَى أُمِّي تَلْدَغُهَا»[2].

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» (٧/ ٣٤٤ـ ٣٥٠). (٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣١٧).

سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ:

سُفْيَانُ بْنُ سَعِيد بْنِ مَسْرُوقٍ الثَّوْرِيُّ ـ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْحَدِيثِ ـ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ، إِمَامُ الْحُفَّاظِ، سَيِّدُ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ فِي زَمَانِهِ، أَبُو عَبْدِ اللهِ الثَّوْرِيُّ.

لقد ضُرب بسفيان المثل في العبادة، حتى ترأس على أهل زمانه ـ رحمه الله تعالى. فلقد كان عابدًا متنسكًا، قائمًا بأمر الله، لا يعيقه عائق، ولا يخشى في الله لومة لائم.

قال مؤمل بن إسماعيل: «قَدِم سفيان مكة فكان يصلي الغداة ويجلس يذكر الله حتى ترتفع الشمس، ثم يطوف سبعة أسابع ـ أشواط ـ يصلي بعد سبوعٍ ركعتين يطولهما، ثم يصلي إلى نصف النهار، ثم ينصرف إلى البيت، فيأخذ المصحف فيقرأ، فربما نام كذلك، ثم يخرج لنداء الظهر، ثم يتطوع إلى العصر، فإذا صلى العصر أتاه أصحاب الحديث فاشتغل معهم إلى المغرب، فيصلي ثم ينتقل إلى العشاء؛ فإذا صلى فربما يقرأ ثم ينام»[1].

قَالَ قَبِيصَةُ: «مَا جَلَسْتُ مَعَ سُفْيَانَ مَجْلِسًا، إِلَّا ذَكَرتُ المَوْتَ، مَا رَأَيتُ أَحَدًا كَانَ أَكْثَرَ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ مِنْهُ»[2].

وعن ابن مهدي قال: «بَاتَ سُفْيَانُ عِنْدِي، فَجَعَلَ يَبْكِي. فَقِيْلَ لَهُ: بُكَاؤُك هَذَا خَوْفًا مِنْ الذُّنُوبِ؟»، فَقَالَ: «لَذُنُوبِي عِنْدِي أَهْوَنُ مِنْ ذَا ـ وَرَفَعَ شَيْئًا مِنَ الأَرْضِ ـ إِنِّي أَخَافُ أَنْ أُسْلَبَ الإِيْمَانَ قَبْلَ أَنْ أَمُوْتَ»[3].

وكان رَحِمَهُ اللهُ كثيرَ التأمل، دائمَ التفكر، وربما يطول به ذلك مما لا يطاق.

فعن يوسف بن أسباط، قال: قال لي سفيان بعد العشاء: «نَاولني المطْهَرة أتوضأ، فناولته فأخذها بيمينه، ووضع يساره على خدِّه، فبقي مفكرًا ونمت، ثم قمت وقت الفجر، فإذا المطهرة في يده كما هي، فقلت: هذا الفجر قد طلع.

---

(١) «تاريخ الإسلام» للذهبي (٤/ ٥٥٧).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٤١).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٥٩).

فقال: لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكر في الآخرة حتى الساعة.

وربما يجلس رحمه الله تعالى مع أصحابه من أهل الحديث، لا يتكلم بشيء فلا يملُّونه، ولا يتركونه؛ بل يجلسون معه. إن تكلم وإلا لزموا معه الصمت.

قال قبيصة: «كنا نأتي سفيان بعد العصر، لا يتكلم بشيء حتى يمسي، ولقد أتيته ذات يوم فرأيت باب المسجد مردودًا، وظننت أَنَّهُ ليس في المسجد أحد، فلما دخلت المسجد فإذا المسجد غاصٌّ بأهله، وهم سكوت؛ وسفيان ساكت لا يتكلم»[1].

وكان دائم الاهتمام بتربية النفس وسوقها إلى الخوف الملازم حتى تعينه على فعل الطاعات وتحمله.

كان رجلًا يتبع سفيان الثوري، فيجده أبدًا يُخْرِجُ من جيبه رقعة ينظر فيها، فأحب أن يعلم ما فيها، فوقعت في يده الرقعة، فإذا فيها مكتوب: «سفيان! اذكر وقوفك بين يدي الله ﷻ»[2].

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: ربما كنا مع سفيان، فيقول: «النَّهار يذهب، ونحن بلا عمل، ثم يقوم فزِعًا، فما نراه يومنا»[3].

وعن أبي زُبَيْد عَبْثَر قال: «قرأ سفيان ليلة: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]، فخرج فارًّا على وجهه حتى لحقوه»[4].

واجتمعت بنو ثور على سفيان وهو شاب، يناشدونه مما كان فيه من العبادة ـ أي أقصر عن هذا، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ قد لازم هذا الأمر، وبقي عليه حتى مات. حتى أننا نسمع من أمره العجب.

(١) انظر: «مقدمة الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٩٠ ـ ٩٨).
(٢) أبو نعيم «الحلية» (٧/ ٥).
(٣) ابن أبي حاتم «مقدمة الجرح والتعديل» (٩٤).
(٤) أبو نعيم «الحلية» (٧/ ٦٠).

فعن مزاحم بن زفر قال: «صلى بنا سفيان الثوري المغرب؛ فقرأ حتى بلغ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] بكى حتى انقطعت قراءته، ثم عاد فقرأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾»(١).

وَ«صلى سفيان الثوري الغداة، فقرأ سورة من المفصَّل، فسقط مغشيًا عليه، فَنُحِّيَ من المسجد ثم تمت الصلاة، ثم رجعوا إليه وهو على حاله لم يفق، فحمل إلى منزله ولا يدري أحد متى أفاق»(٢).

قال يوسف بن أسباط: «كان سفيان إذا أخذ في ذكر الآخرة يبول الدّم».

وعن أبي خالد قال: «صحبت سفيان في طريق مكة، فكان يقرأ في المصحف كُلَّ يومٍ، فإذا لم يقرأ فيه فتحه فنظر فيه وأطبقه»(٣).

قال عبد الرحمن بن مهدي: «ما عاشرت في النَّاسِ رجلًا هو أرق من سفيان. كنت أرمقه الليلة بعد الليلة، فما كان ينام إلا في أول الليل، ثم ينتفض فزعًا مرْعُوبًا، ينادي: «النار! شغلني ذكر النار عن النوم والشَّهوات»، كأنه يخاطب رجلًا في البيت، ثم يدعو بماء إلى جانبه فيتوضأ، ثم يقول على إثر وضوئه: «اللهم إنك عَالِمٌ بحاجتي غير مُعلم بما أطلب؛ وما أطلب إلا فِكاكَ رقبتي من النار، اللهم إن الجزع قد أرقني من الخوف فلم يُؤَمِّنّي، وكل هذا من نعمتك السّابغة علي، وكذلك فعلتَ بأوليائك وأهل طاعتك، إلهي قد علمت أن لو كان لي عذر في التخلي ما أقمت مع الناس طرفة عين». ثم يقبل على صلاته، وكان البكاءُ يمنعه من القراءة حتى أني كنت لا أستطيع سماع قراءته من كثرةِ بكائه».

قال ابن مهدي: «وما كنت أقدر أن أنظر إليه استحياء وهيبة منه»(٤).

---

(١) أبو نعيم «الحلية» (٧/ ١٧).
(٢) ابن الجعد «المسند» (١٧٧٢).
(٣) ابن أبي حاتم «مقدمة الجرح والتعديل» (٨٦).
(٤) الخطيب «تاريخ بغداد» (٩/ ١٥٧)

عُتْبَةُ الْغُلَامُ ابْنُ أَبَانَ الْبَصْرِيُّ:

الزَّاهِدُ، الْخَاشِعُ، الْخَائِفُ عُتْبَةُ بْنُ أَبَانَ الْبَصْرِيُّ. كَانَ يُشَبَّهُ فِي حُزْنِهِ بِالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ.

قَالَ رِيَاحُ الْقَيْسِيُّ: «بَاتَ عُتْبَةُ عِنْدِي، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «اللَّهُمَّ احْشُرْ عُتْبَةَ مِنْ حَوَاصِلِ الطَّيْرِ وَبُطُونِ السِّبَاعِ»».

وَقَالَ مَخْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ: «جَاءَنَا عُتْبَةُ الْغُلَامُ غَازِيًا، وَقَالَ: رَأَيْتُ أَنِّي آتِي الْمَصِّيصَةَ فِي النَّوْمِ، وَأَغْزُو فَأُسْتَشْهَدُ. قَالَ: فَأَعْطَاهُ رِجْلٌ فَرَسَهُ وَسِلَاحَهُ، وَقَالَ: إِنِّي عَلِيلٌ، فَاغْزُ عَنِّي. فَلَقُوا الرُّومَ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنِ اسْتُشْهِدَ».

قَالَ سَلَمَةُ الْفَرَّاءُ: «كَانَ عُتْبَةُ الْغُلَامُ مِنْ نُسَّاكِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، يَصُومُ الدَّهْرَ، وَيَأْوِي السَّوَاحِلَ وَالْجَبَّانَةَ».

قَالَ أَبُو عُمَرَ الْبَصْرِيُّ: «كَانَ رَأْسُ مَالِ عُتْبَةَ فِلْسًا، يَشْتَرِي بِهِ خُوصًا يَعْمَلُهُ وَيَبِيعُهُ بِثَلَاثَةِ فُلُوسٍ، فَيَتَصَدَّقُ بِفِلْسٍ، وَيَتَعَشَّى بِفِلْسٍ، وَفِلْسٌ رَأْسُ مَالِهِ».

وَقِيلَ: «نَازَعَتْهُ نَفْسُهُ لَحْمًا، فَمَاطَلَهَا سَبْعَ سِنِينَ».

وَعَنْ عُتْبَةَ قَالَ: «مَنْ عَرَفَ اللهَ أَحَبَّهُ، وَمَنْ أَحَبَّهُ أَطَاعَهُ».

وَعَنْهُ قَالَ: «إِنَّمَا أَبْكِي عَلَى تَقْصِيرِي»(١).

قال جعفر بن محمد: «كان عتبةُ الغلام يقطع الليل بثلاثِ صيحات، كان إذا صلى العتمة وَضع رأسه بين ركبتيه يتفكر، فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة. ثم وَضع رأسه بين ركبتيه يتفكر، فإذا مضى الثلث الثاني صاح صيحة. ثم وَضع رأسه بين ركبتيه يتفكر، فإذا كان السحر صاح صيحة».

قَالَ جعفر بن محمد: فحدثت به بعض البصريين فقال: «لا تنظر إلى صياحه وَلكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح»(٢).

قال عنبسة الخوّاص: «كان عتبة الغلام يزورني فربما بات عندي، قال:

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٦٢).

(٢) «حلية الأولياء» (٦/ ٢٣٤).

فبات عندي ذات ليلة فبكى في السّحر بكاءً شديدًا، فلما أصبح قلت: لقد فزعت قلبي منذ الليلة ببكائك فبم ذاك يا أخي؟ قال: يا عنبسة! والله إني إذا تذكرت يوم العرض على الله.. ثم مال ليسقط فاحتضنته، فجعلت أنظر إلى عينيه يتقلبان قد اشتدت حمرتهما قال: ثم أزبد وجعل يخور فناديته: عتبة! عتبة! حبيبي! قال: فلبث ثلاثًا لا يجيبني، ثم هدأ فناديته: عتبة! عتبة!. فأجابني بصوت خفي: «قطع ذكر العرض على الله أوصال المحبين». قال: ثم جعل يحشرج، ويردد حشرجة الموت ويقول: «أتراك تعذب محبيك وأنت الحي الكريم!». قال: فلم يزل يرددها حتى والله أبكاني»[1].

قال مسلم العباداني: «قدم علينا مرةً صالِحُ المرّي وعبد الواحد بن زيد وعتبة الغلام وسلمة الأسواري فنزلوا على السّاحل قال: فهيأت لهم ذات ليلة طعامًا فدعوتهم إليه فجاؤوا، فلما وضعت الطَّعام بين أيديهم إذا قائل يقول من بعض أولئك المطوعة وهو على ساحل البحر مارًا رافعًا صوته يقول:

تُلْهِيكَ عَنْ دَارِ الْخُلُودِ مَطَاعِمُ ... وَلَذَّةُ نَفْسٍ غَيُّها غَيْرُ نَافِعِ

قال: فصاح عتبة صيحة فسقط مغشيًا عليه، وبكى القوم ورفعنا الطَّعام وما ذاقوا منه والله لقمة واحدة»[2].

تَوْطِينُ النَّفْسِ عَلَى الْعَزْمِ:

فهذا حالهم وهو قطرة من فيض، فإن سمعت أخبارهم، وتأملت أحوالهم قلت: «أقوام أحبوا الله ﷻ؛ وقطعوا قلوبهم إليه، فقدوا لذّة الرُّقاد، وغابت عنهم شهوة الطَّعام والشَّراب، أجسامهم عليلة وما بهم من علة إلا خوف الفوت من أن يفوتهم حظ من رضا الله تعالى.

وقد أنشدوا في هذا المعنى:

نَحِيلُ الْجِسْمِ مُكْتَئِبُ الْفُؤَادِ ... تَراهُ بِقِمَّةٍ، أَوْ بَطْنِ وَادِي

---

(١) «شعب الإيمان» (١/ ٥٢٥).

(٢) «حلية الأولياء» (٦/ ١٦٠).

يَنُوح عَلَى مَعَاصٍ فَاضِحَاتٍ يُكَدِّرُ ثِقْلُهَا صَفْوَ الرُّقَادِ
فَإِنْ هَاجَتْ مَخَاوِفُهُ وَزَادَتْ فَدَعْوَتُهُ أَغِثْنِي يَا عِمَادِي
فَأَنْتَ بِمَا أُلَاقِيهِ عَلِيمٌ كَثِيرُ الصَّفْحِ عَنْ زَلَلِ الْعِبَادِ

وقيل أيْضًا:

أَلَذُّ مِنَ التَّلَذُّذِ بِالْغَوَانِي إِذَا أَقْبَلْنَ فِي حُلَلٍ حِسَانِ
مُنِيبٌ فَرَّ مِنْ أَهْلٍ وَمَالٍ يَسِيحُ إِلَى مَكَانٍ مِنْ مَكَانِ
لِيَخْمِلَ ذِكْرُه وَيَعِيشُ فَرْدًا وَيَظْهَرُ فِي الْعِبَادَةِ بِالْأَمَانِي
تَلَذُّذُهُ التِّلَاوَةُ أَينَ وَلَّى وَذِكْرٌ بِالْفُؤَادِ وَبِاللِّسَانِ
وَعِنْدَ الْمَوْتِ يَأْتِيهِ بَشِيرٌ يُبَشِّرُ بِالنَّجَاةِ مِنَ الْهَوَانِ
فَيُدْرِكُ مَا أَرَادَ وَمَا تَمَنَّى مِنَ الرَّاحَاتِ فِي غُرَفِ الْجِنَانِ

فَإِنَّ حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجالٌ أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات، وَقل لها: «يا نفسُ لا تستنكفي أن تكوني أقلَّ من امرأة!».

فأخسس برجلٍ يقصر عَنْ امرأة في أمر دينها وَدنياها، فترى النساء بلغن درجة يعجز عن وصفها اللسان، فهذه امرأة عند عائشة تذكر من صلاتها وشدة اجتهادها.

فَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَتْ عِنْدِي امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فقَالَ: «مَنْ هَذِهِ؟».

قُلْتُ: فُلَانَةُ لَا تَنَامُ بِاللَّيْلِ فَذُكِرَ مِنْ صَلَاتِهَا.

فَقَالَ: «مَهْ عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»(١).

وَهَذِهِ نُبْذَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْمُجْتَهِدَات:

عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها:

الصِّدِّيقَةُ بِنْتُ الْإِمَامِ الصِّدِّيقِ الْأَكْبَرِ، خَلِيفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَبِي بَكْرٍ،

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١١٥١)، مُسْلِمٌ (٧٨٥).

الْقُرَشِيَّةُ التَّيْمِيَّةُ، الْمَكِّيَّةُ، النَّبَوِيَّةُ، أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، زَوْجَةُ النَّبِيِّ ﷺ أَفْقَهُ نِسَاءِ الْأُمَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَحُبُّهُ ﷺ لِعَائِشَةَ كَانَ أَمْرًا مُسْتَفِيضًا، أَلَا تَرَاهُمْ كَيْفَ كَانُوا يَتَحَرَّوْنَ بِهَدَايَاهُمْ يَوْمَهَا تَقَرُّبًا إِلَى مَرْضَاتِهِ.

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: «أَنَّ نِسَاءَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كُنَّ حِزْبَيْنِ فَحِزْبٌ فِيهِ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ وَصَفِيَّةُ وَسَوْدَةُ، وَالْحِزْبُ الْآخَرُ أُمُّ سَلَمَةَ وَسَائِرُ نِسَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ قَدْ عَلِمُوا حُبَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَائِشَةَ، فَإِذَا كَانَتْ عِنْدَ أَحَدِهِمْ هَدِيَّةٌ يُرِيدُ أَنْ يُهْدِيَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَخَّرَهَا، حَتَّى إِذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ بَعَثَ صَاحِبُ الْهَدِيَّةِ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ. فَكَلَّمَ حِزْبُ أُمِّ سَلَمَةَ فَقُلْنَ لَهَا: كلمِي رَسُولَ اللهِ ﷺ يُكلمُ النَّاس فَيَقُولُ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يُهْدِيَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ هَدِيَّةً فَلْيُهْدِهِ إِلَيْهِ حَيْثُ كَانَ مِنْ بُيُوتِ نِسَائِهِ. فَكَلَّمَتْهُ أُمُّ سَلَمَةَ بِمَا قُلْنَ فَلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئًا، فَسَأَلْنَهَا فَقَالَتْ: مَا قَالَ لِي شَيْئًا. فَقُلْنَ لَهَا: فَكلمِيهِ. قَالَتْ: فَكَلَّمَتْهُ حِينَ دَارَ إِلَيْهَا أَيْضًا فَلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئًا، فَسَأَلْنَهَا فَقَالَتْ: مَا قَالَ لِي شَيْئًا. فَقُلْنَ لَهَا: كلمِيهِ حَتَّى يُكلمَكِ. فَدَارَ إِلَيْهَا فَكَلَّمَتْهُ فَقَالَ لَهَا: لَا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ، فَإِنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَأْتِنِي وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ إِلَّا عَائِشَةَ. قَالَتْ: فَقَالَتْ: أَتُوبُ إِلَى اللهِ مِنْ أَذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ. ثُمَّ إِنَّهُنَّ دَعَوْنَ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تَقُولُ: إِنَّ نِسَاءَكَ يَنْشُدْنَكَ اللهَ الْعَدْلَ فِي بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ. فَكَلَّمَتْهُ فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ أَلَا تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ. قَالَتْ: بَلَى. فَرَجَعَتْ إِلَيْهِنَّ فَأَخْبَرَتْهُنَّ، فَقُلْنَ: ارْجِعِي إِلَيْهِ. فَأَبَتْ أَنْ تَرْجِعَ. فَأَرْسَلْنَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ فَأَتَتْهُ فَأَغْلَظَتْ وَقَالَتْ: إِنَّ نِسَاءَكَ يَنْشُدْنَكَ اللهَ الْعَدْلَ فِي بِنْتِ ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ. فَرَفَعَتْ صَوْتَهَا حَتَّى تَنَاوَلَتْ عَائِشَةَ وَهِيَ قَاعِدَةٌ فَسَبَّتْهَا، حَتَّى إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيَنْظُرُ إِلَى عَائِشَةَ هَلْ تَكَلَّمُ، قَالَ: فَتَكَلَّمَتْ عَائِشَةُ تَرُدُّ عَلَى زَيْنَبَ حَتَّى أَسْكَتَتْهَا قَالَتْ: فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى عَائِشَةَ وَقَالَ: إِنَّهَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ»[1].

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٥٨١).

عَنْ ذَكْوَانَ مَوْلَى عَائِشَةَ: «أَنَّهُ جَاءَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَى عَائِشَةَ فَجِئْتُ وَعِنْدَ رَأْسِهَا ابْنُ أَخِيهَا عَبْدُ اللهِ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَقُلْتُ: هَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ يَسْتَأْذِنُ. فَأَكَبَّ عَلَيْهَا ابْنُ أَخِيهَا عَبْدُ اللهِ فَقَالَ: هَذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ يَسْتَأْذِنُ. وَهِيَ تَمُوتُ، فَقَالَتْ: دَعْنِي مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. فَقَالَ: يَا أُمَّتَاهُ إِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ مِنْ صَالِحِي بَنِيكِ، لِيُسَلِّمْ عَلَيْكِ وَيُوَدِّعْكِ. فَقَالَتْ: ائْذَنْ لَهُ إِنْ شِئْتَ. قَالَ: فَأَدْخلْتُهُ فَلَمَّا جلَسَ قَالَ: أَبْشِرِي. فَقَالَتْ: إِيهًا، يَا ابْن عَبَّاس! فَقَالَ: مَا بَيْنَكِ وَبَيْنَ أَنْ تَلْقَيِ مُحَمَّدًا ﷺ وَالْأَحِبَّةَ إِلَّا أَنْ تَخْرُجَ الرُّوحُ مِنَ الْجَسَدِ، كُنْتِ أَحَبَّ نِسَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ إِلَّا طَيِّبًا، وَسَقَطَتْ قِلَادَتُكِ لَيْلَةَ الْأَبْوَاءِ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى يُصْبِحَ فِي الْمَنْزِلِ وَأَصْبَحَ النَّاس لَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣]، فَكَانَ ذَلِكَ فِي سَبَبِكِ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ ﷻ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ الرُّخْصَةِ، وَأَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَتَكِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ جَاءَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، فَأَصْبَحَ لَيْسَ للهِ مَسْجِدٌ مِنْ مَسَاجِدِ اللهِ يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ إِلَّا يُتْلَى فِيهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ. فَقَالَتْ: دَعْنِي مِنْكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا»»[(١)].

عَنْ أُمِّ ذَرَّةَ، قَالَتْ: «بَعَثَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إِلَى عَائِشَةَ بِمَالٍ فِي غِرَارَتَيْنِ، يَكُونُ مِائَةَ أَلْفٍ، فَدَعَتْ بِطَبَقٍ، فَجَعَلَتْ تُقَسِّمُ فِي النّاس، فَلَمَّا أَمْسَتْ، قَالَتْ: هَاتِي يَا جَارِيَةُ فُطُورِي. فَقَالَتْ أُمُّ ذَرَّةَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَمَا اسْتَطَعْتِ أَنْ تَشْتَرِي لَنَا لَحْمًا بِدِرْهَمٍ؟. قَالَتْ: لَا تُعَنِّفِينِي، لَوْ أَذْكَرْتِينِي لَفَعَلْتُ». وعَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ: سَمِعْتُ ابْنَ الزُّبَيْرِ يَقُولُ: «مَا رَأَيْتُ امْرَأَةً قَطُّ أَجْوَدَ مِنْ عَائِشَةَ وَأَسْمَاءَ، وَجُودُهُمَا مُخْتَلِفٌ: أَمَّا عَائِشَةُ، فَكَانَتْ تَجْمَعُ الشَّيْءَ إِلَى الشَّيْءِ، حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَ عِنْدَهَا وَضَعَتْهُ مَوَاضِعَهُ. وَأَمَّا أَسْمَاءُ، فَكَانَتْ لَا تَدَّخِرُ شَيْئًا لِغَدٍ»[(٢)].

وقال الْقَاسِمُ بْنِ مُحَمَّدٍ: «غدوت يومًا وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة ﵂

---

(١) صحيح: رواهُ أحمد (١/ ٢٧٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٩٢).

أسلِّم عليها، فغدوت يومًا إليها فإذا هي تصلي صلاة الضحى وَهي تقرأ ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: ٢٧] وَتبكي وَتدعو وَتردد الآية، فقمت حتى مللت وَهي كما هي، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت: أفرغ من حاجتي ثم أرجع، ففرغت من حاجتي ثم رجعت وَهي كما هي تردد الآية وَتبكي وَتدعو»(١).

أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا:

أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ أُمُّ عَبْدِ اللهِ الْقُرَشِيَّةُ التَّيْمِيَّةُ، الْمَكِّيَّةُ، ثُمَّ الْمَدَنِيَّةُ، وَالِدَةُ الْخَلِيفَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَأُخْتُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، وَآخِرُ الْمُهَاجِرَاتِ وَفَاةً.

عَنْ أَسْمَاءَ، قَالَتْ: «صَنَعْتُ سُفْرَةَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْتِ أَبِي حِينَ أَرَادَ أَنْ يُهَاجِرَ، فَلَمْ أَجِدْ لِسُفْرَتِهِ وَلَا لِسِقَائِهِ مَا أَرْبُطُهُمَا، فَقُلْتُ لِأَبِي: مَا أَجِدُ إِلَّا نِطَاقِي، قَالَ: شُقِّيهِ بِاثْنَيْنِ، فَارْبُطِي بِهِمَا قَالَ: فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ: ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ».

عَنْ أَسْمَاءَ، قَالَتْ: «لَمَّا تَوَجَّهَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ حَمَلَ أَبُو بَكْرٍ مَعَهُ جَمِيعَ مَالِهِ ـ خَمْسَةَ آلَافٍ، أَوْ سِتَّةَ آلَافٍ ـ فَأَتَانِي جَدِّي أَبُو قُحَافَةَ وَقَدْ عَمِيَ، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا قَدْ فَجَعَكُمْ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ، فَقُلْتُ: كَلَّا، قَدْ تَرَكَ لَنَا خَيْرًا كَثِيرًا. فَعَمَدْتُ إِلَى أَحْجَارٍ، فَجَعَلْتُهُنَّ فِي كُوَّةِ الْبَيْتِ، وَغَطَّيْتُ عَلَيْهَا بِثَوْبٍ، ثُمَّ أَخَذْتُ بِيَدِهِ، وَوَضَعْتُهَا عَلَى الثَّوْبِ، فَقُلْتُ: هَذَا تَرَكَهُ لَنَا، فَقَالَ: أَمَّا إِذْ تَرَكَ لَكُمْ هَذَا، فَنَعَمْ»(٢).

عن عبد الله مولى أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنها قالت: «لما كان قبل قتل ابن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بيوم قالت أمه: خذلوه وأحبوا الحياة ولم ينظروا لدينهم ولا لأحسابهم. ثم قامت تصلي وتدعو وتقول: «اللهم إن عبد الله بن الزبير كان معظمًا لحرمتك، كريه إليه أن تعصى، وقد جاهد فيك أعداءك، وبذل

---

(١) «صفة الصفوة» (٢/ ٣١).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٩٠).

مهجة نفسه لرجاءِ ثوابك، اللهم فلا تخيبه، اللهم ارحم طول ذلك السجود والنحيب، وطول ذلك الظمأ في الهواجر، اللهم لا أقول ذلك تزكية له، ولكنَّه الذي أعلم، وأنت أعلم به، اللهم وكان برًّا بالوالدين». قال: فلما أصبحنا يوم الثلاثاء جاء أمه فودَّعها، ثم خرج من عندها، فأصابته رمية فوقع، فتغاوروا عليه فقتلوه»[1].

زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ:

زَيْنَبُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ بِنْتُ جَحْشِ بْنِ رِيَابٍ، وَابْنَةُ عَمَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أُمُّهَا: أُمَيْمَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَكَانَتْ مِنْ سَادَةِ النِّسَاءِ، دِينًا وَوَرَعًا وَجُودًا وَمَعْرُوفًا رضي الله عنها.

قَالَتْ عَائِشَةُ: «زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْهُنَّ فِي الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَمْ أَرَ امْرَأَةً قَطُّ خَيْرًا فِي الدِّينِ مِنْ زَيْنَبَ، وَأَتْقَى للهِ، وَأَصْدَقَ حَدِيثًا، وَأَوْصَلَ لِلرَّحِمِ، وَأَعْظَمَ صَدَقَةً، وَأَشَدَّ ابْتِذَالًا لِنَفْسِهَا فِي الْعَمَلِ الَّذِي تَصَدَّقَ بِهِ وَتَقَرَّبَ بِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، مَا عَدَا سَوْرَةً مِنْ حِدَّةٍ كَانَتْ فِيهَا تُسْرِعُ مِنْهَا الْفَيْئَةَ»[2].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ فَقَالَ: «مَا هَذَا الْحَبْلُ؟»، قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ، فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا حُلُّوهُ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ»[3].

عَنْ بَرْزَةَ بِنْتِ رَافِعٍ، قَالَتْ: «أَرْسَلَ عُمَرُ إِلَى زَيْنَبَ بِعَطَائِهَا، فَقَالَتْ: غَفَرَ اللهُ لِعُمَرَ، غَيْرِي كَانَ أَقْوَى عَلَى قَسْمِ هَذَا. قَالُوا: كُلُّهُ لَكِ، قَالَتْ: سُبْحَانَ اللهِ! وَاسْتَتَرَتْ مِنْهُ بِثَوْبٍ، وَقَالَتْ: صُبُّوهُ وَاطْرَحُوا عَلَيْهِ ثَوْبًا. وَأَخَذَتْ تُفَرِّقُهُ فِي رَحِمِهَا، وَأَيْتَامِهَا؛ وَأَعْطَتْنِي مَا بَقِيَ؛ فَوَجَدْنَاهُ خَمْسَةً وَثَمَانِينَ دِرْهَمًا، ثُمَّ رَفَعَتْ يَدَهَا إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَتْ: «اللَّهُمَّ لَا يُدْرِكْنِي عَطَاءُ عُمَرَ بَعْدَ عَامِي

---

(١) «أخبار مكة» للفاكهي (١٦١٣). (٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٤٤٢).

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١١٥٠)، مُسْلِمٌ (٧٨٤).

هَذَا»[1].

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقًا بِي أَطْوَلُكُنَّ يَدًا». قَالَتْ: فَكُنَّ يَتَطَاوَلْنَ أَيَّتُهُنَّ أَطْوَلُ يَدًا قَالَتْ: «فَكَانَتْ أَطْوَلَنَا يَدًا زَيْنَبُ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَعْمَلُ بِيَدِهَا وَتَصَدَّقُ»[2].

أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ:

أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسِ بْنِ مَعْبَدِ بْنِ الْحَارِثِ الْخَثْعَمِيَّةُ أُمُّ عَبْدِ اللهِ.

عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: «بَلَغَنَا مَخْرَجُ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ بِالْيَمَنِ، فَخَرَجْنَا مُهَاجِرِينَ إِلَيْهِ أَنَا وَأَخَوَانِ لِي أَنَا أَصْغَرُهُمْ، أَحَدُهُمَا أَبُو بُرْدَةَ وَالْآخَرُ أَبُو رُهْمٍ، إِمَّا قَالَ: بِضْعٌ. وَإِمَّا قَالَ: فِي ثَلَاثَةٍ وَخَمْسِينَ أَوْ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِي، فَرَكِبْنَا سَفِينَةً فَأَلْقَتْنَا سَفِينَتُنَا إِلَى النَّجَاشِيِّ بِالْحَبَشَةِ، فَوَافَقْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَأَقَمْنَا مَعَهُ حَتَّى قَدِمْنَا جَمِيعًا، فَوَافَقْنَا النَّبِيَّ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ خَيْبَرَ، وَكَانَ أُنَاسٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُونَ لَنَا - يَعْنِي لِأَهْلِ السَّفِينَةِ -: سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ. وَدَخَلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ وَهِيَ مِمَّنْ قَدِمَ مَعَنَا عَلَى حَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ زَائِرَةً، وَقَدْ كَانَتْ هَاجَرَتْ إِلَى النَّجَاشِيِّ فِيمَنْ هَاجَرَ، فَدَخَلَ عُمَرُ عَلَى حَفْصَةَ وَأَسْمَاءُ عِنْدَهَا فَقَالَ عُمَرُ حِينَ رَأَى أَسْمَاءَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَتْ: أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ. قَالَ عُمَرُ: الْحَبَشِيَّةُ هَذِهِ الْبَحْرِيَّةُ هَذِهِ. قَالَتْ أَسْمَاءُ: نَعَمْ. قَالَ: سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ فَنَحْنُ أَحَقُّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْكُمْ. فَغَضِبَتْ وَقَالَتْ: كَلَّا، وَاللهِ كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُطْعِمُ جَائِعَكُمْ، وَيَعِظُ جَاهِلَكُمْ، وَكُنَّا فِي دَارٍ أَوْ فِي أَرْضِ الْبُعَدَاءِ الْبُغَضَاءِ بِالْحَبَشَةِ وَذَلِكَ فِي اللهِ وَفِي رَسُولِهِ ﷺ، وَايْمُ اللهِ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى أَذْكُرَ مَا قُلْتَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَنَحْنُ كُنَّا نُؤْذَى وَنُخَافُ، وَسَأَذْكُرُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَسْأَلُهُ، وَاللهِ لَا أَكْذِبُ وَلَا أَزِيغُ وَلَا أَزِيدُ عَلَيْهِ. فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ إِنَّ عُمَرَ قَالَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «فَمَا قُلْتِ لَهُ؟»، قَالَتْ: قُلْتُ لَهُ

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢١٢).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٤٥٢).

كَذَا وَكَذَا. قَالَ: «لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ وَلَهُ وَلِأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ وَلَكُمْ أَنْتُمْ أَهْلَ السَّفِينَةِ هِجْرَتَانِ». قَالَتْ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَى وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ يَأْتُونِي أَرْسَالًا يَسْأَلُونِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ، مَا مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ هُمْ بِهِ أَفْرَحُ وَلَا أَعْظَمُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِمَّا قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ»(١).

«أَوْصَى أَبُو بَكْرٍ أَنْ تُغَسِّلَهُ أَسْمَاءُ. قَالَ قَتَادَةُ: فَغَسَّلَتْهُ بِنْتُ عُمَيْسٍ امْرَأَتُهُ. وَقِيلَ: عَزَمَ عَلَيْهَا لَمَّا أَفْطَرَتْ، وَقَالَ: هُوَ أَقْوَى لَكِ، فَذَكَرَتْ يَمِينَهُ فِي آخِرِ النَّهَارِ، فَدَعَتْ بِمَاءٍ، فَشَرِبَتْ، وَقَالَتْ: وَاللهِ لَا أُتْبِعُهُ الْيَوْمَ حِنْثًا».

وَعَنْ مَالِك، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ: «أَنَّ أَسْمَاءَ غَسَّلَتْ أَبَا بَكْرٍ؛ فَسَأَلَتْ مَنْ حَضَرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَقَالَتْ: إِنِّي صَائِمَةٌ، وَهَذَا يَوْمٌ شَدِيدُ الْبَرْدِ، فَهَلْ عَلَيَّ مِنْ غُسْلٍ؟ فَقَالُوا: لَا».

«تَزَوَّجَ عَلِيٌّ أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ، فَتَفَاخَرَ ابْنَاهَا: مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، فَقَالَ كُلٌّ مِنْهُمَا: أَنَا أَكْرَمُ مِنْكَ، وَأَبِي خَيْرٌ مِنْ أَبِيكَ. قَالَ: فَقَالَ لَهَا عَلِيٌّ: اقْضِي بَيْنَهُمَا. قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ شَابًّا مِنَ الْعَرَبِ خَيْرًا مِنْ جَعْفَرٍ، وَلَا رَأَيْتُ كَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَبِي بَكْرٍ. فَقَالَ عَلِيٌّ: مَا تَرَكْتِ لَنَا شَيْئًا؛ وَلَوْ قُلْتِ غَيْرَ الَّذِي قُلْتِ لَمَقَتُّكِ. قَالَتْ: إِنَّ ثَلَاثَةً أَنْتَ أَخَسُّهُمْ خِيَارٌ»(٢).

حَفْصَةُ بِنْتُ سِيرِينَ:

حَفْصَةُ بِنْتُ سِيرِينَ أُمُّ الْهُذَيْلِ، الْفَقِيهَةُ، الْأَنْصَارِيَّةُ.

عن هشام بن حسان قال: «كَانَتْ حَفْصَة بِنْتُ سِيرِينَ تسرج سراجها من الليل ثم تقوم في مصلاها، وربما طفئ السّراج فيصبح لها البيت حتى تصبح»(٣).

عَنْ إِيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ، قَالَ: «مَا أَدْرَكْتُ أَحَدًا أُفَضِّلُهُ عَلَيْهَا. وَقَالَ: قَرَأَتِ الْقُرْآنَ وَهِيَ بِنْتُ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وَعَاشَتْ سَبْعِينَ سَنَةً، فَذَكَرُوا لَهُ الْحَسَنَ وَابْنَ سِيرِينَ، فَقَالَ: أَمَّا أَنَا فَمَا أُفَضِّلُ عَلَيْهَا أَحَدًا».

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٢٣٠ ـ ٤٢٣١)، مُسْلِمٌ (٢٥٠٢ ـ ٢٥٠٣).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٨٦).

(٣) «شعب الإيمان» (٣/ ١٦٤).

وَقَالَ مَهْدِيُّ بْنُ مَيْمُونٍ: «مَكَثَتْ حَفْصَةُ بِنْتُ سِيرِينَ ثَلَاثِينَ سَنَةً لَا تَخْرُجُ مِنْ مُصَلَّاهَا إِلَّا لِقَائِلَةٍ أَوْ قَضَاءِ حَاجَةٍ»(١).

قال هشام بن حسان: «كان الهذيل بن حفصة يجمع الحطب في الصيف فيقشره ويأخذ القصب فيفلقه، قالت حفصة: وكنت أجد قرة، فكان إذا جاء الشِّتاء جاء بالكانونِ فيضعه خلفي وأنا في مصلاي، ثم يقعد فيوقد بذلك الحطب المقشر وذاك القصب المفلق وقودًا لا يؤذي دخانه ويدفئني، نمكث بذلك ما شاء الله، قالت: وعنده من يكفيه لو أراد ذلك». قالت: «وربما أردت أنصرف إليه فأقول: يا بني ارجع إلى أهلك ثم أذكر ما يريد فأدعه».

قالت حفصة: «فلما مات رزق الله عليه من الصبر ما شاء أن يرزق غير أني كنت أجد غصة لا تذهب، قالت: فبينا أنا ذات ليلة أقرأ سورة النحل إذ أتيت على هذه الآية: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٥ ـ ٩٦] قالت: فأعدتها فأذهب الله ما كنت أجد».

قال هشام: «وكانت له لقحة. قالت حفصة: كان يبعث إلي بحلبة بالغداة فأقول: يا بني إنك لتعلم أني لا أشربه، أنا صائمة. فيقول: يا أم الهذيل إن أطيب اللبن ما بات في ضروع الإبل، اسقيه من شئت».

عن هشام بن حسان قال: «اشترت حفصة جارية أظنها سندية فقيل لها: كيف رأيت مولاتك؟ فذكر إبراهيم كلامًا بالفارسية تفسيره: «أنها امرأة صالحة إلا أنها أذنبت ذنبًا عظيمًا فهي الليل كله تبكي وتصلي»».

قال عبد الكريم بن معاوية: «ذكر لي عن حفصة أنها كانت تقرأ نصف القرآن في كل ليلة، وكانت تصوم الدهر وتفطر العيدين وأيام التشريق».

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٠٧).

عن هشام بن حسان قال: «قد رأيت الحسن وابن سيرين وما رأيت أحدًا أرى أَنَّهُ أعقل من حفصة».

عن هشام عن حفصة قال: «كان لها كفن معد، فإذا حجَّت وأحرمت لبسته، وكانت إذا كانت العشر الأواخر من رمضان قامت من الليل فلبسته»(١).

مُعَاذَةُ الْعَدَوِيَّةُ:

مُعَاذَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللهِ، السَّيِّدَةُ الْعَالِمَةُ، أُمُّ الصَّهْبَاءِ الْعَدَوِيَّةُ الْبَصْرِيَّةُ، الْعَابِدَةُ، زَوْجَةُ السَّيِّدِ الْقُدْوَةِ صِلَةَ بْنِ أَشْيَمَ.

كَانَتْ تُحْيِي اللَّيْلَ عِبَادَةً، وَتَقُولُ: «عَجِبْتُ لِعَيْنٍ تَنَامُ، وَقَدْ عَلِمَتْ طُولَ الرُّقَادِ فِي ظُلَمِ الْقُبُورِ».

وَلَمَّا اسْتُشْهِدَ زَوْجُهَا صِلَةُ وَابْنُهَا فِي بَعْضِ الْحُرُوبِ، اجْتَمَعَ النِّسَاءُ عِنْدَهَا، فَقَالَتْ: «مَرْحَبًا بِكُنَّ إِنْ كُنْتُنَّ جِئْتُنَّ لِلْهَنَاءِ، وَإِنْ كُنْتُنَّ جِئْتُنَّ لِغَيْرِ ذَلِكَ فَارْجِعْنَ».

وَكَانَتْ تَقُولُ: «وَاللهِ مَا أُحِبُّ الْبَقَاءَ إِلَّا لِأَتَقَرَّبَ إِلَى رَبِّي بِالْوَسَائِلِ؛ لَعَلَّهُ يَجْمَعُ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي الشَّعْثَاءِ وَابْنِهِ فِي الْجَنَّةِ»(٢).

عَنْ ثَابِتٍ: أَنَّ صِلَةَ كَانَ فِي الْغَزْوِ، وَمَعَهُ ابْنُهُ، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ! تَقَدَّمْ، فَقَاتِلْ حَتَّى أَحْتَسِبَكَ، فَحَمَلَ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ صِلَةُ فَقُتِلَ، فَاجْتَمَعَ النِّسَاءُ عِنْدَ امْرَأَتِهِ مُعَاذَةَ، فَقَالَتْ: «مَرْحَبًا إِنْ كُنْتُنَّ جِئْتُنَّ لِتُهَنِّئْنَنِي، وَإِنْ كُنْتُنَّ جِئْتُنَّ لِغَيْرِ ذَلِكَ، فَارْجِعْنَ»(٣).

وكانت معاذة العدوية إذا جاء الليل تقول: «هذه ليلتي التي أموت فيها». فما تنام حتى تصبح. فإذا جاء النهار قالت: «هذا يومي الذي أموت فيه». فما تنام حتى تمسي، وإذا جاء البرد لبست الثياب الرقاق حتى يمنعها البرد من النوم(٤).

---

(١) «صفة الصفوة» (٤/ ٢٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٠٨).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٩٨).

(٤) «التهجد وقيام الليل» لابن أبي الدنيا (١٨٠).

وصولُ القلبِ إلَى الولايةِ

وصولُ القلبِ إلى الولايةِ طريقٌ طويل شاق، وبه عقبة كئود من تخطاها وعبرها فقد نال الخير كله وهي أن يصل إلى الرّب، فالوَلاية ضد العداوة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[1].

فهذه المنزلة وهذه الدرجة لا يصل إليها عبد إلا بعد جهد مع الله تبارك وتعالى، ووقوف على أبواب الخير حتى ولو غلقت دون العبد بسبب معصيته وتفريطه في حق الله تبارك وتعالى، ولكن من أكثر الطّرق يوشك أن يفتح له.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [التحريم: ٤]، فبين الله أن كلّ صالح من المؤمنين فهو مولى رسول الله ﷺ؛ لأن الله مولاه وجبريل مولاه.

وقَالَ تَعَالَى أيضًا: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [التوبة: ٧١] فجعل كل مؤمن وليًا لكل مؤمن، وذلك لا يوجب أن يكون أميرًا عليه معصومًا لا يتولى عليه إلا هو.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢

(١) رواه الْبُخَارِيُّ (٦٥٠٢).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٣]، فكل مؤمن تقي فهو ولي الله، والله وليه، كما قَالَ تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد: ١١].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ إلى قوله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: ٧٤ ـ ٧٥].

فهذه النصوص كلها ثبتت فيها موالاة المؤمنين بعضهم لبعض، وأن هذا ولي هذا، وهذا ولي هذا، وأنهم أولياء الله وأن الله وملائكته والمؤمنين موالي رسوله كما أن الله ورسوله والذين آمنوا هم أولياء المؤمنين.

قال شيخ الإسلام: «وكلُّ من ليس بنبي فليس برسول الله وليس بمعصوم؛ وإن كانت له خوارق عادات؛ كأولياء الله من المسلمين وغيرهم، فإنه وإن كانت لهم كرامات من الخوارق؛ فليسوا معصومين من الخطأ، والخوارق التي تجري على يدي غير الأنبياء لا تدل على أن أصحابها أولياء الله عند أكثر العلماء فضلًا عن كونهم معصومين، فإن ولي الله من يموت على الإيمان، ومجرد الخارق لا يدل على أَنَّهُ يموت على الإيمان بل قد يتغير عن ذلك الحال، وإذا قطعنا بأن الرجل ولي الله كمن أخبر النبي بأنه من أهل الجنة فلا يجب الإيمان بكل ما يقوله إن لم يوافق ما قالته الأنبياء، بخلاف الأنبياء عليهم السلام فإنهم معصومون لا يجوز أن يستقر فيما يبلغونه خطأ، ولهذا أوجب الله الإيمان بهم ومن كفر بواحد منهم فهو كافر، ومن يسب واحدًا منهم وجب قتله في شرع الإسلام كما قَالَ تَعالَى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٣٦ ـ ١٣٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥]»[1].

وقال شيخ الإسلام أيضًا: «وكذلك أصحاب دعوات الكواكب الذين يدعون كوكبًا من الكواكب، ويسجدون له ويناجونه ويدعونه، ويصنعون له من الطَّعام واللباس والبخور والتبركات ما يناسبه، كما ذكره صاحب السر المكتوم المشرقي وصاحب الشعلة النورانية البوني المغربي وغيرهما، فإن هؤلاء تنزل عليهم أرواح تخاطبهم وتخبرهم ببعض الأمور، وتقضي لهم بعض الحوائج ويسمون ذلك روحانية الكواكب، ومنهم من يظن أنها ملائكة وإنما هي شياطين تنزل عليهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦].

وَ﴿ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي الذي أنزله، وهو الكتاب والسنة اللذان قال الله فيهما: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة: ٢٣١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

وهو الذكر الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

---

(١) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» لشيخ الإسلام (٢/ ٨٣).

فمن أعرض عن هذا الذكر وهو الكتاب والسنة، قيض له قرين من الشَّياطين فصار من أولياء الشَّيطان بحسب ما تابعه.

وإن كان مواليًا للرحمن تارة وللشيطان أخرى كان فيه من الإيمان وولاية الله بحسب ما والى فيه الرحمن، وكان فيه من عداوة الله والنفاق بحسب ما والى فيه الشَّيطان، كما قال حذيفة بن اليمان: «القلوب أربعة:

- قلبٌ أجرد: فيه سراج يُزهر، فذلك قلب المؤمن.

- وقلبٌ أغلف: فذلك قلب الكافر. والأغلف: الذي يلف عليه غلاف. كما قَالَ تَعَالَى عن اليهود: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]. وقد تقدم قوله «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا بِهَا طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ»(١).

- وقلبٌ منكوس: فذلك قلب المنافق.

- وقلبٌ فيه مادتان: مادة تمده للإيمان، ومادة تمده للنفاق، فأيهما غلب كان الحكم له»(٢).

وقد روي هذا في مسند الإمام أحمد مرفوعًا عن النبي ﷺ أَنَّهُ قال: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ، أَوْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ الْأَرْبَعِ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»(٣).

فقد بين النبي ﷺ أن القلب يكون فيه شعبة نفاق وشعبة إيمان، فإذا كان فيه شعبة نفاق كان فيه شعبة من ولايته وشعبة من عداوته، ولهذا يكون بعض هؤلاء يجري على يديه خوارق من جهة إيمانه بالله وتقواه؛ تكون من كرامات الأولياء، وخوارق من جهة نفاقه وعداوته تكون من أحوال الشياطين، ولهذا أمرنا الله تعالى أن نقول كل صلاة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (١٠٥٢)، قال الشيخ الألباني: حسن صحيح.

(٢) ابن أبي شيبة «المصنف» (٧٤٨١). (٣) صحيح: رَوَاهُ أحمد (٢/ ١٩٨).

أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧].

و﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾: هم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه.

والضَّالون: الذين يعبدون الله بغير علم، فمن اتبع هواه وذوقه ووجده مع علمه أَنَّهُ مخالف للكتاب والسنة فهو من المغضوب عليهم؛ وإن كان لا يعلم ذلك فهو من الضالين»[١].

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٤٥٣).

كَرَامَاتُ الأَوْلِيَاءِ

الكرامة منَّة من الله ﷻ لأوليائه، ومنحة منه ﷻ لمن شاء من خلقه وعباده، وآية لتثبيت أمرهم، وشرح صدورهم، وإعلام بمحبة الله لهم وهي علامة ودلالة على سلامة قلوبهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكرامات الصَّحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جدًّا، ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها ضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوي إيمانه ويسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنيًا عن ذلك، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص ولايته، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة، بخلاف من يجري على يديه الخوارق لهدى الخلق ولحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة.

وهذا بخلاف الأحوال الشَّيطانية: مثل حال عبد الله بن صياد الذي ظهر في زمن النبي ﷺ، وكان قد ظن بعض الصحابة أَنَّهُ الدجال، وتوقف النبي ﷺ في أمره حتى تبين له فيما بعد أَنَّهُ ليس هو الدّجال لكنه كان من جنس الكهان، قال له النبي ﷺ: «قَدْ خَبأْتُ لَكَ خَبأً».، قال: الدُخُّ الدُخُّ. وقد كان خبأ له «سورة الدُّخان» فقال له النبي ﷺ: «اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ» ـ يعنى إنما أنت من إخوان الكهان ـ والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع وكانوا يخلطون الصّدق بالكذب، كما في الحديث الصَّحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ وَهُوَ السَّحَابُ فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ، فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَتَسْمَعُهُ فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا

مِائَةَ كِذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ»[1][2].

صور من كرامات الأولياء:

وقد ثبت في حقِّ الأنبياء والأولياء ما دل من كتاب الله ﷻ، وما روي عن النبي ﷺ والصحابة ﷺ والتابعين من بعدهم والخالفين لهم رحمة الله عليهم في كرامة أولياء الله تعالى، وإظهار الآيات فيهم؛ ليزداد المؤمنون إيمانًا والمرتابون بها خسارًا.

فأما الكتاب:

مَرْيَمُ عليها السلام سَيِّدَةُ نِسَاءِ العَالَمِين:

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ»[3].

وقد جعل الله لها من الكرامات كما قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧].

قال أبو جعفر: يعني بذلك جَلّ ثناؤه: أن زكريا كان كلما دخل عليها المحرابَ، بعد إدخاله إياها المحراب، وجد عندها رزقًا من الله لغذائها. فقيل: إن ذلك الرزقَ الذي كان يجده زكريا عندها، فاكهةُ الشتاء في الصيف، وفاكهةُ الصيف في الشتاء[4].

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٨١٥). (٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٨٤).

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٢١٠). قال الطيبي: الضمير الأول ـ أي الضمير الذي في كلمة نسائها ـ يعود على الأمة التي كانت فيها مريم، والثاني على هذه الأمة. قال: ولهذا كرر الكلام تنبيهًا على أن حكم كل واحدة منها غير حكم الأخرى... قال ابن حجر: والذي يظهر لي أن قوله: «خَيْرُ نِسَائِهَا» خبر مقدم والضمير لمريم فكأنه قال: مريم خير نسائها أي نساء زمانها، وكذا في خديجة. وقد جزم كثير من الشراح أن المراد نساء زمانها... «فتح الباري» (٧/ ١٣٥).

(٤) «تفسير ابن جرير» (٦/ ٣٥٣).

هَاجَرُ وَوَلَدُها:

وهي هاجر زوجة الخليل إبراهيم الخليل وولدها إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

وَقَالَ تَعالَى في قصتها وولدها: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فقد ذكر ربنا من حالها وولدها بعد أن تركهما إبراهيم عليه السلام بأرض جدباء لا ماء فيها ولا نماء؛ لما أعده الله من كرامة لآل بيت إبراهيم عليه السلام.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَمَّا كَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ خَرجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إِسْمَاعِيلَ وَمَعَهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ فَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ، فَوَضَعَهَا تَحت دَوْحَةٍ ثُمَّ رَجعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَهْلِهِ، فَاتَّبَعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ حَتَّى لَمَّا بَلَغُوا كَدَاءً نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ: «يَا إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَنْ تَتْرُكُنا»؟ قَالَ: «إِلَى اللهِ»، قَالَتْ: «رَضِيتُ بِاللهِ». قَالَ: فَرَجعَتْ فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنْ الشَّنَّةِ وَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا حَتَّى لَمَّا فَنِيَ الْمَاءُ قَالَتْ: «لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا». قَالَ: فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتْ الصَّفَا فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ هَلْ تُحِسُّ أَحَدًا، فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا، فَلَمَّا بَلَغَتْ الْوَادِيَ سَعَتْ وَأَتَتْ الْمَرْوَةَ، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ أَشْوَاطًا، ثُمَّ قَالَتْ: «لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ تَعْنِي الصَّبِيَّ». فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ فَإِذَا هُوَ عَلَى حَالِهِ كَأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ فَلَمْ تُقِرَّهَا نَفْسُهَا فَقَالَتْ: «لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا». فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتْ الصَّفَا فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا حَتَّى أَتَمَّتْ سَبْعًا، ثُمَّ قَالَتْ: «لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ». فَإِذَا هِيَ بِصَوْتٍ فَقَالَتْ: «أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ». فَإِذَا جِبْرِيلُ قَالَ: فَقَالَ بِعَقِبِهِ هَكَذَا، وَغَمَزَ عَقِبَهُ عَلَى الْأَرْضِ.

قَالَ: فَانْبَثَقَ الْمَاءُ فَدَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَجَعَلَتْ تَحْفِزُ. قَالَ: فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: «لَوْ تَرَكَتْهُ كَانَ الْمَاءُ ظَاهِرًا». قَالَ: فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ وَيَدِرُّ

لَبَنِهَا عَلَى صَبِيِّهَا، قَالَ: فَمَرَّ نَاسٌ مِنْ جُرْهُمَ بِبَطْنِ الْوَادِي فَإِذَا هُمْ بِطَيْرٍ كَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَاكَ، وَقَالُوا: مَا يَكُونُ الطَّيْرُ إِلَّا عَلَى مَاءٍ، فَبَعَثُوا رَسُولَهُمْ فَنَظَرَ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَأَتَاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ فَأَتَوْا إِلَيْهَا فَقَالُوا: «يَا أُمَّ إِسْمَاعِيلَ أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَكِ أَوْ نَسْكُنَ مَعَكِ». فَبَلَغَ ابْنُهَا فَنَكَحَ فِيهِمْ امْرَأَةً، قَالَ: ثُمَّ أَنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي. قَالَ: فَجَاءَ فَسَلَّمَ فَقَالَ: أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ؟. فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ. قَالَ: قُولِي لَهُ إِذَا جَاءَ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ. فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ قَالَ: أَنْتِ ذَاكِ فَاذْهَبِي إِلَى أَهْلِكِ. قَالَ: ثُمَّ أَنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي. قَالَ: فَجَاءَ فَقَالَ: أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ؟. فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ فَقَالَتْ: أَلَا تَنْزِلُ فَتَطْعَمَ وَتَشْرَبَ. فَقَالَ: وَمَا طَعَامُكُمْ وَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: طَعَامُنَا اللَّحْمُ وَشَرَابُنَا الْمَاءُ؟. قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ». قَالَ: فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: «بَرَكَةٌ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ». قَالَ: ثُمَّ أَنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي. فَجَاءَ فَوَافَقَ إِسْمَاعِيلَ مِنْ وَرَاءِ زَمْزَمَ يُصْلِحُ نَبْلًا لَهُ فَقَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ رَبَّكَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا. قَالَ: أَطِعْ رَبَّكَ. قَالَ: أَنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ تُعِينَنِي عَلَيْهِ. قَالَ: إِذَنْ أَفْعَلَ أَوْ كَمَا قَالَ. قَالَ: فَقَامَا فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]. قَالَ: حَتَّى ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ وَضَعُفَ الشَّيْخُ عَنْ نَقْلِ الْحِجَارَةِ فَقَامَ عَلَى حَجَرِ الْمَقَامِ فَجَعَلَ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾»[1].

سَارَة زَوْجَةُ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ عليه السلام:

قال تبارك وتعالى في قصّة سارة زوجة إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧١ ـ ٧٣].

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٣٦٥).

عن مجاهد في قوله: «﴿فَضَحِكَتْ﴾، قال: حاضت، وكانت ابنة بضع وتسعين سنة. قال: وكان إبراهيم ابن مائة سنة».

وقال عبد الصمد: أَنَّهُ سمع وهب بن منبه يقول: «لما أتى الملائكة إبراهيم عليه السلام فرآهم، راعه هيئتهم وجمالهم، فسلموا عليه، وجلسوا إليه، فقام فأمر بعجل سمين، فحُنِذَ له، فقرّب إليهم الطَّعام فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً، وسارة وراء البيت تسمع، قالوا: لا تَخَفْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ مبارك! وبشّر به امرأته سارة، فضحكت وعجبت: كيف يكون لي ولد وأنا عجوز، وهو شيخ كبير! فقالوا: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾؟ فإنه قادر على ما يشاء! فقد وهبه الله لكم، فأبشروا به»[1].

الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ:

قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠].

عن ابن عباس قال: «إن سليمان أوتي ملكًا، وكان لا يعلم أن أحدًا أوتي ملكًا غيره؛ فلما فقد الهدهد سأله: من أين جئت؟ ووعده وعيدًا شديدًا بالقتل والعذاب، قال: ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]. قال له سليمان: ما هذا النبأ؟ قال الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً﴾ بسبأ ﴿تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾. فلما أخبر الهدهد سليمان أَنَّهُ وجد سلطانًا، أنكر أن يكون لأحد في الأرض سلطان غيره، فقال لمن عنده من الجنّ والإنس: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٣٩]. قال سليمان: أريد أعجل من ذلك ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ وهو رجل من

---

(١) تفسير ابن جرير (٧/ ٦٩).

الإنس عنده علم من الكتاب فيه اسم الله الأكبر، الذي إذا دعي به أجاب: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾. فدعا بالاسم وهو عنده قائم، فاحتمل العرش احتمالًا حتى وُضع بين يدي سليمان، والله صنع ذلك؛ فلما أتى سليمان بالعرش وهم مشركون، يسجدون للشمس والقمر، أخبره الهدهد بذلك، فكتب معه كتابًا ثم بعثه إليهم، حتى إذا جاء الهدهد الملكة ألقى إليها الكتاب ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١﴾ [النمل: ٢٩ ـ ٣١]. فقالت لقومها ما قالت: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥﴾ [النمل: ٣٥]. قال: وبعثت إليه بوصائف ووصفاء، وألبستهم لباسًا واحدًا، حتى لا يعرف ذكر من أنثى، فقالت: إن زيَّل بينهم حتى يعرف الذكر من الأنثى، ثم رد الهدية، فإنه نبي، وينبغي لنا أن نترك ملكنا ونتبع دينه ونلحق به، فردّ سليمان الهدية وزيل بينهم، فقال: هؤلاء غلمان وهؤلاء جوار وقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦﴾ [النمل: ٣٦]. . . إلى آخر الآية[(١)].

كرامات الصحابة والتابعين:

وكرامات الصّحابة والتابعين ومن بعدهم لا يحصرها العد ومنها:

عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:

عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص، أمير المؤمنين.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلاثٍ؛ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فَنَزَلَتْ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وَآيَةُ الْحِجَابِ؛ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ أَمَرْتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ فَإِنَّهُ يُكلمُهُنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَنَزَلَتْ آيَةُ

---

(١) تفسير ابن جرير (٩/ ٥١٨).

الْحِجَابِ. وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُنَّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥]، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ».

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ»[(١)].

عن ابن عمر عن أبيه: أَنَّهُ كان يخطب على منبر رسول الله ﷺ يوم الجمعة فعرض له في خطبته أن قال: «يا سَارية[(٢)] الجبل الجبل؛ مَنْ اسْتَرْعَى الذِّئب ظَلَم». فالتفت النّاسُ بَعْضُهُم إلى بعضٍ فقال عليٌّ: لَيَخْرُجَنَّ مما قال، فلما فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قال له عليٌّ: مَا شيء سَنَحَ لكَ في خُطْبَتِكَ؟ قال: وما هو؟ قال: قولك: «يا ساريةُ الجبل الجبل؛ مَنْ اسْتَرْعَى الذِّئب ظَلَم»، قال: وهل كان ذلك مني؟ قال: نعم، قال: وقع في خَلَدي أن المشْرِكين هزموا إخواننا فركبوا أكتافهم، وأنهم يمرون بجبل فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوا وقد ظفروا، وإن جاوزوا هلكوا فخرج مني ما تزعم أنك سمعته. قال: فجاء البشير بالفتح بعد شهر فذكر أَنَّهُ سمع في ذلك اليوم في تلك السّاعة حين جاوزوا الجبل صوتًا يشبه صوت عمر: «يا سارية الجبل الجبل»، قال: فعدلنا إليه ففتح الله علينا[(٣)].

أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ:

أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ الْإِمَامُ أَبُو يَحْيَى الْأَنْصَارِيُّ، الْأَوْسِيُّ الْأَشْهَلِيُّ، أَحَدُ النُّقَبَاءِ الِاثْنَيْ عَشَرَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ، وَكَانَ أُسَيْدٌ يُعَدُّ مِنْ عُقَلَاءِ الْأَشْرَافِ وَذَوِي الرَّأْيِ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: «أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ، فَقَرَأَ ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى، فَقَرَأَ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، قَالَ أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي فِيهَا أَمْثَالُ

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٢٩٤)، مُسْلِمٌ (٢٣٩٦).

(٢) سارية بن زنيم.

(٣) «أسد الغابة» (٢/ ١٥٤).

السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا، قَالَ: فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْبَدِي إِذْ جَالَتْ فَرَسِي. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اقْرَأْ ابْنَ حُضَيْرٍ»، قَالَ: فَقَرَأْتُ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اقْرَأْ ابْنَ حُضَيْرٍ». قَالَ: فَقَرَأْتُ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اقْرَأْ ابْنَ حُضَيْرٍ». قَالَ: فَانْصَرَفْتُ وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ»(١).

عَنْ أَنَسٍ: «كَانَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، وَإِذَا نُورٌ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا حَتَّى تَفَرَّقَا فَتَفَرَّقَ النُّورُ مَعَهُمَا»(٢).

عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ:

عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ بن عبيد بن خلف، أبو نجيد الخزاعي القدوة الإمام، صاحب رسول الله ﷺ.

عَنْ مُطَرِّفٍ قَالَ: قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ: «إِنِّي أُحَدِّثُكَ حَدِيثًا عَسَى اللهُ ﷻ أَنْ يَنْفَعَكَ بِهِ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ حَجٍّ وَعُمْرَةٍ ثُمَّ لَمْ يَنْهَ عَنْهُ حَتَّى مَاتَ، وَلَمْ يَنْزِلْ قُرْآنٌ فِيهِ يُحَرِّمُهُ، وَإِنَّهُ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ فَلَمَّا اكْتَوَيْتُ أَمْسَكَ عَنِّي فَلَمَّا تَرَكْتُهُ عَادَ إِلَيَّ»(٣).

قال ابن سيرين: «سقى بطن عِمْرَان بْنِ حُصَيْنٍ ثلاثين سنة، كل ذلك يعرض عليه الكي، فيأبى؛ حتى كان قبل موته بسنتين، فاكتوى».

عن أبي مجلز، قال: «كان عمران ينهى عن الكي، فابتلي، فاكتوى، فكان يعج! قال مطرف: قال لي عمران: أشعرت أن التسليم عاد إلي؟ قال:

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧٩٦). (٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٨٠٥).

(٣) صحيح: رواه أحمد «المسند» (٤/ ٤٢٧).

ثم لم يلبث إلا يسيرًا حتى مات»[1].

أَبُو الدَّرْدَاءِ:

الْإِمَامُ الْقُدْوَةُ، قَاضِي دِمَشْقَ، وَصَاحِبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَبُو الدَّرْدَاءِ عُوَيْمِرُ بْنُ زَيْدِ بْنِ قَيْسٍ، الْأَنْصَارِيُّ الْخَزْرَجِيُّ، حَكِيمُ هَذِهِ الْأُمَّةِ. وَسَيِّدُ الْقُرَّاءِ بِدِمَشْقَ.

عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ، قَالَ: «بَيْنَا أَبُو الدَّرْدَاءِ يُوقِدُ تَحْتَ قِدْرٍ لَهُ، إِذْ سَمِعْتُ فِي الْقِدْرِ صَوْتًا يَنْشُجُ، كَهَيْئَةِ صَوْتِ الصَّبِيِّ، ثُمَّ انْكَفَأَتِ الْقِدْرُ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى مَكَانِهَا، لَمْ يَنْصَبَّ مِنْهَا شَيْءٌ. فَجَعَلَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يُنَادِي: يَا سَلْمَانُ، انْظُرْ إِلَى مَا لَمْ تَنْظُرْ إِلَى مِثْلِهِ أَنْتَ وَلَا أَبُوكَ!. فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَكَتَّ، لَسَمِعْتَ مِنْ آيَاتِ رَبِّكَ الْكُبْرَى»[2].

أَضْيَافُ أَبِي بَكْرٍ:

وفي هذه القصة جاء لأَبِي بَكْرٍ أضيافٌ، فأمر ولده أن يقوم على خدمتهم ويأكل معهم لانشغاله بأمرٍ خارج البيت، ولكن الأضياف تعنتوا بعدم أكل الطعام حتى يأكل معهم أبو بكر، وذلك مما هيج أبا بكر بعد عودته ووجدهم ما زالوا جلوسًا بلا طعام، ولكن ظهرت آية على إثر هذه المشاحنة وهي تمام البركة في الطعام.

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ﵄: «جَاءَ أَبُو بَكْرٍ بِضَيْفٍ لَهُ أَوْ بِأَضْيَافٍ لَهُ فَأَمْسَى عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَتْ لَهُ أُمِّي: احْتَبَسْتَ عَنْ ضَيْفِكَ أَوْ عَنْ أَضْيَافِكَ اللَّيْلَةَ. قَالَ: مَا عَشَّيْتِهِمْ؟ فَقَالَتْ: عَرَضْنَا عَلَيْهِ أَوْ عَلَيْهِمْ فَأَبَوْا أَوْ فَأَبَى. فَغَضِبَ أَبُو بَكْرٍ فَسَبَّ وَجَدَّعَ وَحَلَفَ لَا يَطْعَمُهُ فَاخْتَبَأْتُ أَنَا، فَقَالَ: يَا غُنْثَرُ فَحَلَفَتِ الْمَرْأَةُ لَا تَطْعَمُهُ حَتَّى يَطْعَمَهُ، فَحَلَفَ الضَّيْفُ أَوِ الْأَضْيَافُ أَنْ لَا

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٥١١) يعج: يضج ويرفع صوته.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٤٨).

يَطْعَمَهُ أَوْ يَطْعَمُوهُ حَتَّى يَطْعَمَهُ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: كَأَنَّ هَذِهِ مِنَ الشَّيطان فَدَعَا بِالطَّعام فَأَكَلَ وَأَكَلُوا، فَجَعَلُوا لَا يَرْفَعُونَ لُقْمَةً إِلَّا رَبَا مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرُ مِنْهَا، فَقَالَ: يَا أُخْتَ بَنِي فِرَاسٍ مَا هَذَا. فَقَالَتْ: وَقُرَّةِ عَيْنِي إِنَّهَا الْآنَ لَأَكْثَرُ قَبْلَ أَنْ نَأْكُلَ. فَأَكَلُوا وَبَعَثَ بِهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَ أَنَّهُ أَكَلَ مِنْهَا»[1].

خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ:

خُبَيْبُ بْنُ عَدِيِّ بْنِ عَامِرِ بْنِ مَجْدَعَةَ بْنِ جَحْجَبَا الْأَنْصَارِيُّ الشَّهِيدُ، شَهِدَ أُحُدًا، وَكَانَ فِيمَنْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ بَنِي لِحْيَانَ، فَلَمَّا صَارُوا بِالرَّجِيعِ، غَدَرُوا بِهِمْ، وَاسْتَصْرَخُوا عَلَيْهِمْ، وَقَتَلُوا فِيهِمْ، وَأَسَرُوا خُبَيْبًا، وَزَيْدَ بْنَ الدَّثِنَةِ، فَبَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ، فَقَتَلُوهُمَا بِمَنْ قَتَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَصَلَبُوهُمَا بِالتَّنْعِيم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَشَرَةَ عَيْنًا وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيَّ جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْهَدَةِ بَيْنَ عَسْفَانَ وَمَكَّةَ ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لِحْيَانَ، فَنَفَرُوا لَهُمْ بِقَرِيبٍ مِنْ مِائَةِ رَجُلٍ رَامٍ فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى وَجَدُوا مَأْكَلَهُمُ التَّمْرَ فِي مَنْزِلٍ نَزَلُوهُ، فَقَالُوا: تَمْرُ يَثْرِبَ. فَاتَّبَعُوا آثَارَهُمْ فَلَمَّا حَسَّ بِهِمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجَؤُوا إِلَى مَوْضِعٍ فَأَحَاطَ بِهِمُ الْقَوْمُ فَقَالُوا لَهُمْ: انْزِلُوا فَأَعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ وَلَكُمُ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ أَنْ لَا نَقْتُلَ مِنْكُمْ أَحَدًا. فَقَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ: أَيُّهَا الْقَوْمُ أَمَّا أَنَا فَلَا أَنْزِلُ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ ﷺ. فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ فَقَتَلُوا عَاصِمًا وَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ عَلَى الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ مِنْهُمْ خُبَيْبٌ وَزَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ وَرَجُلٌ آخَرُ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فَرَبَطُوهُمْ بِهَا، قَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ: هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ وَاللهِ لَا أَصْحَبُكُمْ إِنَّ لِي بِهَؤُلَاءِ أُسْوَةً يُرِيدُ الْقَتْلَى. فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ فَأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ، فَانْطُلِقَ بِخُبَيْبٍ وَزَيْدِ بْنِ الدَّثِنَةِ حَتَّى بَاعُوهُمَا بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَابْتَاعَ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ خُبَيْبًا، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الْحَارِثَ بْنَ عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ، فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦١٤١).

حَتَّى أَجْمَعُوا قَتْلَهُ، فَاسْتَعَارَ مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الْحَارِثِ مُوسًى يَسْتَحِدُّ بِهَا فَأَعَارَتْهُ، فَدَرَجَ بُنَيٌّ لَهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ حَتَّى أَتَاهُ فَوَجَدَتْهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَالْمُوسَى بِيَدِهِ، قَالَتْ: فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ. فَقَالَ: أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ. قَالَتْ: وَاللهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ، وَاللهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ فِي يَدِهِ وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ بِالْحَدِيدِ وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرَةٍ، وَكَانَتْ تَقُولُ: إِنَّهُ لَرِزْقٌ رَزَقَهُ اللهُ خُبَيْبًا. فَلَمَّا خَرَجُوا بِهِ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الْحِلِّ قَالَ لَهُمْ خُبَيْبٌ: دَعُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ. فَتَرَكُوهُ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ فَقَالَ: وَاللهِ لَوْلَا أَنْ تَحْسِبُوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَزِدْتُ. ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا، وَلَا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا». ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ للهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ أَبُو سِرْوَعَةَ عُقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ فَقَتَلَهُ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَّ لِكل مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا الصَّلاة، وَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ يَوْمَ أُصِيبُوا خَبَرَهُمْ وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ حِينَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ أَنْ يُؤْتَوْا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ وَكَانَ قَتَلَ رَجُلًا عَظِيمًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ، فَبَعَثَ اللهُ لِعَاصِمٍ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ فَحَمَتْهُ مِنْ رُسُلِهِمْ، فَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَقْطَعُوا مِنْهُ شَيْئًا»(١).

الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ:

الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ، الْأَنْصَارِيُّ النَّجَّارِيُّ الْمَدَنِيُّ، الْبَطَلُ الْكَرَّارُ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَخُو خَادِمِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ»(٢).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كم من ضعيف متضعف

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٩٨٩).

(٢) صحيح: رَوَاهُ الترمذي (٣٨٥٤)، قال الشيخ الألباني: صحيح.

ذِي طِمْرَيْنِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأبر قسمه مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ، فإن البراء لقي زحفًا من المشركين وقد أوجع المشركون في المسلمين»، فقالوا: يا براء، إن رسول الله ﷺ قال: «إنك لو أقسمت على الله لأبرك، فأقسم على ربك». فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم. ثم التقوا على قنطرة السوس، فأوجعوا في المسلمين، فقالوا له: يا براء، أقسم على ربك. فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، وألحقتني بنبيك ﷺ. فمنحوا أكتافهم، وقتل البراء شهيدًا(١).

خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ:

خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، سَيْفُ اللهِ تَعَالَى، وَفَارِسُ الإِسْلَامِ، وَلَيْثُ الْمَشَاهِدِ، السَّيِّدُ، الإِمَامُ، الأَمِيرُ الْكَبِيرُ، قَائِدُ الْمُجَاهِدِينَ، أَبُو سُلَيْمَانَ الْقُرَشِيُّ الْمَخْزُومِيُّ الْمَكِّيُّ، وَابْنُ أُخْتِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ.

عَنْ قَتَادَةَ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ خَالِدًا إِلَى الْعُزَّى، وَكَانَتْ لِهَوَازِنَ، وَسَدَنَتُهَا بَنُو سُلَيْم، فَقَالَ: انْطَلِقْ، فَإِنَّهُ يَخْرُجُ عَلَيْكَ امْرَأَةٌ شَدِيدَةُ السَّوَادِ، طَوِيلَةُ الشَّعْرِ، عَظِيمَةُ الثَّدْيَيْنِ، قَصِيرَةٌ. فَقَالُوا يُحَرِّضُونَهَا:

يَا عُزُّ شُدِّي شَدَّةً لَا سِوَاكِهَا ... عَلَى خَالِدٍ أَلْقِي الْخِمَارَ وَشَمِّرِي
فَإِنَّكِ إِنْ لَا تَقْتُلِي الْمَرْءَ خَالِدًا ... تَبُوئِي بِذَنْبٍ عَاجِلٍ وَتُقَصِّرِي

فَشَدَّ عَلَيْهَا خَالِدٌ، فَقَتَلَهَا، وَقَالَ: ذَهَبَتِ الْعُزَّى فَلَا عُزَّى بَعْدَ الْيَوْمِ».

عَنْ جَعْفَر بن عَبْد الله بن الْحَكَم بن رَافِع الأَنْصَارِيّ: «أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَقَدَ قَلَنْسُوَةً لَهُ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ، فَقَالَ: اطْلُبُوهَا. فَلَمْ يَجِدُوهَا، ثُمَّ وُجِدَتْ فَإِذَا هِيَ قَلَنْسُوَةٌ خَلِقَةٌ، فَقَالَ خَالِدٌ: اعْتَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَحَلَقَ رَأْسَهُ، فَابْتَدَرَ النَّاسُ شَعْرَهُ، فَسَبَقْتُهُمْ إِلَى نَاصِيَتِهِ، فَجَعَلْتُهَا فِي هَذِهِ الْقَلَنْسُوَةِ، فَلَمْ أَشْهَدْ قِتَالًا وَهِيَ مَعِي إِلَّا رُزِقْتُ النَّصْرَ».

قَالَ قَيْسُ بْنُ أَبِي حَازِمٍ: سَمِعْتُ خَالِدًا يَقُولُ: «مَنَعَنِي الْجِهَادُ كَثِيرًا مِنَ

---

(١) حسن: الحاكم «المستدرك» (٣/ ٣٣١) هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

الْقِرَاءَةِ، وَرَأَيْتُهُ أُتِيَ بِسُمٍّ، فَقَالُوا: مَا هَذَا؟ قَالُوا: سُمٌّ، قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، وَشَرِبَهُ».

قال الذهبي ـ قُلْتُ: هَذِهِ وَاللهِ الْكَرَامَةُ، وَهَذِهِ الشَّجَاعَةُ.

عَنْ خَيْثَمَةَ، قَالَ: «أُتِيَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِرَجُلٍ مَعَهُ زِقُّ خَمْرٍ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ عَسَلًا، فَصَارَ خَلًّا»»[1].

سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ:

سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَاسْمُ أَبِي وَقَّاصٍ مَالِكُ بْنُ أُهَيبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، الْأَمِيرُ أَبُو إِسْحَاقَ الْقُرَشِيُّ الزُّهْرِيُّ الْمَكِّيُّ. أَحَدُ الْعَشَرَةِ، وَأَحَدُ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، وَأَحَدُ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ، وَأَحَدُ السِّتَّةِ أَهْلِ الشُّورَى.

عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ عَنْ سَعْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ لِسَعْدٍ إِذَا دَعَاكَ»[2].

عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ «أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَقَعُ فِي عَلِيٍّ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، فَجَعَلَ سَعْدٌ يَنْهَاهُ وَيَقُولُ: لَا تَقَعْ فِي إِخْوَانِي. فَأَبَى، فَقَامَ سَعْدٌ، وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَدَعَا، فَجَاءَ بُخْتِيٌّ يَشُقُّ النَّاسَ، فَأَخَذَهُ بِالْبَلَاطِ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ كِرْكِرَتِهِ وَالْبَلَاطِ حَتَّى سَحَقَهُ، فَأَنَا رَأَيْتُ النَّاسَ يَتَّبِعُونَ سَعْدًا يَقُولُونَ: هَنِيئًا لَكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ، اسْتُجِيبَتْ دَعْوَتُكَ».

قال الذهبي: فِي هَذَا كَرَامَةٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الدَّاعِي وَالَّذِينَ نِيلَ مِنْهُمْ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: «شَكَا أَهْلُ الْكُوفَةِ سَعْدًا إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه فَعَزَلَهُ وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّارًا، فَشَكَوْا حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لَا يُحْسِنُ يُصَلِّي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ إِنَّ هَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لَا تُحْسِنُ تُصَلِّي. قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: أَمَّا أَنَا وَاللهِ فَإِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي بِهِمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا أَخْرِمُ

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١/٣٧٦).

(٢) صحيح: رواهُ الترمذي (٣٧٥١)، قال الشيخ الألباني: صحيح.

عَنْهَا، أُصَلِّي صَلَاةَ الْعِشَاءِ فَأَرْكُدُ فِي الْأُولَيَيْنِ وَأُخِفُّ فِي الْأُخْرَيَيْنِ. قَالَ: ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ. فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلًا أَوْ رِجَالًا إِلَى الْكُوفَةِ فَسَأَلَ عَنْهُ أَهْلَ الْكُوفَةِ، وَلَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إِلَّا سَأَلَ عَنْهُ وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا، حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ قَالَ: أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لَا يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ، وَلَا يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلَا يَعْدِلُ فِي الْقَضِيَّةِ. قَالَ سَعْدٌ: أَمَا وَاللهِ لَأَدْعُوَنَّ بِثَلَاثٍ: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً فَأَطِلْ عُمْرَهُ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ بِالْفِتَنِ». وَكَانَ بَعْدُ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ».

قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الْكِبَرِ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ[1].

سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ:

سَعِيدُ بْنُ زَيْدِ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، أَبُو الْأَعْوَرِ الْقُرَشِيُّ الْعَدَوِيُّ، أَحَدُ الْعَشَرَةِ الْمَشْهُودِ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَمِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ الْبَدْرِيِّينَ، وَمِنَ الَّذِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، شَهِدَ الْمَشَاهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَشَهِدَ حِصَارَ دِمَشْقَ وَفَتْحَهَا، فَوَلَّاهُ عَلَيْهَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَمِلَ نِيَابَةَ دِمَشْقَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَخْنَسِ «أَنَّهُ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ فَذَكَرَ رَجُلٌ عَلِيًّا عليه السلام، فَقَامَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ فَقَالَ: أَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي سَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: «عَشَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ وَأَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدُ بْنُ مَالِكٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَلَوْ شِئْتُ لَسَمَّيْتُ الْعَاشِرَ قَالَ: فَقَالُوا: مَنْ هُوَ؟. فَسَكَتَ قَالَ: فَقَالُوا: مَنْ هُوَ؟ فَقَالَ: هُوَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ.

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧٥٥)، مُسْلِمٌ (٤٥٣).

عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ أَرْوَى بِنْتَ أُوَيْسٍ ادَّعَتْ عَلَى سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ أَنَّهُ أَخَذَ شَيْئًا مِنْ أَرْضِهَا، فَخَاصَمَتْهُ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، فَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا كُنْتُ آخُذُ مِنْ أَرْضِهَا شَيْئًا بَعْدَ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ!!. قَالَ: وَمَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ»، فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ: لَا أَسْأَلُكَ بَيِّنَةً بَعْدَ هَذَا. فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَعَمِّ بَصَرَهَا، وَاقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا». قَالَ: فَمَا مَاتَتْ حَتَّى ذَهَبَ بَصَرُهَا، ثُمَّ بَيْنَا هِيَ تَمْشِي فِي أَرْضِهَا إِذْ وَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ فَمَاتَتْ»(١).

أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ:

أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلِأَبِي أُمَامَةَ كَرَامَةٌ بَاهِرَةٌ جزء هُوَ مِنْهَا. وَهِيَ فِي كَرَامَاتِ الدَّاكَالِيِّ، وَأَنَّهُ تَصَدَّقَ بِثَلَاثَةِ دَنَانِيرَ، فَلَقِيَ تَحْتَ كَرَاجَتِهِ ثَلَاثَمِائَةِ دِينَارٍ(٢).

سَفِينَةُ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ:

سَفِينَةُ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ، كَانَ عَبْدًا لِأُمِّ سَلَمَةَ، فَأَعْتَقَتْهُ، وَشَرَطَتْ عَلَيْهِ خِدْمَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا عَاشَ.

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ، عَنْ سَفِينَةَ: «أَنَّهُ رَكِبَ الْبَحْرَ، فَانْكَسَرَ بِهِمُ الْمَرْكِبُ، فَأَلْقَاهُ الْبَحْرُ إِلَى السَّاحِلِ، فَصَادَفَ الْأَسَدَ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْأَسَدُ! أَنَا سَفِينَةُ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَدَلَّهُ الْأَسَدُ عَلَى الطَّرِيقِ. قَالَ: ثُمَّ هَمْهَمَ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَعْنِي السَّلَامَ»(٣).

الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ:

وَاسْمُهُ الْعَلَاءُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عِمَادِ بْنِ أَكْبَرَ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ مُقَنَّعِ بْنِ

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٦١٠).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٦٢).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ١٧٣).

حَضْرَمَوْتَ، كَانَ مِنْ حُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ، وَمِنْ سَادَةِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخُوهُ مَيْمُونُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ هُوَ الْمَنْسُوبُ إِلَيْهِ بِئْرُ مَيْمُونٍ الَّتِي بِأَعْلَى مَكَّةَ، احْتَفَرَهَا قَبْلَ الْمَبْعَثِ.

عَنْ عُرْوَةَ قَالَ: «بَعَثَهُ ـ يَعْنِي الْعَلَاءَ ـ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِي جَيْشٍ قِبَلَ الْبَحْرَيْنِ ـ وَكَانُوا قَدِ ارْتَدُّوا ـ فَسَارَ إِلَيْهِمْ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَهُمُ الْبَحْرُ ـ يَعْنِي الرَّقْرَاقَ ـ حَتَّى مَشَوْا فِيهِ بِأَرْجُلِهِمْ، فَقَطَعُوا كَذَلِكَ مَكَانًا كَانَتْ تَجْرِي فِيهِ السُّفُنُ، وَهِيَ الْيَوْمَ تَجْرِي فِيهِ أَيْضًا، فَقَاتَلَهُمْ، وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَبَذَلُوا الزَّكَاةَ».

وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَقُولُ: «رَأَيْتُ مِنَ الْعَلَاءِ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ لَا أَزَالُ أُحِبُّهُ أَبَدًا:

ـ قَطَعَ الْبَحْرَ عَلَى فَرَسِهِ يَوْمَ دَارِينَ.

ـ وَقَدِمَ يُرِيدُ الْبَحْرَيْنِ، فَدَعَا اللهَ بِالدَّهْنَاءِ ـ موضع قريب من البصرة ـ، فَنَبَعَ لَهُمْ مَاءٌ فَارْتَوَوْا، وَنَسِيَ رَجُلٌ مِنْهُمْ بَعْضَ مَتَاعِهِ فَرَدَّ، فَلَقِيَهُ وَلَمْ يَجِدِ الْمَاءَ.

ـ وَمَاتَ وَنَحْنُ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، فَأَبْدَى اللهُ لَنَا سَحَابَةً، فَمُطِرْنَا، فَغَسَلْنَاهُ، وَحَفَرْنَا لَهُ بِسُيُوفِنَا، وَدَفَنَّاهُ، وَلَمْ نُلْحِدْ لَهُ»(١).

وقال ياقوت(٢): إن المسلمين اقتحموا إلى دارين البحر مع العلاء بن الحضرمي، فأجازوا ذلك الخليج بإذن الله جميعًا يمشون على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل، وإن ما بين دارين والساحل مسيرة يوم وليلة لسفر البحر في بعض الحالات، فالتقوا وقتلوا، وسبوا فبلغ منهم الفارس ستة آلاف، والراجل ألفين.

فقال في ذلك عفيف بن المنذر:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ ذَلَّـلَ بَـحْـرَهُ ... وَأَنْزَلَ بِالْكُفَّارِ إِحْدَى الْجَلَائِلِ
دَعَوْنَا الَّذِي شَقَّ الْبِحَارَ فَجَاءَنَا ... بِأَعْجَبَ مِنْ فَلْقِ الْبِحَارِ الأَوَائِلِ

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٦).

(٢) «معجم البلدان» (٢/ ٤٣٢).

أُمُّ أَيْمَنَ مَوْلَاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

أُمُّ أَيْمَنَ الْحَبَشِيَّةُ، مَوْلَاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَحَاضِنَتُهُ وَرِثَهَا مِنْ أَبِيهِ، ثُمَّ أَعْتَقَهَا عِنْدَمَا تَزَوَّجَ بِخَدِيجَةَ.

قَالَ عُثْمَانُ بْنُ الْقَاسِمِ: «لَمَّا هَاجَرَتْ أُمُّ أَيْمَنَ أَمْسَتْ بِالْمُنْصَرَفِ دُونَ الرَّوْحَاءِ، فَعَطِشَتْ وَلَيْسَ مَعَهَا مَاءٌ وَهِيَ صَائِمَةٌ، وَجَهَدَتْ، فَدُلِّيَ عَلَيْهَا مِنَ السَّمَاءِ دَلْوٌ مِنْ مَاءٍ بِرِشَاءٍ أَبْيَضَ، فَشَرِبَتْ، وَكَانَتْ تَقُولُ: «مَا أَصَابَنِي بَعْدَ ذَلِكَ عَطَشٌ، وَلَقَدْ تَعَرَّضْتُ لِلْعَطَشِ بِالصَّوْمِ فِي الْهَوَاجِرِ فَمَا عَطِشْتُ»».

قَالَ فُضَيْلُ بْنُ مَرْزُوقٍ، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُقْبَةَ، قَالَ: «كَانَتْ أُمُّ أَيْمَنَ تُلْطِفُ النَّبِيَّ ﷺ وَتَقُومُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلْيَتَزَوَّجْ أُمَّ أَيْمَنَ»»(١).

سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ:

عَالِمُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَسَيِّدُ التَّابِعِينَ فِي زَمَانِهِ.

قال عبد الله بن كثير: قَدِمَ بَعْضُ أُمَرَاءِ المدينةِ واليًا عليها، فأتاه عَلِي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ونفرٌ من قريش فقال: أيكم سعيد بن المسيب؟. فقال له علي بن حسين: إنَّ سَعِيدًا لَيَلْزَم مَسْجِدَهُ وَيَجْفُوا الأُمَرَاء. فقال: تأتيني أنت يعني علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وسالم بن عبد الله يعني ابن عمر بن الخطاب، وسمى أولئك الذين أتوه من قريش؛ وإن لم يأتني والله لأضْرِبن عُنُقَهُ، ثم والله لأضربنَّ عنقه، ثم والله لأضربن عنقه. قال: فقال علي بن الحسين: فَضَاقَ بنا المجلس حتى قمنا، فأتيت سعيد بن المسيب فجلست إليه وذكرت له ما قال، وقلت: تخرج إلى العُمْرة. فقال: ما حضرتني في ذلك نية، وإِنَّ أحبَّ الأعمالِ إلي ما نويت. فقلت: فتصيرُ إلى بعضِ منزلِ

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٢٤).

بعض إخوانك. قال: فما أصنع بهذا المنادي الذي ينادي كل يوم خمس مرات، والله لا يناديني إلا أتيته. قلت: فتحول عن مجلسك إلى هذا المسجد، فإنك إذا طلبت إنما تطلب في مجلسك. قال: ولم أدع مجلسًا عوَّدني الله فيه من الخير ما عودني؟ قال: قلت: أي أخي أما تخاف؟! قال: أما إذ ذكرت يا أخي فإن الله تعالى ليعلم أني لا أخاف شيئًا غيره، ولكن أول ما أقول وأوسطه وآخره حمدًا لله وثناء عليه وصلاة على محمد ﷺ وأسأل الله تعالى أن ينسيه ذكري. قال: فمكث ذلك الأمير على المدينة ما شاء الله لم يذكره، قال: فبينا هو ذات يوم على منزل من المدينة وغلام له يوضؤه، إذ قال للغلام: «أمسك، واسوأتاه من علي بن الحسين، والقاسم بن محمد وسالم، إني حلفت أن أقتل سعيد بن المسيب، والله ما ذكرته في سَاعةٍ من ليلٍ ولا نهارٍ حتى ساعتي هذه». فقال له غلامه: «أي مولاي فما أراد الله بك خير مما أردت بنفسك»[1].

أَبُو مُسْلِمِ الْخَوْلَانِيُّ:

سَيِّدُ التَّابِعِينَ وَزَاهِدُ الْعَصْرِ.

قَالَ شُرَحْبِيلُ: «إِنَّ الْأَسْوَدَ تَنَبَّأَ بِالْيَمَنِ، فَبَعَثَ إِلَى أَبِي مُسْلِمٍ فَأَتَاهُ بِنَارٍ عَظِيمَةٍ، ثُمَّ أَنَّهُ أَلْقَى أَبَا مُسْلِمٍ فِيهَا، فَلَمْ تَضُرَّهُ، فَقِيلَ لِلْأَسْوَدِ: إِنْ لَمْ تَنْفِ هَذَا عَنْكَ أَفْسَدَ عَلَيْكَ مَنِ اتَّبَعَكَ. فَأَمَرَهُ بِالرَّحِيلِ فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَأَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يُصَلِّي، فَبَصُرَ بِهِ عُمَرُ ﷺ فَقَامَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مِمَّنِ الرَّجُلُ؟. قَالَ: مِنَ الْيَمَنِ. قَالَ: مَا فَعَلَ الَّذِي حَرَقَهُ الْكَذَّابُ بِالنَّارِ؟ قَالَ: ذَاكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ ثَوْبٍ. قَالَ: نَشَدْتُكَ بِاللهِ، أَنْتَ هُوَ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ. فَاعْتَنَقَهُ عُمَرُ وَبَكَى، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ حَتَّى أَجْلَسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصِّدِّيقِ. فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يُمِتْنِي حَتَّى أَرَانِي فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ مَنْ صُنِعَ بِهِ كَمَا صُنِعَ بِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ».

---

(١) «كرامات الأولياء» (١/ ١٦٦ ـ ١٦٧).

وروى مُحَمَّدُ بْنُ زِيَادٍ الْأَلْهَانِيُّ، عَنْ أَبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيِّ: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا غَزَا أَرْضَ الرُّومِ، فَمَرُّوا بِنَهْرٍ فَقَالَ: «أَجِيزُوا بِسْمِ اللهِ». وَيَمُرُّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَيَمُرُّونَ بِالنَّهْرِ الْغَمْرِ، فَرُبَّمَا لَمْ يَبْلُغْ مِنَ الدَّوَابِّ إِلَّا الرُّكَبَ، فَإِذَا جَازُوا قَالَ: هَلْ ذَهَبَ لَكُمْ شَيْءٌ؟ فَمَنْ ذَهَبَ لَهُ شَيْءٌ فَأَنَا ضَامِنٌ لَهُ؟ فَأَلْقَى بَعْضُهُمْ مِخْلَاتَهُ عَمْدًا فَلَمَّا جَاوَزُوا قَالَ الرَّجُلُ: مِخْلَاتِي وَقَعَتْ، قَالَ: اتْبَعْنِي فَأَتْبَعَهُ، فَإِذَا بِهَا مُعَلَّقَةٌ بِعُودٍ فِي النَّهْرِ، قَالَ: خُذْهَا»[1].

عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، قَالَ: «كَانَ أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ إِذَا اسْتَسْقَى سُقِيَ».

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ، عَنْ أَبِي مُسْلِمٍ: «أَنَّ امْرَأَةً خَبَّبَتْ عَلَيْهِ امْرَأَتَهُ، فَدَعَا عَلَيْهَا، فَعَمِيَتْ، فَأَتَتْهُ فَاعْتَرَفَتْ وَتَابَتْ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ صَادِقَةً، فَارْدُدْ بَصَرَهَا»، فَأَبْصَرَتْ».

عَنْ بِلَالِ بْنِ كَعْبٍ: «أَنَّ الصِّبْيَانَ قَالُوا لِأَبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيِّ: ادْعُ اللهَ أَنَّ يَحْبِسَ عَلَيْنَا هَذَا الظَّبْيَ فَنَأْخُذَهُ. فَدَعَا اللهَ، فَحَبَسَهُ، فَأَخَذُوهُ».

وَعَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ: «أَنَّ امْرَأَةَ أَبِي مُسْلِمٍ قَالَتْ: لَيْسَ لَنَا دَقِيقٌ. فَقَالَ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: دِرْهَمٌ بِعْنَا بِهِ غَزْلًا. قَالَ: ابْغِينِيهِ وَهَاتِي الْجِرَابَ. فَدَخَلَ السُّوقَ، فَأَتَاهُ سَائِلٌ، وَأَلَحَّ، فَأَعْطَاهُ الدِّرْهَمَ، وَمَلَأَ الْجِرَابَ نُشَارَةً مَعَ تُرَابٍ، وَأَتَى وَقَلْبُهُ مَرْعُوبٌ مِنْهَا، وَذَهَبَ، فَفَتَحَتْهُ، فَإِذَا بِهِ دَقِيقٌ حُوَّارَى. فَعَجَنَتْ وَخَبَزَتْ، فَلَمَّا جَاءَ لَيْلًا، وَضَعَتْهُ، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ هَذَا؟. قَالَتْ: مِنَ الدَّقِيقِ، فَأَكَلَ وَبَكَى»[2].

مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ:

مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ، الْإِمَامُ، الْقُدْوَةُ، الْحُجَّةُ، أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَرَشِيُّ الْعَامِرِيُّ الْبَصْرِيُّ، أَخُو يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ اللهِ.

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٩ ـ ١١).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١١).

عَنْ غَيْلَانَ بْنِ جَرِيرٍ، قَالَ: «أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ وَبَيْنَ رَجُلٍ كَلَامٌ، فَكَذِبَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ كَاذِبًا فَأَمِتْهُ»، فَخَرَّ مَيِّتًا مَكَانَهُ. قَالَ: فَرُفِعَ ذَلِكَ إِلَى زِيَادٍ فَقَالَ: قَتَلْتَ الرَّجُلَ؟ قَالَ: لَا؛ وَلَكِنَّهَا دَعْوَةٌ وَافَقَتْ أَجَلًا. كَانَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللهِ وَصَاحِبٌ لَهُ سَرِيَا فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، فَإِذَا طَرَفُ سَوْطِ أَحَدِهِمَا عِنْدَهُ ضَوْءٌ، فَقَالَ: أَمَا أَنَّهُ لَوْ حَدَّثْنَا النَّاس بِهَذَا كَذَّبُونَا. فَقَالَ مُطَرِّفٌ: الْمُكَذِّبُ أَكْذَبُ ـ يَقُولُ: الْمُكَذِّبُ بِنِعْمَةِ اللهِ أَكْذَبُ».

عَنْ غَيْلَانَ بْنِ جَرِيرٍ، قَالَ: «أَقْبَلَ مُطَرِّفٌ مَعَ ابْنِ أَخٍ لَهُ مِنَ الْبَادِيَةِ ـ وَكَانَ يَبْدُو ـ فَبَيْنَا هُوَ يَسِيرُ سَمِعَ فِي طَرَفِ سَوْطِهِ كَالتَّسْبِيحِ فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَخِيهِ: لَوْ حَدَّثْنَا النَّاس بِهَذَا، كَذَّبُونَا، فَقَالَ: الْمُكَذِّبُ أَكْذَبُ النَّاس».

قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ: «كَانَ مُطَرِّفٌ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ، سَبَّحَتْ مَعَهُ آنِيَةُ بَيْتِهِ»[1].

عامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ:

عَنْ يَزِيدَ بْنِ الشِّخِّيرِ: «أَنَّ عَامِرًا كَانَ يَأْخُذُ عَطَاءَهُ، فَيَجْعَلُهُ فِي طَرَفِ ثَوْبِهِ، فَلَا يَلْقَى مِسْكِينًا إِلَّا أَعْطَاهُ، فَإِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ، رَمَى بِهِ إِلَيْهِمْ، فَيُعِدُّونَهَا فَيَجِدُونَهَا كَمَا أُعْطِيَهَا»[2].

صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ:

عَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلَالٍ، عَنْ صِلَةَ، قَالَ: «خَرَجْنَا فِي قَرْيَةٍ وَأَنَا عَلَى دَابَّتِي فِي زَمَانِ فُيُوضِ الْمَاءِ، فَأَنَا أَسِيرُ عَلَى مُسَنَّاةٍ، فَسِرْتُ يَوْمًا لَا أَجِدُ مَا آكُلُ، فَلَقِيَنِي عِلْجٌ يَحْمِلُ عَلَى عَاتِقِهِ شَيْئًا، فَقُلْتُ: ضَعْهُ، فَإِذَا هُوَ خُبْزٌ. قُلْتُ: أَطْعِمْنِي. فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ وَلَكِنْ فِيهِ شَحْمُ خِنْزِيرٍ، فَتَرَكْتُهُ. ثُمَّ لَقِيتُ آخَرَ، فَقُلْتُ: أَطْعِمْنِي. قَالَ: هُوَ زَادِي لِأَيَّامٍ، فَإِنْ نَقَصْتَهُ، أَجَعْتَنِي، فَتَرَكْتُهُ. فَوَاللهِ

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٨٩ ـ ١٩٥).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٨).

إِنِّي لَأَسِيرُ، إِذْ سَمِعْتُ خَلْفِي وَجْبَةً كَوَجْبَةِ الطَّيْرِ، فَالْتَفَتُّ، فَإِذَا هُوَ شَيْءٌ مَلْفُوفٌ فِي سِبٍّ أَبْيَضَ[1]، فَنَزَلْتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا دَوْخَلَةٌ مِنْ رُطَبٍ[2] فِي زَمَانٍ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ رُطَبَةٌ، فَأَكَلْتُ مِنْهُ، ثُمَّ لَفَفْتُ مَا بَقِيَ، وَرَكِبْتُ الْفَرَسَ، وَحَمَلْتُ مَعِي نَوَاهُنَّ».

قَالَ جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ: فَحَدَّثَنِي أَوْفَى بْنُ دَلْهَمٍ قَالَ: رَأَيْتُ ذَلِكَ السِّبَّ مَعَ امْرَأَتِهِ فِيهِ مُصْحَفٌ، ثُمَّ فُقِدَ بَعْدُ.

وَرَوَى نَحْوَهُ عَوْفٌ، عَنْ أَبِي السَّلِيلِ، عَنْ صِلَةَ.

قال الذهبي: فَهَذِهِ كَرَامَةٌ ثَابِتَةٌ.

عَنْ حَمَّادِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ زَيْدٍ، أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ، قَالَ: «خَرَجْنَا فِي غَزَاةٍ إِلَى كَابُلَ، وَفِي الْجَيْشِ صِلَةُ، فَنَزَلُوا، فَقُلْتُ: لَأَرْمُقَنَّ عَمَلَهُ؛ فَصَلَّى، ثُمَّ اضْطَجَعَ، فَالْتَمَسَ غَفْلَةَ النَّاسِ، ثُمَّ وَثَبَ، فَدَخَلَ غَيْضَةً، فَدَخَلْتُ، فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ أَسَدٌ حَتَّى دَنَا مِنْهُ، فَصَعِدْتُ شَجَرَةً، أَفْتَرَاهُ الْتَفَتَ إِلَيْهِ حَتَّى سَجَدَ؟ فَقُلْتُ: الْآنَ يَفْتَرِسُهُ فَلَا شَيْءَ، فَجَلَسَ، ثُمَّ سَلَّمَ. فَقَالَ: «يَا سَبُعُ! اطْلُبِ الرِّزْقَ بِمَكَانٍ آخَرَ». فَوَلَّى وَإِنَّ لَهُ زَئِيرًا أَقُولُ؛ تَصَدَّعَ مِنْهُ الْجَبَلُ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ، جَلَسَ، فَحَمِدَ اللهَ بِمَحَامِدَ لَمْ أَسْمَعْ بِمِثْلِهَا، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُجِيرَنِي مِنَ النَّارِ، أَوَ مِثْلِي يَجْتَرِئُ أَنْ يَسْأَلَكَ الْجَنَّةَ؟»».

عَنْ الْعَلَاءِ بْنِ هِلَالٍ، «أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِصِلَةَ: يَا أَبَا الصَّهْبَاءِ! رَأَيْتُ أَنِّي أُعْطِيتُ شُهْدَةً، وَأُعْطِيتَ شُهْدَتَيْنِ، فَقَالَ: تُسْتَشْهَدُ وَأَنَا وَابْنِي، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ يَزِيدَ بْنِ زِيَادٍ؛ لَقِيَتْهُمُ التُّرْكُ بِسِجِسْتَانَ، فَانْهَزَمُوا. وَقَالَ صِلَةُ: يَا بُنَيَّ ارْجِعْ إِلَى أُمِّكَ، قَالَ: يَا أَبَهْ؛ تُرِيدُ الْخَيْرَ لِنَفْسِكَ، وَتَأْمُرُنِي بِالرُّجُوعِ! قَالَ: فَتَقَدَّمْ، فَتَقَدَّمَ، فَقَاتَلَ حَتَّى أُصِيبَ، فَرَمَى صِلَةُ عَنْ جَسَدِهِ، وَكَانَ رَامِيًا، حَتَّى تَفَرَّقُوا عَنْهُ، وَأَقْبَلَ حَتَّى قَامَ عَلَيْهِ، فَدَعَا لَهُ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ».

---

(١) السب: الخمار.

(٢) الدوخلة: زبيل من خوص يجعل فيه التمر.

قُلْتُ ـ الذهبي ـ: وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَلْحَمَةُ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ ـ رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَى[1].

سُفْيَان الثَّوْرِيّ:

قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: «بعَثَ أَبُو جَعْفَرٍ الْخَشَّابِينَ حِينَ خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ، وَقَالَ: إِنْ رَأَيْتُمْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ فَاصْلُبُوهُ. فَجَاءَ النَّجَّارُونَ، وَنَصَبُوا الْخَشَبَ، وَنُودِيَ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأْسُهُ فِي حِجْرِ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ، وَرِجلَاهُ فِي حِجْرِ ابْنِ عُيَيْنَةَ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! اتَّقِ اللهَ، لَا تُشْمِتْ بِنَا الْأَعْدَاءَ، فَتَقَدَّمَ إِلَى الْأَسْتَارِ، ثُمَّ أَخَذَهُ، وَقَالَ: «بَرِئْتُ مِنْهُ إِنْ دَخَلَهَا أَبُو جَعْفَرٍ». قَالَ: فَمَاتَ أَبُو جَعْفَرٍ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ سُفْيَانُ، فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا».

قال الذهبي: هَذِهِ كَرَامَةٌ ثَابِتَةٌ، سَمِعَهَا الْحَاكِمُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ الْمُزَكِّي، سَمِعْتُ السَّرَّاجَ، عَنْهُ[2].

عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ:

عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ الزَّاهِدُ، الْقُدْوَةُ، شَيْخُ الْعُبَّادِ أَبُو عُبَيْدَةَ الْبَصْرِيُّ.

قَالَ ابْنُ أَبِي الْحَوَارِيِّ: قَالَ لِي أَبُو سُلَيْمَانَ: «أَصَابَ عَبْدَ الْوَاحِدِ الْفَالِجُ، فَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُطْلِقَهُ فِي وَقْتِ الْوُضُوءِ، فَكَانَ إِذَا أَرَادَ الْوُضُوءَ انْطَلَقَ، وَإِذَا رَجَعَ إِلَى سَرِيرِهِ فُلِجَ»[3].

سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ:

عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ قَالَ: «اسْتَعَارَ سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ مِنْ رَجُلٍ فَرْوَةً، فَلَبِسَهَا ثُمَّ رَدَّهَا، قَالَ الرَّجُلُ: «فَمَا زِلْتُ أَجِدُ فِيهَا رِيحَ الْمِسْكِ».

وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَجُلٍ تَنَازُعٌ، فَتَنَاوَلَ الرَّجُلُ سُلَيْمَانَ، فَغَمَزَ بَطْنَهُ، فَجَفَّتْ يَدُ الرَّجُلِ[4].

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٥١). (٣) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٧٩).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٩٨).

حوارٌ مع النَّفسِ

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وَقد خلقت أمّارةً بالسُّوء، ميالة إلى الشَّر، فرَّارة من الخير، وَأمرت بتزكيتها وَتقويمها، وَقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وَخالقها، وَمنعها عَنْ شهواتها، وَفطامها عَنْ لذّاتها، فَإِن أهملتها جمحت وَشردت وَلم تظفر بها بعد ذلك، وَإن لازمتها بالتوبيخ وَالمعاتبة وَالعذل وَالملامة كانت نفسك هي النَّفس اللوامة التي أقسم الله بها وَرجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرةِ عباد الله راضيةً مرضيةً، قَالَ: فلا تغفلن ساعة عَنْ تذكيرها وَمعاتبتها وَلا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولًا بوعظ نفسك، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥]، وَسبيلك أن تُقبل عليها فتقرر عندها جهلها وَغباوتها، وَأنها أبدًا تتعزز بفطنتِها وَهدايتِها وَيشتد أنفها وَاستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها: يا نفسُ! ما أعظم جهلك، تدعين الحكمة والذكاء وَالفطنة؛ وَأنت أشد النّاس غباوة وَحمقًا، أما تعرفين ما بين يديك من الجنةِ وَالنّار، وَأنك صائرة إلى إحداهما على القرب؟ فما لك تفرحين وَتضحكِين، وَتشتغلين باللهو وَأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم، وَعساك اليوم تختطفين أَوْ غدًا، فأراك ترين الموت بعيدًا وَيراه الله قريبًا، أما تعلمين أن كلّ ما هو آت قريب، وَأن البعيد ما ليس بآت؟

أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول، وَمن غير مواعدةٍ وَمواطأة، وَأنه لا يأتي في شيء دون شيء، وَلا في شتاء دون صيف، وَلا في صيفٍ دون شتاء، وَلا في نهار دون ليل، وَلا في ليل دون نهار، وَلا يأتي في الصِّبا دون الشَّباب، وَلا في الشَّباب دون الصِّبا؟ بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، فَإِنْ لم يكن الموت فجأة فيكون المرض

فجأة ثم يفضي إلى الموت، فما لك لا تستعدين للموت وَهو أقرب إليك من كل قريب، أما تتدبرين قوله تَعَالَى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ ـ ٣].

وَيحك يا نفسُ! إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك؛ فما أعظم كفرك، وَإن كان مع علمك بإطلاعه عليك فما أشدّ وَقاحتك وَأقلّ حياءك، وَيحك يا نفس لو وَاجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه وَمقتك له؟ فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله وَغضبه وَشديد عقابه!؟ أفتظنين أنك تطيقين عذابه؟ هيهات هيهات جربي نفسك إن ألهاك البطر عَنْ أليم عذابه، فاحتبسي ساعة في الشمس، أَوْ في بيت الحمَّام، أَوْ قربي إصبعك من النار ليتبين قدر طاقتك، أم تغترين بكرم الله وَفضله وَاستغنائه عَنْ طاعتك وَعبادتك؟ فما لك لا تعوِّلين على كرم الله تَعَالَى في مهمات دنياك؟ فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه وَلا تكلينه إلى كرم الله تَعَالَى؟ وَإِذَا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدّنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار وَالدرهم، فما لك تنزعين الروح في طلبها وَتحصيلها من وجوه الحيل فلا تعولين على كرم الله تَعَالَى حتى يعثر بك على كنز، أَوْ يسخر عبدًا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك وَلا طلب، أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا وَقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها، وَأن ربَّ الآخرة وَالدنيا وَاحد وَأن ليس للإنسان إلا ما سعى.

ويحك يا نفسُ! ما أعجب نفاقك وَدواعيك الباطلة فإنك تدعين الإيمان بلسانك وَأثر النّفاق ظاهر عليك، ألم يقل لك سيدك وَمولاك: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وَقال في أمر الآخرة: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النجم: ٣٩]، فقد تكفَّل لك بأمر الدنيا خاصة وَصرفكِ عَنْ السَّعي فيها فكذبتِهِ بأفعالك وَأصبحتِ تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر، وَوكل أمر الآخرة

إلى سعيك فأعرضتِ عنها إعراض المغرور المستحقر، ما هذا من علامات الإيمان لو كان الإيمان باللسان فلِمَ كان المنافقون في الدَّرك الأسفلِ من النار.

وَيحك يا نفسُ! كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وَتظنين أنك إذا مت انفلت وَتخلصت وَهيهات، أتحسبين أنك تُترَكِينَ سُدًى، ألم تكوني نطفة من منِيٍّ يُمنى، ثم كنتِ علقةً فخلق فسوى، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى، فَإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وَأجهلك، أما تتفكرين أَنَّهُ مماذا خلقك من نطفة خلقك فقدرك، ثم السبيل يسرك، ثم أماتك فأقبرك، أفتكذبينه في قوله: ثم إذا شاء أنشرك، فَإن لم تكوني مكذبة فما لك لا تأخذين حذرك، وَلو أن يهوديًا أخبرك في ألذ أطعمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وَتركته وَجاهدت نفسك فيه، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وَقول الله تَعَالَى في كتبه المنزلة أقل عندك تأثيرًا من قول يهودي يخبرك عَنْ حَدْسٍ وَتخمين، وَظن مع نقصان عقل وَقصور علم، وَالعجب أَنَّهُ لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقربًا لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وَبرهان، أفكان قول الأنبياء وَالعلماء وَالحكماء وَكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء؟! أم صار حرّ جهنم وَأغلالها وَأنكالها وَزقومها وَمقامعها وَصديدها وَسمومها وَأفاعيها وَعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يومًا أَوْ أقل منه؟! ما هذه أفعال العقلاء، بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وَسخروا من عقلك.

فَإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وَآمنت به فما لك تسوِّفين العمل وَالموت لك بالمرصاد وَلعله يختطفك من غير مهلة فبماذا أمنت استعجال الأجل، وَهبك أنك وَعدت بالإمهال مائة سنة، أرأيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة فأقام فيها سنين متعطلًا بطالًا يعد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وَطنه هل كنت تضحكين من عقله وَظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة، أَوْ حسبانه أن مناصب الفقهاء تُنالُ من غير تفقهٍ اعتمادًا على

كرمِ اللهِ ﷻ ثم هبي أن الجهد في آخر العمر نافع وَأنه موصل إلى الدرجات العلا فلعل اليوم آخر عمرك فلم تشتغلين فيه بذلك، فَإنْ أوحى إليك بالإمهال فما المانع من المبادرة؟! وَما الباعث لك على التسويف؟! هل له سبب إلا عجزك عَنْ مخالفة شهواتك لما فيها من التعب وَالمشقة؟! أفتنتظرين يومًا يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات؟! هذا يوم لم يخلقه الله قط وَلا يخلقه، فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره، وَلا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس، وَهذا محال وَجوده، أما تتأملين مذ كم تعدين نفسك وَتقولين: غدًا غدًا. فقد جاء الغد وَصار يومًا فكيف وَجدته؟! أما علمت أن الغد الذي جاء وَصار يومًا كان له حكم الأمس؟! لا بل الذي تعجزين عنه اليوم فأنت غدًا عنه أعجز وَأعجز؛ لأن الشّهوة كالشّجرة الرّاسخة التي تعبد العبد بقلعها فإذا عجز العبد عَنْ قلعها للضعف وَأخّرَها كان كمن عجز عَنْ قلع شجرة وَهو شاب قوي فأخّرها إلى سنة أخرى؛ مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة وَرسوخًا وَيزيد القالع ضعفًا وَوهنًا، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب، بل من العناء رياضة الهرم وَمن التعذيب تهذيب الذيب.

والقضيب الرّطب يقبل الانحناء فإذا جف وَطال عليه الزمان لم يقبل ذلك، فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية؛ وَتركنين إلى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وَأية حماقة تزيد على هذه الحماقة.

ولعلك تقولين: ما يمنعني عَنْ الاستقامة إلا حرصي على لذة الشهوات وَقلة صبري على الآلام وَالمشقات. فما أشد غباوتك!! وَأقبح اعتذارك إن كنت صادقة في ذلك!! فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عَنْ الكدورات الدائمة أبد الآباد وَلا مطمع في ذلك إلا في الجنة، فَإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها قرب أكلة تمنع أكلات.

وما قولك في عقل مريض؛ أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح وَيهنأ بشربةٍ طول عمره، وَأخبره أَنَّهُ إن شرب ذلك مرض مرضًا مزمنًا؛ وَامتنع عليه شربه طول العمر، فما مقتضى العقل في قضاء حق الشّهوة

أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر؛ أم يقضي شهوته في الحال خوفًا من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثمائة يوم؛ وَثلاثة آلاف يوم؛ وَجميع عمرك، بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وَعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وَإن طالت مدته.

وليت شعري ألم الصبر عَنْ الشَّهوات أعظم شدة وَأطول مدة، أَوْ ألم النار في دركات جهنم؟! فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة؛ كيف يطيق ألم عذاب الله؟! ما أراك تتوانين عَنْ النظر لنفسك إلا لكفرٍ خفي، أَوْ لحمق جلي.

أما الكفر الخفي: فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وَقلة معرفتك بعظم قدر الثواب وَالعقاب.

وأما الحمق الجلي: فاعتمادك على كَرِم الله تَعَالَى وَعفوه من غير التفات إلى مكره، وَاستدراجه وَاستغنائه عَنْ عبادتك، مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز، أَوْ حبةٍ من المال، أَوْ كلمةٍ وَاحدة تسمعينها من الخلق بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل.

ويحك يا نفسُ! لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا وَلا يغرنك بالله الغرور، فانظري لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك، وَلا تضيعي أوقاتك فالأنفاس معدودة فإذا مضى منك نفسٌ فقد ذهب بعضك، فاغتنمي الصِّحة قبل السِّقم، وَالفراغ قبل الشغل، وَالغنى قبل الفقر، وَالشَّباب قبل الهرم، وَالحياة قبل الموت، وَاستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها.

يا نفسُ! أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت وَالكسوة وَالحطب وَجميع الأسباب، وَلا تتكلين في ذلك على فضل الله وَكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة وَلبد وَحطب وَغير ذلك، فَإِنَّهُ قادر على ذلك، أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخفُّ بردًا وَأقصر مدة من زمهرير الشّتاء، أم تظنين أن ذلك دون هذا، كلا أن يكون هذا كذلك، أَوْ أن يكون بينهما

مناسبة في الشّدة وَالبرودة، أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي هيهات كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبةِ وَالنار وَسائر الأسباب فلا يندفع حرّ النار وَبردها إلا بحصن التوحيد وَخندق الطّاعات، وَإنما كرم الله تَعَالَى في أن عرّفك طريق التحصن، وَيسر لك أسبابه؛ لا في أن يندفع عنك العذاب دون حصنه، كما أن كرم الله تَعَالَى في دفع برد الشتاء أن خلق النار، وَهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وَحجر؛ حتى تدفعي بها برد الشتاء عَنْ نفسك، وَكما أن شراء الحطب وَالجبة مما يستغني عنه خالقك وَمولاك، وَإنما تشترينه لنفسك إذ خلقه سببًا لاستراحتك، فطاعاتك وَمجاهداتك أيْضًا هو مستغن عنها وَإنما هي طريقك إلى نجاتك، فمن أحسن فلنفسه وَمن أساء فعليها، وَالله غني عَنْ العالمين.

ويحك يا نفسُ! انزعي عَنْ جهلك وَقيسي آخرتك بدنياك فـ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وَ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وَ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وَسنة الله تَعَالَى لا تجدين لها تبديلًا وَلا تحويلًا.

وَيحك يا نفس! ما أراك إلا ألفتي الدُّنْيا وأنستي بِهَا؛ فعسر عليك مفارقتها وَأنت مقبلة على مقاربتها، وَتؤكدين في نفسك مودتها، فاحسبي أنك غافلة عَنْ عقاب الله وَثوابه، وَعن أهوال القيامة وَأحوالها، فما أنت مؤمنة بالموت المفرِّق بينك وَبين محابك.

وَيحك يا نفس! أتعلمين أن كلّ من يلتفت إلى ملاذ الدنيا. وَيأنس بها مع أن الموت من وَرائه، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة، وَإنما يتزود من السُّم المهلك وَهو لا يدري، أَو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وَعلوا، ثم ذهبوا وَخلوا، وَكيف أورث الله أرضهم وَديارهم أعداءهم؟! أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون، وَيبنون ما لا يسكنون، وَيؤملون ما لا يدركون؟ يبني كُلُّ وَاحدٍ قصرًا مرفوعًا إلى جهةِ السماءِ، وَمقره قبر محفور تحت الأرض. فهل في الدنيا حمق وَانتكاس أعظم من هذا؟ يعمر الواحد

دنياه وَهو مرتحل عنها يقينًا، وَيخرب آخرته وَهو صائر إليها قطعًا؟.

وَيحك يا نفس! أما تستحين من مساعدةِ هؤلاء الحمقى على حماقتهم؟

وَاحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور، وَإنما تميلين بالطَّبع إلى التشبه والاقتداء، فقيسي عقل الأنبياء وَالعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا، وَاقتدي من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل وَالذكاء.

وَيحك يا نفس! ما أعجب أمرك، وَأشد جهلك وَأظهر طغيانك! عجبًا لك كيف تعمين عَنْ هذه الأمور الواضحة الجليلة! وَلعلك يا نفسُ أسكرك حبُّ الجاه، وَأدهشك عَنْ فهمها، أَو ما تتفكرين أَنَّ الجاهَ لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض النّاس إليك، فاحسبي أن كل من على وَجه الأرض سجد لك وَأطاعك، أفما تعرفين أَنَّهُ بعد خمسين سنة لا تبقين أنت وَلا أحد ممن على وَجه الأرض ممن عبدك وَسجد لك، وَسيأتي زمان لا يبقى ذِكْرك وَلا ذكر من ذكرك، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك، فـ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

فكيف تبيعين يا نفسُ ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي؟ هذا إن كنت ملكًا من ملوك الأرض سلم لك الشرق وَالغرب حتّى أذعنت لك الرقاب، وَانتظمت لك الأسباب، كيف ولا يسلم لك من ذلك شيئًا؟ فَإن كنت يا نفسُ لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وَعمى بصيرتك، فما لك لا تتركينها ترفعًا عَنْ خسة شركائها، وَتنزها عَنْ كثرة عُنَّائها، وَتوقيًا من سرعة فنائها، أم ما لك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها، وَما لك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود وَالمجوس يسبقونك بها؟ وَيزيدون عليك في نعيمها وَزينتها، فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء، فما أجهلك وَأخس همتك وَأسقط رأيك إذ رغبت عَنْ أن تكوني في زمرة المقربين من النبيين وَالصديقين في جوار رب العالمين

أبد الآبدين لتكوني في صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أيامًا قلائل، فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا وَالدين.

وَيحك يا نفس! فبادري ـ وَيحك ـ فقد أشرفت على الهلاك وَاقترب الموت وَورد النذير، فمن ذا يصلي عنك بعد الموت؟ وَمن ذا يصوم عنك بعد الموت؟، وَمن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت؟.

وَيحك يا نفس! ما لك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن اتجرت فيها وَقد ضيعت أكثرها، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف إذا ضيعت البقية وَأصررت على عادتك؟ أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك، وَالقبر بيتك، وَالتراب فراشك، وَالدود أنيسك، وَالفزع الأكبر بين يديك؟ أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وَقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم، أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يومًا ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم، وَأنت في أمنيتهم وَيوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه، وَأنت تضيعين أيامك في الغفلة وَالبطالة.

وَيحك يا نفس! أما تستحيين تزينين ظاهرك للخلق، وَتبارزين الله في السر بالعظائم، أفتستحيين من الخلق وَلا تستحيين من الخالق، وَيحك أهو أهون الناظرين إليكِ؟! أتأمرين النّاس بالخير وَأنت متلطخة بالرذائل؟! تدعين إِلَى اللهِ وَأنت عنه فارة؟! وَتذكرين بالله وَأنت له ناسية؟! أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنتن من العذرة وَأن العذرة لا تطهر غيرها، فلم تطمعين في تطهير غيرك وَأنت غير طيبة في نفسك؟!

وَيحك يا نفس! لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن النّاس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك.

وَيحك يا نفس! قد جعلت نفسك حمارًا لإبليس يقودك إلى حيث يريد

وَيسْخَر بك، وَمع هذا فتعجبين بعملك وَفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأسًا برأس لكان الربح في يديك، وَكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وَزللك وَقد لعن الله إبليس بخطيئة وَاحدة بعد أن عبده ما عبده مائتي ألف سنة، وَأخرج آدم من الجنة بخطيئة وَاحدة مع كونه نبيه وَصفيه.

وَيحك يا نفس! ما أغدرك!!

وَيحك يا نفس! ما أوقحك!!

وَيحك يا نفس! ما أجهلك!! وَما أجرأك على المعاصي!!

وَيحك كم تعقدين فتنقضين!!

وَيحك كم تعهدين فتغدرين!!

وَيحك يا نفس! أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها؟! أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثيرًا، وَبنوا مشيدًا، وَأمَّلوا بعيدًا، فأصبح جمعهم بورًا، وَبنيانهم قبورًا، وَأملهم غرورًا؟!

وَيحك يا نفس! أما لك بهم عبرة؟ أما لك إليهم نظرة؟ أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وَأنت من المخلدين؟! هيهات هيهات ساء ما تتوهمين ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك، فابني على وَجه الأرض قصرك فَإنَّ بطنها عَنْ قليل يكون قبرك، أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان، وَكلح الوجوه، وَبشرى بالعذاب، فهل ينفعك حينئذ الندم؟ أَوْ يقبل منك الحزن؟ أَوْ يرحم منك البكاء؟ وَالعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة وَالفطنة، وَمن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك وَلا تحزنين بنقصان عمرك وَما نفع مال يزيد وَعمر ينقص.

وَيحك يا نفس! تعرضين عَنْ الآخرة وَهي مقبلة عليك، وَتقبلين على الدنيا وَهي معرضة عنك، فكم من مستقبل يومًا لا يستكمله، وَكم من مؤمل لغد لا يبلغه، فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وَأقاربك وَجيرانك، فترين

تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عَنْ جهالتك، فاحذري أيتها النفس المسكينة يومًا آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبد أمره في الدنيا وَنهاه حتى يسأله عَنْ عمله دقيقه وَجليله، سره وَعلانيته، فانظري يا نفس بأي بدن تقفين بين يدي الله، وَبأي لسان تجيبين، وَأعدي للسؤال جوابًا، وَللجواب صوابًا، وَاعملي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال، وَفي دار زوال لدار مقامة، وَفي دار حزن وَنصب لدار نعيم وَخلود، اعملي قبل أن لا تعملي، اخرجي من الدنيا اختيارًا خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على الاضطرار، وَلا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا فرب مسرور مغبون، وَرب مغبون لا يشعر، فويل لمن له الويل ثم لا يشعر، يضحك وَيفرح وَيلهو وَيمرح وَيأكل وَيشرب وَقد حق له في كتاب الله أَنَّهُ من وَقود النار.

فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتبارًا، وَسعيك لها اضطرارًا، وَرفضك لها اختيارًا، وَطلبك للآخرة ابتدارًا، وَلا تكوني ممن يعجز عَنْ شكر ما أوتي، وَيبتغي الزيادة فيما بقي، وَينهى النّاس وَلا ينتهي، وَاعلمي يا نفس أَنَّهُ ليس للدين عوض، وَلا للإيمان بدل، وَلا للجسد خلف، وَمن كانت مطيته الليل وَالنهار فَإِنَّهُ يسار به وَإن لم يسر.

فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة وَاقبلي هذه النصيحة، فَإِنَّ من أعرض عَنْ الموعظة فقد رضي بالنار، وَما أراك بها راضية، وَلا لهذه الموعظة وَاعية، فَإِن كانت القساوة تمنعك عَنْ قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد وَالقيام، فَإِن لم تزل فالمواظبة على الصيام، فَإِن لم تزل فبقلة المخالطة وَالكلام، فَإِن لم تزل فبصلة الأرحام وَاللطف بالأيتام، فَإِن لم تزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك وَأقفل عليه، وَأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وَباطنه، فوطني نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وَخلق لها أهلًا وَخلق النار وَخلق لها أهلًا، فـ«كل ميسر لما خلق له»، فَإِن لم يبق فيك مجال للوعظ؛ فاقنطي من نفسك وَالقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك، فلا سبيل لك إلى القنوط وَلا سبيل لك إلى الرّجاء مع انسداد طرق الخير عليك، فَإِنَّ ذلك

اغترار وَليس برجاء، فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها وَهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك، فَإن سمحت فمستقى الدّمع من بحر الرَّحمة فقد بقي فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة وَالبكاء.

وَاستعيني بأرحم الراحمين، وَاشتكي إلى أكرم الأكرمين، وَأدمني الاستغاثة، وَلا تملي طول الشّكاية لعله أن يرحم ضعفك وَيغيثك، فَإنَّ مصيبتك قد عظمت، وَبليتك قد تفاقمت، وَتماديك قد طال، وَقد انقطعت منك الحيل، وَراحت عنك العلل، فلا مذهب، وَلا مطلب، وَلا مستغاث، وَلا مهرب، وَلا ملجأ، وَلا منجا إلا إلى مولاك، فافزعي إليه بالتضرع، وَاخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وَكثرة ذنوبك؛ لأنه يرحم المتضرع الذليل، وَيغيث الطالب المتلهف، وَيجيب دعوة المضطر وَقد أصبحت إليه اليوم مضطرة، وَإلى رحمته محتاجة، وَقد ضاقت بك السبل وَانسدت عليك الطرق، وَانقطعت منك الحيل، وَلم تنجح فيك العظات، وَلم يكسرك التوبيخ، فالمطلوب منه كريم، وَالمسئول جواد، وَالمستغاث به بر رءوف، وَالرحمة وَاسعة وَالكرم فائض وَالعفو شامل، وَقولي: «يا أرحم الراحمين، يا رحمن يا رحيم، يا حليم يا عظيم يا كريم، أنا المذنب المصر أنا الجريء الذي لا أقلع، أنا المتمادي الذي لا أستحي، هذا مقام المتضرع المسكين، وَالبائس الفقير، وَالضعيف الحقير، وَالهالك الغريق، فعجِّل إغاثتي وَفرجي، وَأرني آثار رحمتك، وَأذقني برد عفوك وَمغفرتك، وَارزقني قوة عصمتك يا أرحم الراحمين»[١].

---

(١) مختصرًا من «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٢٣).

خَاتِمَةٌ

يا من هو من أرباب الخبرة، هل عرفت قيمةَ نفسك، إنما خُلِقتِ الأكوانُ كلُّها لك، يا من غذي بلبانِ البر، وَقُلِّب بأيدي الألطاف، كُلُّ الأشياء شجرةٌ وَأنت الثمرة، وَصورة وَأنت المعنى، وَصدف وَأنت الدر، وَمخيض[١] وَأنت الزُّبد، منشور اختيارنا لك وَاضح الخط؛ وَلكن استخراجك ضعيف، متى رُمْت طلبي فاطلبني عندك، اطلبني منك تجدني قريبًا، وَلا تطلبني من غيرك فأنا أقرب إليك منه، لو عرفت قدر نفسك عندنا ما أهنتها بالمعاصي، إنما أبعدنا إبليس إذ لم يسجد لك وَأنت في صلب أبيك، فواعجبًا كيف صالحته وَتركتنا، لو كان في قلبك محبة لبان أثرها على جسدك.

وَلَمَّا ادَّعِيتُ الْحُبَّ قَالَتْ كَذَبْتَنِي أَلَسْتُ أَرَى الْأَعْضَاءَ مِنْكَ كَوَاسِيا

لو تغذى القلبُ بالمحبة لذهبت عنه بطنة الشَّهوات.

وَلَوْ كُنْتَ عُذْرِيّ الصَّبَابَةِ لَمْ تَكُنْ بَطِينًا وَأَنْسَاكَ الْهَوى كَثْرَةَ الأَكل

لو صحت محبتك لاستوحشت ممن لا يُذكِّرك بالحبيب.

وَاعجبا لمن يدعي المحبة وَيحتاج إلى من يذكره بمحبوبه؛ فلا يذكره إلا بمذكر، أقل ما في المحبة أنها لا تنسيك تذكر المحبوب.

ذَكَرْتُكَ لا أَنِّي نَسَيْتُكَ سَاعَة وَأَيْسَرُ مَا فِي الذِّكْرِ ذِكْرُ لِسَانِي

إذا سافر المحبُّ للقاء محبوبه ركبت جنوده معه، فكان الحب في مقدمة العسكر وَالرجاء يحدو بالمطي، وَالشّوق يسوقها، وَالخوف يجمعها على الطريق، فإذا شارف قدوم بلد الوصل خرجت تقادم الحبيب باللقاء.

---

(١) المَخيضُ: الَّذي تحرَّكَ في المِمْخَضَةِ وَقَدْ أُخِذتْ زُبْدَتُه.

فَدَاوِ سُقْمًا بِجِسْمٍ أَنْتَ مُتْلِفُهُ   وَأَبْرِدْ غَرَامًا بِقَلْبٍ أَنْتَ مُضْرِمُه
وَلَا تَكِلْنِي عَلَى بُعْدِ الْدِّيَارِ إِلَى   صَبْرِي الضَّعِيفِ فَصَبْرِي أَنْتَ تَعْلَمُهُ
تَلَقَّ قَلْبِي فَقَدْ أَرْسَلْتَهُ عَجِلًا   إِلَى لِقَائِكَ وَالْأَشْواقُ تَقْدِمُه

فإذا دخل على الحبيب أفيضت عليه الخلع من كل ناحية، ليمتحن أيسكن إليها فتكون حظه أم يكون التفاته إلى من ألبسه إياها؟ ملؤوا مراكب القلوب متاعًا لا تنفق إلا على الملك، فلما هبت رياح السّحر أقلعت تلك المراكب فما طلع الفجر إلا وَهي بالمينا، قطعوا بادية الهوى بأقدام الجد فما كان إلا القليل حتى قدموا من السفر، فأعقبهم الراحة في طريق التلقي، فدخلوا بلد الوصل وَقد حازوا ربح الأبد، فرغ القوم قلوبهم من الشواغل فضربت فيها سرادقات المحبة.

نَزِّهْ فُؤَادَكَ مِنْ سِوَانَا وَأَلْقِنَا   فَجَنَابُنَا حِلٌّ لِكُلِّ مُنَزَّهِ
الْصَّبْرُ طِلْسَمٌ لِكَنْزِ وِصَالَنَا   مَنْ حَلَّ ذَا الطِّلْسَمَ فَازَ بِكَنْزِهِ

اعرف قدر ما ضاع منك، وَابك بكاء من يدري مقدار الفائت لو تخيلت قرب الأحباب لأقمت المأتم على بعدك، لو استنشقت ريح الأسحار لأفاق منك قلبك المخمور.

من استطال الطريق ضعف مشيه.

وَما أَنْتَ بِالْمُشْتَاقِ إِنْ قُلْت بَيْنَنَا   طُوَالُ اللَيالِي أَوْ بَعِيدُ الْمَفَاوِزِ

أما علمت أن الصّادق إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه.

هان سهر الحرّاس لما علموا أن أصواتهم بسمعِ الملك.

من لاح له حال الآخرة هان عليه فراقُ الدنيا.

يا أقدام الصبر احملي؛ بقي القليل!! تذكري حلاوة الوصال يهن عليك مُرّ المجاهدة.

قد علمت أين المنزل فاحْدُ لها تسر، أعلى الهمم همة من استعد للقاء الحبيب.

قدم التقادم بين يدي الملتقى؛ فاستبشر بالرّضا عند القدوم، وَقدم لنفسك الجنة ترضي منك بأداءِ الفرائض، وَالنار تندفع عنك بترك المعاصي، وَالمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الرّوح لله، ما أحلى زمان تسعى فيه أقدام الطّاعة على أرضِ الاشتياق.

لما سلم القوم النفوس إلى رائضِ الشرع؛ علَّمها الوفاق في خلاف الطبع؛ فاستقامت مع الطّاعة، كيف دارت دارت معها.

وَإِنِّي إِذَا اصْطَكَّتْ رِقَابَ مَطِيِّهِم ... وَثَوَّرَ حَادٍ بِالرِّفَاقِ عَجُولُ
أُخَالِفُ بَيْنَ الرَّاحَتَيْنِ عَلَى الْحَشَا ... وَأَنْظُرُ أَنِّي مُلَثَّمٌ فَأَمِيلُ[1]

تمّ بحمد الله

كتبه
أفقر عباد الله
صلاح الدين علي عبد الموجود
مطوبس ـ مصر
في ٢٣/محرم/١٤٢٤هـ
salahmera@salahmera.com

(١) مختصرًا من كتاب «الفوائد» (٩٦).

أشهر المراجع

١ ـ «الإبانة عن أصول الديانة» لعلي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري أبو الحسن، دار الأنصار، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ، تحقيق: د. فوقية حسين محمود.

٢ ـ «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة» المؤلف: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي، الناشر: دار الراية، الرياض الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ، تحقيق: د. عثمان عبد الله آدم الأثيوبي.

٣ ـ «إثبات صفة العلو» لعبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، تحقيق: بدر عبد الله البدر.

٤ ـ «إثبات عذاب القبر» لأحمد بن الحسين البيهقي أبو بكر، دار الفرقان، عمان الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، تحقيق: د. شرف محمود القضاة.

٥ ـ «أحاديث في ذم الكلام وأهله» المؤلف: أبو الفضل المقرىء، الناشر: دار أطلس للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، تحقيق: د. ناصر بن عبد الرحمن بن محمد الجديع.

٦ ـ «الآحاد والمثاني» المؤلف: أحمد بن عمرو بن الضحاك أبو بكر الشيباني الناشر: دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، تحقيق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة.

٧ ـ «الأحاديث المختارة» للضياء محمد بن عبد الواحد المقدسي، تحقيق عبد الملك بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٨ ـ «الأحاديث الصحيحة» الشيخ الألباني، المكتب الإسلامي.

٩ ـ «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» لعلاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

١٠ ـ «الإشراف في منازل الأشراف» لابن أبي الدنيا، مكتبة الرشد، الرياض، تحقيق: د. نجم عبد الرحمن خلف.

١١ ـ «أحكام القرآن» لأحمد بن علي الرازي الجصاص، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي.

١٢ ـ «أحكام القرآن» لمحمد بن إدريس الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠هـ، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق.

١٣ ـ «الأحكام الوسطى من حديث النبي ﷺ» لأبي محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الإشبيلي (ابن الخراط)، تحقيق حمدي السلفي وصبحي السامرائي، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٦هـ.

١٤ ـ «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.

١٥ ـ «أخبار المدينة النّبويّة» لأبي زيد عمر بن شبّة النميري البصري، تحقيق عبد الله بن محمد الدويش، دار العليان، بريدة، المملكة العربية السّعودية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

١٦ ـ «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار» لأبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، تحقيق رشدي الصالح، مطابع دار الثقافة مكة المكرمة، الطبعة الرابعة.

١٧ ـ «اختصاص القرآن بعوده إلى الرحمن الرحيم» لمحمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل السعدي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م، تحقيق: عبد الله بن يوسف الجديع.

١٨ ـ «الإخوان» لعبد الله بن محمد أبو بكر القرشي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م، تحقيق: مصطفى عبد القادر.

١٩ ـ «الأدب المفرد» للإمام البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل، مؤسسة الكتب الثقافية.

٢٠ ـ «الأدب المفرد» المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الناشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٢١ ـ «أدلة معتقد أبي حنيفة الأعظم في أبوي الرسول عليه الصلاة والسلام» لعلي بن سلطان محمد القاري، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، تحقيق: مشهور بن حسن بن سلمان.

٢٢ ـ «الأذكار» لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق أسامة آل عطوة، دار ابن رجب، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٢٣ ـ «إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات» لمحمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، تحقيق: جماعة من العلماء.

٢٤ ـ «إرشاد الساري على صحيح البخاري» لأبي العباس شهاب الدين أحمد القسطلاني، دار الفكر.

٢٥ ـ «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» لمحمد بن محمد العمادي أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٦ ـ «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» لمحمد ناصر الدِّين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٢٧ ـ «الأسامي والكنى» للإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الأولى، الكويت، ١٤٠٦.

٢٨ ـ «الاستذكار» المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض.

٢٩ ـ «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لعز الدين ابن الأثير، تحقيق محمد البنا وزملاؤه، مطبعة دار الشعب.

٣٠ ـ «أسرار ترتيب القرآن» لعبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، دار الاعتصام، القاهرة، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا.

٣١ ـ «أسرار التكرار في القرآن» لمحمود بن حمزة بن نصر الكرماني، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٦هـ، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا.

٣٢ ـ «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» للعلامة الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي، دار إحياء التراث العربي بيروت.

٣٣ ـ «الإصابة في تمييز الصحابة» لأبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي محمد عوض، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، مع حاشية.

٣٤ ـ «أصول الدين» المؤلف: جمال الدين أحمد بن محمد بن محمود بن سعيد، الناشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، تحقيق: عمر وفيق الداعوق.

٣٥ ـ «أصول السنة» لأحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، دار المنار، الخرج، السعودية الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٣٦ ـ «الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان» المؤلف: عبد الله بن محمد أبو بكر القرشي البغدادي، الناشر: دار البشير، عمان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م، تحقيق: د. نجم عبد الرحمن خلف.

٣٧ ـ «اعتقاد أئمة الحديث» لأحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الخميس.

٣٨ ـ «اعتقاد الإمام ابن حنبل» لعبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث التميمي، دار المعرفة، بيروت.

٣٩ ـ «الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث» لأحمد بن الحسين البيهقي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ، تحقيق: أحمد عصام الكاتب.

٤٠ ـ «إعجاز القرآن» لمحمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، دار المعارف، القاهرة، تحقيق: السيد أحمد صقر.

٤١ ـ «إعراب القرآن الكريم وبيانه» لمحيي الدين الدرويش، اليمامة، دار ابن كثير.

٤٢ ـ «إعراب القرآن» لأبي جعفر النحاس، تحقيق زهير غازي زاهد، عالم الكتب، مكتبة النهضة الحديثة، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

٤٣ ـ «الأعلام» قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.

٤٤ ـ «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام» لمحمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله، دار التراث العربي، القاهرة، ١٣٩٨هـ، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا.

٤٥ ـ «أعلام النبوة» لعلي بن محمد بن حبيب الماوردي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي.

٤٦ ـ «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» للحافظ شمس الدِّين أبو الخير محمد بن عبد الرّحمن السّخاوي القاهري الشّافعي، تحقيق عثمان الخشت، مكتبة الساعي، الرياض.

٤٧ ـ «إغاثة اللهفان» ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.

٤٨ ـ «افتراق الأمة إلى نيف وسبعين فرقة» لمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، تحقيق: سعد بن عبد الله بن سعد السعدان.

٤٩ ـ «أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات» لمرعي بن يوسف الكرمي المقدسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط.

٥٠ ـ «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للإمام أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض الأندلسي اليحصبي السبتي المالكي المعروف بالقاضي عياض، تحقيق يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٥١ ـ «الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب» لابن ماكولا، دار الكتاب الإسلامي.

٥٢ ـ «الإكمال في ذكر من له رواية في مسند أحمد سوى من ذكر في تهذيب الكمال» للحافظ أبي المحاسن محمد بن علي بن حسن بن حمزة الحسيني الدمشقي، مع استدراكات لأبي زرعة العراقي، والهيثمي، وابن مجد، تحقيق عبد الله سرور بن فتح محمد، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض.

٥٣ ـ «الانتصار لأصحاب الحديث» المؤلف: أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي، الناشر: مكتبة أضواء المنار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، تحقيق: محمد بن حسين بن حسن الجيزاني.

٥٤ ـ «الأنساب» لعبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، بحيدر آباد الدكن الهند، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م.

٥٥ ـ «الأوائل» للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي أمرير، مؤسسة الرسالة، دار الفرقان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٥٦ ـ «الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف» لأبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، تحقيق أبو حماد صغير أحمد بن محمد حنيف، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥.

٥٧ ـ «الأولياء» المؤلف: عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي أبو بكر، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول.

٥٨ ـ «إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول» التوحيد لمحمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية.

٥٩ - «إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل لمحمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، دار السلام الطبعة الأولى، تحقيق: وهبي سليمان غاوجي الألباني.
٦٠ - «إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لإسماعيل باشا البابانى البغدادي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
٦١ - «الإيمان لمحمد بن يحيى بن أبي عمر العدني، الدار السلفية، الكويت الطبعة الأولى، تحقيق: حمد بن حمدي الجابري الحربي.
٦٢ - «الإيمان لمحمد بن إسحاق بن يحيى بن منده، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الثانية، تحقيق: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي.
٦٣ - «اختصار علوم الحديث» لعماد الدِّين أبي الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير، مع شرحه، «الباعث الحثيث» لأحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.
٦٤ - «الاستذكار لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه «الموطأ» من معاني الرأي والآثار» للعلّامة الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النميري القرطبي، تحقيق علي النجدي ناصف، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشّؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي.
٦٥ - «الاستيعاب في أسماء الأصحاب» للعلّامة الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي، مطبوع بحاشية «الإصابة» دار الكتاب العربي، بيروت.
٦٦ - «الباعث على إنكار البدع والحوادث لعبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة، دار الهدى، القاهرة، الطبعة الأولى، تحقيق: عثمان أحمد عنبر.
٦٧ - «البحر الزخار» المعروف بـ «مسند البزَّار» لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي البزَّار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت.
٦٨ - «البخاري بشرح الكرماني» دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٦٩ - «بدائع الفوائد» للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، دار الفكر، بيروت.
٧٠ - «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» لمحمد بن أحمد ابن رشد القرطبي، بتحقيق العامري، دار ابن رجب.
٧١ - «البداية والنهاية» لعماد الدِّين أبي الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير، الناشر مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٧٢ ـ «بداية الهداية لصلاح الدين علي عبد الموجود، دار ابن رجب.
٧٣ ـ «البرهان في علوم القرآن» لمحمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
٧٤ ـ «بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث» للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق مسعد عبد الحميد السعدني، دار الطلائع للنشر، القاهرة.
٧٥ ـ «بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام لابن القطان أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الملك الفاسي، تحقيق حسين آيت سعيد، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٧٦ ـ «تاريخ الثقات» للعجلي، دار الكتب العلمية، عناية الدكتور قلعجي.
٧٧ ـ «تاج العروس من جواهر القاموس» لمحبّ الدِّين أبو الفيض محمد بن محمد مرتضي الزبيدي الحسيني الواسطي الحنفي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
٧٨ ـ «تاريخ الأمم والملوك» لمحمد بن جرير الطبري، دار الفكر العربي، بيروت.
٧٩ ـ «التاريخ الكبير» للإمام البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل، عناية محمد عبد المعيد خان، دار الفكر، مصورة من الطبعة الهندية.
٨٠ ـ «تاريخ المدينة المنورة» «أخبار المدينة النبوية» لأبي زيد عمر بن شبة النميري البصري، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار التراث والدار الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
٨١ ـ «تاريخ بغداد أو مدينة السلام» لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٨٢ ـ «تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر، دراسة محب الدين العمروي دار الفكر.
٨٣ ـ «تاريخ خليفة بن خياط» لابن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار طيبة للنشر، الرياض.
٨٤ ـ «التبصرة» لابن الجوزي، دار إحياء الكتب العربية.
٨٥ ـ «التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين» لطاهر بن محمد الإسفراييني، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م، تحقيق: كمال يوسف الحوت.
٨٦ ـ «تبصير المنتبه بتحرير المشتبه» للحافظ ابن حجر العسقلاني، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة، تحقيق محمد النجار.

٨٧ ـ «التبيان في آداب حملة القرآن» ليحيى بن شرف الدين النووي، الوكالة العامة للتوزيع، دمشق الطبعة الأولى.

٨٨ ـ «التبيان في إعراب القرآن» لمحب الدين عبد الله بن أبي عبد الله الحسين بن أبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري،إحياء الكتب العربية، تحقيق: علي محمد البجاوى.

٨٩ ـ «التبيان في تفسير غريب القرآن» لشهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، دار الصحابة للتراث بطنطا، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، تحقيق: د. فتحي أنور الدابولي.

٩٠ ـ «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري» لعلي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الثالثة.

٩١ ـ «التبيين لأسماء المدلسين» لسبط ابن العجمي الشافعي، تحقيق يحيى شفيق، دار الكتب العلمية.

٩٢ ـ «تحريم النظر في كتب الكلام» لعبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر بن عبد الله بن حذيفة، دار عالم المكتب، الرياض الطبعة الأولى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية.

٩٣ ـ «التحف في مذاهب السلف» لمحمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار الهجرة، بيروت الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، تحقيق: طارق السعود.

٩٤ ـ «التذكرة في الوعظ» لابن الجوزي، دار المعرفة، بيروت.

٩٥ ـ «تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي» لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، الطبعة الحجرية، دار الكتاب العربي، بيروت.

٩٦ ـ «تحفة الأشراف» للحافظ المزي، الطبعة الأولى الدار القيمة، الهند.

٩٧ ـ «تحفة الصديق في فضائل أبي بكر الصديق» لعلي بن بلبان المقدسي أبو القاسم، دار ابن كثير، مكتبة دار التراث، دمشق، المدينة المنورة الطبعة الأولى، تحقيق: محيي الدين مستو.

٩٨ ـ «تذكرة الحفّاظ» للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الدّمشقي، تصحيح تحت إعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، دار الكتب العلمية.

٩٩ ـ «ترتيب تاريخ ابن معين» لأحمد بن محمد نور سيف، مركز إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى.

١٠٠ ـ «التصديق بالنظر إلى الله تعالى في الآخرة» لمحمد بن الحسين بن عبد الله الآجري أبو بكر، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، تحقيق: سمير بن أمين الزهيري.

١٠١ ـ «تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة» لأبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتاب العربي.

١٠٢ ـ «التعرف لمذهب أهل التصوف» لمحمد الكلاباذي أبو بكر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠هـ.

١٠٣ ـ «تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس» لأبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري ومحمد أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٤ ـ «التعديل والتجريح» لأبي الوليد الباجي، دراسة الأستاذ أحمد البزار، المغرب، وزارة الأوقاف.

١٠٥ ـ «التعليق المغني على سنن الدارقطني» لشمس الحق العظيم آبادي، في هامش سنن الدارقطني، لعلي بن عمر الدارقطني، عني بتصحيحه وتنسيقه وترقيمه وتحقيقه عبد الله بن هاشم يماني المدني، دار المحاسن للطباعة، القاهرة.

١٠٦ ـ «تغليق التعليق على صحيح البخاري» لأبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق سعيد القزقي، دار عمار، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

١٠٧ ـ «تفسير ابن جرير» «تفسير الطبري» جامع البيان، نسخة الشيخ أحمد ومحمود شاكر.

١٠٨ ـ «تفسير سفيان الثوري» لسفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، دار الكتب العلمية.

١٠٩ ـ «تفسير البغوي» «معالم التنزيل» بعناية محمد النمر ورفاقه، دار طيبة.

١١٠ ـ «تفسير القرآن» لعبد الرزاق بن همام الصنعاني، مكتبة الرشد ١٤١٠هـ، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد.

١١١ ـ «تفسير القرآن العظيم مسندًا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين» لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

١١٢ ـ «تفسير مجاهد» لمجاهد بن جبر المخزومي، لمنشورات العلمية، تحقيق: عبد الرحمن الطاهر محمد السورتي.

١١٣ ـ «تقدمة الجرح والتعديل» لعبد الرحمن بن محمد إدريس الرازي، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، في أول كتاب «الجرح والتعديل» مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٢٧١هـ.

١١٤ ـ «تقريب التهذيب» لأبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، بتحقيقي، دار ابن رجب، مصر.

١١٥ ـ «تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم» لمحمد تقي العثماني، مكتبة دار العلوم، كراتشي، باكستان.

١١٦ ـ «تلبيس إبليس» لعبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، تحقيق: د. السيد الجميلي.

١١٧ ـ «التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير» لأبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تصحيح عبد الله هاشم اليماني، المدينة المنورة، ١٣٨٤هـ.

١١٨ ـ «تلخيص العلل المتناهية» للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الدّمشقي، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم بن محمد، مكتبة الرشد، الرياض، شركة الرياض للنشر والتوزيع.

١١٩ ـ «تلخيص المستدرك» للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الدّمشقي، مع «المستدرك» بتحقيقي يسر الله إتمامه، مخطوط.

١٢٠ ـ «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري.

١٢١ ـ «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع» لأبي الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي الشافعي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري.

١٢٢ ـ «تنزيل القرآن» لابن شهاب الزهري، دار الكتاب الحديث، بيروت الطبعة الثانية، ١٩٨٠م، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد.

١٢٣ ـ «تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء» لأبي الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي، دار الفكر المعاصر، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، تحقيق: د. محمد رضوان الداية.

١٢٤ ـ «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل» للعلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، تحقيق وتعليق محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض.

١٢٥ ـ «تهذيب الأسماء واللغات» لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٦ ـ «تهذيب التهذيب» لأبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، نشر دار صادر، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند، حيدر أباد، الدكن، الطبعة الأولى.

١٢٧ ـ «تهذيب التهذيب» لأبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٢٨ ـ «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للحافظ جمال الدّين أبي الحجّاج يوسف بن زكي الدين عبد الرحمن بن يوسف المزِّي الدّمشقي الشّافعي، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٢٩ ـ «تهذيب مختصر سنن أبي داود» مع «مختصر سنن أبي داود» للحافظ المنذري و «معالم السّنن» للحافظ أبي سليمان حَمَد بْنِ محمدِ الخطابي، تحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقّي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

١٣٠ ـ «تنوير الحوالك شرح موطأ مالك» المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر أبو الفضل السيوطي الناشر: المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

١٣١ ـ «كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ» المؤلف: أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، الناشر: مكتبة الرشيد، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٩٩٤م، تحقيق: د. عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان.

١٣٢ ـ «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

١٣٣ ـ «الثبات على الهداية» صلاح الدين علي عبد الموجود، دار ابن رجب.

١٣٤ ـ «الثبات عند الممات» لابن الجوزي، تحقيق: عبد الله الليثي الأنصاري، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

١٣٥ ـ «الثّقات» لأبي حاتم محمد بن حبان البستي، دائرة المعارف العثمانية، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

١٣٦ ـ «جامع السير» صلاح الدين علي عبد الموجود، دار السلام بالرياض.

١٣٧ ـ «الجامع الصحيح» للإمام البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مع شرحه فتح الباري، المطبعة السلفية.

١٣٨ ـ «الجامع الصحيح المختصر» المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الناشر: دار ابن كثير، اليمامة، بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.

١٣٩ ـ «الجامع الصحيح» لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م.

١٤٠ ـ «الجامع الصحيح» لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث الأزهر، القاهرة.

١٤١ ـ «جامع العلوم والحِكَم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكَلِم» للإمام زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن أحمد بن رجب الحنبلي (ت٧٩٥)، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، تصوير دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

١٤٢ ـ «الجامع لشعب الإيمان» لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق عبد العلي حامد، الدار السلفية، بومباي، الهند، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ «ناقص».

١٤٣ ـ «الجواهر الحسان في تفسير القرآن» لعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

١٤٤ ـ «جواهر القرآن» لمحمد بن محمد الغزالي، دار إحياء العلوم، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨٥م، تحقيق: د. محمد رشيد رضا القباني.

١٤٥ ـ «الجرح والتعديل» لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٤٦ ـ «جزء في تفسير الباقيات الصالحات» لصلاح الدين خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الاولى، تحقيق: بدر الزمان محمد.

١٤٧ ـ «جزء فيه طرق حديث: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا»» لأحمد بن عبد الله بن إسحاق الأصبهاني أبو نعيم، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، تحقيق: مشهور بن حسن بن سلمان.

١٤٨ ـ «جزء فيه قراءات النبي ﷺ» لحفص بن عمر بن عبد العزيز بن صهبان بن عدي بن صهبان، مكتبة الدار، المدينة المنورة الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، تحقيق: د.حكمت بشير ياسين.

١٤٩ ـ «الجواب الكافي» (الداء والدواء)، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد جميل غازي، مطبعة المدني.

١٥٠ ـ «جلاء الأفهام» لابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت.

١٥١ ـ «حادي الأرواح» لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية.

١٥٢ ـ «حاشية السندي على سنن ابن ماجه» لأبي الحسن نور الدين بن عبد الهادي السندي، دار الجيل، بيروت.

١٥٣ ـ «الحجة في القراءات السبع» لابن خالويه أبو عبد الله، دار الشروق، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠١هـ، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم ١٠٠.

١٥٤ ـ «حجة القراءات» لعبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، تحقيق: سعيد الأفغاني.

١٥٥ ـ «حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع» للقاسم بن فيرة بن خلف الشاطبي، دار الكتاب النفيس، بيروت، الطبعة الأولى.

١٥٦ ـ «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٧، ١٩٦٧م.

١٥٧ ـ «حياة الأنبياء صلوات الله عليهم بعد وفاتهم المؤلف: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، تحقيق: د.أحمد بن عطية الغامدي.

١٥٨ ـ «الخصائص في فضل علي ﷺ» للنسائي، تحقيق أحمد ميرين البلوشي، مكتبة المعلى، الكويت، ١٤٠٦.

١٥٩ ـ «الخلاصة» للخزرجي: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال، للخزرجي، بعناية أبي غدة مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب.
١٦٠ ـ «خلق أفعال العباد» المؤلف: محمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الناشر: دار المعارف السعودية، الرياض، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة.
١٦١ ـ «الدر المنثور» لعبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي دار الفكر.
١٦٢ ـ «الدراية في تخريج أحاديث الهداية» لأبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، صححه وعلّق عليه السيد عبد الله هاشم اليماني المدني، توزيع عباس أحمد الباز، مكة، دار المعرفة، بيروت.
١٦٣ ـ «درء التعارض» لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية، الرياض.
١٦٤ ـ «الدعاء» للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق محمد سعيد البخاري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
١٦٥ ـ «دلائل النبوة» لجعفر بن محمد بن الحسن الفريابي أبو بكر، دار حراء، مكة المكرمة الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، تحقيق: عامر حسن صبري.
١٦٦ ـ «الديباج على صحيح مسلم» لجلال الدِّين عبد الرّحمن بن أبي بكر السّيوطي، تحقيق أبو إسحق الجويني الأثري، دار ابن عفان.
١٦٧ ـ «ذكر أخبار أصبهان» للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، الدار العلمية، الهند، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
١٦٨ ـ «ذم التأويل» لعبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، الدار السلفية، الكويت الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر.
١٦٩ ـ «ذم الهوى» لابن الجوزي، تحقيق أحمد عبد السلام عطا، دار الكتب العلمية.
١٧٠ ـ «الذيل على جزء بقي بن مخلد في الحوض والكوثر» لخلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، تحقيق: عبد القادر محمد عطا صوفي.
١٧١ ـ «رجال مسلم» لابن منجويه، تحقيق عبد الله الليثي، دار المعرفة.
١٧٢ ـ «الرد على البكري» لابن تيمية، تحقيق: محمد علي عجال، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة.
١٧٣ ـ «الرد على الجهمية لابن منده، المكتبة الأثرية، باكستان، تحقيق: علي محمد ناصر الفقيهي.

١٨٦ ـ «الزهد والورع والعبادة» لابن تيمية، تحقيق: حماد سلامة، محمد عويضة، مكتبة المنار، الأردن.

١٨٧ ـ «السبعة في القراءات» لأحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ، تحقيق: د.شوقي ضيف.

١٨٨ ـ «سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها» لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ودار المعارف.

١٨٩ ـ «سلسلة الأحاديث الضعيفة وأثرها السيء على الأمة» لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ودار المعارف.

١٩٠ ـ «سنن الدارقطني» المؤلف: علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني.

١٩١ ـ «سنن الدارمي» المؤلف: عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي.

١٩٢ ـ «السنن الكبرى» لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٤٤هـ.

١٩٣ ـ «السنن الكبرى» لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي الخراساني، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩٤ ـ «السنن» لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، إستانبول، تركيا.

١٩٥ ـ «السّنن» لأبي عبد الرّحمن أحمد بن شعيب النسائي الخرساني، بهامشه شرح الحافظ السّيوطي، وحاشية السِّندي، حقَّقه ورقَّمه ووضع فهارسه مكتب، تحقيق: التراث الإسلامي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١، ١٩٩١م.

١٩٦ ـ «السنن» لابن ماجه، الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

١٨٦ ـ «الزهد والورع والعبادة» لابن تيمية، تحقيق: حماد سلامة، محمد عويضة، مكتبة المنار، الأردن.

١٨٧ ـ «السبعة في القراءات» لأحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ، تحقيق: د. شوقي ضيف.

١٨٨ ـ «سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها» لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ودار المعارف.

١٨٩ ـ «سلسلة الأحاديث الضعيفة وأثرها السيء على الأمة» لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ودار المعارف.

١٩٠ ـ «سنن الدارقطني» المؤلف: علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني.

١٩١ ـ «سنن الدارمي» المؤلف: عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي.

١٩٢ ـ «السنن الكبرى» لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٤٤هـ.

١٩٣ ـ «السنن الكبرى» لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي الخراساني، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩٤ ـ «السنن» لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، إستانبول، تركيا.

١٩٥ ـ «السّنن» لأبي عبد الرّحمن أحمد بن شعيب النسائي الخرساني، بهامشه شرح الحافظ السّيوطي، وحاشية السِّندي، حقَّقه ورقَّمه ووضع فهارسه مكتب، تحقيق: التراث الإسلامي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١، ١٩٩١م.

١٩٦ ـ «السنن» لابن ماجه، الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

١٩٧ ـ «السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها» لعثمان بن سعيد المقرئ الداني، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، تحقيق: د. ضياء الله بن محمد إدريس المباركفوري.

١٩٨ ـ «السنة» لأحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال أبو بكر، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، تحقيق: د. عطية الزهراني.

١٩٩ ـ «السنة» لعبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني.

٢٠٠ ـ «السنة» لمحمد بن نصر بن الحجاج المروزي أبو عبد الله، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، تحقيق: سالم أحمد السلفي.

٢٠١ ـ «السياسة الشرعية» لابن تيمية، دار المعرفة.

٢٠٢ ـ «سير أعلام النبلاء» للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الدّمشقي، تحقيق: شعيب الأناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.

٢٠٣ ـ «سيرة البخاري» للمباركفوري، طبعة الهند.

٢٠٤ ـ «شذرات الذّهب في أخبار من ذهب» لابن العماد أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد عكري الحنبلي، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان.

٢٠٥ ـ «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة» لهبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، دار طيبة، الرياض، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان.

٢٠٦ ـ «شرح السنة» للحسن بن علي بن خلف البربهاري أبو محمد، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني.

٢٠٧ ـ «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٣٩١هـ.

٢٠٨ ـ «شرح ألفية السيوطي» في الحديث لمحمد بن علي بن آدم بن موسى الأيتوبي الولوي، مكتبة ابن تيمية القاهرة، مكتبة العلم، بجدة.

٢٠٩ ـ «شرح صحيح مسلم» لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي.

٢١٠ ـ «شرح علل الترمذي» للإمام زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن أحمد بن رجب الحنبلي (٧٩٥)، تحقيق: همام عبد الرحيم سعيد، مكتبة المنار الأردن، الزرقاء، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٢١١ ـ «شعار أصحاب الحديث» لمحمد بن محمد بن أحمد بن إسحاق الحاكم أبو أحمد، دار الخلفاء، الكويت، تحقيق: صبحي السامرائي.

٢١٢ ـ «شفاء العليل» لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي، دار الفكر، بيروت.

٢١٣ ـ «صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان» المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م، تحقيق: شعيب الأرنؤوط.

٢١٤ ـ «صحيح ابن خزيمة» المؤلف: محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي.

٢١٥ ـ «صحيح البخاري» طبعة دار السلام، الرياض.

٢١٦ ـ «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» لمقبل بن هادي الوادعي، مكتبة دار القدس بصنعاء، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٢١٧ ـ «صريح السنة» لمحمد بن جرير الطبري أبو جعفر، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، تحقيق: بدر يوسف المعتوق.

٢١٨ ـ «الصفات» لعلي بن عمر الدارقطني، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ، تحقيق: عبد الله الغنيمان.

٢١٩ ـ «صفة الصفوة» لابن الجوزي، تحقيق: محمود فاخوري، د. محمد رواس قلعهجي، دار المعرفة، بيروت.

٢٢٠ ـ «صفة المنافق» لجعفر بن محمد بن الحسن الفريابي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، تحقيق: بدر البدر.

٢٢١ ـ «الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة» لأبي العباس أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد الله التركي وكامل محمد الخراط.

٢٢٢ ـ «صيد الخاطر» لابن الجوزي، مكتبة ابن تيمية.

٢٢٣ ـ «الطبقات الكبرى» لأحمد بن سعد بن منيع الهاشمي المعروف بابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٢٢٤ ـ «طريق الهجرتين» لابن قيم الجوزية، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام.
٢٢٥ ـ «العبادة واجتهاد السلف فيها» صلاح الدين علي عبد الموجود، دار ابن رجب.
٢٢٦ ـ «العجاب في بيان الأسباب» لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس.
٢٢٧ ـ «عِدَة الصابرين» لابن قيم الجوزية، تحقيق: زكريا علي يوسف، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٢٨ ـ «العرش وما روي فيه» المؤلف: محمد بن عثمان ابن أبي شيبة العبسي أبو جعفر، الناشر: مكتبة المعلا، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، تحقيق: محمد بن حمد الحمود.
٢٢٩ ـ «العظمة» لعبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني أبو محمد، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري.
٢٣٠ ـ «العفو» لصلاح الدين علي عبد الموجود.
٢٣١ ـ «العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية» رواية محمد الصالح رمضان، المؤلف: عبد الحميد بن باديس، دار الفتح، الشارقة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، تحقيق: محمد الصالح رمضان.
٢٣٢ ـ «عقيدة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة لمحمد بن عبد الوهاب، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٧هـ.
٢٣٣ ـ «عون المعبود شرح سنن أبي داود» للعلامة أبي الطيب شمس الحق العظيم آبادي، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، ١٣٨٨هـ.
٢٣٤ ـ «العقيدة» رواية أبي بكر الخلال المؤلف: أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني أبو عبد الله، دار قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، تحقيق: عبد العزيز عز الدين السيروان.
٢٣٥ ـ «العقيدة السفارينية» (الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية) المؤلف: محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني، الناشر: مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، تحقيق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود.

٢٣٦ ـ «العلو للعلي الغفار» لمحمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، تحقيق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود.
٢٣٧ ـ «العين والأثر في عقائد أهل الأثر» لعبد الباقي بن عبد الباقي بن عبد القادر بن عبد الباقي بن إبراهيم، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، تحقيق: عصام رواس قلعجي.
٢٣٨ ـ «الغنية في أصول الدين» لعبد الرحمن بن محمد، مؤسسة الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر.
٢٣٩ ـ «غوث المكدود بتخريج منتقى ابن الجارود» لأبي إسحاق الحويني، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٢٤٠ ـ «فتح الباري شرح صحيح البخاري» المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩.
٢٤١ ـ «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن آل الشيخ، مؤسسة قرطبة.
٢٤٢ ـ «الفتن» لنعيم بن حماد المروزي، مكتبة التوحيد، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، تحقيق: سمير أمين الزهيري.
٢٤٣ ـ «الفرائض وشرح آيات الوصية» لعبد الرحمن بن عبد الله السهيلي أبو القاسم، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، تحقيق: د. محمد إبراهيم البنا.
٢٤٤ ـ «الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية» لعبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي أبو منصور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م.
٢٤٥ ـ «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لعلي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد، مكتبة الخانجي، القاهرة.
٢٤٦ ـ «فضائل القرآن» لأحمد بن شعيب النسائي، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م، تحقيق: د. فاروق حمادة.
٢٤٧ ـ «فقه التوحيد» لصالح الفوزان، يوزع مجانًا.
٢٤٨ ـ «الفهرست» لابن النديم، تعليق إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٢٤٩ ـ «فهم القرآن ومعانيه» للحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي أبو عبد الله، دار الكندي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ، تحقيق: حسين القوتلي.

٢٥٠ ـ «الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية.
٢٥١ ـ «القاموس المحيط» و«القابوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط» للعلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
٢٥٢ ـ «كتاب القدر» المؤلف: جعفر بن محمد بن الحسين بن المستفاض الفريابي، الناشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، تحقيق: عبد الله بن حمد المنصور.
٢٥٣ ـ «القدر وما ورد في ذلك من الآثار» لعبد الله بن وهب بن مسلم القرشي، دار ابن رجب، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، تحقيق: أبو عبيدة العلاء بن محمد بن عبد الغني.
٢٥٤ ـ «قصيدة عبد الله بن سليمان الأشعث» المؤلف: عبد الله بن سليمان الأشعث أبو بكر، الناشر: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، تحقيق: محمود محمد الحداد.
٢٥٥ ـ «القواعد والإشارات في أصول القراءات» لأحمد بن عمر بن محمد بن أبي الرضا الحموي أبو العباس، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، تحقيق: د. عبد الكريم محمد الحسن بكار.
٢٥٦ ـ «قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر» المؤلف: محمد صديق حسن خان القنوجي، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، تحقيق: د. عاصم بن عبد الله القريوتي.
٢٥٧ ـ «قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن» لمرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي، دار القرآن الكريم، الكويت، ١٤٠٠هـ، تحقيق: سامي عطا حسن.
٢٥٨ ـ «الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة» للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الدّمشقي، ومعه حاشيته، لبرهان الدين أبي الوفاء إبراهيم بن محمد سبط ابن العجمي الحلبي، قدم لها وعلق عليه محمد عوامة، وخرّج نصوصها أحمد محمد نمر الخطيب، شركة دار القبلة، مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
٢٥٩ ـ «كتاب الكنى» للدولابي دائرة المعارف، حيدر آباد، الهند.
٢٦٠ ـ «كرامات أولياء الله ﷻ» المؤلف: هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي، الناشر: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، تحقيق: د. أحمد سعد الحمان.

٢٦١ ـ «كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة، دار الفكر، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.
٢٦٢ ـ «اللباب في تهذيب الأنساب» لعز الدين ابن الأثير الجزري، دار صادر، بيروت، ١٤٠٠هـ.
٢٦٣ ـ «لباب النقول في أسباب النزول» لعبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل، دار إحياء العلوم، بيروت.
٢٦٤ ـ «لسان العرب» للإمام العلامة ابن منظور جمال الدِّين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي ثمّ المصري، مع تعليق مكتب، تحقيق: التراث، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.
٢٦٥ ـ «لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد» المؤلف: أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، الناشر: الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر.
٢٦٦ ـ «لسان الميزان» للحافظ ابن حجر دار الفكر.
٢٦٧ ـ «ما روي الحوض والكوثر» لبقي بن مخلد القرطبي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، تحقيق: عبد القادر محمد عطا صوفي.
٢٦٨ ـ «المجرَوحين من المحدثين والضعفاء» للإمام أبو حاتم محمد بن حبان البستي، تحقيق: محمود إبراهيم زاهد، توزيع دار الباز، مكة المكرمة.
٢٦٩ ـ «مجموع الفتاوى» لابن تيمية، مؤسسة قرطبة.
٢٧٠ ـ «المحكم في نقط المصاحف» لعثمان بن سعيد الداني أبو عمرو، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ، تحقيق: د. عزة حسن.
٢٧١ ـ «المحلّى» لأبي محمد علي بن محمد ابن حزم الظاهري (ت٤٥٦)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار التراث، القاهرة.
٢٧٢ ـ «مختصر الأحكام» (مستخرج الطوسي على جامع الأحكام)، المؤلف: أبي علي الحسن بن علي بن نصر الطوسي، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، تحقيق: أنيس بن أحمد بن طاهر الأندونوسي.
٢٧٣ ـ «مختصر استدراك الحافظ الذهبي على مستدرك أبي عبد الله الحاكم» للعلامة سراج الدين عمر بن علي بن أحمد المعروف بابن الملقن، تحقيق: عبد الله بن حمد اللحيدان، دار العاصمة، الرياض.

٢٧٤ ـ «مختصر المستدرك للحاكم» لعمر بن علي ابن الملقن، تحقيق: عبد الله اللحيدان وسعد الحميد، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٢٧٥ ـ «مختصر سنن أبي داود» للإمام عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله أبو محمد المنذري، مع شرح «معالم السنن» للخطابي، و «تهذيب السنن» لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
٢٧٦ ـ «مدارج السالكين» لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٧٧ ـ «المدهش» لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٧٨ ـ «المستدرك على الصّحيحين» لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، بذيله «التلخيص» للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الدّمشقي، بتحقيقي يسر الله إتمامه، مخطوط.
٢٧٩ ـ «المسند» للإمام أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشّيباني، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ.
٢٨٠ ـ «المسند» للإمام أحمد بن علي بن المثنى التميمي أبي يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار الثقافة العربية، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
٢٨١ ـ «مسند ابن الجعد» المؤلف: علي بن الجعد بن عبيد أبو الحسن الجوهري البغدادي، الناشر: مؤسسة نادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، تحقيق: عامر أحمد حيدر عدد.
٢٨٢ ـ «مسند أبي داود الطيالسي» المؤلف: سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري الطيالسي، الناشر: دار المعرفة، بيروت.
٢٨٣ ـ «مسند الشهاب» المؤلف: محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.
٢٨٤ ـ «المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم» المؤلف: أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي.

٢٨٥ ـ «مسند الشافعي» المؤلف: محمد بن إدريس أبو عبد الله الشافعي، الناشر: دار الكتب العلمية.
٢٨٦ ـ «المشتبه» للحافظ الذهبي، الدار العلمية، الهند.
٢٨٧ ـ «مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب القيسي أبو محمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن.
٢٨٨ ـ «مصرع التصوف» لبرهان الدين البقاعي، تحقيق: عبد الرحمٰن الوكيل، الناشر: عباس أحمد الباز، مكة المكرمة.
٢٨٩ ـ «المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ» لعبد الرحمن ابن الجوزي أبو الفرج، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، تحقيق: د. صالح الضامن.
٢٩٠ ـ «المصنف في الأحاديث والآثار» للحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي، تحقيق: جماعة من الأساتذة، الدار السلفية، بومباي، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.
٢٩١ ـ «مصنف عبد الرزاق» المؤلف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.
٢٩٢ ـ «معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول» المؤلف: حافظ بن أحمد حكمي، الناشر: دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر.
٢٩٣ ـ «معاني القرآن الكريم» لابن النحاس، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، تحقيق: محمد علي الصابوني.
٢٩٤ ـ «المعجم الأوسط» للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، قسم التحقيق: بدار الحرمين أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد وأبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، من منشورات، دار الحرمين، بالقاهرة.
٢٩٥ ـ «معجم البلدان» لياقوت الحموي، دار الفكر.
٢٩٦ ـ «المعجم الصغير» المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، الناشر: المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير.

٢٩٧ ـ «المعجم الكبير» المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.

٢٩٨ ـ «معرفة علوم الحديث» لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، بتحقيقي، مخطوط.

٢٩٩ ـ «المعين في طبقات المحدّثين» للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الدّمشقي، تحقيق: همام عبد الرّحيم سعيد، دار الفرقان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٣٠٠ ـ «المغني في الضعفاء» للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الدّمشقي، كتبه نور الدين عتر، إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر.

٣٠١ ـ «مفتاح دار السعادة» لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٠٢ ـ «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» المؤلف: علي بن إسماعيل الأشعري أبو الحسن، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، تحقيق: هلموت ريتر.

٣٠٣ ـ «المقتنى في سرد الكنى» للحافظ الذهبي، دار الكتب العلمية، بعناية أيمن شعبان.

٣٠٤ ـ «مكدرات القلوب» لصلاح الدين علي عبد الموجود، دار ابن رجب.

٣٠٥ ـ «من فضائل سورة الإخلاص وما لقارئها» للحسن بن أبي طالب محمد بن الحسنِ بْنِ علي البغادي الخلال، مكتبة لينة، دمنهور، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، تحقيق: الحافظ محمد بن رزق بن طرهوني.

٣٠٦ ـ «مكارم الأخلاق» المؤلف: عبد الله بن محمد أبو بكر القرشي، الناشر: مكتبة القرآن، القاهرة، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم.

٣٠٧ ـ «مناصحة الإمام وهب بن منبه لرجل تأثر بمذهب الخوارج» المؤلف: أبو عبد الله وهب بن منبه بن كامل بن سيج بن ذي كبار اليماني الصنعاني، الناشر: مكتبة ابن قتيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، تحقيق: عبد السلام بن برجس آل عبد الكريم.

٣٠٨ ـ «الملل والنحل» لمحمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ، تحقيق: محمد سيد كيلاني.

٣٠٩ ـ «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: مؤسسة قرطبة.

٣١٠ ـ «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» المؤلف: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣١١ ـ «منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات» لمحمد الأمين الشنقيطي، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٤هـ، تحقيق: عطية محمد سالم.

٣١٢ ـ «المؤتلف والمختلف» للدارقطني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٣١٣ ـ «موطأ الإمام مالك» المؤلف: مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، مصر، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٣١٤ ـ «موطأ الإمام مالك المؤلف: مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة: الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩١م، تحقيق: د. تقي الدين الندوي.

٣١٥ ـ «مؤلفات الشيخ الإمام» محمد بن عبد الوهاب المؤلف: محمد بن عبد الوهاب، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، تحقيق: عبد العزيز زيد الرومي، د. محمد بلتاجي، د. سيد حجاب.

٣١٦ ـ «موضح أوهام الجمع والتفريق» للخطيب البغدادي، تحقيق: الدكتور قلعجي، دار المعرفة.

٣١٧ ـ «الموضوعات» لابن الجوزي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، الناشر: محمد عبد المحسن صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

٣١٨ ـ «ميزان الاعتدال في نقد الرجال» للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الدّمشقي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٨٢.

٣١٩ ـ «مناهل العرفان في علوم القرآن» لمحمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات.

٣٢٠ ـ «ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه» لهبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن.

٣٢١ ـ «الناسخ والمنسوخ» لأحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي النحاس، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، تحقيق: د. محمد عبد السلام محمد.

٣٢٢ ـ «الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم» لعلي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري.
٣٢٣ ـ «الناسخ والمنسوخ» لقتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن.
٣٢٤ ـ «الناسخ والمنسوخ» لهبة الله بن سلامة بن نصر المقري، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، تحقيق: زهير الشاويش، محمد كنعان.
٣٢٥ ـ «نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف» لمحمد بن عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن عبد الله، دار المنهاج، جدة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
٣٢٦ ـ «نصب الراية لأحاديث الهداية» للزيلعي دار الحديث، القاهرة.
٣٢٧ ـ «نعمة الذريعة في نصرة الشريعة» المؤلف: إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحلبي ثم القسطنطيني، الناشر: دار المسير، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، تحقيق: علي رضا بن عبد الله علي رضا.
٣٢٨ ـ «نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله ﷿ من التوحيد» المؤلف: أبي سعيد عثمان بن سعيد، الناشر: مكتبة الرشيد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، تحقيق: د.رشيد بن حسن الألمعي.
٣٢٩ ـ «النكت على ابن الصلاح» للحافظ ابن حجر، تحقيق: الشيخ ربيع المدخلي، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤٠٤هـ.
٣٣٠ ـ «النهاية في غريب الأثر» لابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت.
٣٣١ ـ «نواسخ القرآن» لعبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي أبو الفرج، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٣٣٢ ـ «نونية القحطاني» المؤلف: أبي محمد عبد الله بن محمد الأندلسي، الناشر: مكتبة السوادي للتوزيع، جدة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٥م، تحقيق: محمد بن أحمد سيد أحمد.
٣٣٣ ـ «نهاية الاغتباط بمن رمي من الرواة بالاختلاط» تحقيق: ودراسة علاء رضا، طبعة دار المعرفة.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة المؤلف	٥
* مُقَدِّمَةٌ	٩
الحَدِيثُ عَنْ الْقَلْبِ	١٣
تَعْرِيفُ الْقَلْبِ	١٨
عِلَاقَةُ الْقَلْبِ بِغَيْرِهِ	٢٠
الْعِلَاقَةُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ	٢١
عِلَاقَةُ الْقَلْبِ مَعَ بَاقِي الْجَوارِح	٢٣
أَوْصَافُ الْقَلْبِ	٢٧
وَمِنْ هَذِهِ اَلْأَوْصَافِ الطَّيبَةِ اَلَّتي يَتَّصِفُ بِهَا الْقَلْبُ	٢٨
وَمِنْ اَلْأَوْصَافِ الرَّدِيئَةِ	٢٨
اصْطِحَابُ الْقَلْبِ جُمْلَةً مِنْ الأَوْصَاف	٢٩
قَهْرُ الْقَلْبِ للصِّفَاتِ السَّيئَةِ	٣١
مَكَانَةُ الْقَلْبِ	٣٤
اِرْتِبَاطُ عَمِلِ اَلْقَلْبِ بِعَمَلِ اَلْجَوَارِحِ	٣٥
القَلْبُ وَالعَمَلُ	٣٩
تَعْرِيفُ اَلْإِيمَانِ عِنْدَ أَهْلِ الْسُّنَّةِ	٣٩
قوْلُ الْقَلْبِ	٤٤
قوْلُ اللسَانِ	٤٥
عَملُ الْقَلْبِ	٤٥

الموضوع	الصفحة
عَمَلُ الْجَوَارِح	٤٦
وَقَفَاتُ الْقَلْبِ مَعَ العَمَلِ	٤٩
أَحْوَالُ الْقُلُوْبِ	٥٤
صَلاحُ القَلْبِ وَحَيَاتُهُ	٥٨
الْاسْتِعَانَةُ بِاللهِ عَلَى صَلَاحِ الْقَلْبِ	٦٢
الْاِسْتِعَانَةُ بِهَدْيِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْصَّالِحِينَ	٦٣
كُلَّمَا عَظُمَتْ الاستعانة قَرُبَ السَّدَاد	٦٥
عَلَامَةُ صِحَّةِ الْقَلْبِ	٦٦
عَلَامَةُ مَرَضِ الْقَلْبِ	٦٧
مَنَافِذُ الإِصَابَةِ بِأَمْرَاضِ الْقُلُوبِ	٦٧
أَمْرَاضُ الْقُلُوب	٦٨
مُرَاعَاةُ الْقلبِ حَالَ مَرَضِهِ	٦٩
تَتَبعُ الْحَالَاتِ الَّتِي يَنْشَطُ بِهَا الْقَلْبُ	٧١
جُنُودُ الْقَلْبِ	٧٤
اَلْقَلْبُ وَاَلْمَعْرَكَةُ	٧٧
اِلْتِقَاءُ اَلْجَيْشَينِ	٨٠
اَلْمَعْرَكَةُ عِنْدَ ثَغْرِ اَلْعَينِ	٨١
اَلْمَعْرَكَةُ عِنْدَ ثَغْرِ اَلأُذُنِ	٨٢
اَلْمَعْرَكَةُ عِنْدَ ثَغْرِ اللِّسَانِ	٨٣
أَكْبَرُ الْأَعْوَانِ فِي الْمَعْرَكَةِ	٨٥
الْهَوَى وَالمعْرَكَة	٨٩
أَثَرُ الْهَوَى عَلَى القلبِ	٩٢
الِاتِّبَاعُ الْأَعْمَى وَالتَّقْلِيدُ الْجَاهِلُ	٩٤
انْتَبِه.. لحوم هَؤلاءِ مسمومةٌ!!	٩٦
الطَّعْنُ فِي الأَفَاضِلِ قَدِيم	٩٨
كلامٌ نفيس!!	١٠٦

الموضوع	الصفحة

آثارها ١١٠
اَلْهَوَى يُعْمِي وَيُصِمُّ ١١٨
الدُّنْيَا مَطِيةُ الهَوَى ١٢٧
الشَّيْطَانُ والْمَعْرَكَةِ ١٣٢
حيل الشيطان للوصول إلى العبد ١٣٣
مَصَائِدُ الْفُضَلَاء ١٤١
شُرُورُ الشَّيْطَانِ ١٤٧
طرقُ الشَّيطانِ للإيقاعِ في الشَّر ١٥٠
مَرَاتِبُ شُرُورِ الشَّيْطَانِ ١٥١
تَمَكُّنُ الشَّيْطَانِ مِنَ الْقَلْبِ ١٥٥
أَبْوَابُ الشَّيْطَانِ إِلَى الْقَلْبِ ١٥٧
الْغَفْلَةُ عَنْ أَبْوَابِ الشَّيْطَانِ ١٦٤
اِعْتِصَامُ الْعَبْدِ مِنَ الشَّيْطَانِ ١٧٠
آفَاتُ الْقُلُوبِ ١٨٥
آفَاتُ الْقُلُوبِ الرَّئِيسة ١٨٦
مَرَضُ الشُّبُهَاتِ ١٨٩
الْبِدْعَةُ ١٨٩
تَقْسِيمُ الْبِدْعَةِ ١٩٠
مَرَضُ الشَّهَوَاتِ ٢٠٠
اَلْمَعْصِيَةُ ٢٠٠
الذُّنُوبُ تَنْقَسِمُ إِلَى كَبَائِر وَصَغَائِر ٢٠٣
التِحَاقُ الكَبِيرةِ بالصَّغِيرةِ والعَكْس ٢٠٤
نُورُ التَّوحيدِ وظُلْمَةُ المعصِيةِ ٢٠٦
قصة ٢٠٩
أُصُولُ اَلْمَعَاصِي ٢١١
مَشَاهِدُ اَلْخَلقِ فِي المعْصِيَةِ ٢١٩

الموضوع	الصفحة

أَعْظَمُ آفاتِ اَلْقُلُوبِ ٢٢٤
الشِّرك ٢٢٤
أَنْوَاعُ اَلْشِّرْكِ ٢٢٧
اَلْكُفْرُ ٢٤١
أَنْواعُ الْكُفْر ٢٤١
النِّفَاقُ ٢٤٦
أَنْوَاعُ النِّفَاقِ ٢٤٦
أَثَرُ الْهُدَى عَلَى قُلُوبِهِمْ ٢٥٤
عَلامَاتُهُمْ وَدَلَائِلُ مَعْرِفَتِهِمْ ٢٥٤
وَصْفُ الْمُنَافِقِين ٢٥٧
بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْسُّنَّةِ وَالإِيمَانِ ٢٥٨
عَاقِبَةُ النِّفَاقِ وَالْمُنَافِقِينَ ٢٦٠
خَوْفُ الْسَّلَفِ مِنَ النِّفَاقِ ٢٦١
الْكِبْرُ ٢٦٤
الخَوْفُ مِنْ الْكِبْرِ ٢٧٦
اَلْحِقْدُ ٢٨٠
اَلْحَسَدُ ٢٨٩
تَعْرِيفُ الْحَسَدِ ٢٨٩
حَقِيقَةُ الْحَسَدِ ٢٨٩
مَرَاتِبُ الْحَسَدِ ٢٩٣
اَلْعِشْقُ ٣٠٤
الْعِشْقُ يَأْتِي بِلَا شُرُوطٍ أَوْ مَوَانِعَ ٣١٠
اَلْآفَاتُ التي تَجْرِي عَلَى الْعَاشِقِ ٣١٣
بَعْضُ صوَرِ الْعُشَّاقِ ٣١٩
ما يقع من ظُلْم بين العاشقِ والمعشوق ٣٢٥
اَلْوِقَايَةُ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ ٣٢٩

الموضوع	الصفحة

اَلْبَصَرُ فِي الْعَوَاقِبِ ٣٣١
الْإِحْسَاسُ بِالذَّنْبِ ٣٣١
أسباب الوقاية من الآفات ٣٣٣
أَخْذُ الأَسْبَابِ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ ٣٥١
انْقِيادُ الْقَلْبِ لِأَمْرِ اللهِ ٣٥٤
الْأَسْبَابُ الَّتِي تُؤَدِّي لِانْقِيَادِ الْقَلْبِ ٣٥٧
أولًا: تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ ٣٥٨
ثانيًا: تَزْكِيَةُ الْقَلْبِ ٣٦١
ثالثًا: مُلَازَمَةُ التَّوْبَةِ ٣٨٠
رابعًا: اَلْيَقَظَةُ وَالْاِنْتِبَاهُ الدَّائِمُ ٣٨٢
مُخَاطَبَةُ الْقُلُوبِ ٣٨٧
مَشَاهِدُ يَجِبُ اسْتِحْضَارُهَا ٣٩٢
هَدْيُ السَّلَفِ مَعَ الْقَلْبِ ٣٩٦
اِجْتِهَادُ السَّلَفِ فِي إِصْلَاحِ الْقُلُوبِ ٤١٤
نُبَذٌ مِنْ أَحْوَالِ الْمُجْتَهِدِين ٤١٨
نُبَذٌ مِنْ أَحْوَالِ الْمُجْتَهِدَات ٤٤٥
وصولُ القلبِ إِلَى الولايةِ ٤٥٤
كَرَامَاتُ الأَوْلِيَاءِ ٤٥٩
صُوَرٌ مِنْ كَرَاماتِ الأَوْلِياءِ ٤٦٠
الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ ٤٦٣
كرامات الصحابة والتابعين ٤٦٤
حوارٌ مع النَّفسِ ٤٨١
- **خَاتِمَةٌ** ٤٩٢
* **أَشْهَرُ المرَاجع** ٤٩٥
* **فهرس الموضوعات** ٥٢٣

دار ابن الجوزي 8428146
182725